عبد الإله بن عرفة

مكتبة الرمحي أحمد ٧١
https://t.me/ktabpdf

# الجُنَيْد

## أَلَم المَعْرِفَة

رواية

دار الآداب

عبد الإله بن عرفة

# الـجُـنَـيْـــد

## ألــم المَعْرِفَة

رواية

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك
مكتبة الرمحي أحمد
https://t.me/ktabpdf

الكتاب ٧١
دار الآداب ـ بيروت

215524

# إهداء

إلى «سيِّد الطائفة»، «وطاووس العلماء»، «وتاج العارفين»،
إلى أبي القاسم الجنيد،
إلى كلِّ رجال سلاسل النور عبر الأزمان،
إلى كلّ ورثة الاستبصار من بني الإنسان،
إلى أمِّي، إلى أبي،
إلى مَنْ علَّمَاني، بكلِّ محبَّةٍ وعِرْفَان، سلوكَ طريقِ الإحسان.

* * *

## ﴿أَلم ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

* * *

ألـف لا مـيـم وذلـك مـا أردنـا  من **إنزال الكتاب** على وجودِ[1]

ألـف لا مـيـم **بـحـيٍّ** لـيـس يَـفـنـى  لـمـا يُـعـطـي الـفَـنَـاءُ مـن الـجـحـودِ

**ابن العربي الحاتمي**

* * *

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرّ  وَإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ

وَقَـدِّمْ إِمَـامًـا كُـنْـتَ أَنْـتَ أَمَـامَـهُ  وَصَلِّ صَلاَةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ

فَـهَـذِي صَـلاَةُ الـعَـارِفِـيـنَ بِـرَبِّـهِـمْ  فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ، فَانْضَحِ البَرَّ بِالبَحْرِ

**الجنيد**

---

(١) البيت الأوَّل يُشير إلى بداية سورة البقرة، والبيت الثاني يُشير إلى بداية سورة آل عمران. وكلتا السورتين تُفتتحان بالفاتحة النوارنيّة ﴿ألم﴾.

# فاتحة المعرفة[1]

وبـي شَـوْقٌ إلـى طَـرَبٍ قَـدِيـمٍ يَهِيجُ مَتَى تَهِيمُ بِنَا القَوَافِي
فَـإِنْ شَـادٍ شَـدَا سَـحَـرًا بِـوَادٍ تَـرَى قَـوْمًـا تَـهُـبُّ إِلَـى الـطَّـوَافِ
يَـقُـودُهُـمُـو إِلَـى حَـضَـرَاتِ قُـدْسٍ دَلِـيـلٌ قَـدْ سَـرَى مِـنْ أَرْضِ قَـافِ
يَـجُـولُ بِـهِـمْ وُقُـوفًـا فِـي طِـبـاقٍ بِـأَرْوَاحٍ لَـهَـا نَـفْـرُ الـخِـفَـافِ[2]
فَـيَـحْـسَـبُـهـمْ فَـرِيـقٌ مِـنْ بَـعِـيـدٍ كَـنَـائِـلَـةٍ تُـشِـيـرُ إِلَـى إِسَـافِ[3]

---

(١) عدد أبيات هذه القصيدة ١٢ بيتًا على عدد شهود الشهادة بالاستفاضة، فكلّ بيت شاهد على حصول المعرفة التي قال عنها الجنيد «لون الماء لون إنائه». وفي الأبيات الثلاثة الأخيرة، إشارة لأبيات الجنيد الشهيرة، وحوارٌ معها وقد أُنشدت هذه القصيدة أوّل مرّة في مشهد مولاي إدريس العامر في مدينة فاس، وحصلت لنا عند إنشادها مَواجيد وأحوال سَنِيَّة.

(٢) الطِّبَاق: حِلَقِ الذِّكْر في العِمَارة أو الحَضْرة، وهي هنا تشير إلى دوائر العُرُوج.
الخِفاف: إشارة إلى قوله تعالى ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾.

(٣) إسَاف ونائلة، صَنَمان كانت تُذْبَحُ عندهما الذبائح تجاه الكعبة عند الصفا والمروة

مكتبة الرمحي أحمد ٧١

وَيَـحْـسـبُـهُـمْ فَـرِيـقٌ مِـنْ قَـرِيـبٍ    كَـنَـادِرَةٍ بِـجِـيـدِ دُمًـى ظِـرافِ
تَـنَـزَّهَ وَجْـدُهُـمْ عَـنْ جَـحْـدِ قَـوْمٍ    فَـحُـبُّـهُـمُ لِـخِـلٍّ لَـيْـس خَـافِـي
وَفـاتـحـةٌ لـهـا **أَلِـفٌ** ولامٌ    كـذا **مـيـمٌ**، بـهـا رُوحٌ يُـوَافِـي
أَخَـا عِـلْـمٍ، **جُـنَـيْـدٌ** نِـلْـتَ قُـرْبًـا    مَـعَ الأَبْـرَارِ فِـي رَوْضٍ قِـطَـافِ
تَـوَضَّـأْنَـا بِـمَـاءِ الـغَـيْـبِ عَـنْـكُـمْ    فَـصِـرْنَـا مِـنْ صَـفَـاءٍ لَا نُـجَـافِـي
وَقَـدَّمْـنَـا إِمَـامًـا فِـي طَـرِيـقٍ    وَصَـلَّـيْـنَـا بِـعَـصْـرٍ مِـنْ سُـلَافِ
فَـتِـلْـكَ صَـلَاةُ نَـافِـلَـةٍ بِـفَـرْضٍ    لِـمَـنْ طَـلَـبَ الـعُـلَا فَـوْقَ **الأَعْـرَافِ**

**عبد الإله بن عرفة**

= في الجاهليّة. وفي البيت إشارة إلى أنَّ أهل الحجاب لا اطّلاعَ لهم على مقامات أهل المعرفة.

# كتاب الألف

حدَّثنا **الجنيد** بن محمّد،

عن الحسن بن عرفة، (.   .)

قال    قال رسول الله ﷺ:

«اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ».

ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾

«**تاريخ بغداد**» للخطيب البغدادي ٧/ ١٦٩.

**ألم** تسمع عن سرٍّ بغدانَ أيُّها الصاحب بالأسرار والأنوار؟ فتعالَ معي أحكي لك حكاية أبي القاسم الجنيد وطائفة أهل الاستبصار في مدينة السلام.

* * *

**ألم** تسمَعْ عن الحياة القائمة في مدينة السلام أيُّها **المتّقي**؟

فاسمع إذن كلامًا **لا رَيْبَ فيه** يهدي إلى طريق **اليقين والفلاح** عن

طائفة من الصالحين في سُرَّةِ الدُّنيا، في بغداد، طَوَالَ القرن الثالث الهجري. هل تدرك أنَّك في قلبِ العالم وعاصمة الكون؟ إنَّك في مدينة السلام، مدينةٍ حافِلة بكلِّ شيء، مدينةٍ فيها العالي والداني، وما فوقهما من درجات، أو ما دونهما من دَرَكات.

مدينةُ بغدانَ مدوّرة كما أرادها الخليفة المنصور العبَّاسي حين اختطّها على الضفَّة اليمنى لنهر دجلة في عام ١٤٥ بعد الهجرة، وسمّاها مدينة السلام تيمُّنًا بجنَّة السلام، مراعيًا معنى اسمها القديم «بغداد»، المكوَّنة من «بَغْ»، بمعنى بستان، و«دَادْ» بمعنى الحبيب. فهي بستان الحبيب. فهل بغداد حقًّا «بستان الحبيب»؟

لا تسأل عن الطوائف والأعراق التي تسكن في هذه المدينة، ففيها المسلم والنصرانيّ واليهوديّ والصابئي والمجوسيّ. بل فيها من كلِّ طائفة عشرات الفِرَق وعشرات النِّحَل. فكيف تدخل إلى مثل هذه المدينة دون مرشد؟ لا شكّ أنَّك ستضيع. ويكفي أن أُخبرك أنَّ لكلِّ طائفة من هؤلاء شعراء يَذُودُونَ عنهم ويَنصرونهم. فها هنا شعراء يتغنَّون بالدولة العبّاسيَّة، وأولئك يمدحون الشيعة، وغيرهم ينتصر للمعتزلة، وفئة أخرى التفَّتْ حول البرامكة تُعَدِّدُ محاسِنَهم، وفئة اختارت أن تمشي في حاشية الوزراء والوُلاة والقُوّاد. ومنهم من اختصَّ في الهجاء، وأغلبهم اختصُّوا في المديح لأنَّه يَجْلُبُ الحُظوةَ والمال. وآخرون اختصُّوا بالغَزَل وعُرِفوا به وآثروه دون غيره من الأغراض، إمّا لصفاء قلوبهم للحُبِّ، أو لأنَّ شرائحَ عريضة من الناس تحبُّ هذا اللون من الشعر، سيّما النساء، أو لأنَّ الحياة في مدينة بغدانَ تحتاج إلى كثير من الحُبّ حتى يقوى المرء على العيش فيها وفئة أخرى استولى عليها نَعيمُ الدنيا فاستهلَكَها في الملذَّات، فتغنَّتْ

بالمجون والخلاعة والتَّهتُّك. وفئة أخرى من الشعراء خالَفَت العُرفَ العَامّ والذَّوقَ السائد، فأعلَنَتْ **زَنْدَقَتَهَا** أو أَخْفَتْها، **فَزِنْ دِقَّةَ** عبارَتِها لِتَقِفَ على عَقْدِ إِضْمَارِها ومن هؤلاء من كان عُنْصريًّا يصرِّح بشُعوبيّته في مدينة هي أبعد من أن تكونَ حَكْرًا على طائفة بمفردها، ومنهم من كان قريبًا من عامّة الناس يتغنّى بهمومِهم وأفراحهم. وفئة رأَتْ أنّ اعتزالَ النَّاسِ والزُّهدَ في الدنيا من أحسن المَبرّات.

هذه فقط صورةٌ عن الشِّعر والشُّعَراء في بغداد، فما بالُك بمن دونَهُم من أصحابِ المذاهِب الفقهيَّة والكلاميَّة والفَلْسَفيَّة والهَرْطَقَاتِ المختلِفة؟ فكيف تريدُ أن تَدْخُلَ إلى هذه المدينة أيُّها المستَبْصِر وَحَالُ شُعرائِها كما تَرى؟ وهُمْ لِسَانُها وصُنّاعُ أخبارِها الجَارية، وإشاعاتِها البَادِية، ودونَكَ أهوالٌ من العقائد لو وَقَفْتَ على بعضها لهالَكَ الأمر، ولَعَزَفْتَ عن الدخول وأَرْجَأْتَهُ لِحِينِ أَنْ تَكْتسِبَ العُدّةَ الكافية حتى تُقبِلَ على مدينةٍ تُلاقيكَ بما يَصْدِمُ كُلَّ مُعتاد. لا بدَّ لك إذن من مُرْشِدٍ ناصِح يأخذُ بيدِكَ ويُعَرّفُكَ مَقاماتِ النَّاس وطبَقاتِهم حتى لا يَصرِفَكَ فَصِيلٌ عن فَصيل، فتنفَصِلَ عنها وقد هَلَكْت.

سَنَجُولُ في هذه المدينة حتى نَتَعرّفَ عليها وعلى أهلها، وَلْنَبْدَأْ من البداية، من مركزِ البداية وعينِ النهاية. سنبدأُ من قلبِ بغدادَ. فمتى ما بدأنا هكذا، سَهُلَ عليكَ أن تُدركَ كلَّ شُعاع ممتَدٍّ من مركز المدينة عبر أقطارها إلى مُحيطها؛ ولو عَكَسْتَ لَتُهْتَ وَلَضِعْتَ وَضَيَّعْت.

بغدادُ مدينةٌ مدوّرةٌ لها أربعةُ أبواب: باب خراسان في الشمال الشرقيّ، يقابله باب الكوفة في جهة الجنوب الغربيّ؛ وإلى الشمال الغربيّ باب الشام، ويقابله في الجنوب الشرقيّ باب البصرة على الصَّراة التي تأخذ من الفُرات، وتمضي حتى تتَّصل بدجلة. فمن أيّ

بابٍ نَدخُل؟ سأتركُكَ تقرِّر مع نفسِك أوَّلاً قبل أن أقترحَ عليك مدخلاً مُبَاحًا أو مُتَاحًا. فهل تريد أن ندخلَ من باب خراسان؟ لعلَّ كثيرًا من الفِتَن تأتي من هناك. ولعلَّك تخشى الفِتَنَ أيُّها المسترشِد، فَلْنَعْدِلْ عنه، ولْنَخْتَرْ أن نَدْخُلَ من باب الكوفة.

لكنِّي يا صديقي مشمَئِزٌّ من الدخول من باب الكوفة، وأهلُها كما تعلم قد خَذلوا الإمام عليّ وولَدَهُ الحسين عليهما السلام.

فَلْنَخْتَرْ إذن باب **البصرة**، فأهلُها خالفوا أهل الكوفة في كثير من الأمور السياسيّة والعلميّة، ولعلَّهم **أَبْصَرُ** بالأمور من غيرهم.

لكنِّي، لست أرتضي هذا الاختيار، لأنَّه من غير الإنصاف أن ننتصر لأهل البصرة على أهل الكوفة، ونحن نريدُ السلام في مدينةِ السلام، ونُريد أن نرى أهلَها ونتعرَّفَ عليهم جميعًا بمن فيهم الكوفيّ والبصريّ.

لم يبقَ لي إلَّا أن أقترحَ عليك أن ندخلَ من باب الشام، فإنّ الله يجتبي إلى الشام خِيرَةَ خَلْقِه.

لعلِّي لا أُشاكِسُكَ في هذا الاختيار الأخير، لكنَّ بني العبَّاس قد يشاكسونك فيه، لأنَّ الشامَ أرضُ خصومِهم الأمويِّين.

إنَّهم وإن كانوا لَهُمْ خصومًا، فإنّهم قد سبَقوا في حكم البلاد، وثَبَّتُوا أساسات الدولة، فلا مناص من أن نَقْضِي للسابق، فهذا حقٌّ لهم دون غيرهم. ثم إنّه لا مناص لنا مِنْ أَنْ نَدْخُلَ مِنْ أَحَدِ الأبواب، ومِنْ أَقلِّها كُلْفَة.

فلندخل من باب الشام على بركة الله.

تعالوا إذن أيُّها الأحباب ندخُل بغدادَ من باب الشام، بعدما قَرَّرَ

صاحبُنا أن نَنْحَاشَ إلى هذا الاختيار، وإنّي لَسْتُ مَنْ يُقرِّر في هذا الأمر، بل أنتم أيُّها الأصفياء.

بعد أن انتهى الرأي إلى الدخول من باب الشام، سأقولُ بشكل سريع ما أراه ضروريًّا في هذا الوقت. لمَّا اختارَ الخليفةُ المنصورُ لعاصمته شكلَ الدائرة، فليس من أجل مركزيّة الحُكم، ولكنْ لكونه كان مُتأثّرًا بتعريف إقليدس للدائرة في كتابه «الأصول» الذي كانَ الخليفةُ معجبًا به. يوجد في قلب هذه المدينة المدوّرة بيتُ الله أو المسجدُ الجامع حيث تُقام شعائرُ الدين، وبجانبه قصرُ الخليفةِ، المعروفُ بقصر الذهب. وفي صدر القصر إيوانٌ باذخٌ متَّصل بإيوانٍ آخر على شاكِلَتِه، نُصِبَتْ فوقه قبَّةٌ عظيمة تُعرف بـ «القبّة الخضراء». ويُحيط بقصر الذهب قصورُ أولادِ الخليفة وسَط مجموعة من البساتين. ويُحيط بهذه القصور دواوين الدولة والخزائن. ومنها تنطلق السِّكَكُ والطرقات نحو أبواب المدينة الأربعة. وهناك يسكن الناس ممَّن فازوا بِحُظْوَةِ سكنى مدينة المنصور من القُوَّاد وغيرهم. وتُنْسَبُ دُرُوبُهَا لمن سكنَها من هؤلاء. وفي أماكن متفرّقة من المدينة، بعض المرافق الضروريَّة للحياة كالأسواق والحمّامات، وهي توجد فيما يلي السورَ الداخلي للمدينة. ولكلٍّ فئة من سكّان المدينة حمّام خاصّ بها وخارجَ السور الداخلي منطقة عازلة تُسمّى الفَصِيل الداخلي تدور حول المدينة بالكامل. وبقرب باب البصرة، يوجد مَقرُّ الشرطة والحرس، ثم سور آخر، بعده فصيل ثان يُدعى الفصيل الخارجي. وأخيرًا السور الخارجي، ويُسمّى السور العظيم بأبوابه الأربعة. إثْرَ ذلك خَنْدَقٌ يحمي المدينة المدوَّرة.

بعد أن تعرفَّنا على مدينة المنصور، سأقترح عليكم أن نخرج خارج أسوارها لنتعرَّف على أحوازها، ففيها أشياء كثيرة تستحقُّ أن

نتوقَّفَ عندها. والمدينة المدوّرة فاضت بسكَّانها منذ تأسيسها، فامتدَّت في كلِّ الاتِّجاهات خارج بغداد.

لقد توسّعتْ بغداد في عهد بانيها الخليفة المنصور، حيث بنى قصر الخلد على نهر دِجْلَة من جهة باب خُراسَان، وأجرى له الماءَ من قناتين. ثم كَثُرَت بعد ذلك القنوات. كما أمر المنصور بإنشاء مُعَسْكَرٍ لولده المهديّ شرقيّ دجلة، وجعل له سورًا وخَنْدقًا ومن ورائه قصر الرصَافة الذي بناه للمهديّ. وكما هي طبيعة العمران، فقد بنى القوّاد والأمراء منازلَ لهم حول هذا القصر، فَكَثُرَ البناء في هذه الناحية حتى أصبح هذا الشطر هو الجانب الشرقيّ لبغداد.

وحيث إنَّ نهر دجلة كان مَعْبَرًا للسفن، فقد بُنيت الفُرَضُ، وهي مَراسي السفن التي تُفرَغُ فيها البضائع الآتية من الشمال أو من الجنوب. وبعد اتِّساع نشاط المدينة وإعمار الجانب الشرقيّ منها، دعت الحاجة إلى بناء جسور على نهر دجلة لربط المدينة بالجانب الغربيّ. وزادت الحاجة إلى ذلك، بعد أن بنى الخلفاء العبَّاسيُّون الذين تعاقبوا منذ المنصور العبّاسيّ قصورَهم خارج المدينة المدوَّرة. وصاحَبَ هذا التنقُّل للخلفاء ومَنْ في حاشيتهم ازدهارُ تلك الجهات، فدعت الحاجة إلى بناء القناطر والجسور لتربطَ بين مختلف جهات المدينة. والقناطر كانت تُبنى بالحَجَر والآجُر، بينما كانت الجسور تُبنى بالخشب على قوارب كبيرة ثم تُثَبَّت بالسلاسل، وتُصَفُّ عليها ألواحُ الخشب لعبورها بسهولة ويُسر.

لا بدَّ لنا من العبور إذن بين جهات المدينة. وفي العبور، تبدو لك هويّة بغداد وحقيقتها. فالعبور انتقال من جهة لأخرى وحالٍ لآخر، وناس وناس. وعلى العابرِ أن يُحَصِّلَ سرَّ العبور وسرَّ البداية وسرَّ

النهاية. فإن فاته العلم بذلك، فما أدرك سرَّ مدينة مثل بغداد. إنّ جلائل الأمور لها بداية ونهاية، وبغداد من أجَلِّ المدن والحواضر. فَتَكْبِيرَةُ إحرامِها من قلب المدينة المدوَّرة، وتَسليمَةُ التحَلُّلِ مِنْ صلاتها في أطرافها الممتدّة. وبين تكبيرة الإحرام من مركزها، وتسليمةِ التحلُّل من نهايتها دروبٌ وشعوب، وهيئات وأوضاع، وعبارات وإشارات. فالمدينة موزَّعة بين شطرين كبيرين، هما المدينة المدوَّرة في الغرب، والرصَافة في الشرق؛ لكنْ، هناك أحياء أخرى، مثل محلَّة الحربيَّة ومحلَّة الكَرْخ ومحلّة الشمَّاسيّة. @ktabpdf تيليجرام

توسَّعَتْ بغداد في كلِّ ناحية حتى أصبحَتْ أكبر حاضرة في العالم، وبها مساجد كثيرة وأسواق عديدة مثل سوق العطَّارين والصيارفة والبزَّازين بائعي الثياب، والريَّاحين والحدّادين والنجّارين، والقَصَّابين بائعي اللحوم. لكنَّ سوق هؤلاء كان في مؤخِّرة الأسواق بعيدًا عنها بقرار من الخليفة المنصور، نظرًا لسفاهتهم واستعمالهم للحديد الذي قد يُعرِّضون به أمنَ سكَّان المدينة، وحياتَهم للخطر. وبها سوقٌ للنخَاسَة يَعُجُّ بالجواري والرقيق من كلِّ جنس. مدينةٌ أَمَّهَا العلماء والمغنّون وأصحاب الحِرف والفنون حتى زَخَرَتْ بكلِّ ألوان الحياة والحضارة. أمّا نهر دجلة، فيزهو بمراكبه وحركة سفنه العديدة كالطيّارات والسُّمَيْرِيّات والحديديّات والحرّاقات والزلالات والزبَازِب والجعفريّات.

إنَّ جولةً واحدة في بغداد تُغنيك عن جولة عبر العالم. ولو خُيِّرْتَ أن تعيش في مدينةٍ غيرِها لما اخْتَرْتَ سواها. فالكُلُّ يُجْلَبُ إلى بغداد، والكلّ يؤمُّها، فما الحاجة لغيرها، ولك فيها ما في غيرها وزيادة!

في مدينة كهذه، تَحْدُثُ في كلِّ يوم من أيَّامِ الرَّبِّ قَضايا بقدر ما

أحدثَ الناسُ من صُروف. والداخِل إليها في خَطَر ما لم يتَّخِذْ له خِلّانًا وأنصارًا، فبغداد مدينةٌ تَمُورُ بكلِّ الأجناس والعَقائد والأفكار. وحَرِيٌّ بالغريب أن يَحتاطَ لنفسه حتى يَضْبِطَ إيقاعَ المدينة على عصبيّاتها المختلفة، فلعلَّه إن كَشَفَ عن تلقائيَّته من أوَّلِ صَدْمَةٍ انكشَفَ وانْخسَف.

* * *

أنشأ العبَّاسيُّون مكتبةَ بيت الحكمة في بغداد، ونقلوا إليها ما وصل إليهم من تراث الأمم السابقة من الهند والفرس والسرْيَان واليونان. وقد بلغَتْ أوجَها في عهد المأمون. لقد نشأ هذا الخليفةُ وتربّى في مَرْو، وأخذ هناك علومًا كثيرة، إذ كانت مرو مركزَ التقاءِ الحضارة الهنديَّة والفارسيَّة واليونانيَّة. كانت ثقافة المأمون فارسيَّة، وأمُّه فارسيَّة وزوجتُه فارسيَّة، وقد جَهِدَ في أن يفهم العقيدةَ الإسلاميَّة وِفْقَ علوم القدماء من الحكماء والفلاسفة. كما كان متأثِّرًا بالثقافة التي كانت سائدة في مَرْو، وهي ثقافة الأمبراطوريَّة الخراسانيَّة الزرادشتيَّة التي كانت تُجِلُّ علمَ التنجيم وكُتُبَ الأقدمين. لكنْ بعد أن شَبَّ ودخل بغداد، ثم بعد انتصاره بعد ذلك على أخيه المأمون في نزاعهما على الخلافة، صار يسعى إلى التقريب بين ثقافته والعقيدة الإسلاميَّة، واعتمد على أنصاره في نشر صورة الخليفة الناصر لدين الله، ومُؤسِّس الدولة القويّ، والمرجِع الذي من حَقِّه إعطاء التفسير الصحيح للإسلام على غرار عقيدة العلويِّين في الأئمَّة.

بعد قتل الأمين سنة ١٩٨ هجريَّة، لم يرغب المأمون في دخول بغداد التي نظّمت مقاومةً شرسة قادها الفِتيان العَيَّارون، وهم فئةٌ مِنْ ذَوِي البأس والصعْلَكَة. لكنَّ المأمون عاد إليها بعد أن هَدَأَتِ الأوضاعُ في سنة ٢٠٤ هجريَّة، وبنى بها قصورًا على نهر دجلة، فَأَمِنَ الناسُ

واستحسنوا مُكْثَ الخليفة في مدينتهم. انصرف المأمون إلى تثبيت قواعد مُلكه، فَسَكَنَتِ الفتن.

كان المأمونُ قريبًا من الناس، بحيث كان يَخْرُجُ إلى الأسواق لِتَفَقُّدِ الأحوال، كما يَخْرُجُ في جوف الليل ليطمَئِنَّ على أمن الناس، ويَجوسِ في مُعسكر الجند مُتخفِّيًا ليضبِطَ شؤونهم. كما أنشأ نظامًا لتَحَسُّس الأخبار أوكلَه إلى مئات العواجز لينقُلْنَ له ما استجدَّ من أمور الناس. كان لا ينام حتى يقفَ على تلك الأخبار.

خطب وُدَّهُ ملوكُ العالم، فأهدى له الأمبراطور لويس التقِيّ ابنُ شارلمان عدَّة هدايا، من بينها سيف ثقيل على هيئة الصليب مثل سيوف النصارى، لعلَّه كان يريد أن يُثْنِيهِ عن غزو بلاده، أو لعلَّه فعل ذلك لأنَّه سمع عن حبِّ المأمون للسيوف. غريبٌ أن يتحوَّلَ حبُّ السيوف عند المُهْدَى إليه، إلى سمعة سيِّئة مرتبطة بالغزو والاحتلال عند المُهْدِي. وأغربُ من ذلك أن يكون المُهدي للسيف يحمل لقبَ «التقِيّ». كانت الهدايا رسائل مرموزة، فلويس التقيّ كان في منافسة مع أمبراطور بيزنطة، والمأمون كان يريد أن يحاصر الخلافة الأمويّة المنافسة للعبّاسيِّين في الأندلس، فتوحَّدت مصالحهما في محاربة خصومهما

وفي إحدى الليالي، رأى المأمون في نومه رجلاً جالسًا في مجمَع من الفلاسفة، له بشرة بيضاء مع ميل إلى الاحمرار، وجبهة عالية وحواجب كثيفة الشعر، لكنَّه كان أصلعَ الرأس، عيناه زرقاوان داكنتان. كان الرجل جالسًا على كرسيٍّ. كم هو غريب أن يرى المرء في منامه شخصًا حقيقيًا على غير صورته في عالم الحسّ! ومع ذلك، فهذه الصورة أقربُ إلى حقيقة ذلك الشخص، رغم وجود هذا التفاوت

بين عالم الحسِّ وعالم الخيال. لعلّ أرسطو لم يكن أصلع الرأس، ولعلَّه لم يكن أزرق العينين، لكنَّه ظهر للمأمون على هذه الصورة في المنام، **فالمتاح** في المنام هو هذه الصورة، أمَّا **المباح** فهو صورة أرسطو في عالم الحسِّ، لكن من يستطيعُ أن يُخبرنا عن ذلك؟ لم يعد هناك شهود عيان سوى التماثيل التي صنعها قدماء اليونان. ولعلَّ تلك التماثيلَ نفسها تُصَوِّرُ أشخاصًا من عوالم الخيال. ولعلّ مُدلِّسًا من التراجمة قد كتب في أحد الكتب هذه الأوصاف الكاذبة التي ملأ بها الصحائف حتى يحصل على مال وفير من خزانة المأمون، فَعَلِقَتْ تلك الأوصافُ في خزانة خيالِ المأمون حتى ظهرَتْ له في المنام. لكنْ ما أجملَ الكذبَ حينما يتحوّل إلى حُلْم يصنَع فكرًا وحضارة!

وقف المأمون أمام ذلك الشخص بكلِّ احترام وهيبة، وسأله قائلاً: من تكون؟

فقال الرجل: أنا أرسطو الفيلسوف.

غَمَرَتِ السعادةُ المأمونَ لوقوفه بين يديْ المعلِّم الأوَّل. ثم استأذن منه في أن يسأله، فأذن له، فقال المأمون: ما هو الخير أو ما هو الحُسْن؟

فأجاب أرسطو: كلُّ ما هو وِفْقَ المنطقِ خيرٌ، وما حسَّنه العقل هو الخير.

ثم سكت، فاستزاد منه المأمون قائلاً: وأيُّ شيء آخر؟

فقال أرسطو: كلُّ ما هو وِفْقَ الشريعةِ ومُوافقٌ لها، خيرٌ.

زاد فرح المأمون بتوافق أجوبة أرسطو مع ما يعتقد، لكنَّه كان يطمع في المزيد، فسأله ثالثة: وأيُّ شيء آخر؟

فقال أرسطو: كلُّ ما يعتبره المجتمعُ خيرًا فهو خير.

فقال المأمون: هل من شيء آخر؟

فقال الحكيم: لا شيءَ آخر غير هذا.

لمّا أفاق المأمون من نومه، جمع بعض جُلسائه في إحدى قاعات قصره، وفيهم نقيب الأشراف العبَّاسيِّين ونقيب الأشراف العلويِّين، وقاضي القضاة وبعض الأمراء والقُوّاد والفقهاء والحُكماء. تخلّى الجميع عن نِعالهم المعْطُوفَة، وتحلّقُوا حول مائدةٍ رُصَّتْ بأنواع الأطايب والأكلات، فأصابوا منها، ثم جدّدوا الوضوء، وأُتِيَ بالمجامر فبَخَّروا وتطيَّبوا. وبعد ذلك، جلسوا في مجلس آخر مخصَّص للمناظرة، فاستدناهم المأمون منه وحدَّثهم برؤياه. وبعد أن استمعوا إلى الحلم، قال لهم: لو أنَّ أرسطو كان حيًّا ما زاد على ما قال لي في المنام. «ففي ما قاله جَمَعَ كلّ ما ثَمَّةَ حاجةٌ لقوله، وتوقَّفَ عن قولِ ما لا حاجةَ له».

ثم طلب منهم أن يُخبروا الناس بهذا الحلم وينشروه بينهم، وأَذِنَ لهم في الانصراف، لكنَّه استبقى أحمد بن أبي دُؤَاد، أَحَدَ رؤوسِ الاعتزال الكبار. بعدما خرج القوم من المجلس، خَلاَ الرجلان إلى بعضهما للحديث، وبقي في خدمتهما غلام فارسيّ، لكنَّ المأمون صرفه أيضًا، بَيْدَ أنَّ الغلام لَبَدَ خارج الغرفة يَسْتَرِقُ السَّمعَ، ويتسمَّعُ الحديثَ الذي دار بين الرجلين.

قال أحمد بن أبي دؤاد: إنّ هذا الحلمَ بشارة لنا يا مولاي على أنَّه ينبغي علينا أن ننقلَ كتبَ القدماء إلى اللسان العربي ونستفيدَ منها فليس هناك تعارض بين العقل والشريعة والعُرْف العام.

فقال المأمون: كيف ذلك؟

قال أحمد بن أبي دؤاد: إنَّ الحلم الذي رأيته يا مولاي يؤكِّد أنَّ مصادر المعرفة هي: العقل والشرع والإجماع، وأنّ بينها تكاملاً، فما حَكَمَ العقل بتحسينه هو عَيْنُ ما حسّنه الشّرع، وهو عينُ ما حسّنه إجماع الناس.

أطرق المأمون لحظة يفكِّر في ما قاله أحمد بن أبي دؤاد المعتزليّ، وبدا وكأنَّ أمرًا شغله، ثم ما لبث أن قال: لقد علمتَ يا ابن أبي دؤاد ما كان بيني وبين أخي الأمين، وكيف قُتِلَ غفر الله لي وله، ثم كيف قرَّبتُ منِّي الإمام الثامن، عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وزوَّجته ابنتي، وعَهِدتُ إليه بولاية العهد سعيًا منِّي في التقريب بين فَرْعَيْ بني هاشم من العبَّاسيين والعلويِّين، ومن فوق ذلك للتقريب بين السُّنَّة والشِّيعة، ثم كيف أنَّه مات مَسمومًا في مدينة طوس.

فقال ابن أبي دؤاد: أمرُ الله نافذٌ يا مولاي. وقد كان قرارُك بإسناد ولاية العهد إلى عليّ الرضا قد حَمَلَتْ النِّحلَ الباطنيّة الشِّيعيَّة على الظهور، وكشَفَتْهم لنا. لكنْ بعد موت عليّ الرضا في طوس مسمومًا، عاد هؤلاء إلى التسَتُّر والثورة على الدولة، رغم أنَّك أعلنتَ عن تفضيل سيِّدنا عليّ كرَّم الله وجهه على الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

فقال المأمون: قد علمتُ ذلك، رغم أنَّ أنصارنا من العبَّاسيِّين لم يفهموا قراري بتقديم واحد من العلويِّين على حساب بني العبّاس، فقاموا بالثورة عليّ وقدّموا عمِّي إبراهيم بن المهدي للخلافة، لكنَّ الله

نصرنا عليهم، ثم هدأتِ الأمور. لكنْ ما يقلقني اليومَ هو تكاثُر الفِرق الباطنيَّة، واتِّباعُ العامَّة لمذاهبهم، واعتقادُهُم فيهم كما لو كانوا أنبياء، وهذا قد يهدِّد سلامةَ الدولة والدين، وينزع الشرعيَّة عنَّا ويضعها في أيدي خصومنا؛ ولا بدَّ من العمل لمحاربة هذه الفِرق الباطنيّة، ومن ضمنها أتباع المانويَّة القائلين بوجود إلٰه النور وإلٰه الظلمة.

قال ابن أبي دؤاد: إنَّ الحُلم الذي رأيته يا مولاي هو طريقنا إلى الخلاص من غنوصيّة المانويّة وباطنيّة غُلاة الشيعة. إنَّ هذه الفِرق تستعمل ضدّنا سلاحًا أخطرَ من الحديد والنار. إنَّهم يوهمون الناس أنَّ النبوَّة ما زالت مستمرّة في الأئمَّة المعصومين بشكل أو بآخر، وهذا يمنحهم شرعيَّةً أمام العَوام.

فقال المأمون: صَدَقْتَ، إنَّ الخلافة التي نتزعَّمها يجب أن تستند إلى مصادر قويَّة للمعرفة يُقِرُّها الجميع. لقد تفطَّن أسلافنا لهذا الأمر، فقد سمّى الخليفة المنصورُ ولدَه باسم «المهدي» حتى يَنْزِعَ من مُناوئيه آنذاك الاستئثارَ بالمهدويّة. لكنِّي أريد أن نؤسِّس الدولة على أسس مختلفة، فلا نريد أن ندَّعي المهدويّة، بل نخاطبُ الناس بالمعروف المشترك عند الإنسان. إنّ في دولتنا مسلمين ومسيحيين ويهودًا وصابئة وزرادشتيّة ومانويَّة وبوذيَّة ومِللاً كثيرة ونِحَلاً عجيبة. فما هو المشترك الإنساني بين الجميع؟ إنَّه العقل. وما دام أنَّ الدولة مسلمة، وبها هذه الملل والنِّحَل، فإنَّ أصلَ الشرع لا بدَّ منه، ثم يؤازره أصلُ العقل، حتى لا نتركَ الخرافات والأساطير تَنْخُرُ هذه الدولة العظيمة. إنَّ ظهورَ أرسطو لي في تلك الرؤيا كان إلهامًا من الله، لكي نستعين بما خلَّفه هذا العقل الجبّار من علوم في محاربةِ باطنيّةِ خُصومِنا، وتأسيسِ مدينة إسلاميَّة عظيمة تجمع الجميع تحت راية الخلافة.

فقال أحمد بن أبي دؤاد: صدقتَ يا مولاي، فلا بدَّ من تحالُف الشرع والعقل ضدّ الباطنيَّة كيفما كانت، ومخاطبة أتباع الملل والنحل الأخرى بخطاب العقل الذي نشترك فيه جميعًا إنّنا نؤمن بانتهاء النبوَّة وانقطاع الوحي مع النبي عليه الصلاة والسلام، لكنَّ خصومَنا يقولون باستمرار خبر السماء والنبوَّة في الأئمَّة المعصومين، وهذا قادح في عقيدتنا، وقادح في شريعتنا، إذْ مَنِ ادَّعى أنَّ النبوَّة مستمرّة في الأئمَّة الأوصياء، ومَنْ على شاكلتهم، سيسبقُنا بمراحل لدى عامَّة الناس.

فقال المأمون: نحن في حاجة إلى أرسطو ومنطقه إلى جانب معقولنا الدينيّ للوقوف ضدّ كلّ المذاهب الباطنيَّة. وسأبعث في طلب كتب القدماء من أمبراطور بيزنطة، حتى ننقلَ تلك المعارف إلى العربيَّة ونستفيدَ منها في بناء المعقول الإسلامي الصحيح المتشبِّع بالمنطق، والمتمسِّك بالشريعة الغَرّاء، والمُوافِق للإجماع العُرفيّ العام. فلنشرَعْ أوّلاً في إشاعة هذه الرؤيا بين الناس في الأمصار حتى يتقبَّلوها، ويصبحَ الجوّ مُهيّأً للخطوات القادمة، وليقُمْ أصحابنا من المعتزلة بنشرها وتدريسها إلى الطلبة حتى تستقرَّ في الأذهان والقلوب، ويتقبّلَها الناس. فإذا ما بدأنا ترجمةَ كتبِ الأقدمين، أقبل الناسُ عليها وتعلّموا منها، وأسّسوا عليها علومًا جديدة.

فقال ابن أبي دُؤاد: سأبدأ يا سيِّدي بنشر هذه البشارة، وسأخبر أصحابنا من أتباع المعتزلة بذلك. وسنحمي الدين والدولة بالعقل والشرع، ونسيِّج سياجًا قويًا حول هذه الحدود. ولتأذَنْ لي يا مولاي في الخروج حتى أَشْرَعَ في هذه المهمَّة العظيمة.

أَذِنَ المأمونُ لجليسه بالخروج. ما إن أحسَّ الغلام الفارسيّ المكلَّف بالخدمة بانتهاء الحديث بين الرجلين، حتى اختفى كَلَمْحِ

البرق في دهاليز القصر كي لا يلحظَه سيِّدُه وهو يتسمَّعُ الحديثَ الذي جرى بينه وبين ابن أبي دؤاد.

راج هذا الحلم في بغداد، وتناقله الكَتَبَة والوَرّاقون وأهلُ الحكمة وطلبةُ العلم. اغتبط به البعض وأنكره البعض الآخر، لكنَّ الغالبيَّة من العلماء لم تُحَمِّل هذه الرؤيا أكثرَ ممّا يجب، لأنّه لا شيءَ يَلْزَمُ بالمَرائي عند الفقهاء وعلماء الأصول، رغم أنَّ المعتزلة كانوا يُردِّدون هذه البشارة ويَنشرونها في كلِّ المجالس، حتى أضحَتْ معلومةً للعامّة. وكان الورّاقون والكُتبيُّون من أشدِّ الناس ترويجًا لها لوقوف تجارة الكتب عليها.

أسرعَ الغلامُ الذي كان من عيون أحد الدعاة الشيعة في قصر المأمون، فأبلغ سيِّده بما دار في مجلس الخليفة، وبما انتهى إليه من حديث مع أحمد بن أبي دؤاد.

أدرك خصوم الدولة من العلويِّين هدفَ المأمون من نشر هذه الرؤيا وإشهارِها بعد وصول خبر الحديث إليهم، كما نقله الغلام الجاسوس، فقاموا بحملةٍ لمقاومة خُطّة المأمون، وعملوا على تأسيس غُنوص شيعيّ باطنيّ قادَهُ أئمَّة «دَوْرِ السِّتْر»، ودعاتُهم الذين بثُّوهم في الآفاق. لقد بَلْوَرُوا خطّة مضادَّة لخطَّة المأمون تقضي بنشر فِكْرٍ يستوعبُ ما يريدُ أن يؤسِّسه المأمونُ ويتجاوَزَه. وقَرَّ القرارُ على أن يؤلِّفوا رسائل مختصرة جامعة ومانعة في مختلف العلوم والفنون، لكنْ رغم ثقافتهم الواسعة، كان يلزمهم كثيرٌ من المراجع القديمة، وكُتُبِ حكمة الأوائل. أشرف على تنفيذ هذه الخطَّة السرِّيَّة الإمام المستور بنفسه، وساعده بعض أتباعه من الحُجَج.

على إثر هذه الرؤيا، بعث المأمون في طلب كتب الحكمة وسائر العلوم والفنون من الأمم الأخرى. وقد صانع المأمونُ ميخائيلَ الثاني العمُّوري، الأمبراطورَ البيزنطيّ الذي جلس على كرسي بيزنطة خَلَفًا للأمبراطور ليون الخامس الأرميني، آخر أباطرة السلالة النقْفُوريّة. راسل المأمون ميخائيل الثاني مرارًا دون أن يُطلعه على رغبته في الحصول على كتب القدماء، فامتنع عن جوابه خوفًا ممّا قد يطلبه منه ممّا لا يستطيع أن يعطيه له أو يَفِي به. لكنْ، لمّا توالَتْ رسائل المأمون للأمبراطور، أجابه في الأخير خوفًا من أن يُغضِبَ تصرُّفُه خليفةَ المسلمين، فيغزو بلادَه. أرسل الأمبراطور خطابًا بالموافقة على استقبال وَفْدٍ من بغداد، فعيَّن المأمونُ ثلاثةَ مبعوثين لاختيار كتب العلوم القديمة من بين مقتنيات المخازن البيزنطيّة. ورافقهم في رحلتهم بعض رجالهم من أهل السخْرَة والخِدْمَة. كان من بين هؤلاء مَنْ كان جاسوسًا يتسَقَّطُ الأخبار ويتتبَّعُها، ومبعوثًا لجلب بعض الكتب السرِّيَّة القديمة، ومن بين هؤلاء من كان يدين بالمانويّة أو غيرها  كما أوفدَ عبدُ الله البغداديّ، الداعيةُ العلويّ وحجّةُ الإمامِ المستورِ في بغداد، غلامًا فارسيًّا اسمه حسين. كان الغلام حادقًا يتقن اللغة الروميَّة إلى جانب العربيَّة والفارسيَّة كي يرافقَ الوفدَ متخفِّيًا في أعمال السُّخْرة والخدمة والمناولة والتَّقييد.

كانت بيزنطة في هذا الأوان تعيش عصر تخلُّف ونُكُوص، ولم يَعُدْ يَشِعُّ في قلبها وَهَجُ الحضارة التي زرعها الأقدمون، بل إنَّها أصبحت تخشى على نفسها من كتب هؤلاء، وتخشى على عقيدتها ودينها المسيحي من زندقة كُتُبِ اليونانيِّين القدماء.

وصل الوفد الذي بعثه المأمون إلى بيزنطة، ووقف أمام

الأمبراطور ميخائيل الثاني العمُّوري؛ وكانوا ثلاثة هم: سَلْمَا أو سلمان الحرّاني صاحب بيت الحكمة، وبرفقته الحَجّاج بن مَطَر، وابنُ البطريق، وخلْفَهُما وَقَفَ الغلام الفارسيّ حسين. سلّموا على الأمبراطور بما يليق به من الاحترام، ثم أبلغه رئيس الوفد أنَّهم قَدِمُوا من أجل استعارة بعض كتب القدماء. ثم قدّموا للأمبراطور بعض الهدايا التي أحضروها، من ضِمنِها أَيْقُونَةٌ قديمة كان قد غَنِمَها المسلمون في إحدى معاركهم السابقة، وكانت من أجلِّ ما يُقدِّسُ أهلُ الصليب.

لمَّا نزع رئيس الوفد الثوبَ عن الأيقونة، سجد بعض البطاركة الحاضرين في المجلس، وزمزموا كلامًا غير مفهوم، يبدو كأنَّه صلاة خاصَّة بهم. بدا الأمبراطورُ مستاءً من فعل رجاله، ونظر إليهم بجفاء.

ثم رحّب الأمبراطور بالوفد وشكرهم على الهدايا التي بعثها المأمون، لكنَّه أضاف: أنتم في حاجة إلى الراحة من وَعْثَاءِ السفر، ولا بدَّ أن نستضيفكم بما يليق بمقامكم، وبعد ذلك، سنتكلّم في الأمر الذي أتيتم من أجله.

لكنَّ سَلْم، رئيسَ الوفد، كان حريصًا على فهم ما حصل في قصَّة الأيقونة، فقال للأمبراطور: إذا سمحت لي يا سيِّدي، أرغب في سؤالك قبل أن نغادر.

فقال الأمبراطور: تفضَّل.

قال سَلْم: ما حقيقةُ سُجودِ البطاركة عند رؤية الأيقونة يا سيِّدي، رغم خُلُوِّ مجلسكم العامر من مثل هذه الأيقونات؟

سكت الأمبراطور قليلاً، ثم قال: إنَّها مسألة لاهوتيَّة خاصَّة بنا

ولتعلموا أنَّ عبادة الأيقونات التي تصوِّرُ السيِّدَ المسيحَ وأمَّه وبعض القدِّيسين في الدين المسيحي ممنوعة عندنا، لكنَّ التيَّار السائد لحدِّ الآن في مملكتنا كان يقدِّس تلك الأيقونات.

ثم أضاف: هل هذا يُجيب عن فضولك؟

فقال سَلْم: لم يكن فضولاً يا سيِّدي بقدر ما كان من أجل معرفة سبب سجود البطاركة عند إظهار هديَّة خليفة المسلمين؛ إذ لا بدَّ أن نفهمَ ما حصل ولا نخطئ في تأويل حركة البطاركة. فهل كان سجودهم للأيقونة أم لإظهار الاحترام لهديَّة خليفة المسلمين؟ إنّني يا سيِّدي رئيس هذا الوفد، وينبغي أن أنجح في سفارتي، وأُبَلِّغَ مولايَ بما حصل على الوجه الصحيح.

فقال الأمبراطور: هذا حرصٌ مطلوب تُشكَرُ عليه.

بعد ذلك، شكر رئيسُ الوفدِ الأمبراطورَ، واستأذنوا في الخروج، فأذن لهم. ذهبوا إلى مكان إقامتهم حتى يستريحوا من عناء سفرهم. وما إن خرجوا حتى نادى الأمبراطور على كبار البطاركة والأساقفة والرهبان، واجتمع بهم. ولمّا حَفَلَ المجلس بأكابرهم، خاطبهم قائلاً:

إنِّي جمعتكم اليوم لأمر هامّ، فقد صانَعَنِي أمبراطورُ المسلمين بالهدايا والرسائل اللطيفة، ثم إنِّي حاولتُ أن أُداريه لجهلي بمقصوده وفَحْوى طلباته؛ فلمَّا ألحَّ عليّ مرارًا، لم أجد بُدًّا من أن أكتب له كي يبعث لي سفارةً تخبرني عن رغباته. وها هو اليوم، قد أرسل وفدًا جاء لاستعارة كتب القدماء حتى ينقلوها إلى لسانهم ثم يعيدوها إلينا. وأنتم تعلمون رأيي في الكتب الإغريقيَّة الوثنيَّة، وخوفي على أهل ملَّتنا من أن تُغيِّر دينَهُم وتُشَتِّتَ كلمَتَهُم، فقد عَمَدَ أسلافُنا من الملوك إلى وضع

هذه الكتب في الخزائن السرِّيَّة المقفَلة حتى لا يطَّلِعَ عليها أحد.

وبعد أن علمتُ أنَّ طلبَ ملكِ المسلمين هو استعارةُ هذه الكتب فرحتُ فرحًا عظيمًا، وإنِّي رأيتُ رأيًا فاسمعوه، فإن رضيتُموه أمضيتُه، وإن رأيتم خلافَه تشاوَرْنَا في ذلك حتى تتَّفِقَ كلمتُنا.

فقال كبير البطاركة: وما هو رأيُك يا سيِّدي؟

قال الأمبراطور: حاجةُ هذا الرجلِ الكتبُ اليونانيَّة.

قال كبير البطاركة: فما رأيك يا سيِّدي؟

قال: قد علمتُ أنَّ ما بَنَى عليها مَنْ كان قبْلَنا إلَّا لخوفه من وقوعها في أيدي أبناء مِلَّتِنا وقراءتهم لها، حتى لا تكونَ سببًا في هلاك دينهم وتَفَرُّقِ جماعتهم ودولتهم، وارتدادِهم إلى ديانة اليونان الوثنيَّة. وأنا أرى أن أبعثَ بها إلى ملك المسلمين، وأُخبِر الوفدَ الذي حضر ألَّا يُعيدوها لنا، فيُبتَلَى المسلمونَ بها ونَسْلَمَ نحن من شرّها؛ فإنِّي لا آمنُ أن يكونَ بعدي من يَجْتَرِئُ على إخراجها للناس فيقعوا فيما خِيفَ عليه.

فقالوا جميعًا: نِعْمَ الرأيُ ما رأيتَ أيُّها الملك، فَأَمْضِهِ.

وأضاف كبير البطاركة: سَيِّرْ هذه الكتبَ يا سيِّدي لبلاد المسلمين، فإنَّك تُثَابُ على ذلك، فإنَّها ما دخلَتْ في مِلَّةٍ إلَّا وَزَلْزَلَتْ قواعِدَها.

* * *

بعد أن استراح الوفدُ، بعث الأمبراطورُ ميخائيل الثاني في طلبهم، فَهَشَّ في وجوههم ولاطفهم حتى اطمأنُّوا، وقال لهم: إنِّي تفكّرتُ في طلب ملك المسلمين استعارةَ كتبِ قدماءِ حكماء اليونان،

وقَرَّ رأيي أن نُهدي له ما يريد منها بعدما غَمَرَنَا بهدايا ثمينة. وقد أمرتُ رجالي أن يفتحوا لكم الخزانة العظيمة التي فيها الكتبُ حتى تتخيَّروا منها ما تريدون، ولكم أن تحتفظوا بها في خزانة مَلِكِكُم. فهي عُرْبُونُ صداقَةٍ من أُمَّتنا لأُمَّتكم.

ابتسم رئيسُ الوفد لناحية الأمبراطور، وأدرك ما كان يجول بخاطره، لكنَّه صانَعَهُ فيما اقترحه، وقال له: هذا كرمٌ لا يَليق إلَّا بالملوك العظام، وإنَّ خليفةَ المسلمين سَيُسَرُّ بهذه الهديَّة. والآن، إن سَمَحْتَ لنا بإتمام مهمَّتنا، فنحن نستأذن منك في الذهاب إلى ما جئنا من أجله.

نادى الأمبراطور على بعض رجاله، وأوعز إليهم بتسهيل مهمّة الوفد.

خرج الثلاثةُ من عند الأمبراطور، وفي إثْرِهِم الغلامُ الفارسيّ حسين الذي كان مُتابعًا لكلّ ما يجري بحرص شَديد. قاد رجالُ الأمبراطور الوفدَ إلى معبدٍ سرِّيٍّ في إحدى نواحي القصر الأمبراطوريّ. دخلوا المعبد، وبعد مشيهم في عدَّة منعرجات دائريّة ضيِّقة صاعدة، توقَّف رجال الأمبراطور في ركن خفيّ عند باب صغير عليه أقفال عظيمة، ففتح أحدهم تلك الأقفال التي يبدو أنّها لم تُفْتَحْ منذ مدَّة طويلة. أَسْرَجَ سراجًا، ثم طلبَ من الوفدِ أن يتبعوه، فتبعوه. وكم كانت دهشتهم لمَّا عاينوا الكتب العظيمة التي غطّت جميع جدران البيت من أسفله إلى أعلاه. أخذ سلْما، أو سَلْم الحَرَّاني، أحدَ الكتب، وبدأ يقرأ فيه. وكم كانت فرحته عظيمة لمَّا علم أنَّه كتاب جالينوس في الطبِّ، ثم أخذ كتابًا ثانيًا لأرسطو في المنطق، وآخر لأفلاطون في السياسة. ثم انضاف إليه أصحابُه، فأخذ الحَجَّاج بن مَطر كتاب المَجِسْطِي لِبَطْلِيمُوس في الفَلَك، وكتاب الأُصول لإقليدس

في الهندسة. أمّا ابن البطريق، فقد وقع بين يديه كتاب تيتربيبلوس (الربَاعِيّة) لبَطليموس في التنجيم باللغة اللاتينيَّة، فَسُرَّ به سرورًا بالغًا، لأنَّه لم يكن يتكلَّم اليونانيَّة التي كُتب بها أصلُ هذا الكتاب، أمّا عربيّته فكانت ضعيفة. انشغل الثلاثة ينظرون في الكتب التي أمامهم. ثم اتَّفَقُوا على أن يتولَّى كلّ واحد منهم جهةً من جهات ذلك البيت المملوء بهذه الكنوز في الحكمة والعلوم المختلفة. أمَّا الغلام الفارسيّ حسين، فكان يأخذ منهم الكتب المختارة التي يسلِّمونها له ويضَعُهَا جانبًا، حتى اجتمعَ منها عشرات المجلَّدات الضخمة.

لم يمرّ ذلك اليوم، حتى تخيّر الوفد الذي بعثه المأمون عشرات الكتب في كلِّ فنون الحكمة والمعرفة؛ ثم عادوا في اليوم الثاني، فجمعوا قدر ما جمعوا في اليوم الأوَّل، وكرّروا الأمر في اليوم الثالث، حتى لم يبق كتاب من علوم القدماء في الحكمة والفلسفة والطبيعة والطبِّ والرياضيَّات والفلك والموسيقى والسياسة والأخلاق وغيرها إلَّا أخذوه. وفي غمرة ذلك، كان الغلام الفارسيّ حسين يستغفل الوفدَ فيجوسُ في نواحي الخزانة. وبينما هو كذلك، إذ وجد صندوقًا عليه بعض الكتب. نظر فيها، فلم تُثِرْ فضولَه، ثم فتح الصندوقَ فوجده مليئًا بكتب أخرى باللغة الفهلويَّة واليونانيَّة. أخذَ أوَّلَ كتابٍ رفعَه ثم فتحه، فإذا هو من نوع الكتب التي كان يبحث عنها ثم أخذ كتابًا آخر فوجده مُوفِّيًا بما جاء من أجله، وهكذا فعل مع باقي الكتب الأخرى، حتى وقف على مجموعة منها في العلوم الهرمسيَّة والفيتاغوريَّة القديمة المدوَّنة باللغتين الفارسيَّة القديمة، واليونانيَّة. حرص الغلام حسين على إخفاء تلك الكتب وسط باقي الكتب حتى لا يتنبَّه لها أعضاء الوفد الذين كانوا حريصين على جمع الكتب التي تُعنى فقط بالمنطق والفلسفة والرياضيَّات والفلك والطبِّ. وكان، كلَّما انتهى

الوفد من عملهم خلال تلك الأيَّام، أخذ هو تلك الكتب التي اختلسها دون علمهم، واحتفظ بها في غرفة نومه ضمن أغراضه الخاصَّة، ولم يُطلعهم عليها  كان واضحًا أنَّ الغلام حسين مبعوثٌ لجلب هذه الكتب المخصوصة إلى مَنْ أوفدَه.

بعد أن استوفى الوفدُ ما يريد من الكتب، طلب توديعَ الأمبراطور لتقديم الشكر، والاستئذان في الرحيل. استقبلهم ملك الروم وودَّعهم، وطلب منهم نقلَ سلامِه إلى ملك المسلمين. غادر الوفدُ بيزنطة باتِّجاه بغداد يحمل هذه الذخائر على ظهور الدواب التي ناءتْ بثِقْلِها. أمَّا الغلام الفارسيّ حسين، فقد احتال أن يجعل الكتب التي جمعها في رَحْلِ دابَّته.

وصلوا إلى مدينة السلام، وخرج المأمون بنفسه يستقبل الوفد لشغفه بما حملوا معهم من ذخائر الأوائل وتَشوُّفِه إلى مُعاينتها  قدّم رئيس الوفد تقريرًا عن المهمَّة التي بُعثوا فيها، وحدَّثه عن لقائهم بالأمبراطور ميخائيل الثاني من السلالة العَمُّوريَّة، وكيف أنَّه أهدى لهم الكتب ولم يطلب إعادَتها بعد ترجمتها. ابتسم المأمون، وكان يعلم الأسبابَ التي دَفَعَت الأمبراطور إلى عدم الرغبة في استرداد الكتب. ثم أخبره رئيس الوفد بقصَّة الأيقونة.

فقال المأمون: لقد كنّا نرغبُ في استجلاب مودّته بإهدائه تلك الأيقونة، حتى ينشرحَ صدرُه لمناولتنا كتبَ الأوائل ولا يستأثرَ بأهمِّها، لكنْ ما دام أنَّهم لا يقدِّرون قيمة تلك الكتب وتخلَّصوا منها لفائدتنا، فإنَّهم في عَمَايَةٍ من أمرهم. لكنْ أخبروني عن عقيدتهم في الصور والأيقونات.

فقال سَلْم الحراني، رئيس بيت الحكمة، الذي على علمٍ بالنقاش اللاهوتيّ المسيحيّ: إنَّ رفضَ الأيقونات بدأ عند الروم البيزنطيِّين،

لأنَّهم كانوا يخشون أن يعبد المسيحيُّون هذه الصور يا مولاي. وهذه العقيدة ليست مقصورة على المسيحيَّة، بل وُجدت عند المصريِّين القدماء وعند اليهود. فكثيرًا ما كان يَعْمَدُ الفراعنة الجُدُد إلى تدمير تماثيل الفراعنة الذين سبقوهم، حتى يستبدلَ الناسُ عبادةَ الحاكم الهالك بعبادة الجالس الجديد على عرش مصر. كما كان اليهودُ يرفضون التصوير امتثالاً للوصيّة الثانية في التوراة. أمّا عند المسيحيِّين، فقد بدأ تحطيم الصور والأيقونات، وحَظْرِ عبادتها عند الروم البيزنطيِّين قبل قرن من الزمان تقريبًا ولعلَّ ذلك كان بتأثير من الدين الإسلاميّ، وذلك لمّا منع أمراء المسلمين رعاياهم المسيحيِّين من عبادة الصور والتماثيل. وقد قامت ثورة على هذه العقيدة الجديدة في المسيحيّة، وتزعَّمها يُوحَنَّا الدمشقيّ، واتُّهِمَ أصحابُها بموالاة المسلمين. لكنَّ انتصارات الأباطرة في الحروب التي خاضوها ضدّ أعدائهم دفعتهم إلى إقناع الناس أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ عقيدَتهم صحيحة، لأنَّ الربَّ أظهر تأييده لهم كما يزعمون.

فقال المأمون: سبحان الله!

ثم أضاف سَلْم: لكن بعد هذه الفترة، اجتمع البطاركة في مجمع نيقيّة، وأقرُّوا عبادة الصور والأيقونات من جديد، لكنَّهم منعوا المتاجرة فيها

فقال المأمون: لكنْ، ما هي مبرِّرات النقاش اللاهوتي خلف السماح بعبادة الأيقونات، أو مَنْعِها؟

فقال سلْم: لقد كانت الفكرة التي انطلق منها كبار علماء اللاهوت هي حول طبيعة المسيح عليه السلام. وكان رأي المناصرين لعبادة الأيقونات يتلخَّص في ما إذا كان المسيح قد حلَّ في العالم. وفي حال الإجابة بالإيجاب، والقُبُول بهذه الحلول في العالم، يلزم

منه القبولُ بتجسيد السيِّد المسيح وتصوير القدِّيسين.

فقال المأمون: لكن ما هو سرُّ رفضِ الأباطرة لهذه العقيدة من جديد؟

فقال سَلْم: إنَّ هذه المعركة اللاهوتيَّة بين أنصار الأيقونات وخصومهم قديمة. فقد جمع الأمبراطور قسطنطين محفلاً من علماء اللاهوت المسيحيِّين لإدانة تيَّار الأَرْيَانِيَّة الذي كان يقول بأنَّ طبيعة الابن، أي المسيح عليه السلام، تنزل عن درجة الآب في عقيدة التثليث. ثم لمَّا ظهرت طائفة النسطوريّة، قالت بطبيعتين اثنتين للسيِّد المسيح، وأنَّ السيِّدة مريم العذراء هي أُمٌّ فقط لولدها الإنسان. لكنّ النسطوريَّة حُوربت في بيزنطة، رغم انتشارها الواسع في فارس. وبعد هذه الفترة، ظهر تيّار آخر يقول بالطبيعة الإلٰهيَّة الواحدة، وانتشر في سوريا ومصر وأرمينيا. ثم مع ظهور الإسلام، بدأ تيّار توحيدي ينتشر في المسيحيّة، فانطلق من جديد هذا النقاش اللاهوتي حول الصور والأيقونات. إذ كلَّما كان المرء يقول بالتوحيد رفض عبادة تلك الصور والأيقونات.

فقال المأمون: الحمد لله على نعمة التوحيد، لكنْ يبدو لي أنَّ المسألة تتعلَّق بنيَّة المصَوِّر أو الرسَّام. فهل كان في نيَّة الرسّام أو المصوِّر أن يرسمَ أو يصوِّرَ إنسانيَّة المسيح عليه السلام، أو أنَّه كان يصوِّر طبيعته الإنسانيّة والإلٰهيَّة كما يزعمون؟

فقال سلْم: صدقتَ يا مولاي، المسألة هي كما لخَّصْتَهَا بوضوح. فإمَّا أن يرسمَ الرسَّام أو يصوِّرَ المسيحَ الإنسانَ، فهو هنا على عقيدة النسطوريّة؛ وإمّا أنَّه يرسمُ أو يصوِّرُ الطبيعتين معًا، فيكون مؤمنًا بالطبيعة الواحدة للألوهيَّة. لكنْ، في كلِّ الأحوال، فإنَّ الصورة

أو الأيقونة لا يمكنها أن تمثِّل بشكل كامل طبيعة المسيح عند علماء اللاهوت.

فقال المأمون: لعلَّ هذا هو السبب في أنَّ بعض رعايانا من المسيحيين يصوِّرون السيِّد المسيح عليه السلام في أماكن عبادتهم، ويرمزون له بصورة حَمَلٍ وَدِيعٍ تأكيدًا منهم على أنَّه الخير الذي يتحمَّل خطايا البشر.

فقال سَلْم: صحيح يا مولاي، فإنَّ رمز الحَمَل أقوى في الدلالة على المعنى المراد، إذ بتداعي المفاهيم، يتوسَّع رمزُ الحَمَل ليشملَ كلَّ هذه الدلالات التي اختلف فيها القائلون بعبادة الصور، والمانعون لذلك. لكنَّ حَظْرَ هذه الأيقونات قد خفَّ اليوم في عهد الأمبراطور ميخائيل الثاني، ولهذا سجد بعض البطاركة الحاضرين بطريقة لاإراديَّة، في مجلس مَلِكِهِمْ، عندما سلَّمناه الأيقونة التي أهديتَها له يا مولاي. لكنَّ هذا الأمبراطور لم يكن راغبًا في فتح هذا النقاش اللاهوتي الطويل، رغم أنَّه استمرَّ على عقيدة أسلافه في حَظْرِ عبادة الصور والأيقونات باسم محاربة الوثنيَّة.

فقال المأمون: إنّ الوثنيَّة ليس منشؤُها الصوَرُ والأيقونات في حدِّ ذاتها، بل قد تكون مظاهر حضاريَّة للمسيحيَّة، ولكون الحقّ قد تجلّى على أتباع المسيح باسمه «المصوّر»، لأنَّ سيِّدنا جبريل عليه السلام تَمَثَّلَ في صورة إنسانيَّة للسيِّدة العذراء عليها السلام، فظهر التصوير عندهم. ومن هذا الباب، ترك النبيّ عليه الصلاة والسلام صورة العذراء لمّا فتح مكّة ودخل الكعبة، فأمر بمحو جميع الصور التي كانت مرسومة بداخلها، وأبقى فقط على صورة العذراء وابنها السيِّد المسيح عليهما السلام.

إنّ القائلين بالتخريب والتحطيم والحرق أناسٌ لا يفهمون حقيقةَ هذا الأمر على وجهه الأكمل. إنَّ ملوكَ بيزنطة الذين يخرِّبون الصور والأيقونات اليوم هم نفسهم الذين يمنعون الاطِّلاع على كتب الأوائل وحكمتهم، ولا ندري ماذا سيصنعون غدًا مع كلِّ التراث القديم الذي وصل إليهم. إنَّ الإسلام لا يخشى من أنواع التدَيُّن العَامّي التي تحاول أن تدركَ الألوهيَّة وتُقَرِّبَهَا للناس في أشكال محسوسة. فما كُلُّ العقول والأفهام تقدر على تنزيه الحقِّ عن ملابسة المحدَثَات. كثير من علماء اللاهوت ينتقدون مظاهر التنزيه المطلق عند المسلمين، ولا سيَّما عند المعتزلة، إذ إنّ فهم الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ على نحو مخصوص، قد يُعَطِّلُ الألوهيَّةَ ويُفْرِغُهَا من كلِّ معنى إنساني يحتاجه الناس لعبادة الحقّ؛ لكنَّ الآيةَ فيها تنزيهٌ، وهو الجزء الأوَّل منها، وفيها تشبيهٌ وهو الجزء الثاني منها فالسمع والبصر في الخالق والمخلوق معًا. لكنَّ الحقيقة هي أنَّ الله تسمَّى لخلقه بأسماء كثيرة، وهذه الأسماء صور معنويَّة لحقيقة الألوهيَّة تُقَرِّبُهَا من الإنسان. إنَّ الأسماءَ، سواءٌ كانت جماليَّة أو جلاليَّة، تمنح المتعَبِّدَ بها ما لا تمنحه الصوَرُ الحسِّيَّة كالأيقونات والتماثيل وغيرها من التجلِّيات الإلٰهيَّة للإلٰه.

مكتبة الرمحي أحمد

كان في المجلس أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، فقال للمأمون: يا مولاي، إنَّ قول النصارى بأنَّ «المسيحَ كلمةُ الله» لا يختلف في شيء عن قول بعض المسلمين بأنَّ القرآنَ قديم.

فقال المأمون: وكيف ذلك؟

فقال ابن أبي دؤاد: إنّ القولَ بأنَّ القرآن قديمٌ، يُضَاهِي ادِّعَاءَ النصَارى أنَّ المسيحَ ليس بمخلوق، إذ هو كلمة الله، كما سبقت

الإشارة إليه في أوّل الحديث في هذا المجلس. إنَّ تقرير القول بأنَّ القرآن قديم قد يؤدّي إلى القول بتعَدُّدِ القُدماء.

فقال المأمون متعجِّبًا وإنَّ تعدُّدَ القدماء قد يؤدّي إلى القول بتعَدُّدِ الآلهة، وهذا هو الشِّرْك والوثنيّة، والعياذُ بالله. فبعض النصارى يحكُمُونَ بِقِدَمِ عيسى عليه السلام، ولهذا يعبدونه.

فقال ابن أبي دؤاد، وقد وصل إلى مبتغاه: وهذا ممَّا نخشى على العامَّة منه، وضلالِ الأُمَّةِ بأكملها. إنَّنا لن نَعْدَمَ يا مولاي أن يَعْمَدَ النصَارى، تَبَعًا لقول الفقهاء والمحدِّثين بأنَّ القرآنَ قديمٌ، سبيلاً لأن يُقيموا الحُجَّةَ على أنَّ عيسى عليه السلام قَديمٌ. وسيكونُ كتابُ الله حجَّةً لهم في هذا القول على عامّة المسلمين، لأنّ القرآنَ يقول بأنَّ المسيحَ كلمةُ الله، وكلُّ كلامِ الله قديمٌ، وكلمةُ الله التي هي عيسى قديمةٌ، فالمسيحُ قَديمٌ. وبهذه الطريقة، نكون قد قُدْنَا الأُمَّةَ إلى الضَّلال، فليس أمامنا يا مولاي مخرج من هذا الشرك إلَّا أنْ ندعو إلى عقيدة خَلْقِ القرآن.

ثم التفتَ المأمونُ إلى التراجمة، وفيهم من بقي على نصرانيَّته، وسألهم قائلا: هل هذا صحيح؟

فأجابه واحد ممَّن أَسْلَم: إنَّ ما يَغيضُ الكنيسةَ اليومَ هو دخولُ الكثيرِ من المسيحيِّين في الإسلام، وإنِّي لا أُخفي عليكم يا مولاي، أنّ من بين الأدلَّة التي يُروِّجُها رجالُ الدين في الملَّة النصرانيَّة ما حَدَّثَكُمْ به، الساعةَ، القاضي ابنُ أبي دؤاد، ويجادِلون بها المسلمين في الذَّوْدِ عن مِلَّتِهم.

ثم أضاف قائلاً، بعدما نَحْنَحَ بصوته لِيُخْفِي الحَرَجَ من أصحابه

الذين بَقوا على نصرانيَّتهم: لقد كان يوحنَّا الدمشقيّ يا مولاي يُعَلِّمُ المسيحيِّين كيف يجادلون المسلمين، فيقول: «إذا سألك العربيّ، ما تقول في المسيح؟ فقل له، إنّه كلمةُ الله. ثم اسأله: بِمَ سُمِّيَ المسيحُ في القرآن عندكم؟ ولا تَقْبَلِ الحَديثَ معه في شيء آخر حتى يُجِيبَكَ عن هذا السؤال. وعند ذاك، سيضطَرُّ إلى استحضار الآية التي تقول ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. فإذا سرد هذه الآية، اسأله بعد ذلك عن كلمة الله وروحه، أمخلوقةٌ أمْ غيرُ مخلوقةٍ؟ فإن قال مخلوقةٌ، فَيُرَدُّ عليه بأنَّ اللهَ كان ولم تكن معه كلمةٌ ولا روحٌ. فإن ذكرتَ له هذا، أُفْحِمَ واضْطَرَبَ، لأنَّ القول بذلك عند المسلمين زندقةٌ، ولن يَقْبَلَ بالقَوْلِ به واعتقادِه.

أطرق المأمون برأسه إلى الأرض مُتفكِّرًا في هذا الكلام الخطير، ثم قال لابن أبي دؤاد: حرِّر لي القولَ في مسألة القول بخلقِ القرآن حتى نرى ما سندعو الناس إليه، فإنَّ الأمر يستوجبُ منَّا الحزمَ في عقائد المسلمين؛ وإنِّي لن أُمِدَّ الخصومَ بحجَّةٍ يجادلوننا بها على صِحَّةِ عقائدنا، ولن أتركَ هذه الثغرةَ لكي ينالوا من ديننا، وليس قولُهم بحقٍّ، إذ هو قَوْلٌ بتعدُّدِ القدماء، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

فقال ابن أبي دؤاد مبتهجًا: السمْعُ والطاعةُ لأمير المؤمنين.

ثم التفتَ المأمون إلى التراجمة، وقال لهم: أخبروني عن الكتب التي جلبتم.

تكلّم أعضاء الوفد واحدًا تلو الآخر، وأَعْطَوْا للمأمون فكرةً واضحةً عن الكتب التي جلبوها، فأمر التراجمةَ أن يَشرعُوا فَوْرًا في ترجمتها، وأَغْرَاهُمْ بمال كثير. كان هؤلاء التراجمة الأفذاذُ من كلِّ

القوميَّات والأديان، فلم يكن المسلمون يَضِيقُونَ بالاختلاف، بل كانوا يُشَجّعونَ كلَّ صاحبِ موهبة وعلم حتى يصل إلى المراتب العليا. وكان أغلبُ هؤلاء التراجمة من العرب السرْيَان من النسَاطِرَة واليَعَاقِبَة، أو من الصابِئَة، أو من الرومِ البيزنطيِّين، أو من المَجُوس والبَراهِمَة، أو اليهود، أو الزَّرَادشْتِيّين. كان المقياسُ الوحيدُ هو التمَيُّزُ والكفاءة، وليس الاختلاف الدينيّ. كان كثير من هؤلاء التراجمة أيضًا من الفُرْس أو السرْيَان الذين أسلموا.

توجَّه المأمون إلى التراجمة بقوله: أريدكم أن تنقُلوا هذه الكتبَ المجلوبة إلى اللسان العربي، فليس هناك ما يمنعنا لنقلها إلى لساننا، ولا خوفَ على ملّتنا منها، كما يتوهَّمُ الرُّومُ البيزنطيُّون. ففي هذه الكتب كلُّ الخير، فيها الحِكمة والرياضيَّات والهندسة والفلك والسياسة والموسيقى وغير ذلك. إنَّ ما لم يستحضره حفدةُ الرُّوم اليومَ هو أنَّ العلمَ يَكثُرُ بالإنفاق على عكس المال الذي يَقِلُّ كلَّما أنفقه الإنسان. وكثرةُ العلمِ تعودُ بالخير العَميم، فلا خوفَ مِنْ نَشْرِ العلم، بل كلُّ الخوف من التضييق على العلم، ومَنْعِ العلماء مِنْ بَثِّ علومِهم.

ثم توجّهَ إليهم واحدًا تِلْوَ الآخر، يأمُرُهُمْ بما يراه أَوْفَقَ لذهنه وقَريحته واهتماماته وكفاءاته، فقال للحَجَّاج بن يوسف بن مطر: لقد علمتُ سعادَتَك بحصولِك على كتاب المَجِسْطِي لبطليموس لدى أمبراطور الروم، فليكُنْ هذا الكتابُ أوَّلَ ما تنقلُ إلى العربيَّة. وستكون مكافأتك على قدر وزن الكتاب المترجَم ذهبًا.

فقال الحجّاج: أمرُ مولاي مُطاعٌ، وهذا تكليف يَغمرني بسعادة بالغة. وإنِّي أستأذن منك يا مولاي في ترجمة كتاب الأُصول لإقليدس بعد إنهاء ما أمرتني به، فهذا الكتاب الثاني من الكتب الأثيرة عندي.

وقد حرصتُ على حملهما من مخازن الروم في أوَّلِ دخولنا لها

فقال المأمون: ولك ذلك أيضًا، فإنَّ الترجمة الهارونيَّة، التي قمتَ بها في عهد والدنا هارون الرشيد رحمه الله لهذا الكتاب، مُستغلَقَةٌ، ولعلَّ هذا الأصلَ الجديد يُسْعِفُكَ في إيضاح مُبْهَمَاتِ الأصل الأوَّل الذي اعتمدتَ عليه في ترجمتك الأولى، ولْتُسَمِّ هذا النقلَ الجديد بـ «المأموني»، بعد تهذيبِ ما أنجزتَه سابقًا لكنّي سأطلبُ من حنين بن إسحاق أن يراجعَ ترجمَتَكَ لكتاب المجسطي لبطليموس؛ ثم توجَّه إلى حنين قائلاً: إنِّي أعلمُ اهتمامك بالطِّبِّ، فاعمَلْ على ترجمة أكبرِ عددٍ من الكتب المجلوبَة في هذا الفنّ، لكنِّي أعلمُ اهتمامَك بالفلسفة، فترجِمْ منها ما وَسِعَك، وخاصَّة المنطق، فانقُلْ لنا كتابَ المقولات لأرسطو، وانقل أيضًا كتابَ القِياس وكتابَ البُرهان، فهي من أجَلِّ الكتب التي تُعلِّم طرائقَ التفكير.

* * *

بعد أن استوثقَ الغلامُ الفارسيّ حسين لأمره، خرج بالكتب التي احتفظ بها من المدينة المدوَّرة راكبًا بغلةً فارهة قويَّة، وأخفى الكتبَ في رَحْلِ الدابَّة وغطّاها بأثواب مختلفة. اتَّجه نحو باب الشام في اتِّجاه منطقة الحربيَّة، ثم مرَّ بمحلَّة باب الشعير ومحلَّة الخوارزميّة حتى وصل إلى الكاظميَّة حيث كان يسكن أحد دُعاة الشيعة قريبًا من مدفن الإمام موسى الكاظم في مقابر قريش، في الجهة المقابلة لنهر دجلة حيث مدفن الإمام أبي حنيفة. طرق البابَ، ففتح له غلام في مثل سنِّه، وسارع بإدخاله إلى فِناء الدار مع بغلته. وكان للدار بستان كبير، فيه قُبَّةٌ مسقوفَة، وممرَّاتٌ بين المغْرُوسَاتِ والأشجار. بقي الغلام حسين واقفًا بجانب الدابّة لا يَغيبُ عنه أدنى حركة، إذ كان حَرِيصًا على

حراسة الكتب التي كانت في الرَّحْل. وبعد قليل، نزل من الدَّوْرِ العُلْوي رجلٌ تملأ صدرَه لحيةٌ عريضَةٌ، على رأسه عِمامةٌ سوداء وعلى مَنْكِبَيْهِ كِساءٌ بُنِّيٌّ داكنٌ، فَهَشَّ في وجه الغلام حسين ورحَّب به، ثم أمر رجلاً من رجاله بإفراغ ما في الرَّحْل، وحمْلِه إلى مكان مخصوص في الدار، عيَّنه له. صَعِد الرجل وطلب من الغلام أن يتبعه، وفي إثرهما الرجل يحمِل الكتبَ الملفوفةَ في أثواب، حتى انتهى إلى غرفة قَصِيَّةٍ، فدخلها وطلب من الغلام حسين أن يتبعه. وبعدما جلس في صدر المجلس، أشار على حسين بالجلوس عن يمينه، وأمر الرجلَ أن يضعَ الكتبَ عن يساره، وإغلاقِ باب الغرفة، وطلب منه عدم إزعاجه. فكَّ رزمةَ الكتب، وبدأ يطالع فيها كان الرجل فارسيًّا مثل الغلام حسين. لم يَنْبِسْ بحرفٍ، لكنَّه أشار على حسين بتناول بعض الطعام الذي كان أمامهما، فأصاب منه، ثم أخذ كأسًا من الحليب المنسَّم بالأعشاب، فاحتَساه ببطء يُغَالِطُ به الصمتَ الثقيلَ المخيِّم على الغرفة. وبعدما تأكّد الرجلُ ممّا في الكتب، تكلَّم وسأل الغلامَ عن مهمَّته، فأخبره بكلِّ ما حصل، فشكره ودعا له، ثم أوصاه بأمور خاصَّة وصرفه في مهمَّة أخرى، بعدما دسَّ في يده كيسًا من الدنانير، وألَحَّ عليه في الكتمان.

كان الغلامُ حسين من نسل نُبلاء فارس. وقد نشأ في بيت الرجل الفارسيّ الذي أرسله لجلب الكتب، وسهِر على تعليمه، ثم صار من رجال ثقته الأوفياء يرسله في بعض المهمَّات السرِّيَّة، فكان يشتغل مع التراجمة في بيت الحكمة، وينقل ما فيها من كتب نادرة لكفيله الداعية عبد الله البغدادي. وقد بدأ التصاهر مع الفاتحين حين فتح المسلمون بلاد فارس وتزوَّجوا من نسائهم. وقد تزوَّج سيِّدنا الحسين ببنت أحد ملوك الساسانيِّين، وهي التي ولدت له الإمامَ السجّاد، عليًّا زَيْنَ

العابدين الذي قيل فيه:

وإنَّ غلامًا بين كِسرى وهاشمٍ    لَأكْرَمُ مَنْ نيطَتْ عَلَيْهِ التَّمَائِمُ

كان الرجل الفارسيّ الذي قصده حسين أحدَ العبادلة الأربعة الذين كانوا من دعاة الأئمّة المستورين. أمّا الكتب التي وصلت إليهم، فأغلبُها من علوم الأسرار في مِلَلِ الفرس القديمة وبعض كتب حكماء اليونان من الفيثاغوريّين والهرامسة. اجتمع الرجل في الأيّام التي تلت مع الدعاة، وشرعوا في نقل الكتب التي جلبها الغلام الفارسيّ حسين إلى العربيَّة. وبعد أن أَتَمُّوا ترجمتها، اتَّصلوا بالإمام أحمد بن عبد الله بن محمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأطلعوه عليها. كان هذا الإمام أحد أئمَّة دَوْرِ الستْر، وكان أبوه عبد الله منهم. فبعد موت الإمام السادس جعفر الصادق، اختلف الشيعة في الإمام السابع، فاختار فريقٌ منهم ولدَه موسى الكاظم، وهم فرقة الإماميّة؛ واختار الفريق الثاني ولده إسماعيل الذي مات في حياة أبيه، لكنَّهم كانوا يعتقدون في إمامته، وسُمُّوا بالإسماعيليَّة. ومنذ ذلك الحين، بدأ دَوْر الستْر عند هذه الفرقة، فكان منهم محمّد بن إسماعيل، ثم ولده عبد الله الذي بدأ مشروع كتابة الرسائل ولم يُنْهِه بسبب وفاته، وخَلَفَهُ ولدُه أحمد الذي كان مختفيًا في هذا العهد، ولا يعلم بوجوده إلَّا الدعاةُ وبعضُ خاصّتهم خوفًا عليه من الاغتيال. كان على الإمام أحمد أن يُكمِلَ المشروعَ الذي ابتدأه والده الإمام عبد الله بتأليف موسوعة إسماعيليّة لمقاومة خطَّة المأمون المتَّهم في نظرهم بتضييع علم النبوَّة. لم تكن خطَّتُهم لتنجحَ دون الاعتماد على علوم القدماء، ولهذا بعثوا الغلامَ الفارسيّ بأمر من الإمام حتى يُحْضِر الكتبَ التي كانت في خزائن بيزنطة، والتي لم يكن من الممكن الوصول إليها إلَّا بهذه

الطريقة. لقد كان من الصعب إكمال تلك الموسوعة دون الاستعانة بعلوم الأوائل. وقد بدأ التأليف في حياة الإمام عبد الله، لكنَّه توقَّف. فلمَّا جاء دور ولده أحمد، جمَع ما تركه والدُه، وأشرفَ على تحرير تلك الموسوعة بمساعدة الدعاة، فحرَّروا عدَّةَ رسائل منها، وبقيت عدَّة أبواب تنتظر أن يَحْصُلُوا بشأنها على المراجع الضروريَّة، لأنَّ هدف الموسوعة أن تصبحَ مرجِعًا يَنْسَخُ ما سواها من المراجع الأخرى، ويهيِّئُ لوصول الأئمَّة مرَّة أخرى إلى الحُكم. كانت هذه الموسوعة تُغطِّي كلَّ جوانبِ المعرفة، لكنَّها كانت تؤكِّدُ على أهمِّيَّة التعليم الذي ينبغي أن يُؤْخَذَ من المعلِّم ـ ويقصدونَ به الإمام. لقد جعلوا مصادرَ المعرفة في الأئمَّة وقصّروها عليهم، ولم يرتضوا أن يحتكِمُوا إلى العقل الإنساني المشترك، كما يريد المأمونُ حين خطَّطَ لترجمة كتب حكماء اليونان، وفي مقدِّمتهم المعلِّم الأوَّل، أرسطو.

* * *

إلى جانب ما كان يجيش في بغداد من ملل ونحل وما يترتَّب على اختلافها ومعاركها من فتن في هذا العهد، عرفت مدينة السلام فتنة أخرى، هي المحنة التي نزلت بأهل السُّنَّة والجماعة حول قضيّة خَلْقِ القرآن حين أصبحَتْ عقيدةً للدولة في عهد الخليفة المأمون، وأُجبِر الناسُ على اعتناقها

بدأت محنةُ القولِ بخَلْقِ القرآن، وبأفضليَّة سيِّدنا عليّ كرَّم الله وجهه، بعد النبيّ عليه الصلاة والسلام، ثلاثَ سنواتٍ قبل ولادة الجُنَيْد، أي في سنة ٢١٢ هـ. وقد عدَّ الناسُ هذا مذهبًا ثانيًا من مذاهب الشيعة، إذ المذهب الأوَّل هو سَبُّهُمْ للصحابة.

تناقل الناسُ ما جرى للنضْر بنِ شُمَيْل، حيث أَخْبَرَ أنّه دخل على

المأمون في قصره، فقال له:

كيف أصبحتَ يا نَضْر؟

قال النضر بخير يا أمير المؤمنين.

قال المأمون: صدقت،

ثم قال: أتدري ما قلتُ في صبيحة يومي هذا؟

قال النضر: أَنّى لي بعلمِ الغيب؟

قال المأمون: أصبحتُ وأنا أقول:

أصبحَ ديني الذي أدينُ به ... ولستُ منه الغداةَ مُعتذِرَا
حُبُّ عليٍّ بَعْدَ النبيّ ولا ... أَشْتُمُ صِدِّيقًا ولا عُمَرا
ثم ابن عفّانَ في الجِنان مع الـ ... أبرارِ ذاك القتيلُ مصطبرا
ألا ولا أَشتمُ الزُّبَيْر ولا ... طَلْحَةَ إن قال قائلٌ غَدَرا
وعَائشُ الأمُّ لستُ أشتُمُها ... مَن يَفتريها فنحنُ منه بَرَا

أنكر الناس بدعةَ القول بخلق القرآن من المأمون، فَهَدَأَ بضعَ سنين، ثم تحوَّل إلى الدعوة إليها بالترهيب.

وفي هذه السنوات، وُلِدَ الجنيد في حدود سنة ٢١٥ هجريَّة. صادفَتْ ولادتُه زيادةَ مياهِ دجلةَ، فحدثَتْ فيضانات في الجهة الغربيَّة للمدينة حيث كان مسكنُ والديه. لقد ارتفع منسوبُ المياه على ظهور بيوت الرَّحَى من نهر الصارَة. كما تقطَّعَتْ جسورُ المدينة. يا لَهُ من إحساس غريبٍ أن يولدَ المرءُ مع حدثٍ مثل هذا! قد يتفاءل الناسُ من ذلك وقد يتشاءَمون، لكن نبيّ الإسلام ﷺ قال عن مثل هذا «إنّ الشمس والقمر لا يخسِفانِ لموتِ أحَدٍ ولا لحياته، ولكنَّهما آيتانِ من

آياتِ الله، فإذا رأيتمُوهما فصلّوا». كان والدُ الجنيدِ قواريريًّا يبيعُ أواني الزجَاج في الأسواق التي في جنوب المدينة الدائريَّة.

بدأ أمر هذه المحنة يستفحل، وحدَثَتْ بسببه فتنةٌ في البلاد. وفي بغداد، اصطفَّ أهلُ السُّنَّة والحديث والزهَّاد في جانب، والمعتزلة في جانب آخر. كان أهل الحديث والفقهاء وصوفيَّة بغداد يرفضونَ القولَ بخلق القرآن. ومن هؤلاء: الحارثُ المحاسبي والسَّري السَّقطي خالُ الجنيد، لكنَّهم كانوا يوجِّهونَ جهدَهُم لما هو أعظم، وهو تحريرُ النفس الإنسانيَّة من الأهواء، فوقفوا عند نصِّ القرآن وسُنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام دون زيادة؛ ثم إنَّهم لم يكونوا مصدرَ تهديد مباشر لعقيدة الدولة الجديدة، حيث لم يكونوا يشتغلونَ بالمناصب كالقضاء والحِسْبَةِ وغيرها، ولم يكونوا يتصدَّرون للتدريس في المساجد، بل كانوا يعلِّمون أتباعهم وطلبَتَهُم في بيوتهم.

* * *

دخل السَّريّ يزور أختَه، فوجد الجنيدَ يلعب في فناء البيت، فحمله بين يديه وتفرَّس فيه، وقال لأخته: سيكونُ لابنك هذا يا أختي شأنٌ عظيم.

ابتسمَتِ الأمُّ، وقالت: آمين يا ربَّ العالمين.

بعد قليل، حضر زوجُ أخته، محمَّد القواريري، فرأى شقيقَ زوجته مع ابنه، فابتسم له ابتسامةً لطيفة، ثم سلَّمَ وقال: ماذا تقولُ يا سريّ عن ابني الجنيد؟

فقال السَّريّ: لا أقولُ إلَّا خيرًا، ولا أرى إلَّا خيرًا.

فقال محمَّد: لعلَّ اللهَ يجعلُ منه عالِمًا من عُلماء المسلمين.

فقال السَّريّ: سيكون بإذن الله نجمًا بين العلماء، وشمسًا بين الصُّلَحاء. ألا ترى ما أرى يا أبا الجنيد من نَباهة وعلم وصَلاح؟

فقال محمَّد: إنَّك من أهل الصلاح يا سريّ، وقد رزقك الله فِراسة، فأسأل الله أن يجعلَ كلامَك حقًّا وإنّي أستودِعُكَ ابني حتى تَبُثَّ فيه بعضَ ما علّمَكَ اللهُ من العِلم، وما وهبَكَ من الأخلاق الحسنة.

فجأة، غيَّرَ سريٌّ الموضوعَ، وقال لزوج أخته: كيف حالُ صديقِك عبيد الله بن عُمَر القواريري؟

فقال محمَّد: إنَّه في ضَنَكٍ وشدَّة بعد وصول كتاب الخليفة المأمون إلى عامله على بغداد لامتحان العلماء في قضيَّة خلق القرآن.

فقال السريّ السَّقطي: لقد سمعتُ بهذا الخطاب، ثم بلغني نصُّه كاملاً من أبي عبد الله أحمد بن حنبل، حيث أمر المأمونُ عاملَه على بغداد أن يجمعَ من بحضرته من القُضاة والعُلماء وغيرهم، ويقرأَ عليهم كتابَ أمير المؤمنين، ثم يبدأَ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خَلْقِ الله القرآن وإحداثه.

فقال محمَّد: والله، إنِّي لأخشى على أصحابنا من هذه الفتنة.

قام بالسَّرِيّ حالٌ عجيب، وفجأة قال: لعلّ الموتَ أو القتلَ الذي يهدِّدُ به المأمونُ أصحابَنا، أن يخترمَه قبل أن يَحُلَّ بهم.

نظر محمَّد إلى السريّ السَّقطي فَرَاعَهُ قولُه، لكنَّه كان يعلم أنَّ مثلَ هذا الحال هو كسحابةٍ وَطْفَاءَ في سماءٍ وَكْفَاء، تنهَمِرُ في اندفاع وحولها القَطْرُ يسيلُ قليلاً قليلاً لا شكَّ أنَّ لهذا الحال أثرًا على كلِّ نفْسٍ تُدركُ سيَلان هذا الإلهام، كما تُؤَثِّرُ السحابةُ المنهمرة بالماء،

ويسري أثرُها فيما جاورها. إنَّما أحوالُ الرجال سحابٌ يجري بماء النفوس، فلعلَّه إن صادف أرضًا يَبَابًا أحياها. أطرق محمَّد من أَثَرِ وَقْعِ حال صهره عليه، فأخذ ابنَه وقبَّله، ثم سلّمَه إلى السَّريّ، ورغِبَ في أن ينفَحَه من حاله، ويسري فيه ماءُ ذلك التَّجَلِّي. أخذ السَّرِيُّ الولدَ فخفَّ عنه ثقلُ الحال، ونظر في الصبيّ الذي كان بين يديه يلهو بلحيته كأنَّه يَفُكُّ غَزْل شعراتها مَرَّ بالسّريّ خاطرٌ وهَمْهَمَ كلماتٍ مبهمةً، التقطَ منها محمَّد كلمةً أو كلمتين ﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾، فأدرك للتَّوِّ خاطرَ السريّ، وقال له: أَمُوسى مُمْسِكٌ بلحية هارونَ يا سريّ؟

فقال السَّريّ: صدقتَ، فلكأنَّ ابنَ أختي موسى زمانِه، وصرتُ بمنزلة هارونَ منه.

فقال محمَّد: هذا إخبارٌ عظيم يا سريّ.

كان الطفلُ مُتماديًا في العَبَثِ بلحية خاله ورأسه، فازداد يقينُ السَّريّ بحقيقة الخاطر، ثم ردَّ الجنيدَ إلى والده، واستأذنَ في الخروج بعدما ودّعَ أختَه وزوجَها

وفي الطريق، عرّجَ على بيت الحارث المحاسبي ليزوره بعدما صلّى في أحد مساجد المدينة، وزار أحد أصحابه في سوق الورَّاقين الذي سلّمه رسالة مجهولةَ المؤلِّف، ليذكرَ له رأيَه فيها. أخذ سريّ الرسالة ونظر فيها ثم وضعها بين ثيابه، وانصرف.

بعد ذلك، اتَّجه نحو دار الحارث بن أسد المحاسبي، ففتح له بنفسه الباب وبشَّ في وجهه، ثم دعاه للدخول. كان بيتًا بسيطًا به فِناء، وله دَوْرٌ عُلْوي، فدخل إحدى الغُرَف المطِلَّة على الفِناء وجلس على حصير، ودعا السَّريّ إلى الجلوس، فجلس عن يمينه. أخذ جَرَّةً

وصبَّ في كوز بعض الماء، ثم ناوله لضيفه فشرب حتى ارتوى، ثم أخذ منه المحاسبي الكوز وشرب ما فضل فيه، ثم مسح بيديه من بقيَّة ذلك الماء على وجهه. وبعد ذلك فاتح السَّريّ بقوله: ما الذي أتى بك يا سريّ؟

فقال السَّريّ: أحببتُ أن أتحدَّثَ إليك رغم علمي بانشغالك.

فقال: ليس للعبدِ شغلٌ إلّا بخالقه، وليس له شغلٌ إلّا الوقوفُ على خدمته.

فقال السَّريّ: وأين المحبَّة في ذلك؟

فقال المحاسبي: لا بدَّ من الخدمة، فإن وفَّيت بها ظهَرَتْ عليك ثمار المحبَّة.

فقال السَّريّ: وكيف تفهم المحبَّة؟

فقال المحاسبي: المحبَّة ميلُك إلى المحبوب بكلِّيَّتك.

فقال السَّريّ: أليس الميلُ نقصًا؟

فقال المحاسبي: من الميل ما يكون كمالاً ألا ترى مثلاً أنَّ القاضي حين يحكمُ لأحد المتقاضييْن لا بدَّ أن يميلَ بالحكم إلى أحدهما. أفَإِنْ مال إلى الحقِّ، هل يكون ذلك الميل نقصًا أم كمالاً؟

فقال السَّريّ: بل كمالاً

فقال المحاسبي: والشيء نفسه يحصل في المحبَّة. فهي ميل إلى المحبوب بكلِّيَّتك. فإنَّ الميلَ إلى المحبوب هو لُباب الأمر في المحبّة، فإن وقفتَ مع نفسك ولم تَمِلْ لمحبوبك، فلا تطمَعْ في المحبَّة، واقْنَعْ بأن تبقى على الأبواب، فمقامُك دون الأَعْتَاب.

فقال السَّريّ: وماذا بعد الميل؟

فقال المحاسبي: إيثارُكَ له على نفسِك وذَويك ومالِك.

فقال السَّريّ: ثم ماذا؟

فقال المحاسبي: ثم موافَقَتُكَ له سرًّا وجهرًا.

فقال السَّريّ: ثم ماذا؟

فقال المحاسبي: ثم علمُك بتقصيرك في حبِّه.

فقال السَّريّ: ثم ماذا؟

فقال المحاسبي: ليس بعد ذلك إلّا فضلُ الله. لكنْ أخبرني، ما الذي جاء بك في هذه الساعة؟ أكيدٌ أنَّك لم تأتِ فقط لتسألني عن المحبَّة.

فقال السَّريّ: صحيح، لكنِّي أردتُ أن أجلس إليك وأتحدَّث معك فيما يرقِّقُ القلوب. لقد جئتُ لأسمعَ منك ما تقولُ في الفتنة التي حدثَتْ حول خلْق القرآن، حتى يكونَ أصحابُنا على بَيِّنَةٍ من الأمر.

فقال المحاسبي: أنت تعلَمُ أنِّي أشتغلُ على نفسي أُراقِبُها وأحاسِبُها حتى لَقَّبَنِي الناسُ بـ «المحاسبي». أمّا ما حدث من هذه الفتنة التي أطلقها «أهل البدع»، فلا شكَّ أنَّ مرجعَها يعود في الغالب إلى اختلاف الناس في قضيَّة الإمامة. فكلّ فريقٍ يحاولُ أن ينشر عقيدةً معيَّنة حتى يتمكَّنَ من السيطرة على عقول الناس، لأنَّ مَنْ تمكَّن مِنَ السيطرة الفكريَّة العقديَّة سيصل حتمًا إلى السيطرة السياسيَّة التي هي قضيَّة الإمامة، كما ذكرت لك. فالقولُ بخلق القرآن ليستْ قضيَّةً عقديَّة كما قد يبدو فحسب، بل وراءها قضيَّة سياسيَّة، لأنَّ القولَ بحدوث القرآن معناه أنَّ من يصنعُ التاريخ ويفسِّرُ القرآنَ هُمُ البشر، وفي هذا ردٌّ

على المخالفين الذين يطعنون في خلافة الدولة القائمة، إذ يعتبرونَ أنَّ التنْصيصَ على الإمامة قد تَمَّ أزلاً وما دام الأمر كذلك، فإنَّ كلَّ مخالفةٍ لهذا التنْصيص الأزليّ على إمامة آلِ البيت يُعَدُّ خروجًا عن نصِّ القرآن نفسِه، بينما القولُ بخلق القرآن معناه أنَّ قضيَّةَ الإمامة متروكةٌ للناس يُقرِّرون فيها ما يرتضونه إمَّا للغالب، وهو الأعمّ، وإمَّا لمن يرتضونه بالتوافق والإجماع، وقد حصل هذا وذاك.

فقال السَّريّ: لم أر القضيَّة على هذا الوجه، لكنَّ الإماميَّة والإسماعيليَّة وغيرها من الفرق لم تُنْكِرْ مرتبةَ العقل.

فقال المحاسبي: صدقت، إنَّ هذا جزء من الخطَّة العامَّة التي تبنَّوها للإطاحة بخصومهم. فما دام أنَّ المأمون قد عمل على نشر العلوم العقليَّة وترجم كتب الأقدمين، فلا بدّ من أن يقوم خصومه من الباطنيَّة بنشر فلسفة هرمسيَّة مضادَّة يكون للعلوم العقليَّة مكانٌ فيها.

فقال السَّريّ: إنَّ بعض الأصول التي تقول بها الباطنيَّة موجودةٌ في العرفان عند أصحابنا.

فقال المحاسبي: صدقت، لكنَّها ليست بالدرجة نفسها، ولا تُؤَدِّي الوظيفة أو الغرض نفسه. إنّ الإسماعيليَّة والباطنيَّة عمومًا قد أَلْبَسَتِ العرفانَ لبوسًا غُنوصيًا وسياسيًا ليس من طبيعة العِرفان نفسه عند أصحابنا فغايته عندنا معرفيَّة، بينما غايته عند الباطنيَّة سياسيَّة، وشتَّان بين من جعل الغاية هي المعرفة، وبين من جعلها في السياسة، أي في التهافُت على المناصب في الدنيا الفانية.

فقال السَّريّ: ومتى بدأ الطلاق بين الفريقين؟

قال المحاسبي: بعد وفاة الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه،

حينما خرج الشيعة على الدولة.

فقال السَّريّ: كيف العملُ إزاءَ هذه الفتنة وغيرها اليوم؟

فقال المحاسبي: سأحكي لك ما حصل لي، حتى تفهمَ ما يمكنُ أن نقومَ به. إنِّي «لم أَزَلْ برهةً من عمري أنظرُ اختلافَ الأمَّة وأَلْتَمسُ المنهاجَ الواضح. ونظرتُ في مذاهبها وأقاويلها فَعَقَلْتُ ذلك ما قُدِرَ لي، ورأيتُ اختلافهم بحرًا عميقًا غَرِقَ فيه ناسٌ كثيرٌ، وسَلِمَ فيه عصابة قليلة. إنِّي تدبَّرتُ أحوالَنا في دهرنا هذا. فرأيتُ زمانًا مستصعَبًا قد تبدّلَتْ فيه شرائعُ الإيمان وانْتُقِضَتْ فيه عُرَى الإسلام. فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السّلَف وضمائِرهم. وقد قيَّضَ لي الرؤوفُ بعباده قومًا وجدتُ فيهم دلائلَ التقوى وأعلامَ الورع وإيثارَ الآخرة على الدنيا فهم أئمَّةُ الهدى. فقهاءُ في دين الله. تاركين للتعمُّق والإغلاء. مبغضينَ للجدل والمِراء. فأصبحتُ راغبًا في مذاهبهم مقتبِسًا من فوائدهم. ففتح الله عليّ بما اتَّضح لي برهانُه. فاعتقَدْتُهُ في سَريرتي وانطويتُ عليه بضميري وجعلتُه أساس ديني».

فقال السَّريّ: أفهمُ من كلامك أنَّك لم تجدِ اليقين في الفقه والكلام، بل في صُحبةِ الأخيار من أهل العرفان.

فقال المحاسبي: بل إنَّ الفقهَ الخالصَ لوجهِ الله قادني إلى الإحسانِ والعرفانِ لمّا صَحِبْتُ الأخيار.

فقال السَّريّ: وكيف ذلك؟

فقال المحاسبي: لقد ركَّزْتُ على علم المعاملة، والتزمتُ ذلك، وجعلته دَيْدَنِي.

فقال السَّريّ: وأين مرتبةُ العقل؟

فقال المحاسبي: العقلُ، ليس كما يقولُ المتكلِّمون عنه، أنَّه صفوةُ الروح، ولا هو معرفةٌ وضعها اللهُ في عباده، تَزيدُ وتتَّسِعُ بالعلم المكتَسَب، ولا هو أيضًا استدلالٌ بالشاهِد على الغائِب كما عند المعتزلة، بل هو غَريزةٌ في ذاتِ الإنسان يعقِلُهَا عن الله، ويأخُذُها عنه ويفهم بها الأشياء.

فقال السَّريّ: وأين الفرقُ بين ما يفهمه الشقِيُّ وما يفهمه التقِيّ؟

فقال المحاسبي: إنَّ العقلَ وظيفةٌ قائمةٌ بالقلب. إنَّه البصيرةُ التي تجعل قومًا يخشون الله ويحبّونه، ويطمَعونَ في رؤيته؛ وتُرْدِي قومًا آخرين.

ثم أضاف: لكنْ أخبرني كيف حالُ أصحابِنا مع هذه الفتنة؟

فقال السَّريّ: أغلبُهُم كما تعلَم بعيدٌ عن المناصب. فلم يَسْعَ الوالي ورجاله في امتحانهم، لكنَّ صاحبَنا القواريري من المقَرَّبِينَ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل المحدِّث، ويحضرُ بعض مجالسه الخاصَّة التي كان يعقدها في منزله مع أصدقائه وأولاده وخاصَّة تلامذته.

فقال المحاسبي: أعلم ذلك، وأعلم أنَّ المئات يحضرون درس أبي عبد الله أحمد بن حنبل في جامع بغداد عصر كلِّ يوم حتى العَتَمَة. فكثير كان يجلس إلى حلقته من أجل العلم، وإقرائِه لكتاب «المسْنَد»، ومنهم من كان يميل إلى أخلاقه وهديه وآدابه. فالرجلُ صاحبُ سمْتٍ وزهد وتواضع وجِدّ. ولا يتكلَّم إلَّا حينما يُسأل؛ بل إنَّه رغم حِفظه، كان لا يقرأ الحديثَ إلَّا من الكُتب تَعظيمًا لشأن الرواية عن النبيّ عليه الصلاة والسلام. وقد أخبرني الثقاة أنَّه كثيرًا ما كان يَخْرُجُ من بيته

بكتاب الإيمان وكتاب الأشربة، فيصلِّي، فإن لم يسأله أحد عاد بالكتب إلى بيته.

فقال السَّريّ: ولماذا هذه الكتب تخصيصًا؟

أجاب المحاسبي: كان يخرج بكتاب الإيمان، لأنَّ زماننا زمانُ فتنة مع فُشُوِّ الملل والنِّحل والعقائد المختلفة المتباينة، فكان يريد أن يعلِّم الناس الميراث النبويّ الذي يُحَصِّنُهُمْ من أهل الزَّيْغِ والفساد. وأمَّا كتاب الأشربة، فلا يخفى عليك شيوعُ الأشربة المحرَّمَةِ بين الناس لوجود عقائد تُبيح ذلك لأتباعها، ولالتباس الأمر على الناس فيما يبيحه الحنفيَّة من النبيذ. فكان أبو عبد الله يُدرِّس ما ورد من الحديث والسُّنَّة النبويَّة الطاهرة، حتى يتجنَّبَ الناسُ كلَّ خبيثٍ من الأشربة.

لكنْ أخبرني عمَّا تعرف عن حال أصحابنا من فتنة خلق القرآن.

فقال السَّريّ: هو كما ذكرت لك، فقد نأوا بأنفسهم عن الخوض فيها، فإن سُئِلَ أحدُهم، هل القرآن مخلوق؟ أجاب بقوله، إنَّ كلَّ شيء مخلوق، وتجنَّب الامتحان؛ لكنَّهم في أنفسهم رافضون لهذا القول، مثل غاليَّة أهل السُّنَّة والجماعة. وصاحبنا القواريري رفض ذلك القول تصريحًا لا تلميحًا، ولعلَّه يُمْتَحَنُ فيما ذهب إليه. وقد بلغني أنَّ إسحاق بن إبراهيم نائبَ المأمون على بغداد قد استدعى مجموعةً من الفقهاء والمحدِّثين لسماع قولهم في هذه القضيَّة، امتثالاً لرأي الخليفة الذي لا يقطعُ أمرًا دون استشارة جماعته من المعتزلة. لكنْ، قل لي من بدأ الكلام على هذه المقالة أوَّلَ مرَّةٍ؟

فقال المحاسبي: لقد كان الجَعْدُ بنُ دِرهم في عهد الأمويِّين أوَّلَ

من أحدث هذه المقالة، وقد قتله خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحى، بعدما صلَّى العيدَ وخطب في الناس قائلاً «اذهبوا وضَحُّوا بضحاياكم، تُقْبَل، فإنِّي أريدُ أن أُضَحِّي بالجعد بن درهم، فإنَّه يقول ما كلَّمَ الله موسى تكليمًا، ولا اتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً، تعالى الله عمّا يقول عُلُوًّا كبيرًا»، ثم نزل من المنبر وقتله. وقد جاء الجَهْمُ بنُ صَفْوان من بعد ذلك، ونفى صفةَ الكلام عن الله سبحانه وتعالى، تنزيهًا له عن الحوادث والمخلوقات وصفاتها، وحكم بناء على نفيه هذا بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ وليس بقديم. لكنْ، لم يستفحل الأمر إلَّا مع المعتزلة الذين بالغوا في صفات المعاني نفسها، وأنكروا أن يكون الله تعالى متكلِّمًا. وما ورد في القرآن من ذلك كتكليمِ اللهِ موسى عليه السلام أوّلوه بقولهم إنّ الله خلق الكلامَ في الشجرة. فهم لا يصفون الحقَّ بأنَّه متكلِّم، ولكنَّهم يعتقدون أنَّه تعالى يخلق الكلام كما يخلق سائر الأشياء. وقد ابتدأ خوضهم في هذه المسألة في عهد الخليفة هارون الرشيد، لكنَّه منعهم من ذلك وقرّب الفقهاء والمحدِّثين، ولم يكن يسمح بالخوض في العقائد. فلمَّا تولّى المأمونُ، قرَّبَ المعتزلة وجعل منهم وزراءَه وقُضاتَه ورجالَه، فانتشرتِ المقالةُ المذكورةُ على أوسَع نطاق. ولم يكتف بذلك، بل أراد أن يُرْغِمَ الناس على اعتناقها.

فقال السَّريّ: ولماذا مال إلى قول المعتزلة خلافًا لما كان عليه آباؤه؟

فقال المحاسبي: لعلَّ الأمر يعود إلى كونه نشأ وتربّى في مَرْو، وتتلمذ على أبي الهذيل العَلّاف رأسِ المعتزلة في زمانه. وقد كان المعتزلةُ متأثِّرين بعلوم القدماء، ولهم نصيبٌ في المناظَرة والجَدَل، فكانت له الغَلَبَةُ على خصومهم في المجالس التي كان يعقدها لمناقشة

هذه المواضيع. ولم يكن لخصومهم قَدَمٌ في الحِجَاج، ولا يملكونَ من أدوات المناظرة شيئًا، فمال إليهم المأمون، وخاصَّة إلى أحمد بن أبي دؤاد. فلمَّا أحسّ المعتزلة بعُلُوِّ منزلتهم لديه، حسّنوا له أن يُعْلِنَ هذه العقيدة وأن يُلزم الناس بها، حتى ينشروا مذهبهم وتَعْلُو مكانتهم في أَعْيُنِ العامّة.

فقال السَّريّ: لقد ازداد الأمر سوءًا بعد وصول كتاب المأمون، وفيه إلزام المحدّثين والقُضاة والمفتين والفقهاء باعتقاد هذه المقالة العجيبة، وإنِّي أخشى على أصحابنا منها. فقد قُرئ الكتاب بمحضر الكثيرين منهم، فأذعنوا لما أُمروا به إلَّا أربعة، هم أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ومحمَّد بن نوح، والقواريري، وسجّادة. وهذا ما انتهى إليه علمي. ولعلّ الأمر يزداد سوءًا خلال الأيَّام القليلة المقبلة إن لم يُذعِنوا لما أُرغِموا عليه.

فقال المحاسبي: هذه فتنة عمياء صمَّاء، وأرجو الله أن يُخلِّص أصحابنا منها إنّ ابن حنبل أَثيرٌ عندي، وقد بلغني أنَّه كان نَهَى أحد أصحابه عن الجلوس إليّ لكرهه الاشتغال بعلم الكلام في الرَّدِّ على أصحاب العقائد الفاسدة، وكان يظنُّ مثلَ أيِّ أَثَرِيٍّ أنَّ النجاةَ في اتِّبَاعِ السلَفِ الصالح بعدم الخوض في هذه المباحث، لكن تلك العقائد لم تكن فاشية في عهدهم فلم تكن هناك حاجة إلى علم الكلام، بينما نحن في أَشَدِّ الحاجة إلى هذا العلم لِنُنَاظِرَ عن الإسلام أمام خصومه. لكنَّ ابن حنبل كان من أهل الإنصاف، وأراد أن يستوثِقَ لدينه، فحضر مرَّة إلى بيت سائله، وجلس في غرفة منعزلة بحيث يسمع كلّ ما أقول. وقد صلّينا العشاء وقرأنا القرآن وحدَّثْتُ الأصحاب والتلاميذ بكلام في رعاية الحقوق المترتِّبة على المريد القاصد وجهَ الحقِّ، فطاب بنا ذلك المجلس إلى منتصف الليل، وقد رقّت القلوب ولانت النفوس حتى

تخضَّلت اللِّحَى بالعَبرات، فأدرك أبا عبد الله من أحوالنا شيء، ورجع عمَّا كان ينكره علينا، لكنَّه نصح ذلك السائل بعدم الجلوس إليّ، لأنَّ ما كنَّا نتحدَّث فيها مواجيد ذوقيَّة لا يَبلُغُها إلَّا من جاهد نفسه في مقامات الرجال.

فقال السَّريّ: أفلا تكون نصيحته لبعض أصحابه بعدم الجلوس إليك، لكونه كان يَذُمُّ الاشتغال بعلم الكلام كما يَذُمُّه أصحابنا أيضًا وينهون عنه؟

فقال المحاسبي: سببُ نهيِهِ عن مصاحبتي مرجِعُهُ إلى أنَّ الرقائقَ والمواجيدَ التي كنَّا نتحدَّثُ عنها تحتاجُ إلى مجاهَدَةٍ عظيمة، والسائلُ عنها لم يكن لديه القُوَّةُ لكي يَبْلُغَهَا، وقد كان أبو عبد الله بن حنبل يعلم ضعفَ حالِه، فنهاه عن ذلك سدًّا للذرائع، وظنَّ من لا علمَ له أنَّه كان ينهى عن صحبتي لأمرٍ كان يُنْكِرُهُ عَلَيّ. فَمَعَاذَ اللهِ أن يُنْكِرَ أبو عبد الله على أهلِ اللهِ أذواقَهم ومواجيدَهُم الربَّانيَّة التي لا يبلغها إلَّا أصفياءُ صَفْوَةِ الرجال. فإشفاقه على صاحبه دعاه إلى نصحه بعدم سلوك طريقتنا، لأنَّها لا تصلح لكلِّ أحد بل لبعض من سبقت له العناية، ودلَّه على ما هو أوفقُ له وأرفَقُ به من اشتغالٍ بالحديث والسُّنَّة النبويَّة.

ثم أضاف: إنّني منزعج ممّا قد يُصيب أبا عبد الله وجماعتنا، فأرجو أن تستوثقَ ممّا يجري، فلا بدَّ من أن نتوجّه إلى الحقِّ تعالى بالضراعة والدعاء كي يخلِّصهم من هذه المحنة، فاذهب الآن. وإذا وصلتك أخبار جديدة أَعْلِمني بها

* * *

مرَّت مُدّةٌ ساءت فيها الأحوال في بغداد، وأمر المأمون بإشخاص

الفقهاء الممتحَنين، فاعتُقِلَ جماعة ممَّن رفضوا مقالةَ خلْقِ القرآن وعُنِّفُوا، فتراجع أغلَبُهُمْ عن إصرارهم وأجابوا إلى ما أُرغِموا عليه، إلَّا أربعةٌ رَبَطَ الله على قلوبهم، وهم: أحمدُ بن حنبل، ومحمَّد بن نوح، والقواريري، وسجّادة، فأَوْثَقُوهُمْ وكَبَّلُوهُم بالحديد، وباتوا في الأغْلال في سِجنهم. فلمَّا كان اليوم التالي، أُعيدَ عليهم القَولُ، فأجاب سجّادة من الأربعة فأطلقوا سراحَه، وبقي الثلاثةُ على حالهم. ثم مرَّ يوم آخر، فأُعيد عليهم السؤال وطُلب منهم الجواب، فخارت مقاومةُ القواريري وأَذعنَ لمقالتهم، فَخَلُّوا سبيله. وقد كان إسحاقُ بنُ إبراهيمَ نائبُ المأمون على بغداد هو من يتولّى الامتحانَ بنفسه، فلمَّا دخل مع زبانيّته على الرجلين، توجّه إلى أحمد بن حنبل بالسؤال: أَمَا آنَ لك أن تَؤُوبَ إلى ما آب إليه باقي الفقهاء، وتُطيعَ أمير المؤمنين فيما دعاك إليه؟

فقال أحمد: قد عرفتَ مقالتي لأمير المؤمنين غير مرَّة.

فقال إسحاق: فقد تجدَّد مِنْ كِتابِ أَميرِ المؤمنينَ ما قد ترى.

فقال أحمد: أقولُ لكَ القرآنُ كلامُ الله.

فقال إسحاق: أمخلوقٌ هو؟

قال أحمد: هو كلام الله، لا أَزيدُ عليها.

ثم أخذ إسحاقُ رقعةً كانت بين يديه، وقال: قل لي ما تقول فيما سأقرأ عليك من هذه الرُّقْعَة «أشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله، أحدٌ فَرْدٌ، لم يَكُنْ قبلَهُ شيء ولا بعدَه شيءٌ ولا يشبِهُهُ شيءٌ من خلقِه في معنى من المعاني، ولا وجهٍ من الوجوه».

أجاب أحمد: ﴿لَيس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السمِيعُ البَصِيرُ﴾.

فاعترض عليه ابنُ البَكّاء الأصغر موجّهًا الكلام إلى إسحاق: أصلحَكَ الله، إنَّه يقول «سميعٌ من أُذْنٍ، بَصيرٌ من عَيْنٍ».

فقال إسحاق لأحمد بن حنبل: ما معنى قوله «سميعٌ بصير»؟

فأجاب أحمد: هو كما وصفَ نفسَهُ.

قال إسحاق: فما معناه؟

فقال أبو عبد الله: لا أدري، هو كما يَصِفُ نَفْسَهُ.

ثم أمر إسحاقُ بكتابة ما قاله أحمد، وأرسلها إلى المأمون.

مرَّت مُدَّة، فجاء جوابُ الخليفة «بسم الله الرحمٰن الرحيم. أمّا بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك. فيما ذهب إليه متصنِّعَةُ أهلِ القِبْلة، وملتمِسُو الريَّاسَة فيما ليسوا له بأهلٍ من أهل الملَّة من القول في القرآنِ. وأمَّا أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأَعْلِمْهُ أنَّ أمير المؤمنين قد عرفَ فحوى تلك المقالة، وسبيلَه فيها، واستدلَّ على جهله وآفَتِهِ بها .».

فلمَّا أعادوه إلى الحبس، جلس أبو عبد الله أحمد بن حنبل متفكِّرًا فيما كتبه المأمون، وقال لصاحبه محمّد بن نوح: إنِّي أرى تأثير أحمد بن أبي دؤاد على الخليفة، ولا شكَّ عندي أنَّه هوَ مَنْ كتبَ هذا الكتاب، إذ ليس هذا أسلوبُ الخلفاءِ في نَعْتِ العُلماء، وفي الكتاب إسهابٌ يتنَزَّهُ الخلفاءُ عن مِثْلِه.

فقال محمَّد بن نوح: صدقتَ، والدليلُ على ما تقولُ إنّ الكتابَ مكتوبٌ بضمير الغائب وليس بضميرِ المتكَلِّم.

فقال أحمد: بل فيه نزولٌ إلى لُغَةٍ سُوقِيَّةٍ لا تَصْدُرُ عن الخلفاء، فلعلَّه أمر أحمدَ بن أبي دؤاد بكتابة الردِّ، أو لعلَّ هذا البِدْعِيَّ قد

استصدرَ منه الأمر دون أن يُطْلِعَهُ على ما كتَب. بل إنِّي أستغرب أن يلجأ المأمونُ إلى امتحاننا بعدما غادرَ بغداد. أما كان حَرِيًّا به أن يفعلَ ذلك وهو بين العلماء بدلَ إرسال الكُتبِ إليهم من بلاد الروم؟

فقال محمَّد بن نوح: لا شكَّ عندي أنَّ في الأمر سعايةً من ابن أبي دؤاد، ودليلاً على تورُّطِه في هذه الشناعة. وقد استغلَّ مرض المأمون وغيابَه عن حاضرة الخلافة لامتحاننا وتَكْشِيفِنا بهذه المعَرَّة القبيحة.

فقال أحمد بن حنبل: وحيث إنَّه ما من شكَّ أنَّ ابنَ أبي دؤاد هو من يتحمّلُ وِزْرَ هذا الكِبْر، فإنِّي أتوقّع أنَّه سيسارعُ إلى الاقتصاص ممَّن تحدّاه في مقالته حول خلق القرآن، ولعلَّه سيأمرُ بنقلنا إليه، حتى يستفردَ بقرار قتلِنا بعيدًا عن بغداد ومقاومة أهلها لعقيدته البدعيَّة.

فقال محمَّد بن نوح: أسأل الله أن لا يريني وجهَه ولا وجهَ الخليفة.

فقال أحمد: آمين، وقد دعوتُ قَبْلُ مثلَ دعائِك، وأنّ الله لن يخيِّبَنا.

* * *

حُمل الرجلان في الحديد إلى المأمون الذي كان غازيًا في بلاد الروم. ولمّا وصلوا بهما إلى قُرْبِ الأنبار، عَبَرَ أبو جعفر الأنباري الفراتَ لزيارة أبي عبد الله أحمد بن حنبل في أحد الخانات هناك، وتكلَّم الأنباري، فقال له أحمد بن حنبل: لقد تعنَّيْتَ بالمجيء إلينا.

فقال الأنباري: ليس في هذا عَنَاء.

ثم أضاف: أنت يا أبا عبد الله اليومَ إمامٌ مُقَدَّم، والناسُ يقتدونَ

بك، فإن أجبتَ إلى مقالة خلق القرآن تَبِعَكَ الناسُ تقليدًا لك، وإن رفضتَ المقالةَ امتنعَ الناسُ عنها

ثم ذكَّره قائلاً: لا تخشَ الموتَ، فإنَّه سيأتيك لا محالة سواء بسبب هذه المحنة أو بغيرها، فَثِقْ بالله ولا تُجِبْهُمْ إلى شيء، واثْبُتْ على سلامة دينِك وعقيدتِك.

بكى أبو عبد الله وصار يردِّد: ما شاءَ الله، ما شاء الله.

ودَّعَ الأنباري الرجلين ثم غادر. بعد ذلك، حُمِلَ الرجلان حتى وصلا إلى مدينة «أَذَنَة» في بلاد الروم، ثم غادراها في جوف الليل خفْيَةً من الناس، فَفُتِحَ بابُها لخروج الرَّكْبِ، فلَقِيَهُمْ رَجُلٌ عند الباب كان داخلاً للمدينة، فعرفَ الرجلين وقال لهما: البُشرى، قد مات الرجُلُ، يَقْصِدُ المأمونَ.

فبكى الرجلان، وقال أحمدُ بن حنبل لصاحبه: أتذكرُ أنَّا كنَّا ندعو الله ألَّا نراه.

فقال محمَّد بن نوح: بلى يا أبا عبد الله؛ وإنِّي اليومَ قد أَنِسْتُ بالله وأَرْغَبُ أن يقبضَ روحي إليه.

رُدَّ ابن حنبل وابن نوح إلى طرسوس ثم منها إلى الرقّة. وأُخرجا في سفينة مع مجموعة من السجناء حتى وصلا إلى «بعانات»، وهناك توفِّي محمَّد بن نوح، فحزن عليه ابن حنبل وصلّى عليه ثم دفنه، ثم صار الركبُ حتى وصلوا إلى بغدادَ، وابنُ حنبلَ في قيوده، فلبثَ أيَّامًا في الياسريَّة، ثم حوّلوه إلى السجن في دار اكتريَتْ له عند دار ابن عُمارة، ثم وضعوه أخزاهم الله في حَظيرة للدوَابِّ مملوكةً لمحمَّد بن إبراهيم، أخي إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الوالي على بغداد. كان أبو عبد الله

في ضِيقٍ شديد في هذا الموضع ولم يتحمَّلْ روائحَ الإسْطَبْلِ، فَمَرِض هناك مع حلول شهر رمضان، ووصل الخبرُ إلى الناس واستاؤوا من هذه المعاملة، فحاول بعضهم زيارتَه، لكنَّهم مُنِعوا من ذلك، واضْطُرَّ سَجّانوه إلى نقله مرَّة أخرى إلى سجن العامَّة في درب الموصليَّة.

مكث في هذا السجن مدَّة طويلة، وسمحوا لبعض الناس بزيارته ومنهم عمُّه حنبل بن إسحاق. كان أبو عبد الله يصلِّي بالناس في السجن ويَعِظُهُمْ، بل ويقرأ لمن يزوره الحديثَ النبويّ الشريف.

* * *

توفِّي محمَّد بن الجنيد وخلَّفَ زوجته شاه، وولدَهُما الجنيد في سنِّ الحداثة، لكنَّه أوكل تربيته، قبل وفاته، إلى شقيق زوجته السَّريّ السَّقطي حتى يُكْمِلَ تعليمَه. قام السَّريّ باحتضان الطفل الصغير، فكان يصطحبه معه في حلقات العلم رفقةَ أصحابه، بل إنَّه أخذه إلى الحارث المحاسبي، فدعا له، وتوسّم فيه الحارث خيرًا.

كانت تبدو على الطفل الصغير مَخَايِلُ النباهة والصلاح، وهو أمر لا تُخطِئُهُ العينُ الفاحِصة ولا البصيرة النافذة، فكان أهل الله في بغداد يَحْرِصُونَ على تمرير أَكُفِّهم على رأس الصبيّ ويَدعونَ له، ويَنظرونَ إليه نظرةً فيها ما فيها، إذ إنَّ التربيةَ بالنظرةِ عندَ القومِ ميراثٌ ثابتٌ عن النبيّ عليه الصلاة والسلام. بل إنَّ بعض المخلوقات تفعل ذلك، فإنَّ السلحفاةَ تُربِّي صغارَها بالنظر وحيث إنَّ الهيكل مُهَيَّأٌ لاستقبال الرزق الإلٰهيّ، فكانوا يستعجلون بلوغَ هذا الصبِيّ طورَ الشباب حتى تتحقّقَ فراستُهم فيه.

جلس السّريّ مرَّة يتحدَّث إلى أصحابه وأقرانه في معنى الشكر،

والجنيد يلعب بين يديه، فتكلّموا ساعةً في الأمر، ثم التفتَ السَّرِيُّ إلى ابن أخته لِيُثْبِتَ لأصحابه صحَّةَ فراسَتِه فيه، وسأله: يا غلام، ما الشُّكر؟

فقال الجنيد: أن لا تعصي الله بنعَمِه.

كبَّر القومُ لجواب الصبيّ، إذ لا يَصْدُرُ مثلُ هذا الكلام إلّا ممَّن اختارته العناية الربّانيَّة لحمل أمانة كبرى وسِرٍّ عظيم.

تعجَّب أحدُ الأصحاب من قول الصبيّ واستكثر الأمر عليه، فقال للسَّريّ: لعلَّك لقَّنْتَهُ هذا الجواب؟

فقال السّريّ: أبدًا، لم يَسمَعْ منِّي هذا الكلام من قبل، ولكنَّ ابنَ أختي مفتوحٌ عليه، وأسأل الله أن أُدْرِكَ ظهورَه في بغداد، فأَنْصُرَه.

فقال الرجل: إنَّ ابنَ أختِك قد أرشده الله أن يَدْخُلَ من مقام الشكر بالامتناع عن معصية الله، وهذا حِفْظٌ إلٰهيّ لأوليائه منذ طفولتهم.

فقال السَّريّ: صحيح ما تقول، فإنَّ جواهر الرجال العظام تبدأ إرهاصاتٍ في طورِ الطفولة ثم تنمو معهم. وهذه التوجُّهات العُليا هي مِنَحٌ إلٰهيَّة، وليسَتْ عِلمًا كسبيًّا، إذ كيف يعرف صبيٌّ معنى الشكر ثم يَدلُّك على الطريق الموصل إليه؟ إنَّ ابن أختي لم يصرفه اللعب عن النطق بجلائل الأقوال مصداقًا لقوله تعالى في حقّ نبيّ من أنبيائه ﴿وآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا﴾. فإن أعجَزَكَ العقلُ عن فهم هذا الأمر، فاعْزُ الكرامة إلى المُظهِر لا إلى المَظْهَر أو مرآة الظهور.

وبينما هم في الحديث إذ أقبل مُنَادٍ، فقال للسَّريّ: أَدْرِكْ حانوتَك في السوق، فقد شبَّ حريقٌ هناك.

قام السَّريّ وأصحابُه يركضونَ نحو السوق، وتبعهم الجنيد راكضًا في إثرهم. كانت الشمس محرقة، إذ كان الوقت ظهيرة يخلُدُ فيه الناس للراحة. كان السَّريّ أوَّلَ الركب، حتى لكأنَّك لا تراه يعدو بل يتراءى لك أعلى شبحه يلمع على صفحة وجهه من العَرَق. عند مدخل السوق صادف رجلاً من معارفه، فقال له الرجل: يا سريّ أبشر، نجا حانوتك.

فقال السَّريّ: الحمد لله.

ومضى مسرعًا نحو حانوته ليطمئنّ على بضاعته، لأنَّه كان يبيع سَقط الثياب، وهي الثياب البالية، فَلُقِّبَ بـ «السقطي». كان حانوته قريبًا من الحانوت الذي خلّفه والد الجنيد لابنه، وجعله في عُهدَةِ صِهْره حتى يكبر الولد ويسلِّمَه له. وكان هذا الحانوت لبيع الخَزِّ، أي الحرير، على بُعْد خطوات من حانوت السَّريّ، فكان يسهر على هذه التجارة خير سهَر. لمَّا وصل إلى حانوته وحانوت ابن أخته، حمد الله مرَّة أخرى، لأنَّ الحريق لم يأت عليهما. فلمّا سمعه الجنيد يحمد الله على نجاة حانوته، قال له: أَخَيْرًا، تريد لنفسك دون ما حصل للمسلمين؟

اهتزّ السَّريّ لقول الصبيّ، إذ أحاله على أنَّ فرحَه بنجاة حانوته من الحريق دون اكتراثه بما وقع لحوانيت باقي المسلمين يطعن في إيمانه، فقال بعد أن تلقَّى صدمة هذا السؤال: أستغفر الله، وصار يردِّدها بأعلى صوته أمام الناس حتى عجِبوا له، وظنُّوه قد مُسَّ بالخَبَال والجنون، فحكى لهم ما حصل، ثم بكى بكاء حارًّا، وأخذ ابن أخته يقبّله ويقول له: صدقتَ يا ابنَ أختي، صدقت.

ثم قال السَّريّ للجماعة المتحلِّقَة من أصحابه وأهلِ السوق: اشهدوا أنِّي من التائبين، وأنَّ شيخَكم هذا لم يبرحْ مقامَ التوبة، وهي أوَّلُ خطوة في الطريق.

تعجَّبَ الناس من فهمه عن الصبيّ، فقال لهم السَّريّ: لا بدَّ أن أُكفِّرَ عن قولي الذي قلته بسلامة حانوتي دون حوانيت غيري من الناس، وليس فيه إلَّا سَقطُ المتاع والثياب. ثم تقدّم إلى الحوانيت التي شبَّ فيها الحريق يساعد في إخماد النار، ويستغفر الله بأعلى صوته، ويُشهِدُ الناس أنَّه من أهل البدايات، وأنَّه لم يدخل الطريق إلَّا في هذه الساعة.

تبلَّلَتِ الأعين بالدموع من صدق هذا المشهد، ومن حال هؤلاء الرجال الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ ولم يمرَّ ذلك اليوم حتى انتشر الخبر في كلِّ بغداد، وسُجِّلَ اسم السَّريّ السَّقطي في سِجِلِّ التوَّابين، حيث كان قد أراد لنفسه خيرًا دون سائر الناس، وسُجِّلَ اسمُ ابنُ أخته الجنيد الذي دخل باب التوبة على يديه.

مَرَّتْ سنواتٌ قليلة وتُوُفِّيَتْ شاه، والدة الجنيد، فحزن عليها ولدُها أشَدَّ الحزن، لكن خاله وقف إلى جانبه وواساه في هذا المُصاب. كانت شاه امرأةً صالحة متواضعة، رغم أنَّها تَنْحَدِرُ من نَسْلِ ملوك فارس. وقد كان الجنيدُ يُشْبِهُهَا، فَعَنْهَا وَرِثَ لَوْنَ عينيها الخضراوين، وبياضَها الآسِر، وحِسَّهَا المرهَف بالجمال والموسيقى.

أصبح الجنيدُ فتًى في إقبال الزمان وبهجته، فحفظ القرآن، وانتقل إلى دراسة العلم، فلازم أبا ثور الكلبيّ، أحدَ تلامذة الشافعي، واستوعب المذهبَ وأصولَه، فقرأ «الرسالة» التي جمعها الشافعي من

كلام الصحابة، ورتّبها بحيث جعلها قابلةً للتعليم، وقسّمَها إلى سبعةِ أقسام، هي: حُجِّيَّة مصادر التشريع، وثبوتُها، وإفادتُها، والفرقُ بين القطعيّ منها والظنّيّ، والقياس، والتعَارضُ والترجيح، والاجتهاد. لقد أدرك الفتى الجنيد أنَّ عند الشافعي منهجًا ليس عند غيره من الأئمَّة، إذ هو ميزانٌ للعقل يفتَحُ له بابَ الفهم في مصادر التشريع. لم يَقْتَنِعْ بالأمر إلَّا بعد مُلازمَة شيخِه ومُناقشته حول هذا المنهج. زاره مرَّة في بيته يريد أن يفهمَ ما لا يقولُهُ الشيخُ في مجالسِ دَرْسِه في المسجد الجامع.

بشَّ الشيخ في وجه تلميذه ودَعاهُ للدخول، وبعد أن اِتَّدَمَا قليلاً، سأله الشيخ: ما عندَكَ اليومَ يا جنيد؟

فقال الجنيد: جئتُ طالبًا يا سيِّدي.

فقال الشيخ: ومَا طلبُك؟

فقال الجنيد: أريدُ أن أعرفَ كيف توصّلَ الشافعي إلى رسم المنهج العقليّ الذي بثَّهُ في «الرسالة»؟

فقال الشيخ: كلّ ما ذكره الشافعيّ رحمه الله، جمعه من كلام الصحابة مِنْ قَبيلِ المطلق والمقيَّد والمُجْمَل والمُفَصَّل وما إلى ذلك.

فقال الجنيد: لكنِّي لاحظت وكأنَّ هناك ميزانًا خفِيًّا عند الشافعي رحمه الله هو الذي وجّه كلامه في «الرسالة»، لم يُفْصِحْ عنه.

فقال الشيخ: صدقت، لقد كان مُنْطَلَقُ تَفْكيرِ الشافعي رحمه الله سؤالاً بسيطًا هو: إذا كنّا قد آمَنَّا بالله ورَسوله، فكيفَ نَعْلَمُ مَا يُرِيدُهُ الله مِنَّا؟

فقال الجنيد: هو هذا الذي أبحثُ عنه، فما هو الدليل على أنَّ

ما فهمناه، أو على الأقلّ ما فَهِمَهُ الأئمَّة والعلماء، هو مرادُ الله منَّا؟

فقال الشيخ: أرأيتَ بأنَّ هذا السؤال جوهريّ؟ إذ هو يطرح قضيَّة حُجِّيَّةِ المصادر. فما هي الحُجَّة أو الدليل على صحَّة فَهْمِنا لهذه المصادر. والجوابُ هو أنَّ الحُجَّةَ في الكتابِ والسُّنَّة، وهما لا يفترقان، أي يتكاملان. ولا عبرةَ بمن يدَّعي العكس، ويريدُ أن يَفْتَحَ ثُلْمَةً في مَصادر الأمّة، بحيث يقتصرُ على القرآن وحدَه مثلاً، وهم القرآنيُّون، لكنَّهم أبعدُ ما يكونونَ عن اتِّبَاعِ القرآن، إذ كيف نَعرفُ كيفيّات الصلاة أو الحجّ أو غيرها من الأحكام الشرعيَّة لولا السُّنَّةُ النبويَّة؟ ثم إنَّ القرآنَ نفسه يدعو إلى اتِّباع الرسول، وهي السُّنَّةُ النبويَّة الشريفة، المصدرُ الثاني للتشريع.

فقال الجنيد: تمامًا، لكنْ كيف نعرف بأنَّ الحُجَّة في القرآن والسُّنّة؟

فقال الشيخ: هما المصدران، ويمكن البَرْهَنَةُ على ذلك بالمنقول والمعقول معًا، وهي كلُّ العلوم التي نشأَتْ، سواءٌ كانت علومَ رواية أو علومَ دراية، كعلومِ القرآن وعلومِ الحديث بأنواعها المختلفة. إنَّ الهدفَ من هذه العلوم هو البرهنةُ على حُجِّيَّة هذين المصدرين.

فقال الجنيد: لكن كيف تَثْبُتُ عندنا هذه الحُجَّة؟

فقال الشيخ: تَثْبُتُ عندنا حُجِّيَّة هذين المصدرين بالتواتُر والسند، فقد نقل جِيلٌ عن جِيلٍ حفظَ القرآن والحديثِ من الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا.

فقال الجنيد: لكنْ، اسمَحْ لي أن أسألكَ مرَّة أخرى، كيف نفهمُ هذين المصدرين؟ فأفهامُ الناس متعَدِّدَةٌ متبايِنَة.

فقال الشيخ: لا بُدَّ من منهاج للفهم وعِلْمٍ يَضْبِطُ القَواعِدَ ويرسُمُ المسارَ الصحيح للعقل بالرجوع إلى النصوص، وهذا المنهاجُ أو هذا العِلْمُ هو الذي أسَّسه شيخُنا الشافعي رحمه الله، واسمُه «عِلْمُ أصولِ الفقه». فالجواب عن سؤالك هو أنّ فهم المصدرين يكون بأصول الفقه. وقد ألّف فيه الشافعي كتاب «الرسالة» التي هي أوَّلُ كتابٍ وُضِعَ في هذا العلم الذي جمعه صاحبُه من كلام الصحابة، رضوانُ الله عليهم.

فقال الجنيد: لكنْ، هل كلُّ الوقائعِ موجودةٌ في القرآن والسُّنَّة؟ إذ لا شكّ عند كلِّ عاقلٍ أنَّ النصوص مُتناهيةٌ بينما الوقائعُ غيرُ متناهيةٍ، فكيف نعلَمُ حُكْمَ الله في هذه الوقائع المستَجَدَّةِ التي لم تَرِدْ في النصوص؟

فأجاب الشيخ: نعلم حُكْمَ الله في الوقائع المستجَدَّة باستعمال القِياس، فنقيسُ ما نعرفه من الوقائع المتشابهة التي ورد ذكرها في النصوص على ما لا نعرفه من الوقائع الحادثة. وبعبارة أخرى، سنقيس الأمر الحادثَ على الأصلِ القديم.

فقال الجنيد: إنّ القياس عمليَّةٌ صعبة.

فقال الشيخ: صحيح، هي صعبةٌ ومعقَّدَةٌ، لكنَّ القياس يجسِّدُ حقيقةَ الاجتهاد. ويحتاج المجتهد في قياسه إلى ذهنٍ صَافٍ، ونَفْسٍ زكيَّة، وخشية لله تعالى لأنَّه ناطقٌ بحكمٍ على مُرادِ الله، فليَتَّقِ اللهَ هذا المجتهدُ فيما يُصْدِرُ من أحكامَ على ضوء النصوص الهادية من قرآن وسُنَّة.

فقال الجنيد: لكنَّنا نلاحظ أنَّ في الشرع الحكيم أحكامًا قطعيَّة،

وأخرى ظنِّيَّة، فكيف يصنع المجتهد أمام هذا التعارض؟

فقال الشيخ: صدقت، هناك دائرةٌ للقطعيّ في الأحكام، كما أنَّ هناك دائرةً للظنّيّ. ولأنَّ هذه الدائرةَ الظنِّيَّةَ موجودةٌ، وهي أوسعُ من الأولى، فقد وُجِدَ الاجتهادُ وَوُجِدَ المجتهدون، إذ كثرةُ العلماء المجتهدينَ سَبَبُهَا الاجتهادُ في دائرة الظَّنِّي، فيتنافسُ العلماءُ الربَّانيُّون بإصدار حُكْمٍ على مُراد الله، وذلك من رحمة الله بالناس. أمّا دائرةُ القَطْعِيّ فهي محلُّ إجماعٍ بين العُلماء بلا شَكّ.

فقال الجنيد: لكنَّنا نحتاج إلى ترجيح حُكْم على حُكْم، ولا يمكن أن نقنعَ بالقول إنَّ هناك أحكامًا متعدِّدَةً أو أقوالاً متنوِّعَةً في مسألة معيَّنَةٍ.

مكتبة الرمحي أحمد

فقال الشيخ: الترجيحُ بين الأحكام يكونُ بدراسَة أَوْجُهِ التعارُضِ، وقد حصرَها العلماءُ في أبوابَ معدودة. ويكون كذلك بمعرفة المقاصِد الشرعيَّة، وكلِّيَّاتُها محصورةٌ في حفظ الدين، والنفس، والمال، والعقل، والعِرْض. فكلُّ حُكْم له علاقةٌ بهذه المقاصد الشرعيَّة الكبرى التي جاء الشرع الحنيف لحفظِها. فالكفر والإلحاد اعتداء على الدين. والقتل والانتحار اعتداء على النفس. والسرقة والتبذير وأمثالها اعتداء على المال. والسُّكْر وتناول المخدِّرات اعتداء على العقل الذي هو مَنَاطُ التَّكليف، ولا تكليفَ بدون عقل. والزنا والعلاقات غير الشرعيَّة خارج الزواج اعتداء على العِرْض. وهذه المقاصدُ تشترك فيها أغلبُ الشرائع الدينيَّة والوضعيَّة.

فقال الجنيد: وهل جاء علمُ أصولِ الفقه كما في «الرسالة» للشافعي بهذه الأبواب السبعة التي حدَّثْتَنِي عنها، التي هي: الحُجَّة، والثبُوتُ، والإفادة، والقطعيّ والظنِّيّ، والقياس، والتعارض والترجيح، والاجتهاد؟

فقال الشيخ: نعم، ويمكن تلخيص هذا العلم وتعريفه بأنّه معرفة دلائل الفقه إجمالاً (وهي الكتاب والسُّنَّة)، وكيفيَّة الاستفادة منها (كلّ العمليّات التي يقوم بها العقل حتى يصل إلى الحكم)، وحال المستفيد، أي (الشروط اللازمة للمجتهد).

فقال الجنيد: هذا تعريف جامع لهذا العلم. لقد أدركتُ الآن قيمةَ المنهج الذي وضعه الإمام «الشافعي رحمه الله، فهو من المريدين الناطقين بلسان الحقّ في الدنيا». إنّ هذا المنهاج عاصم من الوقوع في الزلل والخطأ

فقال الشيخ: بل إنَّه أكثر من ذلك، إنَّه منهاج للعقل المسلم في العلوم الأخرى. يا ولدي، إنَّ كثيرًا من الفتن التي حدثت للمسلمين هي بسبب انعدام مثل هذا المنهج في استخراج الأحكام من النصوص، ولو كان للمتصَدِّرِينَ في كلِّ فَنٍّ أو عِلْم مثلُ هذا المنهاج العلمي لما حدَثَتْ تلك الفتن، ولما تجرَّأَ الجُهّالُ والفتّانون على الفُتيا، ولما ظَهَرَتْ هذه الفِرقُ المنحرفة. فترى الواحدَ منهم قد حَفِظَ الآيةَ أو الآيتين، ثم الحديث والحديثين، فتراه يقول في دين الله، ويتجَرَّأُ على الحلال والحرام، ويَجْهَرُ بالإنكار على الناس، وهو من أَجْهَلِ خلق الله.

فقال الجنيد: رحم الله شيخَ شيوخِنا الشافعيّ، ونفعنا بعلمه في الدارين، آمين. لقد أدركتُ اليومَ يا سيِّدي قيمةَ هذا الميراث العلمي العظيم الذي أسَّس له الإمام الشافعي.

* * *

كان الجنيد يمضي وقته في حلقات العلم أو رفقة خاله السّريّ

السقطي وأصحابه الأخيار، أو في الدكَّان الذي تركه له أبوه لبيع ثياب الخَزِّ. تعلّم العلمَ وتعلّم ما به يتكسَّب من أجل أن يعيش. كانت أسواقُ المنسوجات في بغداد داخل المدينة المدوَّرة، لكنْ بعدما توسّعتِ المدينةُ، خرجَتِ الأسواق جنوبي باب البصرة في محلَّة الكرخ بين الصرَاةِ العُظمى ونهر البزّازين. كان بيت الجنيد في الشونيزيَّة على الجانب الغربي، فكان يخرج من بيته ويمشي باتّجاه نهر دجلة وسط محلَّات فيها أسواق مختلفة ومسقوفة، ومنها محلَّة التستريين التي تتوسَّط نهر دجلة وباب البصرة، وتُصنَعُ فيها الثياب التستريَّة الشهيرة.

ثم كان الجنيد يحبّ أن يمشي على طول نهر البزَّازين حتى يصل إلى دار القطن التي يُحْلَجُ فيها القطن، ثم يواصل سيره حتى يصل إلى محلّة العتَّابيَّة، ويمشي على طول شارع العتّابيين حيث كانت الدكاكين التي تُنْسَجُ فيها الخيوط الحريريَّة والقطنيَّة ذات الألوان المختلفة، فيتملَّى بصرُه بذلك، ثم يصل إلى الجامع الذي يتوسَّطُ الفُرْجَةَ التي تفصِلُ محلَّة العتّابيَّة عن دار القَزِّ المتّصلة بها، ويُصْنَعُ فيها الوَرَقُ الذي صار متاحًا بأرخص الأثمان منذ نهاية القرن الثاني الهجري. كان كثير من هذه المحلَّات مُسَوَّرًا ويمشي بعد ذلك حتى يدخلَ إلى السوق، فيقصدُ حانوته ويصلّي فيه قبل أن يبدأَ في البيع والشراء. اختار له أبوه أن يبيعَ المنسوجات ومنها الخَزُّ أو الحرير. كان يشتري من التجَّار الذين يأتون بهذه المنسوجات من المدن التي عُرِفَتْ بها، مثل الحِيرَة والموصل والأنبار والبصرة والكوفة. فالحِيرَةُ كانت تُنتِجُ الأثوابَ والأقمشة الصوفيَّة، أمَّا الموصلُ، فكانت مشتهرةً بإنتاج المنسوجات القطنيَّة والصوفيَّة، في حين اختَصَّتِ الأنبارُ بصناعة أقمشة الكتَّان، أمَّا البصرة، فاشتهرت بصناعة الألبسة المخِيطَة كالأكْسِيَة والمَطَارِفِ

والمُرُط. كان الناس يلبسون الكِساء فوق بقيَّة الثياب مثل العَباءة والجُبّة والقِباء. أمّا المُطرّف، فهو ثوب مربّع ينتهي بطرفين لهما حاشية. كما كان الجنيد يبيع المُرط المصنوعة من الخزّ أو المِرْعَزِي أو الصوف.

وتنافس الوُجَهاء والأعيان في هذا العهد على لَبْس المطارف التي أصبحَتْ تُحاكُ من الأثواب النفيسة وتُطَرَّزُ بخُيوط الذهب. كما كان الجنيد يقتني من تجّار الكوفةِ المنسوجاتَ الحريريَّة مثلَ عَمائِمَ الخَزِّ والمناديلَ والأُزُرَ والخُمُرَ، وكانت هذه المنسوجاتُ الكوفيَّة مشهورةً، حتى نُسِبتِ «الكوفيَّة» التي يضعها الرجال إلى مَحَلِّ صنعها. كما كان يقتني بعضَ الأثواب التستريَّة الرفيعةِ من مدينةِ تُسْتَرَ التي كانت معروفةً بصناعة النسيج، حتى إنَّ كسوةَ الكعبة كانت تُصْنَعُ في دار الطرَازِ السلطانيَّة.

أمّا بغدادُ، فقد كَثُرَتْ فيها معامِلُ النسيج والحرير الناعم، حيث كانت تنسجُ منها الأقمِشَةُ الفاخرة ذاتُ الألوان القَشِيبَة، والعَمائِمُ الرفيعة، والثيابُ العَتّابيَّة التي كانت تُخاطُ من خيوط القطن والحرير.

كان السَّريّ قد اطمأَنَّ على ابن أخته، لكنَّه قال له مرَّة: لا أدري لماذا رغب والدُك، رحمةُ الله عليه، في أن تشتغلَ بتجارة الأثواب الحريريَّة؟

فقال الجنيد، وكأنَّه أدرك عِتابًا خفيًّا في السؤال: يا خالي، ليست التقوى بلِينِ الثياب أو خُشونتها، فكثير من قُسَاة القلوب يلبسون الحرير، وكثيرٌ من أهلِ الطائفة يلبسون خَشِنَ الثياب. ثم إنَّها تجارة مربحة، فلا يَخفى عليك أنَّ لكلّ فِئَةٍ من الناس في بغدادَ لباسٌ خاصٌّ بهم، ولكلِّ مناسبةٍ زِيٌّ خاصّ. وهذا يشجّع على تنويع المعروضات

وازدهار تجارة المنسوجات.

فقال السَّريّ: صدقت، وقد رَوَيْتُ عن شيوخي أنَّ شيخَ شيوخنا الحسنَ البصري رضي الله عنه كان يلبس ثوبًا لَيّنًا بقيمة أربعمائة درهم، فلقيه فَرْقَد السِّنْدِي، فقال له وكأنَّه قد أنكر عليه الأمر «يا أبا سعيد، مَا أَلْيَنَ ثوبَك! فقال الحسن: يا فُرَيْقِد، ليس لِينُ ثيابي يُباعِدني من الله، ولا خُشونَتُها تُقرِّبُك منه. إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال».

فقال الجنيد: أرأيتَ يا خالُ أنَّ التقوى ليست بالثوب. فماذا لو تَعمَّمْتَ بعِمامة مِنْ رَفِيعِ مَا لَدَيّ؟

فقال السَّريّ: ليس لي مالٌ لأشتري به رفيعَ عِماماتك يا جنيد.

فقال الجنيد: لا عليك، سأُهديها لك مُغتبِطًا أفلا نَفوزُ معك بِأَجْرِ إدخالِ السرور عليك.

فقال السَّريّ: بورِكَ فيكَ يا ابنَ أختي، فما خالُك السَّريّ إلَّا كسَقطِ المتاع، لكنِّي أستحي أن أتعمّمَ بعمامة جليلة.

فقال الجنيد: العمائم تيجانُ العرب، كما قال سيِّدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه. بل إنَّ العرب قد اختصَّتْ بأربعٍ: العَمائمُ تيجانُها، والدروعُ حِيطانُها، والسيوف سِيجَانُها، والشعْر ديوانها

فقال السَّريّ: أعلم ذلك، لكنَّنا مَعاشِر الفقراء لا نرتقي مَراقي هؤلاء الكُبراء، وإنَّما عُرِفْنَا بالصمت والعُزلة والسهر والجوع.

فقال الجنيد: بل العمامة سُنَّة نبويَّة، وقد لبس النبيّ العمامةَ البيضاءَ في السفَر، والخضراءَ في الحَضَر، ولبس السوداء. والعمامة «جُنَّةٌ (وقاية) في الحرب، ومِكَنَّةٌ (حافظة) في الحَرّ، ومِدْفَأَةٌ في القُرّ (البرد)، ووَقَارٌ في الندِيِّ (المجلس)، وزيادة في القامة، وتعظيمٌ للهَامَة

تيليجرام @ktabpdf

(الرأس)». إنَّ العمامة علامة من علامات الشرف يا خال. إنَّها تقي من الحوادث التي تصيب الرأس، وذؤابتها تقي من الغبار والروائح الكريهة، وإذا أحبَّ المرءُ أن يتخفّى أو يتنكّر، تلثَّمَ بها، فجاس على الأرض دون أن يُعْرَف. وإذا أُصِيبَ لفَّها على موضِعِ إصابته وجُرحه. وإذا أرادَ أن يُصلِّيَ أو ينامَ افترشَها أو تغَطَّى بها. وإذا مات وعُدِمَ الكَفَنُ لصاحبها، كفّنوه فيها ففوائدُها لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

فقال السَّريّ: لقد أصبحتَ تاجرًا بارعًا تُحسِنُ بَيْعَ بضاعتك، وتُغري الأماجِد بها بأفصح بيان وناصِعِ الأدِلَّة. وإذا كنتَ تُغري الرجالَ بشراء العمائم، فلعلَّكَ أبرعُ من ذلك مع النساء في البيع. وقد أغريتني باقتناء واحدة منها

فأضاف الجنيد: إن كانت العمامة تزيد في قامة الرجل، فإنَّ الأخفافَ العالية تزيدُ في قامة النساء، فَسِرُّ شرَفِ الرجل على رأسه، وسرُّ جمال المرأة وحُسْنِ قامتها في رجليها، لكنْ ليس هذا موضوعُنا الآن. واسمَحْ لي أن أُخبرك عن أسماء العمامة وأنواعها وطُرُقِ كَوْرِهَا.

فقال السَّريّ: زدني يا ابن أختي من حديثك الماتع.

فقال الجنيد: تُسَمَّى العمامة بعدَّة أسماء مثل، المكوَّرة والعِصابة والمِعْجَر والمِشْوَذ والمقطّعة والتلْثِيمة. ويمكن المرء أن يُرْخي طرفًا منها بين كتفيه أو على أحدهما، ونسمّي هذا الطرَف، العَذَبَة أو الذؤابة أو الزوْقَلَة. ويمكنك أن تُميلها أو تُصغِّرها أو تجعلها مستقيمة على رأسك. فتُسمَّى باسم خاصّ بحسب هذا الوضع أو ذاك، فهي «الميلاء» إذا مالت إلى أحد الجانبين، أو «القَفْداء» وهي التي لا ذُؤابة

لها، وهي «المعقودة» التي تُعقَد من الخلف، وهي «العَجْراء» وتقال للعمامة الضخمة.

فقال السَّريّ: اللَّهمَّ زدني علمًا، لقد حدقت يا جنيد في فنّك.

فقال الجنيد: بل إنَّ كلّ لون له دلالة. فالأصفر أَشْكَلُ، والأحمر أَجْمَلُ، والسَّواد أَهْوَلُ، والبياض أَفْضَل. أمَّا طولها، فمن سبعة أذرع إلى اثني عشر ذراعًا. ولعلَّك سمعت برؤيا الخليفة المنصور الذي رأى النبيّ عليه الصلاة والسلام في المنام قد عقد له لواءً وعمَّمَهُ بعمامة كوَّرَهَا ثلاثةً وعشرين كَوْرًا.

ثم أضاف قائلاً: خذ هذا الثوب الأصفر، لأنَّه يصلح للعمائم منذ أن لبسه الزبْرِقَان في الجاهليَّة حتى أدركَ الإسلام. وقد عُرفَ بالزبرقان نسبةً إلى لون عمامته الأصفر المزَعْفَر. سأتركك تصنع منه عمامة مُسَوَّمَة.

تناول السَّريّ الثوب وكوَّره عمامة على رأسه كيفما اتَّفق، فقال له الجنيد: ما هكذا تُكَوَّرُ العمامة يا خال. وقد قلت لك أن تُكوِّرَها عمامة مُسَوَّمَةً حتى تَظهَرُ العلامةُ التي في الثوب في مُقَدَّمِ الرأس. أمَّا هكذا، فلا نرى شيئًا، وقد غابت تلك العلامة.

فقال السَّريّ: وكيف تُكَوَّر يا ابن أختي؟

فقال: مثلُك لا يخفى عليه أنَّ أهلَ الله يحرِصونَ على تكوير العمامة على شكل اسم الجلالة «الله»، ومنهم من يجعلها مُرَقَّلَةً على شكل الكلمة المشرَّفة «لا إلٰه إلَّا الله».

فقال السَّريّ: لم أكن أعلم ذلك.

فقال الجنيد: لقد أخبرني بذلك أحد الأولياء من بلاد الهند زارني

في الحانوت وحدَّثني عن هذا الأمر، فحسبت أنَّك تعلم ذلك.

فقال السَّريّ: فأنا أَحْرَصُ الآن على وضع العمامة على شكل اسم الجلالة «الله»، فليس لنا ذكر أسمى من ذكر الاسم المفرد.

ثم طلب من الجنيد أن يساعده في تكوير العمامة وفق ذلك الشكل. فلمّا انتهى، أخرجَ له مرآة، وقال له: انظر نفسك في المرآة.

فقال السَّريّ مُحْرَجًا: يعلم الله أنّي لا أذكر آخر مَرَّةٍ نظرتُ في مرآة، إذ أعتبر كثرةَ النظر فيها مُذهِبةً للوقار ومَثارًا للرياء والغرور، لكنّي اليوم حريص على النظر فيها، لأرى عمامتي وقد تحلّت بالاسم المفرد. هذه هيئة يرضاها الله ورسوله، وهي من تعظيم الحُرمات، وأيُّ حُرْمَةٍ أعظَمُ من اسم «الله»؟

ثم أخذ ينظر إلى عمامته التي راقه منظَرُها وفجأة، فكَّهَا وتَمْتَمَ بدعاء خافِتٍ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»، ثم سارع إلى كَوْرِهَا بالطريقة التي أرشده إليها ابنُ أخته، فلم يُوَفَّقْ في المرَّة الأولى، وكرَّر دعاءه، ثم حاول مرَّة ثانية فلم ينجح، وكرَّرَ دعاءه، ثم حاول مرَّة ثالثة فَوُفِّق، ونظر إلى الجنيد مبتسِمًا.

فقال الجنيد: إنَّها فعلاً هيئةٌ بَهِيَّةٌ يرضاها الله ورسوله.

فقال السَّريّ: هلَّا جئتَ معي لنزورَ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبل على هذه الهيئة، فقد مضى زمنٌ لم أزره. ولا بدَّ أن تسمعَ منه الحديث.

خرجا من السوق، وقصدا دار ابن حنبل.

* * *

بعد وفاة المأمون، تولّى أخوه المعتصم الخلافة. وكان المأمون قد أوصى أخاه بالاستمرار في عقيدة خلق القرآن ومواصلة امتحان الناس عليها، فبقي أحمد في السجن. وفي السابع عشر من رمضان سنة ٢١٩ هـ، أي بعد مرور أربعة عشر شهرًا على إيقافه حين كان في طريقه إلى المأمون في بلاد الروم، أحضروه من السجن إلى دار إسحاق بن إبراهيم، ومرّ بمحن كثيرة، فضربوه، ثم أطلقوا سراحه على أن لا يغادر داره. لم يكن المعتصم رجلاً عالمًا مثلَ أخيه، وأبرزُ ما يذكره الناس عنه أنَّه قام لنجدة امرأة هاشميَّة استنجدَتْ به وصاحت «وامُعْتَصِمَاه» بعد أن وقعَتْ في أسر الروم إثر دخول أمبراطور بيزنطة بلادَ المسلمين؛ فلمَّا وصله الخبر، صاح «لبَّيْكِ، لَبَّيْك»، ونهض لقتال الروم وتخليص المرأة الهاشميَّة من الأسر، ووصل إلى عَمُّوريَّة وهي أَمْنَعُ بلاد الروم وأَحْصَنُها، فهدمها وأحرقها ونال من أعدائه، وانتصر للمرأة الهاشميَّة بما لم يُسْمَعْ بمثله من قبل.

ثم ما لبث أن توفِّي المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين للهجرة، ولم تتغيَّر سياسة الدولة على ما كانت عليه في شأن محنة خلق القرآن بعد وصول ولده هارون الملقَّب بالواثق إلى الحكم. ورغم أنَّ أحمدَ بن أبي دؤاد ألَّب الخليفةَ الجديدَ على أحمد بن حنبل كما فعل مع سابقيه، إلَّا أنَّ الواثق لم يتعرَّضْ له بسوء خشيةَ ثورة الناس عليه.

كما حزن خالي وأصحابُه، وحزنت معهم على وفاة بِشْرٍ الحَافي في الشهر نفسه الذي توفِّي فيه المعتصم، فقد كان رحمه الله من كبار الزهَّاد. وقد كان صديقي أحمدُ بنُ أبي الورد قد صحب بِشْرًا الحافي، ثم صار بعد ذلك يلازم المحاسبي وخالي السَّريّ السقطيّ، فنشأَتْ بيننا صداقة قويَّة. وقد عرَّفني على شقيقه الأكبر محمَّد الذي كان يبيع العطور في السوق، فكنت أختلفُ إليه ويختلِفُ إليّ.

زرتُ مع خالي السّريّ السقطي الإمامَ أحمدَ بنَ حنبل، فاستأْذَنّا فأُذِنَ لنا، فدخلنا عليه فوجدناه يُصَلِّي. فلمَّا أنهى صلاتَه التفَتَ إلينا ورحّبَ بنا، وسأل خالي عن أحواله، وكان يُجِلُّه ويندُبُ أصحابَه إلى التأَسِّي بزهده وورعه في توخِّي اللقمة الحلال حتى كان يلقِّبه «طَيِّب الطعام»، ثم أخذ ينظر إليّ، وقال له: مَنِ الفتى؟

فقال السَّريّ: ابنُ أختي، وهو طالبُ عِلْمٍ نجيب، وقد حفظ القرآن ودرس الفقه والأصولَ على الشيخ أبي ثور الكلبيّ تلميذِ الإمام الشافعي رحمه الله.

فقال أحمد بن حنبل: بوركَ في ابن أختك.

ثم مسح على رأسي ودعا لي، وحدَّثَنا بحديث مُسَلْسَلٍ بالأَوَّلِيَّة، قال: «قال رسول الله ﷺ: الراحمونَ يرحَمُهُم الرحمٰنُ تباركَ وتعالى،

اِرْحَمُوا مَنْ في الأرض يَرْحَمكُمْ مَنْ في السَّماء».

يا بنيْ، قد أَجَزْتُكَ.

ثم أضاف: يا ولدي، احفظ الحديث واعمل بسُنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم تفقّه في مذهب الشافعي، فإنَّه «كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر يا بنيْ، هل لهذين من خلف، أو منهما عِوَض».

فقلت: ألهذهِ المرتبة وصل الشافعي رحمه الله؟ إذ لا أحد يستغني عن الشمس من المخلوقات، ولا أحد يستغني عن العافية. وقد فهمتُ لماذا

فقال لي ابن حنبل: ولماذا؟

فقلت: لأنَّه صاغ للأمَّة منهاجًا للفهم جمَعَه من أقوال الصحابة.

فقال ابن حنبل: هو ذاك، فلا يكفي أن يكون المرء حافظًا لكتاب الله وسُنّة رسوله عليه الصلاة والسلام، بل ينبغي أن يكون فقيهًا، أي له منهج يفهم به الهَدْيَيْن. وليس غريبًا أن يُظهِر الله علمَ أصول الفقه على يد الشافعي رحمة الله عليه، فهو من آل البيت الأطهار، عليهم السلام.

فقلت: ولماذا لا نستغني يا سيِّدي بفقه الشافعي عن غيره من الأئمَّة الآخرين؟

فقال أحمد بن حنبل: اعلم يا بنيْ أنَّ مساحة القطعيّ مُجْمَعٌ عليها بين المسلمين، وهناك مساحة أخرى من الظنِّيَّات قد اختلَف فيها الصحابة والأئمَّة والعلماء، لأنَّها محلٌّ اجتهاد ونظَر ورحمة وتوسِعَة على الأُمّة. ولا يمكن أن نكتفي بمذهب عن باقي المذاهب الأخرى،

إذ كلُّها شرعُ الله. ونحن نحتاج إلى جميعِها بسبب حدوث وقائعَ، وطُروءِ نوازلَ جديدة.

فقلت: وكيف ذلك يا سيِّدي؟

قال الإمام أحمد: قد اختلف الصحابة، فكان منهم الآخِذُ بالعَزائِم، وكان منهم الآخذ بالرخَص، وكان منهم من توسّط بين الأمرين، وكلُّهم مجتهد مصيبٌ مَأجور. وجاء التابعون، فساروا على نهجهم، ثم جاء مَنْ بَعْدَهُمْ فسلكوا طريقهم. وقد أدرك أئمَّة المذاهب هذا السلف الصالح، فقرَّروا فتاويهم وطريقتهم ونهجهم ومذهبهم، وتفرَّقوا في الأمصار، فقلَّدهم الناس. لقد انتقل النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بعد حَجّة الوداع، وشهدها معه أربعة عشر ألفًا ومئة ألف، لكنْ من نَقَلوا إلينا الحديث منهم يزيدون على ألف وسبعمائة. والمكثرون منهم حوالى عشرين صحابيًّا. ففي كتاب «المسند» الذي وُفِّقْتُ إلى تأليفه، يبلغ عدد الصحابة الذين أوردت الأحاديث التي يروونها حوالى تسعمائة وعشرين صحابيًّا (٩٢٠)، وباقي الصحابة لم يَرْوِ إلَّا حديثًا واحدًا. أمّا عدد الأسانيد المذكورة في كتاب المسند، فتبلغ تسعين ألف سند. وقد بدأت بمسانيد الخلفاء الراشدين والعشرة المبشَّرين بالجنَّة وآل البيت الأطهار، وهكذا

فقلت: وهل هناك مسائل لم ترد في مذاهب الأئمَّة؟

فقال الإمام: سؤالك هذا يجيب على حكمة تعدُّد المذاهب، فهناك ما يزيد على ألفِ ألفِ مسألة فقهيَّة، وقد تفرَّقَتْ في كتب الفقه ومذاهب الأئمَّة، وكثير من هؤلاء الأئمَّة فقهه مندرج في فقه إمام آخر تكلّم في كلِّ فروع الفقه، بينما بعض هذه المذاهب لم يتكلّم إلَّا على

أبواب فقهيَّة بعينها، لكنَّنا في حاجة إلى هذا القول الذي قد نحتاجه في يوم من الأيَّام، فَنُفتي به للناس رحمةً بهم.

فقلت: وهل التمَذهُب واجب على الناس؟

فقال الإمام: المذاهب هي أوَّلاً مناهج للتدريس، فطالِبُ العلم لا بدَّ أن يقف على مختلف الأقوال الفقهيَّة، وأن يدرس ما قاله أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وجعفر الصادق، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وحمّاد بن زيد، وحمّاد بن سلمة، والأوزاعي، والليث بن سعد، وغيرهم من الأئمَّة الفقهاء، إضافة إلى ما وفَّقنا الله إليه. ثم إنَّ ولاة الأمور يحتاجون في القضاء والفتيا إلى مذهب بعينه حفاظًا على نظام الدولة باختيار فقهيّ لأحد الأئمَّة.

فقلت: وهل مطلوب من العامَّة أن تتمذهب بمذهب خاصّ؟

فقال الإمام: العامّة من الناس لا مذهبَ لها، بل مذهبُها مذهبُ مُفتيها. فهي تُقلِّد قولَ إمامها ومُفتيها، ولهذا يغلب على بعض الأمصار مذهب بعينه حفاظًا على النظام العامّ.

فقلت: لكنَّ بعضَ رؤوس الفتنة يرفضون التقَيُّد بمذهبِ واحد، ويقولون بأنَّهم يكتفون بالكتاب والسُّنَّة.

فقال الإمام أحمد: إذا ضاعت المذاهب ضاع الإسلام. ومن يدَّعي أن له القدرة على فهم النصّين، فإنَّه لم يستوعب ما ذكرتُه له من أنَّ مساحة القطعيّ مجمع عليها بين الأئمَّة والفقهاء ولا يختلفون حولها، وإنَّما اختلف العلماء في تأويل مساحة الظنِّي وفهمه. وأسباب الخلاف كثيرة في هذا الظنِّي، منها أنّ اللغة العربيَّة بحر واسع، فيجب معرفة دلالات ومعاني الكلمات والعبارات والحروف. ومنها أنَّ الآية

أو الحديث قد يكون منسوخًا، أو أنَّ الحديث يتعارض مع الآية أو العكس، فكيف نُرجِّح؟ وغير ذلك. فكيف لمثل هؤلاء الأدعياء أن يفهموا كلَّ هذه الأسباب التي أدَّتْ إلى تنوُّع الأقوال وتعدُّدها؟

فقلت: وهل لهذا علاقة بكون هذا الدين قد خَتَم الرسالات؟

فقال الإمام: نعم، لقد كان الناس قبلنا يختلفون، فيظهر فيهم النبيّ بعد النبيّ لحسم الخلاف، لكنْ لمّا خُتِمَت الرسالة، لم يعد هناك إمكانيَّة لظهور رسول ولا نبيٍّ جديد، فلم يبق إلَّا الاجتهاد في مساحة الظنِّي. وهذا من رحمة الله بعباده. وهذا هو ما يجعل هذه الشريعة الإسلاميَّة مرنة وشاملة ومتجدِّدة وصالحة لكلِّ زمان ومكان. فاختلاف الأئمَّة هو بين الرخصة والعزيمة، وكلّ اجتهاداتهم مقبولة. فاختلافُهم ليس اختلافَ تضادٍّ بل هو اختلاف تنوُّع. هذه هي الحكمة في وجود عدد كبير من المذاهب التي تدلُّ كلُّها على شرع الله.

فقال السَّريّ: ألا تُخبرنا عن المحنة التي تعرَّضْتَ لها يا إمام؟

فقال الإمام أحمد بن حنبل: في كلِّ مِحْنَةٍ مِنْحَةٌ يا سريّ.

فقال السَّريّ: وكيف ذاك؟

فقال أحمد بن حنبل: كنت مرَّة أصلِّي الفجر، فصلَّى معي الربيع بن سليمان، وسلَّمني كتابًا من الشافعي رحمه الله قبل وفاته سنة ٢٠٤ هـ، وقال لي الربيع: «هذا كتاب أخيك الشافعي في مصر». وبعدما تحدَّثتُ إلى الرجل، نظرتُ في الكتاب، فبكيتُ وقلت «أرجو الله تعالى أن يحقِّقَ ما قاله الشافعي». فقال الرجل، أيّ شيء قد كتب إليك يا أبا عبد الله؟ فقلت له «قد ذكر الشافعي في كتابه أنَّه رأى النبيّ ﷺ في نومه، وهو يقول له «يا ابنَ إدريس، بشِّر هذا الفتى أبا عبد الله بن

حنبل أنَّه سيُمتحنُ في دين الله، ويُدعى أن يقولَ القرآن مخلوق، فلا يفعلْ، فإنَّه سيُضرَبُ بالسياط، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ ينشر له بذلك عَلَمًا لا يُطوى إلى يوم القيامة».

فقال السَّريّ: بشارة عظيمة يا أبا عبد الله، وماذا قال حامل الرسالة؟

فقال أحمد: قال لي مثلَ قولك، «بشارة، فأيّ شيء جائزتي عليها»؟ وكان عليَّ ثوبان، فخلعتُ الذي يَلِي جلدي ودفعتُه إليه، وبلَّغتُه جوابي إلى الشافعي، فخرج.

فقال السَّريّ: وهل بلغَك ما قاله الشافعي بعد نقل جوابك؟

فقال أحمد: نعم، لقد بلغني أنَّ الربيع بن سليمان لما قدم عليه وأخبره بما حصل، تاقت نفسُ الشافعي إلى شراء الثوب، لكنَّه لم يُرِدْ أن يَفْجَعَ الرسولَ في هديَّته، فقال له: «لا نبتاعه منك ولا نستهديه، ولكن اغسله وجئنا بمائه»، فكان رحمه الله يأخذ من ذلك الماء كلّ يوم فيمسح وجهه تبرُّكًا.

فقال السَّريّ: لقد كنت مستعدًّا يا أبا عبد الله لهذه المحنة التي كانت كما ذكرتَ منحة لما فيها من البشارة، لكنْ ماذا حدث بعد ذلك؟

فقال أبو عبد الله: بعد وفاة المأمون، تولَّى أخوه المعتصم، فَحُوكِمْتُ بسبب هذه المحنة. وقد أخذوني أمام المعتصم مُصَفّدًا في أغلالي، وسألني أحد رجاله: ما تقول في القرآن؟ فأجبته بسؤال من جنسه، ما تقول في علم الله؟ فلم يُجِب.

فقال السَّريّ: ولماذا نقلتَ النقاش من خَلْق القرآن إلى عِلْم الله؟

فقال أبو عبد الله: لقد رَكَّزْتُ في ردِّي على الدفاع عن كون القرآن لا ينفَصِل عن علم الله، ومتى ما أَقرُّوا بهذا، فإنَّ لازِمَ هذا القول هو أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوق، إذ لا يمكنهم أن يقولوا بأنَّ العلمَ مخلوق، إذ معناه أنَّهم يُجوِّزونَ سَبْقَ الجهلِ في حقِّ الله، تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا

فقال السَّريّ: دليلٌ قويّ يا أبا عبد الله، وماذا كان بعد؟

فقال أبو عبد الله: فقد سألني أحدهم «أكان الله ولا قرآن؟» فأجبته: أكان الله ولا علم؟ وقد كان المعتصم مُعجَبًا بردودي على القوم، لكنَّهم ردّوني إلى السجن في نهاية ذلك اليوم. فلمَّا كان اليوم الثاني، جاءني أحمد بن دؤاد يحاول زحزحة موقفي، فلم أُجِبْه إلى ذلك. وقد اتَّهمني ابن أبي دؤاد بأنِّي أدين بدين الثنويَّة حينما أعلنت اعتقادي بأنَّ القرآن غير مخلوق، فأجبت بأنَّ الله أحد صمد لا شبيه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسه. ثم أعادوني في نهاية اليوم الثاني إلى الحبس. ولمَّا كان اليوم الثالث، جلس الخليفة مع حشد كبير من الناس، فأيقنت بالتعذيب والقتل، وجرت المحاكمة، فلم يظفروا منِّي بشيء، فأمر المعتصم بأن أُضرب.

فقال السَّريّ: وهل ضربوك يا أبا عبد الله؟

قال أحمد بن حنبل: نعم، لقد ضربوني، وكنت أعقد كُمّ قميصي، فسألوني عن العقدة، فأخبرتهم بأنَّها عقدة تحوي شعرتين من شعر النبيّ عليه الصلاة والسلام.

فقال السَّريّ: وهل واصلوا ضربك بعد هذا؟

قال أحمد: لمَّا علم إسحاق بن إبراهيم بوجود الشعرتين منع من تخريق القميص.

وقد كان المعتصم قد رقَّ لي، وكاد يطلق سراحي، حين وعظته وذكرت له أنَّه سيقف بين يديْ الله تعالى وسيُسألُ عمّا فعله بي لا لذنبٍ اقترفتُه، لكنَّ أحمد بن أبي دؤاد وجماعةً من الفقهاء ذكروا للمعتصم أنَّه لا ينبغي أن يلينَ حتى لا يقولَ الناسُ بأنّ أحمدَ بن حنبل قد أحرز نصرًا على خليفتين. وهذا من شأنه أن يهدِّدَ الدولة ويُشعِلَ الثورات.

فقال السَّريّ: وكيف كان وقع السياط عليك يا أبا عبد الله؟

فقال أحمد بن حنبل: كنت صائمًا، لأنَّنا كنَّا في رمضان، وكان طعامي عند الفطور طوال هذه المدَّة لا يتجاوز أربع حفنات من دقيق الشعير، وقليلاً من الماء. تعاقب على ضربي خمسون جلّادًا، كلّ واحد يضربني سوطين ثم يتنحَّى، حتى جاء جلَّاد فكان يضربني بقوَّة، فلمَّا ضربني في الأولى قلت «بسم الله». فلمَّا ضربني الثانية قلت «لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله». فلمّا ضربني الثالثة قلت «القرآن كلام الله غير مخلوق». فلمَّا ضربني الرابعة قلت ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾. وضربني تسعة وعشرين سوطًا وكانت تَكَّةُ سراويلي حاشيةَ ثوب فانقَطَعَتْ. فنزل السروالُ إلى عانتي، فنظرتُ إلى السماء ودعوتُ «اللَّهمَّ إنِّي أسألك باسمك الذي ملأتَ به العرش، إن كنتَ تعلمُ أنّي على الصواب، فلا تهتِكْ لي سِتْرًا»، ثم فقدت وعيي، وما شعرتُ إلَّا وأنا في غرفة مجاورة وقد فُكّت قيودي. كان الدم يجري منِّي، فَنُوديَ لصلاة الظهر، فقمتُ فصلَّيت. وسمع الناس بما حدث، فتجمهروا خارج القصر مستنكرين، فخاف المعتصم من هياج العامَّة وثورتهم فأوقف التعذيب واستدعى عمِّي إسحاق بن حنبل، فأخرجني من السجن وأطلق سراحي وهدّأَ ثورة الناس، فعدت إلى داري. وإنَّ رسغيَّ قد تخلَّعَا من ذلك الوقت إلى اليوم من فرط التعذيب.

أكبَّ خالي السّريّ على أحد رُسْغَيْ أحمد يقبّله ودموعُه تجري، فأكببتُ معه أُقبّلُ الرسغَ الثاني للإمام وأبكي، فأخذ يمسحُ على رأسي، وقال لي: لا أراك الله مكروهًا يا ولدي.

قلت لأبي عبد الله: أفلا دعوتَ على من عذَّبك؟

فقال: لقد سامحتُ المعتصم وأدعو الله له بالرحمة، وأن يعفو عنه. وإنّي أكره أن يأتي يوم القيامة ولي حقٌّ على أحد، فكيف أكونُ آنئذٍ خصيمَ ابنَ عمِّ رسولِ الله ﷺ؟

فقلت: الله.

ثم تكلَّم خالي قائلاً: عظَّم الله أجرَك في هذا المصاب العظيم يا أبا عبد الله، وبارك الله فيك، فقد تحمَّلتَ كثيرًا، وقد انقضَتْ ولله الحمد هذه المحنة.

فقال أحمد: إنَّ الخليفة الواثق أبقى على امتحان الناس بعد وفاة أبيه المعتصم، إلَّا أنَّه لم يمسسني بسوء رغم تحريض ابن أبي دؤاد، وإنّي أستبشرُ خيرًا بزوال هذه المحنة قريبًا

فقلت: لكنّ الواثق قد قتل بنفسه أحمد بن نصر الخزاعي، وهو من العلماء، بتهمة القول بخلق القرآن.

فقال أحمد بن حنبل: ما كان أسخاه بنفسه لله، فقد ختم الله عليه بالشهادة.

ودّعنا الإمام، وخرجنا من عنده باتّجاه محلّ السكنى في الشونيزية.

كنت مسرورًا من لقاء الإمام أحمد ومجالسته والأخذ عنه والاستماع إليه يحكي عن المحنة التي أصبح فيها بطلاً في عيون الناس

في كلِّ مكان. لقد تعلَّمت من الإمام الصبر على البلاء بالرضا التامّ. هؤلاء هم الرجال، وقد كان خالي من هذه الطينة نفسها، وكلّ أصحابه قد عُركوا بمثل هذا لقد كانت بغداد تعُجُّ بكلِّ مظاهر الحياة على اختلافها، وفشا فيها الانحراف، لكنِّي لم أكن أُلقي لذلك بالاً، إذ كانت المجالس التي أطرقها تتنزّه عن تلك الخبائث، وكانت صحبة هؤلاء الرجال تقضي بتخلية الباطن من الأغيار وتحليته بالأنوار والأسرار. ومن هؤلاء الرجال الذين كان لهم تأثير كبير عليّ، الحارث المحاسبيّ.

* * *

منذ تولَّى المعتصمُ الحكمَ، قرّب إليه الأتراك، ثم تابع ولده الواثق سياسة أبيه، بل بالغ في تقريبهم، حتى خلع على بعض أمرائه منهم لقب السلطان، فازداد بذلك نفوذهم في الدولة وصار بإمكانهم التدخُّل في تولية من يرتضونه. وقد استغلُّوا نفوذهم بشكل ذكيّ، ولم يُضيِّعوا الفرصة التي قدّمها لهم الواثق، فكانت لهم اليد الطولى في تولية أخيه المتوكِّل من بعده.

كانت بغدادُ سادِرةً في غيِّها، وتتباهى على غيرها من الحواضر بأنَّها قلبُ العالم، رغم أنَّ المعتصمَ نَقَلَ عاصمةَ الدولة إلى سامراء، لكنَّ ذلك لم يُفلِح في تغيير طبيعة الأشياء. هذه المدينة المدوَّرة تُزري بمن سواها من الحواضر إنَّها تتمثَّل دومًا قول هارون الرشيد لمّا خاطب سحابة مرَّت فوق رأسه قائلاً «أيَّتها الغمامة أمطري حيث شئت، فإنّ خراجَكِ عائدٌ إليّ». هكذا كان البغداديُّون يعتبرون أنَّ الأرض لهم والسماء. وحيثما جاس المرء خلال ديارهم، وجدهم يملكون الأرض ويكادون أن يملكوا السماء، فتراهم يرفعون المآذن

والقباب العالية. وقد حاول المتوكِّل، لمَّا تولّى الحكمَ بعد الواثق، أن يفعل هذا في مئذنة جامع سامراء الملويَّة حتى أصبحت أعلى مئذنة في البلاد، لكنَّ التطاول في رفع المآذن العالية لا يعني بالضرورة أنَّ قلب الخلافة قد انتقل عن بغداد لسامراء. هناك سرّ في بغداد يجعل منها قلب الخلافة، فهي دومًا مدينة الغَد وحاضرة ما لا منه بُدّ. دورتها الزمانيَّة على عدد الشهور، والاسم الحاكم عليها هو الاسم المفرد (الله) والاسم (السلام). هي مدينة الاستدارة ومدينة التربيع معًا. فمن حيث إحاطة الاسم المفرد بها، لها الاستدارة، ومن حيث إنَّها مرعيَّة باسمه (السلام) لها التربيع، وهي مسكن القطب والخليفة.

صرتُ فتى في مقتبل العمر، وكنت أمضي وقتي بين دراسة العلم وصحبة القوم، وتجارة الحرير في السوق. كانت تجارة محترمة وشريفة. كان زبنائي من كلِّ الفئات نساء ورجالاً فهناك من يأتي لشراء الملابس الصوفيَّة، ومنهم من يأتي لشراء الأقمشة الحريريَّة. وقد أكسبني مخالطةُ طبقات الناس حلاوةً في المنطق، وطلاوةً في العبارة، ورقّةً في المعاملة.

كانت بغداد تَعُجُّ بكلِّ أصناف الناس، والسوق مكان مفضّل لوصول جميع الأخبار، إذ رأسُ المالِ جَبانٌ بالطبع، والأخبار مَوْرِدٌ لكلِّ شيء، والتاجر الحريص على ماله أحرصُ على تتبُّع الأخبار التي تتأثَّر بها تجارته. إنَّ التجَّار في حرصهم على الأخبار لحفظ أموالهم، فقهاء أصوليُّون، لأنَّهم يعملون بقاعدة «الوسائل لها حكم المقاصد»، فكما أنَّ الصلاة لا تكون إلَّا عن طهارة، والطهارة مقصودة، فكلُّ ما يؤدِّي إلى حصول الطهارة من وسائل يتنزَّل منزلتها ويصبح مقصودًا، مثل حكم المياه وحكم الآنيَّة التي تُجْلَبُ فيها، وما شابه ذلك. وقد

كان تجّار بغداد من أحرص الناس على أخبار الخلافة والخلفاء والأمراء، وأخبار البلاد التي تُجلب منها بضائعهم، وأخبار الخصب والقحط، فكلّ ذلك له علاقة بتجارتهم. ولم أَشُذّ عن هذه الأخلاق والعادات التي كانت مطلوبة في كلّ تاجر حصيف حاذق.

وأهمّ ما حصل في خلافة المتوكّل هو توقُّف محنة القول بخلق القرآن، فاستبشر الناس خيرًا، لكنَّ المتوكِّل خالف أسلافه أيضًا في سياسته تجاه العلويِّين، فشدَّد عليهم. كما شدَّد على أهل الذمَّة وأمرهم بلبس الطيالِس العسليَّة وشدِّ الزنانير. كانت هذه الأخبار تأتي إلى سوق بغداد، قبل أن تصل أيّ مكان آخر من المدينة. وبمجرَّد وصول أخبار إلزامِ اليهود ومن على شاكلتهم بلبس لباس متميِّز عن المسلمين، سارعتُ في طلب الألوان العسليَّة على اختلاف أنواعها، لعلمي بأنَّ الطلبَ سيكثر عليها وسأجني أرباحًا من وراء ذلك، فأرسلت في طلبها. لم تخب توقُّعاتي، فقد جاء كثير من أهل الذمَّة إلى دكّاني ليشتروا منِّي الأثواب العسليَّة التي اقتنيتها قبل غيري من التجَّار المنافسين. وقد ازدهرت تجارة جميع الأقمشة العسليَّة بسبب الطلب المتزايد. ومن بين الزبناء الذين قصدوني لشراء هذه الأثواب رجل يهوديّ، يُدعى سليمان، كان خادمًا مغنِّيًا عند إسحاق الموصلي الموسيقيّ الشهير. كان متوسِّط القامة، أَعْقَفَ الأنف، له لحية خفيفة، عيناه تبرقان بذكاء، وحاجباه كثيفان. له ضفيرتان ملتويتان خلف أذنيه تتأرجحان كلَّما تحرَّك. على رأسه عمامة عسليَّة داكنة، وطيلسان مُغْبَرُّ اللون، ونِعَالٌ مخصوفة. رغبت إليه أن يحدِّثني عن شيخه الذي نادمَ الخلفاءَ، هارونَ الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. وقد كان أصحابُنا يجيزون السماع؛ وتعلَّم بعضُ القَوّالين من طائفتنا صناعة

الألحان من إسحاق الموصلي، كما بلغني أنّ إسحاقًا كان يتعلّم من أصحابنا القوّالين والمسمعين والمؤذّنين والقرّاء، فأحببتُ أن أَطَّلِعَ على بعض ما عند الرجل.

فأجابني: ماذا أقول لك يا سيِّدي، لقد ذهبَتْ نضارة الحياة هذه الأيَّام منذ أن توفِّي شيخ أرباب صناعة الغناء، مولاي إسحاق الموصلي.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال سليمان: لم يكن إسحاق الموصلي موسيقيًّا فحسب، كما كان أرباب الغناء الذين اشتهر ذكرهم مثل ابن سُريج، ومَعْبَد، ومَالك، وابن مُحرز، وابن عائشة، وإبراهيم بن المهدي العبّاسي، وعَلّويه، ومُخارق، وإنَّما كان عالمًا أيضًا باللغة والتاريخ وعلوم الدين وراويًا للشعر وحافظًا للأخبار. بل لعلِّي أقول لك، إنَّ الغناءَ كان أصغرَ علوم إسحاق وأدنى ما يوصف به. وقد تعلَّم علم الموسيقى من دون اطّلاع على ما رسمه الأوائل، مثل إقليدس وأضرابه في مؤلَّفاتهم، ووافقهم فيما انتهوا إليه، وأفنوا فيه الشهور والدهور حتى استخرجوه، بينما استخرجه هو بصفاء ذهنه وتوقُّدِه وقريحته من غير أن يقرأ لهم كتابًا أو يعرفه.

فقلت: نعم. سمعت هذا وبلغني أنَّه روى الحديث، ولقي مالك بن أنس وسفيان بن عيينة من أئمَّة المسلمين، لكنْ، لماذا لم يُعْرَفْ عند الناس إلَّا بالغناء؟

فقال: يكفي دليلاً على ما أقول لك إنَّ الخليفة المأمون رغب في توليته القضاء لولا ما عُرف من اشتهاره بالغناء. لقد كان رحمه الله

عفيفًا نزيهًا زاهدًا أمينًا، حتى إنَّ المأمون قد سمح له بلباس السواد يوم الجمعة، والصلاة في مقصورة الخليفة، وأنت تعلم أنَّ السَّوادَ شِعارُ العبَّاسيين ولباسُهم، وبه قد خُصُّوا وعُرِفوا

فقلت: فلربَّما كان هذا خاصًا بالواثق؟

فقال الرجل: أبدًا، فإنَّ الواثق قال عنه «ما غنّاني إسحاق قطُّ إلَّا ظننتُ أنَّه زيدَ لي في ملكي».

ثم أضاف: لقد دخل شيخنا يومًا على القاضي يحيى بن أكثم، فأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصر عليهم. ثم تكلَّم في الفقه، فأجاد؛ وتكلَّم في الشعر واللغة، ففاق من كان حاضرًا في المجلس. ثم أقبل على القاضي يسأله: أعزّ الله القاضي، أفي ما ناظرتُ فيه نقصٌ أو عيب؟ فقال له القاضي: لا قال إسحاق: فَمَا بَالِي أَقُومُ بسائر هذه العلوم قيامَ أهلِها، وأُنسَبُ إلى فن واحدٍ قد اقتصر الناس عليه؟ يعني الغناء.

فقلت: لقد سمعتُ أنّه عَمِيَ في آخر حياته، فهل هذا صحيح؟

فقال الرجل: قبل موته بسنتين، عَمِيَ رحمة الله عليه من كثرة مطالعته في الكتب.

ثم أنشد الرجل يرثي شيخه قائلاً:

أصبحَ اللَّهوُ تحت عَفْرِ التراب ثاويًا في محلَّةِ الأحباب
إذا مضى الموصليُّ وانقرض الأُنْسُ ومَحَّتْ مَشاهدُ الأطرابِ
بَكَتِ المُلْهِياتُ حُزْنًا عليه وبَكَاهُ الهوى وصَفْوُ الشرَابِ
وبكت آلةُ المجالسِ حتى رَحِمَ العودُ عَبْرَةَ المِضراب

فقلت له: رحمه الله، لكن هل تعلّمت من شيخك صناعة الغناء؟

فقال سليمان: نعم، وقد كنت أسكن بجوار بيته وأخدمه، رجاءَ أن يتفضّل عليّ بصنعته، لأنَّه كان ضنينًا بها حتى على أخصِّ جواريه وغلمانه.

ثم أردف: لقد نسيتُ ما جئت من أجله.

فقلت: وما ذاك؟

فقال سليمان: أريد شراء قماش عسليّ، بعد أن أوجب علينا الخليفة المتوكِّل لبس الأقمشة ذات الألوان العسليَّة حتى نتميَّز عن المسلمين.

فقلت: إنَّ الحديث معك شيِّق، وأرغب أن تخبرني عن شيخك إسحاق، وتعلِّمني بعض الألحان العذبة، نظير أن أهديك قماشًا عسليًّا

فقال سليمان: عجيب أن تبتاع منِّي رفيع الألحان مقابلَ ثَوْبِ صَغَارٍ تلبسه هذه الأُمَّة الذليلة. ومهما بالغتَ في تحلية ثوبك بأرفع الصفات، فإنَّه يبقى لباس ذِلّة، وثوبَ شُهرة ومَعَرّة.

فقلت: «تَذَلَّلْ لمن تهوى لِتَكْسِبَ عِزَّةً».

فأردف قائلاً: «فَكَمْ عِزَّةٍ نَالَهَا المرءُ بِالذُّلِّ».

فقلت: نعم، العزَّة والذلّ ليست في الثياب، وإنّما فيما دون الثياب من النفوس. وكم من ذليلٍ في ثيابه عزيزٍ بنفسه. وها أنت ترى أنَّك عزيز بعلمك، لأنّي افتقرتُ إلى أن تعلِّمني بعضَ ما عندك من فائق صناعة الغناء.

فقال سليمان: صدقت يا سيِّدي، ونحن أُمَّةٌ اعتدنا هذه الأمور،

فإنّنا مثلُ الشجرة التي تتمايلُ مع الريح ولا تُغالبُها حتى لا تنكسر.

ثم التقطَ عودًا كان لأحد أصحابنا في الدكّان، فَسَوَّاه، ثم اندفع يغنّي:

مكتبة الرمحي أحمد

إنَّ سِحْرًا وَضِياءً وَخُنُثْ    هُنَّ سِحْرٌ وَضِياءٌ وخُنُثْ

أَخَذَتْ سِحْرٌ ولا ذَنْب لها    ثُلُثَيْ قَلْبِي، وَتِرْبَاهَا الثُّلُثْ

لم أتمالك نفسي من حسن الغناء وروعة الشعر، فصحت طربًا: آهٍ مِمَّا أَجِدْ، شَفَّنِي ما وُجِدْ.

ثم سألت سليمان: ما قصّة هذه الأبيات؟

فقال: أخبرني شيخي إسحاق أنَّه كان جالسًا ذات ليلة مع هارون الرشيد ينادمه ويغنّيه، حتى دخل عليهم الوزير الفضل بن الربيع، فَجَرَّهُ الحديث عن ثلاث جوار كُنَّ في مِلْكِه، وَوَصَفَهُنَّ بأحسن الأوصاف، حتى تاقت نفسُ الرشيد إلى حِيازَتِهِنّ، فقال للفضل: هل تسخو نفسُك بهنّ؟

فلم يُمْكِنْهُ التَّخلُّص من رغبة الرشيد فيهنَّ، فوجّه الفضلُ الجواري من الغد إلى الخليفة، فَغَلَبْنَ على قلبه، حتى قال البيتين اللذين غنّيتك قبل قليل.

فقلت: لعلّهنَّ نفسُ الحَظِيّات اللائي أنشد فيهنّ الأبيات الشهيرة:

مَلَكَ الثلاثُ الآنِساتُ عِنَانِي    وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

مَا لِي تُطَاوِعُنِي البَرِيَّةُ كُلُّهَا    وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى    وَبِهِ مَلَكْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

فصاح سليمان: هنّ الجواري أنفسهنّ. وإنّي أرى أنَّك رَاوٍ للشعر

الرقيق، فهل هي صبابة الفتوَّة قد وَلِعَتْ فيك؟

فقلت: إن كان قلب الخليفة لم يَسْلَم من داء الحبِّ، فكيف يسلم فتى يبيع الحرير لحرائر الصبايا؟

ثم أضفت: ما يُشْكِلُ عليّ هو كيف يستقطع المرءُ حبَّه في أكثرَ مِنْ واحدةٍ؟

فقال سليمان: ليس الأمر بالجديد، فقد وُجد مثل هذا عند قدماء اليونان والرومان. ولهم وَلَعٌ بربّات الجمال الثلاث. وقد كتبوا عنهنّ وأنشدوا فيهنَّ الأشعارَ، وأولعوا بهنّ غايةَ الولاعة والعِشق، وجعلوا كلّ واحدة منهنّ مختصَّة بصفة بلغت فيها المنتهى والكمال.

فقلت: هذا عجيب، ولعلَّ جواري الرشيد جمعن أيضًا مثل هذه الصفات، فأسماؤهنّ تعرب عن صفاتهنّ، «سحر وضياء وخنث». فقد حُزْنَ السِّحْر والضِّياء والانْخِنَاث. لكن هذا لا يُجيب عن سؤالي، كيف يُوَزِّعُ المرءُ حبَّه على أكثر من واحدة؟

فقال سليمان: صدقت، هذا أمر عجيب. أنت تعلم أنَّ التعدُّد مُباح في الملَّة اليهوديَّة، ومِلّة المسلمين.

فقلت: أعلم ذلك، لكنِّي لا أسألك عن الزواج، وإنَّما عن الحبِّ، إذ لا يَخفى عليك أنَّ الزواج يغلب عليه تحكيم العدل بين الزوجات.

فقال سليمان: لا خير في عدل بلا حبّ.

فقلت: نعم، هو ذاك، ولا خير في حبٍّ يُدَبَّرُ بعقلٍ.

لكن مهلاً، فإنَّ الرشيد في أبياته التي ذكرنا بقي مُستهلَكًا في معنى واحد للحبِّ، إذ قال: «مَلَكَ الثلاثُ الآنسات عِناني»، فقد أفردَ

الحبَّ لَمَّا قال «عِناني»، وما أعطى من نفسه لمحبوباته أعِنَّةً متعدِّدة. فهذا يدلُّ على أنَّ حُبَّه واحدٌ، وإن بدا متعدّدًا. فما أحبَّ على الحقيقة إلَّا معنى واحدًا قام بالآنسات الثلاث.

فقال سليمان: والدليل على صحَّة قولك، يا فَتَى الصَّبابةِ والهوى، قولُه بعد ذلك «وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكان»، فلو أحبَّ من كلِّ آنِسَة معنى لم يكن في باقي الآنسات، لكان العِنانُ الذي أعطى لكلِّ واحدة مختلفًا، ولكان حلولُ كلِّ واحدةٍ من الثلاث في قلبه في غير الموضِع الذي حَلَّتْ فيه الباقيات.

فقلت: فَدَلَّ هذا يا صاحبي أنَّ الرشيدَ لم يَخْرُجْ عن قاعدةِ إفرادِ المحبّة بالواحد، فما أحبَّ على الحقيقة إلَّا شيئًا واحدًا قام بآنساته الثلاث. إنَّ المحبّةَ لا تَقْبَلُ الاشتراك، ولكنْ إذا كانت ذاتُ المحبّ واحدةً لا تَتَجزَّأ، صحَّ له أن يُحِبَّ الواحدَ المتقلِّب في صُوَرٍ كثيرة، والمتبَدِّلَ في شُخوصٍ مختلفة.

فقال سليمان: لا شَكَّ أنَّ موقِعَكَ في هذا الدكَّانِ مَجْلَبَةٌ للحَظِّ يا فتى، فَكَمْ تَخْطُرُ على أعتابِك من الخَرَائِدِ المَصُونَات، والأبْكَار المنهَّدات؟ فهل لكَ صَبْوَةٌ إلى إحْدَاهُنّ؟

فقلت: لَعَلّ.

ثم انقبضتُ في الجواب، رغم أنِّي كنتُ قد استرسلتُ دون رقيب، لأنَّ لحظَةَ الطرَبِ استدعَتْ بَثَّ الأشواق، ثم انتبهتُ فجأة أنَّ أخبارَ العُشَّاق تُطوى ولا تُحْكَى، لأنَّها متى ما نُشِرَتْ سافَرَتْ بين الألْسُنِ والآذان بسرعَةِ البَرْق في مدينةٍ تعشَقُ القِيلَ وَالقَالَ حتى تدخلَ القُصور والخُدور، فانْزَجَرْتُ عَمَّا كِدْتُ أُذيعُه. لاحظ صاحبي إحجامي

المُباغِت، فأرسلَ مِضرابَه يَجُسُّ به الأوتار، ويُوَقِّعُ بأنامِله على دَسْتِ العُود، ثم غَنّى مِنْ رَقِيقِ الشعْر عن صَبِيَّة تُدْعى «أسماء»، فتواجدتُ مرَّة أخرى، وسَمَتْ نفسي وتاقَت.

ثم أخبرني سليمانُ أنَّ إسحاقَ استخرجَ هذا اللحنَ لمّا سمع عبدَ الوهابَ المؤذِّنَ يُؤَذِّنُ به على بابِ الخليفة، فأصغى إليه، وعاد في يومٍ آخر يتسمَّعُ الأَذَانَ حتى رسخ في نفسِه، فبنَى عليه هذا اللحنَ الجميل.

فقلت: هذا اللحنُ يُثِيرُ الأَشْجَانَ، وهو ممّا يتواجَدُ به القومُ عندنا على شِعْرِ بحر الرمَل. وقد وفَّيْتَ بشرطِك، ولم يبقَ إلّا أن أُوَفِّي بشرطي، وحقُّ الكريم إن تَواجدَ طربًا أن يَتَفَتّى جُودًا وسَخاءً، فَدُونَكَ الدكّانُ تختار منه ما يَروقُك من القُماش العَسلي، فإنَّ صناعتَك في الغناء مَعدومةٌ غيرُ مَوجودةٍ. ومهما دفعَ المرءُ فيها، فإنَّ البائعَ مَغبونٌ والمشتري غَانِم. وقد غنِمتُ في هذه اللُحَيْظَاتِ أَلحانًا بَرَتْ رُوحي بِسِكِّينِ الطرَب، فما أحدَّهَا من أنغام، وما أطيبَها من أوزان!

تبسّمَ سليمانُ بعدما سلَّمْتُ له الدكّانَ، فأعادَ العُودَ إلى موضِعِه، وانبرى إلى ثوبٍ قَشِيبٍ لا تُعرِّجُ عليه إلّا العيونُ الخَبيرةُ والأكياسُ المليئةُ، فَذَرَعَ منه ما شاء، ثم عَمَدَ إلى مِقَصٍّ فَجزَّ في عَرْضه، ولَفَّهُ لَفَّ خَبيرٍ حاذِق. وبينما كنتُ أَتعَجَّبُ من شَطارَتِه التي لو أَبْصرَهُ الناظِرُ لظنَّه صاحبَ الدكَّانِ، البصير بتجارَتِهِ، إذ وَقَفَتْ علينا فتاةٌ كأنَّها القَمر، وخَلْفَها وَصِيفَتُها، فودّعَ سُليمانُ سريعًا، وانصرفَ حَثيثًا مخافةَ أن ينجلي حالُ الطرَبِ عنّي فأعودَ إلى حَزْم التجّارِ وضِنَّتِهم، ورماني بنظرةٍ ملؤُها الكِياسَةُ والفِطْنَةُ، ولعلَّه قال بِعَيْنَيْهِ ما كان قد قالَه مِنْ قَبْلُ بأنَّ دكَّانَ الحريرِ مَجْلَبَةٌ للحَظّ، مُفْتَتَنٌ للنفوس العاشِقة، ومَرْتَعٌ يَخْطُر فيه الحُسْن والجمال. أَمَلْتُ له رأسي قليلاً متصنِّعًا الوقار، حتى لا يَأفَلَ

القمرُ الطالِعُ في سماء السُوق عن دكّاني. سارعتُ بالترحيب في رِقَّة، ثم فَسَحْتُ بحركة من ذراعي للفتاة وصاحبتها، مُرَحِّبًا بهما في الدكّان. ابتسمَتْ لي، ثم دخلَتْ تُعايِنُ الأثوابَ المعروضة، وفي إثْرها صاحِبتُها. وبِنَظْرةٍ مَائِلةٍ، قطعَتْ بقَوْسِ ناظِرها مَعروضات الدكّان. توقّفَ نَظَرُهَا فجأةً أمامَ ثوبٍ رَفِيع. حَزَرْتُ رغبتَها بِحِذْقِ التاجِرِ المتَمَرِّسِ، فَعَمَدْتُ إلى الثوب فبَسَطْتُه أمامَ عينيها، واقتربتُ منها فَعَبِقَتْ بطيبٍ غامِضِ التركيب. ثم مَوَّهْتُ عن حالي بكثرةِ الكَلام عن مَزايا الثوب، وما لي كلامٌ إلّا عنِ الفَتاة التي تقف أمامي. أَخذَت منّي الثوبَ، فسقطَ خمارُها الحاجِزُ عن أَنْفٍ أَسِيلٍ، وثَغْرٍ نَضِيدٍ، وَعِذَارٍ سَالَ على صَفْحَةِ وَجهِها كأنَّه ثعبانٌ أَسْوَد ينسابُ في صمتٍ فَاتِنٍ، فزاد اهتبالي، إذ كنتُ قد سقطتُ في غرامِها مِنْ قَبْلُ لمَّا زارتِ السوقَ قبل أسبوعين خَلَيَا، ومرَّت إلى دُكَّانٍ مُلاصِق لدكّاني، فلم أتمكَّن من جلبها إلى دكّاني رغم محاولاتي اليائسة بكثرة الحنحنة، وتَنويع المِشْيَةِ والجِيئَة، ورَفْعِ الصوت للتنبيه على البِضَاعَة، لكنَّها لم تُعِرْنِي انتباهًا، ولا رضِيتْ أن تُلقي نظرةً على المتَطفّل المتبذِّل، بل تمادَتْ في تجاهُلِها وَقْتَذاكَ، وتلَبَّثَتْ في دكّان جَاري حتى اشترتْ منه حاجتَها وها هي اليومَ تعودُ إلى السوق لزيارة دكّاني بعدما تركَتْ ذكرى مُرورِها تُؤَرِّقُ قلبي. ولولا الرزانةُ، لَتَهتَّكْتُ ولَتَلفَّظتُ بما لا ينبغي، إذ خطورُ الجمالِ يَطيشُ بالأَلْبَاب. لقد استُهْلِكْتُ في حبِّ هذه الفتاة من أَوَّلِ نظرةٍ دونَ سَابقِ مَعرفة. وحين كان سليمانُ يُخَاتِلُ بأشعاره جَاسُوس قلبي، كنتُ أُفكِّر فيها. وها هي تَطْلُعُ عليَّ في أُفْقِ دكّاني شمسًا مَلأَتْ بضيائِها كلَّ أركانِ السوق.

حاولتُ أن لا أُضَيِّعَ هذه الفرصةَ، فأخرجتُ لها ما كان عندي من

أثوابَ رفيعةٍ لاستِدامَة مُكْثِها، ثم ناديتُ على غلامِ السوق حتى يأتينا بشرابٍ بارد، وقصدي أن أَحجِزَها في دكَّاني، وأتملَّى بِطَلْعَتِها وأَسْتَطِيبَ بِمُكثِها، كمَا يَسْتَمْرِئُ العَطشانُ الشرابَ، ويَستطيبُ برشْفِهِ رشفاتٍ صغيرة حتى يُؤَبِّدَ لَذَّةَ الارتِشَاف. لم تَمْضِ لَحظاتٌ حتى هَبَّ الغلامُ إلى الدكَّانِ بالشرابِ المنسَّم، فَنَقَدْتُهُ وَصَرَفْتُه. ثم طلبتُ من الفتاة وصاحبتِها أن تجلِسا على طنافس في الدكَّان، فجلستا. أَدْنَيْتُ مائدةً صغيرةً أمامهما، وقدَّمتُ لهما الشرابَ المنسّم بالزنجبيل والقرفة. كان هذا الشراب مُنَبِّهًا جيِّدًا ومُثِيرًا للغرائز، فتعمَّدْتُ طلَبَه. شكرتني الفتاة على ضِيافتي، وسألتني عن سلعتي. ثم أخيرًا، سألتني عن اسمي معلِّلةً ذلك بكونها ترغبُ في أن تخبر صُوَيْحِبَاتِهَا عنِّي حتى يَزُرْنَنِي وَيأخذنَ حاجتَهُنَّ من مَعروضاتي. شكرتُها، وفَطَنْتُ أنَّها تُداري فُضولَها بمعرفة اسمي بذكر صويحباتها. لم أَجِدْ غَضاضةً في أن أسألَها عن اسمها، ما دام أنَّها استهلَّتْ بالسؤال عن اسمي. تردَّدَتْ قليلاً، ثم قالت: اسمي فاطمة.

فقلت: ما أجمَله من اسم، وما أطيَبَهُ على اللسان!

تعمَّدتُ على سبيل التحَقُّق أن أكرّرَ اسمَها وأقطِّعَه مقطعين، فكأنَّ المقطعَ الأوَّلَ نداءٌ، والثاني جواب.

بدأَ مفعولُ الشرابِ يُؤْتِي ثِمَارَهُ، فاحمرَّتْ وجنتاها، وأخذَتْ طرَفَ الخِمَار لِتَسْتُرَ خَفَرَهَا استدركتُ الأمر، فنشرتُ ثوبًا أمامها وقلت: إنَّ هذا القُمَاشَ أَوْفَقُ لكِ ولِلَوْنِ صَفْحَةِ مُحَيَّاك.

فقالت: وما أدراك بما هو أَوْفَقُ لي؟

فقلت: على الوَجْهِ يَدُلُّ الأثَر، وخِبرتي بصناعتي تُؤهِّلني لمعرفة

ما يناسبُ كلَّ صفْحَةِ وجهٍ من الأثواب. ثم طرحتُ القُمَاشَ على وجه العُودِ، وكان من خشبٍ رفيع يشبه لونَها تمامًا، فتبدَّى العُودُ في أبهى حُلَّة، بعدما كان قد تبدَّى في أبدع تَرنيم في أناملِ سليمان.

فقالت: إنَّما هذا ثوبٌ جَمَادٌ أُلْقِيَ على عُودٍ جماد، فما بالُكَ أَغْفَلْتَ النفوس والأرواح؟ أليستْ بينها وبين الأثواب مناسبة؟

فقلت، وقد فاتني ما اعترضَتْ به: صدَقْتِ يا سيِّدتي، ومِنْ أينَ لأمثالي بمعرفةِ مَطويّات نُفوس زبائني ومَكنونات أرواحهم؟

فقالت، وقد فَطِنَتْ لما خَلْفَ قولي مِنْ طَلَب: تلك حُرَمٌ لا يجوزُ الاقترابُ منها أو الكَشْفُ عنها، وإنَّما تُنَالُ فِرَاسَةً إن أُسْعِفَ المُتَوَسِّمُ ببصيرةٍ نافذة تلقاءَ تلك الأرواح. فمن كان له علم بذلك، أدركَ مكنونات النفوس.

فقلت: ليس هذا بالأمر اليسير، إذ لا بُدَّ من مساعدتي حتى أقفَ على ما يُناسِبُ روحَكِ الصافية من الأثواب. وإنِّي أعلم أنَّ بعضَ الناس لهم مثل هذه الخاصِّيَّة، فمن الناس من هو جَاسوسُ القلوب لقدرته على الاطِّلاع على مَطويَّاتها وهذا الخِمار الذي تَسْتُرينَ به جمالَك، كلَّما تحرَّكَتْ أوتارُ روحِك يمنعني من قراءة مكنوناتها على صفحة وجهِك وتتبُّع آثارِها وخفقانها، فكيف العمَل؟

سألتني، وهي تُداري كلامي بينما تُغْفِلُ طلبي لها بكشف خمارها، بل لقد تعمَّدت مرَّة أخرى أن تسترَ بالخِمار كلّ مَنْفَذٍ إلى روحِها: وهل مثلُ هذا مَوجود؟

فقلت: لعلَّه صحيح، وليس لِنَاكِرٍ رأيٌ في واجِد.

فقالت: بل كلُّ الناس ترسِلُ الآراءَ حول هذه الأشياء، ويَدَّعونَ

أمورًا حتى فيما ليس لهم فيه ذَوق.

ثم كشفَتْ عن وجهها مرَّة أخرى، فَسَحرني جمالُها الأَخَّاذُ، حتى قلت بدون سابقِ تَدبير أَصَبْتِ يا فاطمة.

فما أدري هل أصابَتْ في الحجَّة، أم أصابَتْ قلبي بجمالها، أم بهما معًا؟ ولمّا نطقتُ باسمها على غير انتظار، احمرَّتْ وجنَتاها مرَّة أخرى، فعمَدَتْ إلى الثوب تستُرُ به وجهَها، فقلت: لعلِّي أصبتُ مدخلاً إلى القلوب.

والحقيقة، أنَّه كان عليّ أن أقولَ إنَّها أصابَتْ مدخلاً إلى قلبي، لكنَّ المحبِّينَ لا يعترفون بسهولة، بل يحوِّلونَ ضعفَهُم إلى قوَّة، ودفاعَهُم إلى هجوم.

فقالت بتردُّد: كيف ذاك؟

فقلت مُعلِّقًا الإجابةَ على سلسلةٍ من الاحتمالات: مِنَ الناسِ مَنْ يمكنُ الاطِّلاعُ على باطنه بنظرةٍ أو حركةٍ أو إشارة أو كلمة.

فقالت: لكنَّكَ ذكرتَ أنَّكَ أصبتَ مدخلاً إلى القلوب، فما هو ذاك تحديدًا؟

فقلت: قد يكون النطقُ باسمكِ علامة.

ازداد احمرار وجنتيها، فأردتُ أن لا أُحرِجَها، فأخذتُ ثوبًا أبيضَ اللونِ، وَمَسَكْتُهُ بِطَرَفَيْ أصابعي حتى حَجَزْتُ به كلَّ جسدِها عن نظري، ولم يبقَ من شخصها إلَّا عيونُها وأعلى رأسها، فقلت: هذا الثوبُ يلائِمُكِ يا فاطمة.

مسكَتْ بطرَف الثوب بعد تردُّدٍ، فَلَمَسَتْ أصابعُها ظاهر يدي، فانتشيتُ بهذا التمَاسِّ اللطيف، وزادت نبضات قلبي. ثم أخذَتْ طرفًا

آخر بيدها الأخرى وتنقَّبَتْ به. فلمّا عاينتُ هذا الجمالَ، ازددتُ انْكِسَارًا وازدادَتْ جَأشًا، وكأنَّ انحجابَها خلفَ الثوبِ أَكْسَبَها جُرْأَةً وتَقَحُّمًا. وكأنَّ انكشافي أمامها أكسبني ضُعْفًا وإحجامًا خانتني عيوني ذاتُ اللونِ الأخضر، فاستحالَتْ إلى لون ممتزج بِدُكْنَةٍ تشبه لونَ الأصيل، إذ صعد الدم إلى رأسي وسرى في كلِّ ذاتي، حتى أفضى إلى عروق عيوني ذات اللون الأخضر فأحالها إلى لون مُتَلَبِّد. ثم إنَّ أنفي الأسيل قد تعرَّقَ، فانبجَسَتْ حبَّاتُ العَرَق على مُنْحَدَرَيْه. ورغم أنِّي كنت طويلَ القامة أُشْرِفُ على فاطمة، ممّا ينبغي أن يُكْسِبَني ثقةً زائدة، إلَّا أنَّ جُرْأَتَها وانحجازَها قد أكسبَها ثقةً في أن تُشْرِفَ على قلبي، وتُوهِنَ مقاومتي وتُطِيحَ بعرش كبريائي، فبدوتُ مُنْكَشِفًا كانت عيونها السوداء الكَحِيلة تَبْرُقُ على صفحة الثوب الأبيض الشفّاف، فرأيتها تستعذب اللحظة وتتلمَّضُ بتمرير ثعبانِ لسانها على شفتها العليا، أو عَضَّةٍ مُغْرِيَةٍ على شفتها السفلى، فأدركتُ أنَّها نالت منِّي، وأنِّي صرتُ أَسير حبِّها. وتعلَّقْتُ بِهُدْبِ عيونها الأَسِيلَة كما لو أنَّها حبالٌ أردتُ بها النجاةَ من بحر عيونها، فَأَلْقَتْني في قعر محيطها. فيا عجبًا أن يأتي الهلاكُ ممّا به النجاة! أدركَتْ فاطمة حالي، فقامَتْ للتوِّ وطلبَتْ منِّي أن أَذْرَعَ لها من الثوب الأبيض ما يَصْلُح لها، ففَعَلْتُ. ثم عمَدَتْ إلى الشراب فاحتَسَتْهُ جُمْلَةً واحدة، وأخرجَتْ بسرعة كيس نقودٍ فسلَّمتني ثمنَ الثوب، ثم انصرفَت دون كلام، وكأنَّها خَشِيتْ أن يُثِيرَها الشرابُ أكثرَ، فتتجاسر في إغوائها، أو تضعف في تَمَنُّعِها

لم أُدرِكْ ما حصلَ، إذ كنتُ ذاهلاً بِسِحْرِ اللحْظَةِ عمَّا تَرَتَّبَ من أحداث متتالية متسارعة. ولمّا رجعتُ إلى نفسي، لم أَجِدِ الفتاة، فنظرتُ من حولي فلم أرها. اضطربَ تفكيري وشككتُ في نفسي،

وحَسِبْتُ أنِّي كنتُ في حُلم، لكنَّ وجودَ الثوب في يدي نفى الشكَّ الحاصلَ عندي. تطلَّعتُ إلى الدكاكين المجاورة فلم أرها لم يلزمني وقت كبير حتى قرَّرتُ أن أمضي في تعقُّبها، إذ لم أكن أعرف عنها شيئًا. فلم تخبرني عن محلّ سكناها ولا عن أسرتها، ولم أظفر بما يمكّنني من رؤيتها مجدّدًا!

أسدلتُ الستارة أمام الدكّان، وخرجتُ لا أَلوي على شيء. لم يكن يسعفني في تَعَقُّبِي للفتاة إلّا رائحةُ عطرها التي عَلِقَتْ بمسامِّ روحي. كانت تضع عطرًا غامضًا، لعلّه مَزيج من عطور نباتيَّة مثل العود والصندل والقرنفل والياسمين، وحيوانيَّة مثل العنبر والمسك، أو لعلّها غالية صنعتها لنفسها خرجتُ أتعقَّب الفتاتين في كلّ ناحية، وأنظر في الدكاكين عَلِّي أجدهما في واحد منها، فما عثرتُ لهما على أثر. خرجتُ من سوق البزَّازين، ودخلت أسواقًا أخرى كانت مَظِنَّةً لكي أجدَ فيها ضالّتي، فلم أُفلِحْ إلّا في اللهْثِ وراء السراب. مشيتُ من محلَّة الكَرْخ على طول نهر كَرْخَايَا حتى وصلتُ إلى دير العَذارى، فظننتُ أنَّ الفتاتين من بنات النصارى، فدخلتُ الديْر علِّي أجدُ تلك العذراءَ ومثيلاتها من الأوانس التي ذاكرني حولها سليمان. وَلَجْتُ الدير، فاستوقفني الشمّاسُ، فأبديتُ الضراعةَ فتركني، ثم جاءني القَسُّ، فأعطيتُ له من حالي الوَرَاعَة، فهشَّ لي. تجوّلتُ في نواحي الدير فلم أَعْثُرْ على الفتاتين، ثم خرجت مُتَذَمِّرًا، وأمضيت في سبيلي على طول نهر البزّازين إلى أن وَصَلْتُ محلَّةَ الشرقيَّة، فقطعتُ الوادي إلى الجهة الأخرى، فاعترَضَتْنِي كنيسةُ العقبة، فقلت لعلّهما دخلتا هناك، فدخلت. كان القُدّاس قائمًا، فجلستُ على أحد الكراسي مُراقبًا للأَناسي، فلم يُمْكِنِّي مَعرفةُ مَنْ مِنَ الأوانس قُدَّامي. ثم مشيت باتِّجاه

المذبح على طول الرواق الجانبي، وتَلَفَّتْتُ أُعاينُ الجالسات واحدةً واحِدةً، فلم أَرَ ضَالَّتي، فخرجتُ مُطَأْطِئًا رأسي. ثم عرَّجتُ على مقبرة الشيخ معروف الكرخي، ووقفت مُتدبّرًا مترحِّمًا لا أَدري هل على حالي، أم على أحوال مَنْ مَضى قبلي. ثم دفعتُ حتى وصلتُ دير الجَاثَلِيق، فلم تكن لديَّ رغبة في دخوله، وضحكتُ من حالي إذ ظننتُ أنَّ الفتاةَ نصرانيَّةٌ، حتى تذكَّرتُ أنَّ اسمَها فاطمة، فأزحتُ الاحتمال الأوَّل، ثم وَقَرَ في باطني أنَّها ربّما تكون من آل البيت أو مُشايِعيهم. وبعد أن تَعِبْتُ من هذه الاحتمالات غير المفيدة، بَرَقَتْ فجأةً في ذهني بارقةٌ، وعزمتُ على أنَّ اليقينَ الوحيدَ الذي معي هو غَالِيَتُها أو عِطرُها الغامض المتفَلِّت، فلربَّما وجدتُه في سوق العَطّارين. لكنْ، كيف يَظفرُ المرءُ بضالّته وليس معه إلّا شيءٌ لطيفٌ لا يُرى ولا يُلمس؟ والأنكى من ذلك أنَّ عِلْمَه بذلك العطر مقصورٌ عليه. فكيف أُبَلِّغُ عنه وأُعَدِّيهِ إلى من يمكنُه مساعدتي في تعقُّب الصبيّة النافرة. وبقدر ما زاد حماسي وتقَوّى عزمي بالذهاب إلى السوق بقدر ما أَيْأَسَنِي ما كان بيدي من الأدلَّة عن الفتاة ضعيفًا لطيفًا لا يُرى ولا يُسمع ولا يُلمس، بل هو ممّا يُشَمّ. ولا أدري كيف أَنقلُ ما شَمِمْتُه إلى مَنْ يستطيعُ أن يتعرَّفَ ذلك؟ مع كلِّ هذا، كان الأملُ كبيرًا كشأن كلّ طالبٍ لمحبوبه. ذهبتُ إلى السوق، ومررتُ على عدّة سُوَيْقَات في طريقي، مثل سويقة عبد الوهاب، وسويقة غالب، وسويقة أبي الورد التي بين الصَّرَاةِ والكرخ، ثم سويقة الهيثم، حتى وصلت عند صديق لي من جماعتنا مشهور ببيع العطور. بعد أن سلَّمْتُ على محمَّد بن أبي الورد، بادرتُه متعجِّلاً سائلاً عن العطر الغامض الذي عَبِقَ في دكّاني، ولم أُدرك وصفَه ولا تركيبه. طلب منّي أن أصفَ له ذلك العطر، وما زال يسألني بلطيف

الأسئلة، حتى أدركتُ لنفسي بعضًا من تركيبة ذلك العطر ممّا كان ممتزجًا في جيوب أنفي، فأفضى إلى امتزاج هويّته في إدراكي. ولمّا وصفتُ له ذلك العطرَ الغريب تَحيّر، ثم عَمَدَ إلى بعض قواريره وأصفاني بتلقّي شَذَاها بعد نَزْع غِطاها. بِتُّ أتلقّى نَوافحَ العطور حتى اختلَّتْ حاسّةُ شَمّي. وفي كلّ مرَّة، كنتُ أَخرجُ خارج باب الدكّان حتى أستنشقَ هواء منعشًا لكي أَقْوَى على التمييز بين تلك العطور والروائح. كان ابن أبي الورد يُسمّي لي كلّ طيب يقدِّمه لي، فمن ذلك، الذريرة البرمكيَّة المعجونة بماء الورد وماء القرنفل وماء الآس وأصناف عديدة من الطيب. ثم قدّم ضَرْبًا من الغالية سمَّاها العنبريَّة لغلبة العنبر عليها، وأخرى غالية كافوريَّة يغلب عليها الكافور، وثالثة تُسمّى الغالية الصفراء لا تترك بقعًا على الثياب. كما أصفاني بنوع من الطيب يُسمّى الساهريّات، لأنَّه يُسْهَرُ في عملها وإتقانها، ونوع آخر يُسمّى الشمَّامات التي تستعمل للزينة والشمّ في مجالس الشراب، ونوع اللخَالِخ التي تشتمل على ألوان وأصناف متعدِّدة، ونوع من نُضُوحِ الأنداد التي يُنْضَحُ بها من يريد التعَطُّرَ بها، ويكون الندُّ أوفرَ أخلاطِها وأنواع كثيرة من المسك التِّبِتِي والصينيّ، والزعفران الماهي والشاميّ، والعنبر الأزرق والشحريّ والأصهب، والعود بشتّى أنواعه الهنديّ والقماريّ.

زكمتني تلك العطور حتى أَيِسْتُ من شَمِّ تلك القارورات، إذ لم تكن تشبه روائحُها عطرَ صاحبتي، وكِدْتُ أُغادر دكَّانَ صاحبي محمَّد بن أبي الورد، لكنَّ حَكَّةً انتابتني على أَرنبة أنفي حتى أرغمتني على العُطاس. ومخافة أن أُحْرِجَ صاحبي بعطستي على عطوره وأغراضه، اِلْتَقَطْتُ بِسُرعةٍ قطعةَ قماش كانت بالدكَّان، فوضعتها على خياشيمي

حتى تتلقَّفَ نُثَارَةَ عَطْسَتِي. حمدتُ الله، فشَمَّتَنِي صاحبي، وأحسستُ براحة من أثر العطسة، وكأنَّها جاءت في الوقت المناسب حتى أُفرغ جيوبي الأنفيَّة ممَّا عَلِقَ على سطحها من أَثَرِ العطور المزكمة التي شممتُها، بل إنِّي كنت غيورًا من أن أَتَلَبَّس بعطرٍ غير عِطْرِ صاحبتي، فَلعلِّي اسْتَثَرْتُ العُطَاس بسلوكٍ لاإرادي. عقب العطسة، داخلتني رائحةٌ غامضةٌ منبعِثة من قطعة القماش التي عطستُ عليها. رفعتُ تلك القطعة التي كنت ما زلتُ أمسكُ بها، وأدنيتُها من أنفي أتشمَّمُها، فإذا يقيني يتقَوَّى، وإذا يأسي ينقشع، وإذا الأمل في الوصول إلى هويَّة العطر الذي كنت أتعقَّبُه قد حَلَّ في هذه القطعة التافهة، التي أصبحَتْ وقتئذٍ أثمنَ من كلِّ هذه العطور التي أمامي في هذه اللحظة العجيبة. كان كلُّ أملي معلَّقًا بهذه القطعة على حقارتها عبقتُ من العطر الساكن في القماش، فأحسست بانبعاث طيف الصبيَّة أمامي، وأدركتُ هويّتها من غير شخوص شبحها أمامي. لقد تحوَّلتْ هذه القطعة التافهة إلى طيف الفتاة التي كنت أتعقَّبُها أمسكتُ بها جَيِّدًا مخافةَ أن تَضِيعَ منِّي مرَّة أخرى، إذ كنت حريصًا على أن لا أَغِيبَ في حلم جديد، فتغيب القطعة كما ضاعت الفتاة من قبل. كان صاحبي ينظر إليَّ متعجِّبًا، لكنَّه لم يَفْطَنْ بما كان يدور في خلدي، فقلت له: لقد وجدتُ العطرَ الذي كنتُ أبحثُ عنه في قطعة القماش هذه.

فقال لي: احتفظ بها بعد أن عطستَ عليها، فإنِّي زاهد فيها

ضحكت من كلامه، لكنِّي قلت له، فمن أين لك بهذا العطر المبثوث عليها؟

فقال: لقد زارتني قبل شهرين فتاةٌ صبيحة، أُقَدِّرُ أنَّها لا تُجاوزُ أربعةَ عشر ربيعًا مع صاحبةٍ لها، وطلبَتْ منِّي أن أُعِدَّ لها نظير هذا

العطر الذي على قطعة القماش. وقد مَرَّتْ عليّ قبل مُدَّة، فلم يكن العطرُ جاهزًا بعد، فطلبتُ منها أن تعودَ هذا اليوم لتأخذَه فلمَّا جاءت في الموعد، وجدَتِ العطرَ جاهزًا، فسلَّمْتُها إيَّاه، لكنَّها نسيتْ أن تأخذَ قطعةَ القماش هذه. فقلت: فهل يمكنك أن تُعِدَّ لي العِطر نفسه حالاً؟

فقال محمَّد بن أبي الورد: هذا العطرُ يا صديقي كلَّفني كثيرًا حتى وقفتُ على هويَّته وجوهره، وميَّزتُ المقادير لتركيبته حتى تَجَوْهَرَ لي. ولم يَسبِقْ لي أن وقفتُ على مثل طيبه وتركيبته من قبل، مع أنَّ عائلتي تشتغل في العطور منذ أزيد من سبعين سنة. وليس هناك في بغداد أو في غيرها عِطرٌ لم نصنَعْه أو لا نعرفه. ومع ذلك، فقد فاجَأَتْنِي تلك الفتاة بهذا العطر الذي أعدَدْتُه لها، وقد أخذ منِّي ما يزيد على شهرين من العمل حتى توصَّلتُ إلى تركيبته، بعد أن أَدَمْتُ شَمَّ قطعة القماش التي في يديك. ويجب أن تعلمَ أنَّ العطورَ لا تُعَدُّ كيفما اتَّفَق، بل لها أوقات مخصوصة، وأفضلُها وقتُ السَّحَر، ولهذا لن يكون عطرُكَ جاهزًا إلَّا في يوم غد. فإنَّ أنسبَ الأوقات لصناعة العطور والغواليَ والطيب في وقت السَّحر قبل طلوع الشمس. وإذا كان إعدادُها في فصل الربيع، كما هو الشأن الآن، كان أفضلَ.

فقلت: إذن لا فائدة في أن أحصلَ على ما طلبتُ قبل يوم غد. فَلْيَكُنْ على بركة الله، وسأحتفظ بقطعة القماش، لأنِّي أحسبُ أنَّك لستَ محتاجًا إليها في إعداد العطر، بعد أن سبق لك أن وقفتَ على مقاديره وتركيبته.

فقال محمَّد: لا حاجةَ لي بقطعة القماش تلك التي تلقَّتْ نُثَارَتَك القَذِرَة.

ضحكنا جميعًا من كلامه.

ثم سألته: هل ذكرَتْ لك صاحبةُ العطر اسمها أو مكانَ سكناها؟

فقال الصاحب: هل تمزح؟ هذه معلومات تَضِنُّ بها الحرائر على أَخَصِّ الناس، فكيف تَسمحُ بإذاعتها في الأسواق. ثم على فَرْضِ أنَّها أخبرتني بذلك، فليس بمقدوري أن أُذيعَ أسرارَ زبائني، إذ ليس من المروءة ولا من آداب صنعتنا أن نُذيعَ أسرارَ الناس. هذا ما تعلَّمْتُه من آبائي الذين مارسوا هذه الصنعة الشريفة. وهذا ممَّا تعلَّمته من شيوخي أيضًا، ومنهم خالُك سريّ السقطي وأبو عبد الله النباجي. لكنَّ أخي أحمد الذي يلازم خالك أكثر منِّي، يمكنه أن يخبرك بهذه الآداب أكثر منِّي، فإنِّي شُغِلْتُ بالتجارة عن حضور مجالس الشيوخ.

فقلت له مُغالطًا: لا عليك، وإنِّي أعلم أخلاق أخيك أحمد العالية. وقد طلبتُ منك معرفة هويَّة صاحب العطر، لأنَّ ذلك الشَّذَا راقني، فأحببتُ أن أعرفَ صاحبه.

فَرَدَّ عليّ محمَّد سريعًا: أو صاحِبَتَه.

فقلت: فليكن، وليس في هذا عيبٌ أن يطلبَ الإنسانُ عطرًا استهواه.

فقال محمَّد: اِنْصَرِف الآن، فقد انفضحَ أمرُكَ يا جنيد، ولا تحاول أن تُداريني بمثل هذه التمويهات، فإنِّي أرى في عينيك حرصًا على صاحبة العطر لا يَخْفى على كلِّ ذي عَيْنٍ بصيرة.

ابتسمتُ له، ثم ودَّعته وانصرفتُ على أمل أن أجدَ قارورة العطر عنده في يوم غد.

يَمَّمْتُ شَطْرَ دكَّاني، فما إن دخلتُه حتى عَبِقَ شذا فاطمة الذي

تركَتْهُ خلفَها. لم يَخْلُ لي بيعٌ ولا شراء، وصرتُ شاردَ الفكر مُستَهْلَكًا في ذكر صاحبتي. ثم بدأتُ أَصنعُ الاحتمالات المختلفة، فقد ذكر لي صاحبي أنَّها زارته قبل مدَّة ليصنعَ لها العطر، وأتذكَّرُ الآنَ أنَّها مَرَّتْ بدكّانِ جَاري في التاريخ نفسه، فلعلّها مَرَّتْ هناك، لأنَّها لحظتني. ثم مرَّت اليوم عند العطّار، ومرَّت بعد ذلك إلى دكَّاني، فهل كلّ هذه الأمور موافقات حدثت؟ لا شكّ أنَّ الأمر مُدَبَّر. وهكذا صرت أقلِّبُ الاحتمالات وبدأتِ الصورة تَتَّضِحُ عندي. وبينما كنت أتفكَّر في الأمر، وقع نظري على الكأس الذي شربَتْ منه، فأخذتُه، وكان قد بقي في قعره فُضَالَةٌ، فتتبَّعْتُ حافَّةَ الكأس التي حَطَّتْ عليه شفتيها، فوضعتُ شفتيَّ في عين الموضع ثم احتسيتُ تلك الفضالةَ، فكانت أطيب ما شربتُ في حياتي. وبعد أن حَسَوْتُ تلك الفُضالة باسْتِمْراءٍ، أحسستُ كأنِّي أصبحتُ وفاطمةَ ذاتًا واحدة. فقد وقعَتْ شفتايَ على أَثَرِ شفتيها، وعَلِقَ بي عطرُها، وظَفِرْتُ بقُماشها، ولمستني بأناملها، وسمَّتْ لي نفسها فإن لم تَكُنْ كلُّ هذه الأمور كافيةً في الحبّ، فليس هناك أملٌ بعد ذلك. سعِدتُ بهذه الأشياء اللطيفة المترتِّبة من هذا اللقاء. استعجلتُ رَواحي، فأقفلتُ الدكَّانَ وعدتُ إلى بيتي في الشُّونيزِيّة. مرَّ ذلك اليومُ طويلاً، وبتُّ ليلي مُسَهَّدًا لم أَذُقْ فيه طعمَ النوم، فقمتُ قبل الفجر وتنفَّلْتُ حتى دخل وقتُ السحَر، فتذكَّرْتُ أنَّ صاحبي ربَّما يكونُ قد أقبل على أدواته لِيُعِدَّ لي عطرَ صاحبتي الغامض. ولم يلبَثْ أن طلعَ الفجرُ الكاذبُ ثم تلاه الفجرُ الصادق، فأذَّنَ المؤذِّن. صلّيتُ ركعَتَيْ سُنَّة الفَجر في بيتي، ثم خرجتُ إلى المسجد لصلاة فريضة الصبح في الجماعة، ورأيت صاحبي أحمد بن أبي الورد شقيق محمَّد في المسجد، فتفاديت لقاءه حتى لا أضطرّ إلى

الحديث عن العطر الذي طلبتُ من شقيقه محمَّد أن يهيِّئَه لي. ذَهِلْتُ في الصلاة عمّا قرأ به الإمام، إذ كنتُ مُشَوَّشَ الخاطر بسبب ما كان يشغلني. وما إن سلَّمَ الإمامُ، حتى أخذتُ نعالي المعطوفة، وانصرفتُ بسرعة حتى لا ألتقي بأحمد الذي كان ملازمًا لخالي السَّريّ. مشيتُ قليلاً حتى عَطَس الصبحُ، فلم تَلْبَثْ أَنِ انْفَلَقَتْ أنوارُ الصباح في إثر ذلك. كنتُ أَستَعْجِلُ الذهَاب إلى السوق، لكنَّ أصحاب الدكاكين لم يَكُونوا يَفتحون إلَّا في وقت الضحى. عدتُ إلى سُكنايَ، فتناولتُ فُطوري، وجلستُ في بستان دارنا أُطالع في أحد الكتب. وبعد أن طلعتِ الشمس في السماء، خرجتُ إلى السوق، فمررتُ بسوق العطّارين فوجدتُ محمَّدًا بن أبي الورد قد أقبل في الوقت نفسه الذي وصلتُ فيه إليه، فبادرني بالسلام. ثم قال لي: لقد كلَّفني إعدادُ عطركَ وقتًا طويلاً وتركيزًا عاليًا حتى جهَّزْتُه.

لم أَكنْ واثقًا من قوله، إذ كنت أستبعِد أن يكونَ قد حضَّر العطر بهذه السرعة، وإنَّما خمَّنتُ أنَّه لم يكن يرغبُ في أن يُطلعني على أنَّه احتفظ ببعض العطر الذي صنعه لفاطمة في بيته، وربّما تكون قد استهوَتْهُ هو الآخر، فأحبَّ أن يحتفظَ بعطرها، وقد تكون صدَّته، فرأى أن يعطيني ما فَضَلَ لديه من عطرها. لقد أخبرني أنَّه أمضى أكثر من شهرين في إعداد العطر، فكيف يُعِدُّه الآن في يوم واحد؟ لم أُخبره بما كان يجول في خاطري. أخرجَ محمَّد بن أبي الورد من بين ثيابه قارورةً، فَتَحَ سِدادَها ففاحَ العطرُ الغامض حتى أسكرني، فقلتُ: الله!

شعرتُ براحة عجيبة، وطمأنينة وسكينة بعد تَشَوُّشِ خاطري طوال الليل. أخذتُ العطر، ونقدتُ صاحبي ثمنَ العطر دون أن أُساوِمَه عليه، إذِ السومَةُ في هذه الأمور خَارِمَةٌ للمروءة، ومَطْعَنَةٌ في صدق

مشاعر المحبَّة لِمَنْ مِنْ أجلها طلبتُ إعدادَ العطر ثم سألتُ صاحبي عن تركيبة العطر، فأخبرني أنَّه من الغوالي، فسألته عن سرِّ تسميتها بهذا الاسم، لأنِّي كنت أرغبُ في أن أتعرَّفَ على كلّ ما يربطني بفاطمة، فأجابني قائلاً: إنّ أوَّل من سمَّى هذا الطيبَ المركَّبَ بالغالية هو معاوية بن أبي سفيان لـمّا دخل عليه عبد الله بن جعفر ورائحة الطيب تفوح منه، فسأله عن نوع الطيب الذي وضعه، فأجابه بأنَّه معمول من مسك وعنبر جُمِعَا بِدُهْنِ بَانٍ، فقال معاوية: «غالية»، أي ذات ثمن غَالٍ. فمن ذلك التاريخ انتشرت الغوالي، وأصبح للخلفاء والأمراء والوزراء ونسائهم غَوالٍ خاصَّة لا تُصنع إلَّا لهم.

فقلت: لكنْ يروي الناس بيتًا لفاطمة الزهراء عليها السلام في رثاء أبيها ﷺ:

ماذا على مَنْ شمَّ تُربةَ أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

ثم أضفت قائلاً: هل يمكنكَ أن تخبرني عن الغالية التي أعددتَ لي؟

فقال: أرى أنَّكَ مهتمٌّ بهذا الأمر، حتى إنّك باكرتني في أوَّل ساعة. لا بأس، سأخبرك بغاليتك حتى تخبر بها غاليتك إن ظفرتَ بها. ضحك العطّار من قَفْشَتِهِ، فلم أُسَايِرْهُ في ضحكه، بل تَغافلتُ عن جوابه.

ثم أردفَ قائلاً: لقد أخذتُ أوقيَّةَ مِسْكٍ وسَحقتُه برفقٍ حتى لا يحترق، ثم نخلتُه بمنخل، وأخذتُ نصف أوقيَّة من العنبر فأذبتُه على نار خفيفة، حتى إذا قاربَ الذوَبانَ أضفتُ له قليلاً من البان الطيِّب. وبعد ذلك، سحبته من فوق النار، وصفَّيته بثوب حريري شفَّاف. ثم

وضعتُ المسكَ في صلّايَة مع العنبر وسحقتُهما في رفق حتى امتزَجا، وجرَّدتُ المسحوقَ بالقارورة. وأضفتُ لها أمورًا أخرى ممّا هو من أسرار صناعتي.

سُررتُ باطّلاعي على تركيبة العطر، وأضفتُ لصاحبي على ما نقدتُه قطعةً أخرى، فَسُرَّ بها وشكرني، ثم طلبتُ منه أن يخبرني إن عادت الفتاةُ إلى دكَّانه فوعدني خيرًا، وانصرفتُ من عنده في غاية السعادة. ثم ما لبثتُ أن وصلتُ إلى دكَّاني، فصلَّيتُ فيه عدَّة ركعات على عادتي حينما أفتحه، ثم أقرأ في بعض الكتب أنتظرُ الزبناءَ، فجاءني من اشترى منِّي بعض الأثواب، لكن صاحبتي لم تظهر

مرَّتِ الأيَّام ولم تُعاودْ فاطمةُ زيارةَ السوق، وتقصَّيْتُ أخبارَها من بعض نسوان بيتنا ممّن كانت تعرفُ بغداد، وسألتُها عن معارفها أو غير معارفها من الفواطم، فلم أَظْفَرْ منها بخبر يقين عن مَنشودتي. وكم من مرَّة جاءتني بمن تَعرف من الفواطم إلى بيتنا حتى أتعرَّفَ على صاحبتي، فكنتُ أَهُشُّ لها بالنفي من بعيد حتى تعلمَ أنَّها غيرُ مَنْ كنتُ أَطلبُها

مرَّ شهر كامل ولم أَقِفْ على خبر فاطمة. وكنت ألتقي بأحمد بن أبي الورد، فلم يكلِّمني عمّا حصل مع شقيقه محمَّد العطَّار، فعلمتُ أنَّه لا يعلم ما جرى بيني وبين أخيه، لكنِّي عزوتُ الأمر إلى عدم رغبة محمَّد في كشف العلاقة مع فاطمة، أو إلى أخلاق أحمد وتكتُّمِه، إذ لم يكن كثير المسألة عمَّا لا يعنيه. فقد كان خالي سريّ السقطي معجبًا بأخلاقه ويُثني عليه، وأخبرني أنّه لم يسأله مسألة قطُّ مع ملازمته له وخدمته إيَّاه.

بدأ القلقُ يُساورني والحيرةُ تنتابني والشكُّ يُراودني واليأس يُؤَرِّقني، وملكَتْ عليَّ فاطمةُ ليلي ونهاري، وصرتُ شاردَ الفكر لا يَقِرُّ لي قَرار. تجوّلت كثيرًا في أحياء بغداد القريبة من الأسواق، فزرت الشرقيَّة ومدينة المنصور المدوَّرة، فلم أجد أثرًا لفاطمة.

انقطعت السُّبُل بيني وبينها، ولم يبق لي إلَّا عطرُها أتجمَّل به وأَشْتَمُّ ريحَها على أثوابي وفوق أعضائي. وبدل أن يُسَرِّيَ هذا الأمر عنِّي، زادني شوقًا وهزّني تَوْقًا، فلم أبرح أفكِّر فيها بكلِّ كياني، وأتخيَّلها تخطر في السوق. بدأ اليأس يَدِبُّ إليّ من مُعاودة لقائها، وزرت كثيرًا صاحبي محمَّدًا العطّار، فلم تُسعفني زيارتُه بشيء. عمّني الغَمُّ، وأنَّبْتُ نفسي لكوني وثِقتُ من أنَّ الفتاةَ عَلِقَتْ بي وأنَّها زارتني، لأنَّها كانت قد لحظتني، فأيقنتُ أنَّ هذه الوساوس من خَبَالي وصُنع خيالي. وكلَّما قام لي أمل خافِتٌ عاكستني عليه شواهدُ الحال، وزدتُ يقينًا أنِّي لم أكن نَجِيب الفتاة، ولا وَصِيلَ تلك المَهَاة، بل هي صُدَفُ الحياة التي ترمي بِنَاسٍ على طريق نَاس، فيظنّ الغِرُّ مثلي أنَّه مُنتخَبُ الحُسْن، ومُصطفى الجمال. هيهاتَ هَيهات لمثل ذلك الظبي الغَرير أن يَحُطَّ بِكِنَاسِي، فما له رغبة في الوصال، وما له حاجة في الاتّصال، وإنّما هي سانحةٌ بَرَاهَا سكِّينُ الموافقة على سوق الأقدار. ولولا مَظِنَّةُ بيعِ الأثواب في السوق، لما حصل مثل هذا اللقاء، ولما ظفرتُ بسعادة تلك السويعة. فَضُمَّ يأسَك يا فلان إلى جنبيك، واطْوِ قلبَك على خيبتك، واكفُفْ عن بناء نَعْش الأحلام من خيال خزانتك، واصرِفْ همَّكَ إلى حاصلٍ بين يديك لا إلى فائت غير مَرْجُوّ التكرار، أو مُؤَمَّلٍ مُمْتَنِعِ الحُصول. إنّ ما نسجَه عنكبوتُ أوهامك خيوطٌ واهنة وآمالٌ سائِمة ترعى في جَبَّانة العَدم وبحر النسيان. فلا تُلْقِ بمراكب

النجاة في بحر متلاطم الأمواج مُتعاظم الأرياح. فلعلّك إن فعلتَ هَلكْت.

كنتُ أخاطبُ نفسي من حديقة يأس أُنسي، فركبني غمٌّ عظيم، وتتالت الأيَّام والشهور، ولم تَعُدْ فاطمةُ للسوق، حتى كدتُ أَجزمُ أنِّي لم أَرَها أصلاً إذ كيفَ يُشْرَعُ بابُ أملٍ كبير ثم يُوصَدُ في لحظة واحدة بلا معُاودة؟ لا شكَّ أنَّ الإقرار بعدم حصوله أوفقُ لهناءة الإنسان من يقينِ وقوعه في لحظة نافرة متفلِّتَةٍ، حتى إنَّها لم تكد تقع إلَّا على تعنيف في حَيِّزِ الزمان. إنَّ الأملَ الناشئَ من مثل هذه المواقف يكاد يكون تعنيفًا في المقادير، وحصولُه ظهورٌ في غير زمانه، فلكأنَّه أشبهُ بحلم ظهر خِلْسَة ثم اختفى إلى الأبد. وهكذا كان اللقاء بفاطمة حُلْمًا مختلَسًا من القَدَر، أو لعلّ مِنْ مَكْرِ القدَر أن يُظهر أمرًا وجوديًّا في حيِّز ضيِّقٍ من الزمان، ثم يختطفه بلا رجعة حيث ينبغي أن يكون. لعلَّ فاطمة من زمان آخر ظهرَتْ لفتًى آخر في الزمان السابق، أو لعلَّهما من الزمان الآتي. وحيث إنَّهما كذلك، فما الحكمة في إظهار هذا الأمر الوجوديّ في وقت سابق أو لاحق؟ هل لمماثلة حصلتْ بين أشخاص من أزمنة مختلفة؟

هكذا، كان تفكيري يصرف هذه الأمور ويترجم عنها ويُفاقم من حزني، حتى لكأنّني صرت أؤمن بتناسخ الأرواح. كنت أدخلُ السوق وأصلُ إلى الدكّان، فأصلِّي عدّةَ ركعات غائبًا في المناجاة، سَاجِيًا في سيلٍ من المخاطبات. كانت تجربةُ الحبِّ التي مررتُ بها أمرًا جديدًا لم أعهَدْهُ من قبل. كان حبًّا صارخًا نابضًا مترنِّحًا متفاقِمًا مُتعاظمًا.

لاحظ خالي حالي، وكانت له قدرة على التوَسُّم في القلوب والتفَرُّسِ في النفوس، فأدرك سرِّي قبل أن أَنْبِس بكلمة، فرقَّ لي،

وقال معتذرًا عن حالي: لقد كره القومُ أن يتجاوزَ اللسانُ مُعْتَقَدَ القلبِ.

فقلت: أيكونُ لسانٌ بلا قلبٍ؟

فقال: كثيرٌ، وأغلبُ الناس يتحدّثون بلا خبرة لِمَا انْطَوَتْ عليه قلوبُهم.

فقلت: أَفَيكونُ قلبٌ بلا لسانٍ؟

فقال: نعم، قد يكون.

فقلت: فما الفرقُ بينهما؟

فقال خالي: لسانٌ بلا قلبٍ بلاءٌ، وقلبٌ بلا لسانٍ نعمةٌ.

فقلت: فلعلَّ حالي هكذا اليوم.

فقال: وإذا كان لسانٌ وقلبٌ، فذاكَ زُبْدٌ بِعَسَل.

فقلت: لعلَّك تقصد ذكر اللسان وذكر القلب للمحبوب.

فقال: أَيْ نَعَمْ.

فقلت: صفاءُ القلوب على حسب صفاء الذكر.

فقال خالي: إنَّ المحبوبَ يخلُص إلى القلوب بقَدْرِ ما خَلُصَتِ القلوب إليه من ذكره، فانظر في قلبك، هل صفا له أم خالَطه أمرٌ آخر؟

فقلت: لعلّ حبَّهُ قد امتزج بحبِّ غيره.

فقال: أَحِبَّهُ في كلِّ شيء، وفي كلِّ صورة. فإذا انجَمَعْتَ لم تَرَ إلّا واحدًا، وإيَّاكَ والفرقةَ والتشَتُّت. وهذا حال الصوفيّ الصادق، فهو الذي «لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلَّم بباطن في علم ينقُضُهُ عليه الكتابُ والسُّنَّة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله».

ثم سألته: كيف نداوي الشوقَ يا خال؟

نظر إليّ بنظراته الفاحصة، وعلم من حالي ما لا يَخفى على طلبة الصوفيَّة، فكيف بشيخ البغداديِّين، فقال لي: يا جنيد، «أَرِقْتُ ليلةً ولم أقدِر على النوم، فلمّا طلع الفجر، صلَّيْت ثم خرجتُ لا يقرُّ لي قرار، فوقفت في الجامع أستمع إلى بعض قُصّاص السِّيَر لعلِّي أجد راحة، فوجدتُ قلبي لا يزداد إلَّا قساوة. فمضيتُ ووقفتُ ببعض الوُعّاظ، فوجدتُ قلبي لا يزداد إلَّا قساوة. فقلت أمضي إلى بعض أطبَّاء القلوب، ومن يَدُلُّ المحبَّ على المحبوب، فمضيت، فوجدتُ قلبي لا يزداد إلَّا قساوة. فقلتُ أمضي إلى أهل الشرطة أعتبر بمن يُعاقَبُ في الدنيا، فمضيت، فوجدتُ قلبي لا يزداد إلَّا قساوة. فقلت أمضي إلى المارستان لعلِّي أتَرَوَّعُ وَأَنْزَجِرُ بمن ابْتُلِي. فلمّا ولجتُ المارستان، وجدتُ قلبي قد انفسَح، وصدري قد انشَرح، وإذا أنا بجارية من أَنْضَرِ الناس وجهًا، عليها أَطْمَارٌ حسنة رفيعة، وشممتُ منها رائحة عطريَّة، مقيَّدةِ الرجلين، مغلولةِ اليدين. فلمَّا رأتني تَغرْغَرَتْ عيناها بالدموع، وأنشَأتْ تقول:

تُغَلُّ يدي إلى عُنُقي وما خانت وما سَرقَتْ
وبين جوانحي كَبِدٌ أُحِسُّ بها قد احترقَتْ

فسألتُ قَيِّمَ المارستان عنها، فقال لي بأنَّ عقلَها قد اختلّ، وأنَّها حُبِستْ حتى يَصْلُحَ أمرُها. فلمَّا سمعَتْ كلامَه، تبسَّمَتْ وقالت:

مَعشَر الناسِ ما جُنِنْتُ ولكن أنا سكرانةٌ وقلبيَ صاحي
لِمْ غَلَلْتُمْ يدي ولَمْ آتِ ذنبًا غير هَتْكِي في حبِّه وافتِضاحي
أنا مفتونةٌ بحبِّ حبيبٍ لستُ أبغي عن بابه من بَرَاحِ

فَصَلاحِي الذِي زَعَمْتُم فَسادي        وفَسادِي الذي زَعَمْتُمْ صَلاحي
مَا عَلَى مَنْ أَحَبَّ مَوْلَى الموالي        وارتَضَاهُ لنفسه، مِنْ جُنَاحِ

فبكيت بكاء محرقًا وأصابني وَجْد شديد، فقالت: يا سريّ، تبكي ولم أَعْدُ أن وصفتُه لكَ، فكيف لو عرفتَه حقَّ المعرفة؟

فقلت لها: من أين عرفتِني؟ فقالت: ما جهلتُ مذ عرفت، ولا فَتَرْتُ مُذْ خَدَمْت، ولا انقطَعْتُ مذ وصلت، وأهلُ الدرجات يعرفُ بعضهم بعضًا

قلت: أَسْمَعُكِ تذكرين المحبَّة، فمن تحبِّين؟

قالت: لمن تعرَّف إلينا بنعمائه، وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب، مجيبٌ لطلب المحبوب، سميع بديع عليم حكيم جواد كريم غفور رحيم. فقلت: من حَبَسَكِ ها هنا؟

فقالت: حاسدون تعاونوا، وتعاقدوا، وتراسلوا.

ثم شَهِقَتْ شهقة حتى ظننتُ أنّها فارقت الحياة، ثم أفاقت، فطلبت من القَيِّم أن يُطْلِقَهَا، ففَكَّ قيدَها.

فقلت: اذهبي حيث شئتِ.

قالت: يا سريّ، إلى أين أذهب، وما لي عنه مذهب؟ إنَّ حبيبَ قلبي قد سلكني لبعض مماليكه، فإن رضي مالكي ذهبتُ، وإلَّا صبرتُ واحتسبت، ثم أنشدَتْ:

ألبستَني ثوبَ وَصْلٍ طاب مَلبسُه        فأنت مولَى الوَرى حقًّا ومَولائي
كانت بقلبي أهواءٌ مفرَّقةٌ        فاستَجْمَعَتْ مُذْ رأتكَ العينُ أهوائي
مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشُرْبِ الماء غُصَّتَه        فكيف يَصنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بالماء

قلبي حَزينٌ على ما فاتَ مِنْ زَلَلِي  والنَّفسُ في جَسدِي من أَعظم الدَّاءِ
والشَّوقُ في خاطري منِّي وفي كبِدي  والحبُّ منِّي مَصُونٌ في سُويدائي
إليكَ منِّي قصدتُ الباب مُعتذِرًا  وأنتَ تَعلَمُ ما ضَمَّتْهُ أَحْشَائي

تعجّبت من حالها، وقلت لنفسي: هذه والله أعقلُ منِّي، وتأثَّرتُ بكلامها

وما لبث أن جاء سيِّدُها، وسألَ القَيِّمَ قائلاً: أين تُحْفَة؟ فأجابه القَيِّم: هي في الداخل وعندها السّريّ. ففرح، ودخل عليَّ، فلمَّا رآني عظَّمني وسلَّم، فقلت له: هذه الجاريةُ أحقُّ بالتعظيم، فَلِمَ فَعَلْتَ بها هذا؟ فقال: لتقصيرها في الخدمة وكثرة بكائها وأنينها حتى لا تنامُ ولا تتركُنا ننام. وقد كنتُ اشتريتها بعشرينَ ألف درهم لصنعتها في الغناء والطرب. ثم سألته عن ابتداء أمرها، وكيف صارت إلى ما هي عليه. فقال: كانت تعزف على عودها ذات يوم، حتى أنشدت:

وحقِّكَ لا نَقضتُ الدّهر عَهْدًا  ولا كَدَّرْتُ بعد الصَّفْوِ وُدًّا
ملأتَ جوانحي والقلبَ وجْدًا  فكيفَ أَقرُّ يا سَكَنِي وَأَهْدَا
فَيا مَنْ لَيس لي مَوْلَى سواهُ  نراكَ رَضِيتَني بالبابِ عَبْدًا

ثم قامت فكسَّرت العود، وبَكَتْ وانتحَبَتْ، فاتَّهمتُها بمحبَّة عشيق، فَأَقرَّتْ، وبحثْتُ عن العاشق المزعوم، فلم أجد له أثرًا ولا عينًا. وهذه حالُها منذ عام تقريبًا. فقلت لسيِّدها أَطْلِقْهَا وعليَّ ثمنُها، فصاح بي: ومن أينَ لك بثمنها يا سريّ؟ فقلت: لا تَعْجَلْ عَلَيّ. واتَّفقنا أن تبقى الجارية محبوسة حتى أعودَ بالمبلغ. فانصرفتُ من عنده وعيني قد قَرِحَتْ بالدموع وقلبي قد تَفَطَّرَ على هذه الجارية من الحزن، وليس عندي درهمٌ من ثمنها. وقد بِتُّ ليلتي تلك ضارعًا إلى الله أن

يُطْلِقَ سراحَ هذه الأمَةَ الوالهة في الله، وبينما أنا كذلك، إذ طرَقَ بيتي طارقٌ ومعه غلمانه يحملون أكياسًا، ففتحتُ له الباب وعرَّفني بنفسه وقال لي: أنا أحمد بن المثنَّى، وقد كنتُ نائمًا فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد، هل لك في مُعاملتنا؟ فقلت: ومن أولى منِّي بذلك؟ فقال: احمِلْ إلى سريّ السقطي خمس بدرات[1] من أجل الجارية الفلانيَّة، فإنَّ لنا بها عناية. فلمَّا بلغ بحديثه هذا الحدّ، سجدتُ لله شكرًا، وجلستُ أنتظر حتى طلع الفجر، فصلّينا وذكرنا، ثم قصدنا المارستان، فسمعناها تقول:

قد تَصَبَّرْتُ إلى أَنْ عِيلَ مِنْ حُبِّكَ صَبْرِي
ضاقَ من غُلِّي وقَيْدِي وامتهاني، منكَ صَدْرِي
ليس يَخفَى عنك أمري يا مُنى قلبي وذُخْري
أنتَ قد تَعتِقُ رِقِّي وتَفُكُّ اليومَ أَسْرِي

«وبينما هي تنشد، إذ دخل مولاها يبكي، فقلت: لا بأس عليك، قد جئناكَ برأس مالك وربحِ عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. فقلت: نزيدك. فقال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت، وهي حُرَّةٌ لوجه الله تعالى. فتعجَّبت من أمره، وقلت: لم يكن هذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبي لا تُوبِّخني، فالذي وقع لي من التوبيخ كفاني، وأُشْهِدُكَ أنِّي قد خرجتُ عن جميع مالي صدقةً في سبيل الله تعالى، وإنِّي هارب إليه، فبالله لا ترُدَّنِي عن صحبتك، فقلت: نعم. ثم

---

(١) البَدْرَةُ ج. بدر، وبدور، وبدَرات: كيس فيه مقدار من المال، من ألف إلى عشرة آلاف، ويقدَّم في العطايا، ويختلف باختلاف العصور.

(حكاية هذه العاشقة مع السَّريّ السقطي منقولة بتصرُّف من مصادر مختلفة).

التفتُّ، فرأيت صاحبَ المال يبكي، فقلت: ما يُبكيك؟ فقال: يا أستاذي، ما قبلني مولاي لمّا ندبني إليه، وردّ عليّ ما بَذَلْت. أُشهِدُك أنِّي قد خرجت عن جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله. فقلت: ما أعظمَ بركتَكِ يا تحفة. فنزعنا الغُلَّ من عنقها، والقيدَ من رجلها، وأخرجناها من المارستان، فنزعَتْ ما كان عليها من ناعم الثياب، ولبستْ خمارًا من صوف ومُدَرَّعَةً من شَعَر، وخرجَتْ وهي تبكي.

ثم بعد ذلك، توجَّهتُ ومولاها وصاحب المال إلى مكَّة، فمات ابن المثنى في الطريق. ودخلتُ أنا ومولاها مكَّة، فبينما نحن في الطواف إذ سمعنا صوتًا، فتبعناه، فإذا هي امرأة كالخيال، فلمّا رأتني قالت: السلام عليك يا سريّ، فقلت لها وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. من أنت؟ فقالت: وقع الشكُّ بعد المعرفة، فتأمَّلتُها، فإذا هي الجارية، فقلت لها: ما الذي أفادك الحقُّ بعد انفرادك عن الخلق، فقالت: أنسي به، ووحشتي من غيره. ثم توجَّهَتْ إلى البيت، وقالت: إلٰهي، كم تُخَلِّفُنِي في دارٍ لا أرى فيها أنيسًا قد طال شوقي إليك، فعجِّلْ قدومي عليك. ثم شهقَتْ شهقةً وخرَّتْ ميِّتة رحمة الله تعالى عليها فلمَّا نظر إليها مولاها بكى، وجعل يدعو ويضعُف كلامُه إلى أن خرّ إلى جانبها ميِّتًا رحمة الله عليه، فدفنَّاهما في قبر واحد».

فقلت: سبحان الله، إنَّ بركةَ تُحفة عظيمة، وإنَّ شوقَها لحبيبها أعظم.

فقال لي خالي: تعال معي إلى المارستان، حتى تطفئ ما بك من أشواق، يا جنيد.

قمت معه بعدما انكشف حالي له، وظهرَتْ أعلامُ أشواقي على خِيام صبابتي، فانكسَرْتُ وأذعنتُ، وعلِمْتُ أنَّ الحبَّ يَهُدُّ كلَّ كبرياء.

* * *

# كتاب اللام

نُـونُ الـهـوانِ مِـنَ الـهـوَى مَـسْـرُوقَـةٌ    فَـصَـرِيـعُ كُـلِّ هَـوًى صَـرِيـعُ هَـوَانِ

**(الجنيد)**

* * *

مرَّت عدَّةُ سنوات لم أَرَ فيها فاطمة ولم أَنْسَها، وقد بقيتْ ذكراها حيَّةً في قلبي، وأورثَتْني هوًى وهَوَانًا

كنت أُكثِرُ الجلوس إلى شيخي الحارث المحاسبي، وأَخرُجُ معه إلى الصحراء نتباحثُ في الطريق. ويعلَمُ الله أنِّي ما رأيتُ أحدًا يحاسِبُ نفسه مِثْلَهُ، وهو مَقام خَطِرٌ لا يبلُغُهُ إلَّا الرجال. كان يطلبُ منِّي أن أسأله، لأنِّي كنتُ أُحسِنُ طرحَ الأسئلة المشْكِلَة التي تفتح في العلم وتوسِّعُ آفاقَه، وكان المحاسبي يُحِبُّني لأجل هذا. فلمَّا كنَّا نعود إلى المدينة، كان يَدخلُ إلى بيته فيؤلِّفُ حول هذه القضايا التي سألتُه عنها أو تباحثنا فيها

ذهبت إليه مرَّة وجلست معه. كان رجلاً فقيرًا مُعدمًا لا يجد قوتَ يومه مع أنَّه من أسرة ثريَّة، إلَّا أنَّه لم يقبل أن يرث ثروة والده لأنَّه كان على عقيدة لا يُقِرُّها لقد تركَ له أبوه سبعينَ ألف درهم، فردّها وقال: «لا يتوارثُ أهلُ مِلَّتين شيئًا»، لأنَّ أباه كان من القَدَريَّة، بل لقد بلغ به الأمر أن أمسكَ بأبيه في باب الطَّاق في بغداد أمام الناس، وقال له «طلِّقْ أمّي، فإنَّك على دين، وهي على دينٍ غيرِه»، والمحاسبي يرى أنَّ القَدَرِيّة كُفّار.

لقد كان الإمام أحمد بن حنبل والمحاسبي أَخَوان، فالأوَّل كان يجاهد من أجل تنقية السُّنَّة من الأوهام الظاهرة والأحاديث الموضوعة، بينما كان الثاني يجاهد من أجل تنقية النفس من أوهامها وأهوائها، والكشف عن العلل التي تعترضها لقد جلست إلى الأوَّل وأخذت عنه، كما جلستُ إلى الثاني وأخذت عليه، فلا يكتمل الدين إلَّا بصلاح الظاهر والباطن معًا كان عليّ أن أَصِلَ الدنيا بالآخرة.

كان المحاسبي نحيفًا خفيفًا، تكاد ترى باطنه من لطافته. ولم يكن مُقلِّدًا، وكيف يمكنُ أن يكونَ الرجل مقلِّدًا وهو يعلن خلافَه مع والده أمام الناس بسبب عقيدته القدريَّة؟ لقد كان شخصيَّةً مستقلَّة. وقد عَكَفَ زمانًا يطرُقُ حديدَ نفسه بمطرقة مخالفتها، حتى تجوهَرَتْ له روحًا بكثرة المجاهدات والمحاسبات في الآناء والأنفاس، لهذا لم يقلِّد أحدًا من فقهاء المذاهب، بل كانت له اختياراته الفقهيَّة واجتهاداته.

ومرَّة، كنت جالسًا إليه، إذ أدخلَ عليه أحدُ أصحابه طعامًا، فقرّبه إليه؛ فلمَّا أدنى يده إليه، صار أُصْبُعُ المحاسبي يتحرَّكُ حركةً قهريَّةً، فامتنعَ عن الأَكْلِ، فسألتُه عن السببِ، فقال: لي علامة مع الله، وهي

أنَّ أُصبعي تتحرَّك كلَّما قُدِّمَ لي طعام فيه شُبهة.

ثم التفتَ إلى صاحبه وسأله: من أتى بهذا الطعام؟

فقال الرجل: رجل من أثرياء السوق.

فقال المحاسبي: أَرْجِعْهُ إليه، وقلْ له أن يتصدَّقْ به على من هو أحوج إليه منَّا

خرج الرجل سريعًا ولحق بالرجل الموسِر، فأعاد إليه طبقَ الطعام، وأخبره بما أمره به المحاسبي.

كان الشيخ يقلِّبُ كتابًا في يده، وكأنَّه استحسنه، فأخذتُه منه أنظُرُ فيه، لأتعرَّفَ على موضع السؤال الذي جرَّ تأليفَ هذا الكتاب، والذي كنت قد سألتُه إيّاه في إحدى خرجاتنا المعتادة إلى الصحراء للمناقشة. فلمَّا علمتُ جوابَه عن تلك المسألة، أرجعتُ له الكتاب وسألته عنه، فقال لي: هذا كتاب أَلَّفْتُهُ في المعرفة.

فقلت مستشكلاً: يا أبا عبد الله، هل المعرفةُ حقٌّ للخلق على الحقِّ، أو حقٌّ للحَقِّ على الخلق؟

لَمَعَتْ عيناه، فنظر إليّ مَلِيًّا، وكأنَّه انتبه إلى خُطورة الاحتمالات التي فتحها سؤالي، ثم أجاب: هي حقٌّ للخلق على الحقّ.

فقلت مستشكلاً مرَّة أخرى: هو أولى أن يَبْذُلَها لِمُسْتَحِقِّيها

فقال المحاسبي مستدركًا: بل هي حقٌّ للحقِّ على الخلق.

فقلت: هو أعْدَلُ من أن يَظلمهم.

ثم أخذ الكتاب وخرّقَه، وقال: لا أعودُ أتكلَّمُ في المعرفة.

أَكْبَرْتُ الأمر في شيخي، وعلمتُ يقينًا أنَّه من الصادقين

المخلصين في عبادتهم لربِّهم، إذ لم ينتصر لنفسه، بل لمَّا لاحت له الحُجَّة تبرَّأَ من علمه.

قلت له: يا سيِّدي، لِمَ مزَّقتَ الكتاب؟

فقال: لأنَّ نيَّة تأليفه لم تكن خالصة لله. وإذا كان من أَلَّفَهُ لا يُفرِّقُ بين الحقوق، فكيف سينتفع به غيره؟

فقلت: إنّني حين سألتك سؤالي كنت أقصد المعرفةَ من حيث قِسمتُها الإلٰهيَّة الأزليَّة، بينما أنت تكلَّمتَ في كتابك على المعرفة من حيث التربية واتِّباع الأوامر واجتناب النواهي، وكِلَا الأمرين صحيح.

فقال المحاسبي: لقد أرجعتُ طبقَ الطعام لشبهة، فكيف لا أمزِّق هذا المؤلَّف، وأنا لم أميِّز في المعرفة بين كرمه تعالى لعباده، أو عدله فيهم؟

فقلت: يا سيِّدي، أنت خبير بالنفوس وما فيها، لكنَّ هذا الكتاب كان يمكن الانتفاع به.

فقال: إنَّ شبهة واحدة مُحبِطة لكلِّ مَنفعة مُحْتَمَلة، فلهذا خَرّقته.

* * *

حصلَتْ عدّة حوادث في عهد المتوكِّل الذي انتصر لأهل السُّنَّة والجماعة، وأقصى المعتزلة. بل لقد غضب المتوكِّل على القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي الذي كان وراء محنة خلق القرآن، فأخذ ضياعه وأملاكه، وحبس أولاده، وغرَّمه مالاً عظيمًا نظير إطلاق سراحهم. ولولا أنَّه فُلِجَ وتَعَطَّلَتْ حركته، لكان نالَ الجَزاء نفسه.

تَقَوَّلَ الناسُ في فاجِعةِ أبي دؤاد، وتَشَفَّى فيه بعضُهم، لِمَا سَامَهُمْ به من الخَسْفِ في العهد السابق.

كان لي جُمْلَةٌ من الأصحاب، ومن هؤلاء صاحبٌ اسمُه عبد الله من أصل فارسي، كان له دُكَّانٌ يبيع فيه الأواني الزجاجيَّة والقوارير في جهة أخرى من السوق. كنت أَزورُهُ في بعض الأوقات للمُذاكرة، فكان يُثِيرُ بعضَ القضايا للنقاش من رسائل كانت عنده في الدكّان. وقد حاولتُ أن أَسْتَعِيرَها منه مرارًا، فَتَعَلَّلَ تَعِلَّاتٍ حتى لا يُعيرني بعضها

دعاني مرَّة إلى بيته في الكاظميَّة، فلبَّيت الدعوة. كان الصاحبُ من أسرة موسِرة، تقلَّبَ أسلافُه في الرياسة والوزارة في فارس. فلمَّا فتح المسلمون تلك البلاد دخلوا في الدينِ الجديد. خرجتُ من بيتي في الشونيزيَّة، وعزمتُ أن أمشي كلّ المسافة التي تَفصِلُني عن بيته مشيًا على الأقدام، رغم أنَّها مسافةٌ طويلة، وقَرَّ قراري أن أَرْكَب أحدَ المراكب في طريق العودة، حتى أتفَرَّجَ على ما يجري بين جَنَبَاتِ نَهْرِ دجلة. دخلتُ مدينةَ المنصور من باب البصرة، ثم قطعتُها حتى وصلتُ إلى باب الشام، فمشيتُ مُخْتَرِقًا محلَّةَ الحربيَّة إلى أن وَصلْتُ إلى محلَّة باب الشعير، ثم محلَّة الخوارزميَّة الملاصقة للكاظميَّة. كانت هذه المحلَّات مُسَوَّرَةً، ويُدْخَلُ إليها من أبواب مثل باب أمّ جعفر، المنسوب إلى زبيدة بنت المنصور وزوجة هارون الرشيد. كانت الكاظميَّةُ مَرْقَدَ الإمام موسى الكاظم، وحفيدِه الإمام الجواد. وكان صاحبي يَسْكُنُ بين قطيعة أمّ جعفر القريبة من نهر دجلة، ومحلَّة الكاظميَّة.

مكتبة الرمحي أحمد

كانت هذه الرحلة مفيدة، لأنَّها أَوْقَفَتْنِي على عِمَارَةِ بغداد بمساجدها وقصورها ودورها وحمّاماتها وقناطرها المعدّة لعبور الناس. ورأيت بعض أوكارِ مُجونِها الشهيرة، حيثُ الشرابُ والغِناء والجواري والغِلمان والندْمَان.

كنت أَتفرَّسُ في أهل بغداد، كأنِّي أراهم لأوَّل مرَّة، رغم أنَّ السوق يأتي إليه أجناس مختلفة. لكنَّ الانطباع الذي تشعر به حين تمشي في أزقَّة بغداد مختلف تمامًا عن الانطباع الذي تُحِسُّ به وأنت في السوق. ففي الشوارع، تُحِسُّ أنَّك مُنْكَشِفٌ تمامًا، لأنَّك ناظرٌ مَنظور. بينما أنت في السوقِ نَاظرٌ أبدًا، لأنَّكَ تُحاوِلُ أن تلتقطَ من بين النظرات المختلفة لِرُوَّادِ السوق نظرةَ العازِم على الشراء. ولأهل الصنْعةِ علاماتٌ لا تُخْطِئ. فمن ذلك، أنَّهم يقولون بأنَّ «عَيْنَ الشاري حمراء»، أي أنَّه عازم على اقتناء حاجته. هذه الخبرة في معرفة أنواع النظرات ليست أمرًا سهلاً، بل تُكتَسَبُ بالمران والتجربة. والبائع دومًا ناظر لمن يخطر في السوق يترقَّبُ أن يطرُقَ دكَّانَه زَبون. أَحْسسْتُ اليوم أنّني أدخلُ أحيازًا غريبة من بغداد، لم أَطرُقْها من قبل، فاعتلَّ وُثوقي بخبرتي، وصرت زبونًا، منكشفًا لغيري في أحياء بغداد للنظرات الماسِحة. كانت المدينةُ مثلَ سوق كبير تتقاطع فيه النظرات وتفترق النيّات. وَقَدْ، والله، كنتُ مَنظورًا لغيري، زبونًا محتمَلاً لتاجرٍ حاذقٍ يخترقني بنظراته، فَيَعْلَمُ كُنْهَ طويّتي وسِرَّ خُطوري في هذه الأحياز البعيدة عن مُستَقَرِّ إقامتي. ما أَشْبَهَ انفصالَ المرء عن حيٍّ سكناه وعمله بانفصال الجنين عن بطن أمِّه. كانت نظراتي عابرةً للناس، مخافةَ أن يفضحني تركيزُ النظر على شيء مُعَيَّن لتلك النظرات الموجَّهَة إليَّ من كلِّ جهة. لقد كانت مشيتي تفضحني، وكثرةُ تَرْمِيشِ العيون دليلاً على فُقدان الثقة، فالعينُ مرآةُ النظر وَمَنْفَذُ الخَطَر ومع كلِّ هذا، فقد كنت أمشي دومًا قُدُمًا، وإنِّي أعلم أنَّ في بغداد من اللصوص والعَيَّارين والشطَّار فئاتًا كثيرة من أجناس مختلفة. عادةً ما كان التجَّار عندنا في السوق يَشْمَخُونَ بأنوفهم، ويُظهِرون ثقةً زائدة أمام الزبناء، ويرفعون

أصواتهم حتى يثيروا الانتباه إليهم وإلى دكاكينهم وسلعهم. إنَّ البيعَ والشراءَ أشبهُ بمبارزة معنويَّة، سلاحُها المساومة على السلعة. أمَّا حينما يخطر المرء في أحياءَ غريبة عنه، ويتقاطع في تجواله مع أجناس مختلفة، وأديان متباينة، فيهم العربيّ والسريانيّ والفارسيّ والكرديّ والمغربيّ والمملوكيّ والروميّ والحبشيّ والهنديّ، فإنَّ معايير التمييز، ووثوقيَّةَ الحركةِ والنظرةِ تضمَحِلُّ وتنقُص. وعلى رؤوس هؤلاء، تتمايز مراتبهم ومواطنهم، فمنهم المتعمِّم، والمُقَلْنَس، وصاحبُ الكوفيَّة والعِقَال، ومنهم كاشفُ الرأس، ومنهم المتنمطِق، ومنهم صاحب الطيلسان، ومنهم صاحب القِباء. ومنهم الراكب، ومنهم الراجِل. فمن أينَ يمكن للمرء أن يتبيَّن أمورهم ونواياهم ومطويّاتهم في فضاء غريب عنه؟ كلُّ القواعد التي كنت أعرفُها اختلَّتْ في هذا الفضاء المفتوح على كلِّ طارقة ونائبة. تسارعَتْ خطواتي، وأطرقتُ بنظراتي صوب الأرض حتى لا أُلْفِتَ إليَّ العيون الفضوليَّة. فإن أخطأَتْكَ نظراتُ التجّار، لم تخطئك نظراتُ اللصوص. وإن أخطأَتْ نَظراتُ هؤلاء وأولئك، لم تُخْطِئْكَ نَظراتُ المتسَكِّعِين والمتسوِّلِينَ الذين امتهَنوا الكُدْيَةَ والتسَوُّل والشحاذة. أمّا حيلهم، فصارت مَضْرِب الأمثال، حتى تلقَّفَها الرواة وتناقلوا أخبار مشاهيرهم في طُرُقِ سَلْبِ المال وكَسْبِهِ، وقِيَمِ البخل والإمساك الرائجة بينهم. صادفتُ في طريقي إلى دار صاحبي أنواعًا من هؤلاء، وفي كلِّ محلَّة فئةٌ خاصَّة. فالتقيتُ على أبواب المدينة نفرًا منهم، عُرِفُوا بفصاحتهم وبلاغتهم، وكانوا من البدو. كان أجلُّ ما يحسنون هو استعمالُ سِحْرِ اللسان وبراعة الكلمة وقوَّتها في سلب المال من المارَّة. كما رأيت في محلَّة الخوارزميَّة فئةً من المتسوِّلين العَجَم. أمّا حيلهم في كسب المال، فكانت جسديَّة، إذ

تيليجرام @ktabpdf

كانوا يتظاهرون بأنَّهم من ذوي العاهات الجسديَّة والآفات المرضيَّة، حتى يرقِّقوا قلوبَ المحسنين عليهم، فينقدونهم بعض المال. ورأيت فئة أخرى من جنس الزُّطّ، وهم من شعوب الهند. كانوا في الغالب من المشرَّدين الذين يهيمون على وجوههم، ولا يكسو الواحدَ منهم إلَّا خرقةٌ بالية تكاد تَتَحَاتُّ من الوَسخِ والبؤس. ورأيت فئة أخرى عليها ثياب فاخرة، وتدَّعي الصلاحَ والدين والفضل، ولهم دراية ببعض مبادئ الطبِّ والتنجيم، فتراهم يَعرضون خدماتهم ويتظاهرون بعزوفهم عن كسب الدنيا، وهم يُدارون بذلك ثقة الناس، حتى يحصلوا منهم على المال. ولهم قواعدُ سلوك وحِكَمٌ رائجة بينهم، لعلَّ أبلَغَها قولُهم «الكُذْيَةُ رِبْحٌ بلا رَأْسِ مَالٍ». وحسبُكَ مِنْ قوم يجعلون الربحَ حاصلاً ومحقَّقًا مع خُلُوِّ اليَدِ مِن المال!

عرَّجتُ في تلك السكَكِ على كلِّ هذه الأصناف، حَذِرًا من أن يستفزَّني أَحدُهُمْ، أو يُوَرِّطَنِي في قضيَّة من قضاياهم. لهذا كنت أستَحِثُّ الخُطى، وأَقْصِدُ في المشي، وأُركِّزُ نظري إلى الأرض، حتى لا يقعَ على نظراتهم الفاحصةِ الخبيرةِ بالتوتُّر الذي كنتُ أحسُّ به. دخلتُ بين دروب متشعِّبَة، حتى وصلتُ إلى ساحة منفرجة، في جوفها دار صاحبي عبد الله وبها بستان، فتنهَّدْتُ وحمدتُ الله على وصولي بالسلامة. كان على الباب حارس عجميّ، أدركَ قبل أن أسأله أنِّي رجل غريب، فابتسم لي، وسألني بلهجة مكسورة: هل أنت الجنيد؟

فقلت له: نعم.

فقال لي: سيِّدي ينتظرك، تفضَّلْ معي.

دخلنا الدار، وأقفل الحارسُ البابَ بعدما دخلتُ، ثم قطعنا

أُسْطُوَانًا ومشينا في ممرّ، حتى وصلنا إلى باب مقوَّس منفتحٍ على بستان داخليّ فسيح في وسطه نافورة، وبه أشجار كثيرة من مختلف الأنواع. مشى الحارس في الممرّ المغطَّى الذي أحاط بالروض كالسوار، حتى انتهينا إلى الطرف المقابل، فدخل من باب آخر. كان الهدوء يخيِّم على المكان، ولا تَسمَع إلَّا زقزقةَ العصافير وخرير مياه النافورة. فلمَّا سلكنا في الممرِّ، كانت تلك الأصوات الطبيعيَّة تتضاءل شيئًا فشيئًا حتى فَنِيَتْ عن بلوغ الأصماخ. صعد الحارس إلى الدور العلويّ، فعادت الأصوات تنتعش من جديد في أصماخي، بعدما اتَّجهنا نحو ممرٍّ يقود إلى بيوت مشرفة على الروض من الطابق العلويّ. وفي مشيتي خلفَ الحارس، التقطتُ نفحةً متفلِّتَةً من عطر غريب استثارَتْ حواسِّي. ثم وصلنا إلى بيت، على بابه ستارة مُنزاحة على جانب قَوْسِ الباب، فطلب منِّي الحارسُ أن أَدخُلَ وَأَجلِس حتى يأتي سيِّدُه. كانت تنبعِثُ من البيت المشرِفِ على الروض سَكينة عَجيبة. كلُّ شيءٍ هنا يوحي بالهدوء والراحة. بساط طَبَرِيّ رفيعٌ، وآخر من مدينة أَصْبَهْبُذان في بلاد الديلم مبسوطان على الأرض، طَنَافِسُ مَخْمَلِيَّة وُضعت على طول المجلس الوثير لتريح ظهور الجالسين من ملامسة الجدار. سريرٌ في جوف البيت، ومَجالس وثيرة مَصفوفةٌ بذوقٍ على الجنبات. صينيَّة قائمة على أرجل تتوسَّط الركنَ الأيسر للبيت، وينفتح باتِّجاهها نافذة تُطلُّ على الممرِّ الذي يَطُلُّ بدوره على الروض. شُبَّاك حديديّ وزُجاج عراقيّ نَفيس يزهو بألوان متراقصة على جدران البيت بفعل أشعَّة الشمس. ويقابل النافذة الأولى شقيقةٌ لها عن يمين البيت إلى الجهة الثانية من الباب. وفي زاوية من البيت، عودٌ رَابِضٌ ينتظر أناملَ تُخرجه من رَقْدَتِهِ قُرْب السرير. رَفٌّ من خَشبٍ عَتيقٍ عليه

بعضُ الكتب القليلة. على الصينيَّة المغطّاة بثوبِ مَوْصِلِي شفَّافٍ أكوابٌ زجاجيَّة دقيقة مُنْكَفِئَةٌ على فَمِهَا، حتى لا يَعْلَقَ بداخلها الغُبار والأَوْضَار. عُرجونُ تمرٍ مُعَلَّقٌ بين الباب والنافذة يُغْرِي بقطف بعض حبَّاته. وكأنَّ وجودَه يُوهِم باستمرار نخلِ البستان داخل البيت، وكأنَّ الحائطَ الحاملَ للعرجون تحَوَّلَ إلى نخلةٍ، تَأْلَفُ الآدميِّين وتُساكِنُهم، وتَجُودُ عليهم بثمارها. ولولا الوَرَعُ، لكنتُ انْقَضَضْتُ على العُرجون بعد الجهد الذي بذلتُه منذ خروجي من بيتي في الشونيزيَّة جنوبي المدينة المدوَّرة حتى وصولي إلى الكاظميَّة في شماليّها. كان العرجون يُغري بأن آخذَ منه، لأنِّي كنتُ أُحِسُّ بالجوع والعطش، لكنِّي امتنعتُ، لأنَّ الأدب يُلزمني بأن لا أمَسَّهُ. كان المكانُ هادئًا سوى من حركةِ الماءِ المنسَكِب من النافورة، وزقزقات البَلابِل والعصافير التي كانت تُوَقِّعُ على هذا المشهَد مع الماء والنسيم. جلستُ أمام النافذة، حتى لا يَفوتني ما يَحدُث في الخارج، وحَسِبْتُ أنِّي رأيتُ شبَحًا لفتاة تمرُّ بسرعة فائقة، لكنِّي لم أكُنْ متأكِّدًا، ولربَّما كانت جاريةً أو خادمةً في هذا البيت اختفَتْ بسرعة حينما مَرَّتْ. وبعد هُنَيْهَةٍ، سَمِعْتُ وَقْعَ أقدام تقتربُ، فإذا صاحبي عبدُ الله قد وقَفَ أمامي. قمتُ للسلام عليه، فرحَّبَ بي وأجلسني في أَشْرَفِ مكان وَسطَ البيت، ثم جلس بجانبي. تناولَ مِرَشَّةً، وطلبَ منِّي أن أَفتحَ كفَّيَّ أمامَه حتى أتعطَّرَ بماء الزهر امتثلتُ له وفتحتُ كفَّيّ، فصبَّ لي من المرشَّة الفِضِّيَّة، فَمَسحْتُ على وجهي ماءَ زهرٍ مُنْعِشٍ طيِّب. ثم صبَّ لي من جديد، فرفعتُ عمامتي وخلَّلْتُ شَعْري بماء الزَّهر، فأحسستُ براحَةٍ وانتِعاشٍ بعد المشي والإجهاد. ثم جاء الخادم يحمِل أطباقًا من الفواكه الجافّة والتمْر الطيِّبِ واللَّبَنِ السائِغ، والماء البارد، فوضعَ كلَّ ذلك أمامنا. دعاني

صاحبي إلى تناوُلِ بعض الأطايِب التي كانت أمامَنا، فمَدَدْتُ يدي وتناولتُ حبَّاتٍ من اللوْزِ والجَوْزِ والبُنْدُقِ، ثم أخذتُ تمرةً وبعض الزَّبيب. صبَّ لي صاحبي لبنًا، فشربتُ حتى ارْتَوَيْت.

وبعد أنَّ استَوْفَيْنَا مِمَّا أمامَنا، بدأَ يَسأَلُني عن الرحلة التي قطعتُها حتى وصلتُ إليه. تكلّمْنا في أمورٍ عاديَّةٍ حتى استأذنَ الخادمُ علينا مَرَّةً أخرى، وأَعْلَمَ صاحبي بوصولِ بعض نُدْمانِه، فأمرَهُ أن يُدخِلَهُمْ. كانوا مجموعةً من الشباب المتأنِّقِينَ في مَلْبَسِهِمْ، المترفِّهِينَ في حركاتهم. دخلوا علينا، فَسَلّمُوا ثم جلَسوا. وبعد أن أَصابوا من الطيِّبات التي كانت على الصينيَّة، اِلْتَفَتَ إليَّ صديقي، وقال: لا يَنْقُصُ هذا المجلس إلَّا زينةُ الغِناء والطَّرَب.

فقلت: صدقت، فما أحوجنا إلى الترويح عن النفس.

فقال عبد الله: أنت تأمُر ونحن نُنَفِّذُ يا جُنيد. فهذه أَوَّلُ مَرَّةٍ تأتي إلى بيتي، ولا بُدَّ من استضافَتِك بما يَليقُ بمَقامِك. وهؤلاء الفتية المتأنِّقون يُجيدونَ العزف والغناء.

ثم التفَتَ عبدُ الله إلى أصحابه، وطلب منهم أن يأخذوا آلاتِ العَزْف، حتى يستقيمَ المجلسُ ويستوي بالغناء والطرب. عَمَدَ أحدُهُم إلى العود الرابِض، فأخرجَه من رَقْدَتِهِ، ودبَّتْ فيه الحياة لَمَّا لامستْ أنامِلُه بعضَ أوتاره. ثم فتح شابٌّ ثانٍ الصندوقَ الذي كان داخلَ البيت، وأخرج منه دفًّا ونَايًا

أخذ صاحبُ العودِ يُعالج آلتَه ويُصلِحُها ويُسَوِّي أوتارَها، ويُخاطبها، كما لو أنَّها من الأحياء، بكلامٍ لا يُدرِكُه إلَّا أهلُ الصنعة من المغنِّين المولَعِين. كان يُوازي هذا الأمرَ توقيعُ صاحِبَيْه على النَّاي

والطُّنْبُور. أمضيَا وقتًا في التسوية، حتى استقامَتْ لهم آلاتُهم، فانطلَقَ العزف.

وبينما هم يعزِفونَ، إذ رأيتُ الشَّبحَ مرَّة أخرى يَمْرُقُ في المَمَرِّ، فتأكَّدْتُ أنَّه من قُطَّانِ البيت وعُمّاره، وفارقني الشكُّ عند أَوَّلِ خَطْرَةٍ له. كان العَزْفُ جميلاً وهادِئًا ثم طلَبَ أحدُ الشبابِ شَرابًا، فانقَبَضْتُ، فأَحَسَّ بي صاحِبي، فقال: إنَّ القومَ على مَذْهَبِ الأَحْنَافِ، وهم يُجِيزُونَ نَبِيذَ الشعير والذرَة والعسَل والحِنْطة، ويمنعون نبيذَ التمر والزبيب والعِنَب، ويحرِّمونه. فهذه مَظِنَّة خِلافٍ تسمَحُ بالتجوُّز.

فقلت: أعلمُ هذه الآراء، لكنَّنا مَعاشر الشافعيَّة لا نُبِيحُ ذلك. وافعلوا بأنفسكم ما تَرَوْنَهُ ما دامَ أنَّكم تَرَوْنَ الجَوَاز.

نادى صاحبي على أحدِ الغِلْمان، وأمره أن يُحْضِر الشرَاب، فَامْتَثَلَ. وبعد قليلٍ عاد. فلمّا تفحَّصته، أدركتُ أنَّه وصيفةٌ في زيِّ غلام. لم يكن وجهُها غريبًا عليّ، لكنِّي أزحتُ كلَّ احتمال في أن أكونَ قد رأيتها من قبل، إذ مثلُ هذه الخرائد لا تَخْطُرُ في الطرقات، حتى لا تتناوَشَها الأيدي والنظرات، بل لا تَضِنُّ بها القُصور والخُدور، حتى تسمحَ بطرحِها للابتذالِ أمام أَعْيُنِ الظرفاء والفُضوليّين في بغداد. كانت تامَّةَ الحُسْن، لطيفةَ الخَصْر، عليها قِبَاءٌ ومِنْطَقَة. جاءت تحمِلُ إبريقًا، فَصَبَّت للعِصابة المتواطِئَةِ أقداحَ الشراب. فلمَّا وَقَفَتْ أمامي، نَظَرْتُ إليها نظرةً، فَهِمَتْ منها للتوِّ أنِّي لَسْتُ على مَذهب القوم في الشراب، فَتَعَدَّتْني، لكنَّ أحدَ الفتية قال لي بالفارسيَّة: «يا مَرْدَمَيْ خَرْ»

قَهْقَهَ الفِتْيَةُ من قول صاحِبِهِمْ، فنظرتُ إلى عبدِ الله مُستَنْكِرًا جَسارَةَ

الفَتَى، فقال مُعتَذِرًا عن صاحبه: إنَّه لم يَزِدْ على أن قال لك بالفارسيَّة «يا رجل، اشْرَبِ النَّبِيذ».

فقلت: إنِّي أعلمُ معنى عِبارته، لكنْ، أَبَعْدَ الذي ذكرتُ عن مذهبي في النبِيذ، ما زال صاحِبُك يَشُكُّ في موقفي؟ والله، لن أشرب نبيذَكم، ولن أطعمَ قليله ولا كثيره. فاعْدِلُوا عن الشراب إلى الغِناء.

قهقه الفتية من وَرَعِي، ثم تناولوا آلاتِهم من جديد، وأخذوا في العزف بعدما انتَشَوْا بما شربوا. وما زالتِ الوَصِيفَةُ الساقية تطوفُ عليهم، حتى بلغوا غايةَ الانتشاء. فلمَّا وقفَتْ أمام عبد الله، مَلأَتْ له قدحَه، فقبَّلَ كفَّها وانتشى. هزَّ الطربُ الجماعةَ، فغنَّى أحدُهم:

اِصبَحْ نديمَكَ أَقْدَاحًا يُسَلْسِلُهَا  مِنَ الشَّمُول وأَتْبِعْها بِأَقْدَاحِ
مِنْ كَفِّ رِيمٍ مَلِيحِ الدَّلِّ ريقَتُهُ  بعد الهُجُوعِ كَمِسْكٍ أَوْ كَتُفَّاحِ
لا أشربُ الرَّاحَ إلَّا مِنْ يَدَيْ رَشَإٍ  تَقْبِيلُ رَاحَتِهِ أَشْهَى مِنَ الرَّاحِ

هزَّ عبدَ اللهِ الطربُ والأدبُ، حتى استلقى على ظهره. مرَّ الشبَّحُ مرَّة أخرى. وأَحْسَبُ أنَّه كان يتَسَمَّعُ خلف إحدى نافذَتَيْ البيتِ، لأنِّي رأيتُ الضوءَ الداخلَ قد كفَّ لمَّا شَخَصَ خلفَ النافذة يتسمَّع أو يرقُبُ. مكثنا مدَّة على هذا الحال، حتى طرب الجميع. فلمَّا استوفينا استضافنا صاحبي، فأكلنا ونَعِمْنا بأطايِب الطعام. وبعد ذلك، قُدِّمَ لنا وِعاءُ الأُشْنَانْدَان، فتناولنا أعوادَ الأُشْنَانِ المخلوطةَ بالطِّيبِ، والمبْتَلَّةَ بالماء، حتى تُطْلِقَ رَغْوَةَ صَابُونِهَا من أجل تَنْقِيَةِ الأيدي من الوَضَرِ والدَّسَم. استأذنَ الفتيةُ في المغادرة، ثم خرجوا، وخرج صاحبي يرافقهم إلى الباب. بقيت بمفردي في البيت، فقمتُ من مكاني لأحرِّك أعضائي من خَدَرِ الجُلُوس، حتى وقفتُ أمام رَفِّ الكتب، وأخذتُ

كتابًا أحاولُ أن أقرأَ فيه، لكنَّ الضوءَ الداخلَ من النافذة كان ضعيفًا، فالتفَتُّ، فإذا بي ألمحُ جسمًا يختفي خلف الجدار الخارجيّ للبيت، وإذا النورُ يَنْسَلُّ بقوَّة إلى الداخل. لم أَرْغَبْ في مُتابَعة الشبَح الذي كان يَظْهَرُ ويَتَخَفَّى، بل نَظَرْتُ في الكتاب أَهُمُّ بقراءة ما فيه، فإذا الشبحُ يَنْتَزِعُه منِّي في سُرعةٍ فَائقةٍ ويُوَلِّي هاربًا الْتَفَتُّ لأرى مَنْ فَعَلَ هذا، فإذا هي فَتَاةٌ مُنَقَّبَة، لم أَرَ منها إلَّا ذَيْلَ إِزَارِهَا تَعَجَّبْتُ من حركتها، وكِدْتُ أَرْكُضُ خلفَها لأنتزعَ الكتابَ منها، لولا أنِّي أَحْجَمْتُ عن ذلك حتى أَعْرِفَ سِرَّ هذه الحركة الغريبة. وقبل أن أَفْهَمَ ما يَحْصُل، رأيتُ الفتاةَ تخرجُ بسرعة البَرْق. طَفِقْتُ أتأمَّلُ في هذه الحركة الغريبة من هذه الفتاة الغريبة، حتى دخل عليَّ صاحبي عبدُ الله فَقَصَصْتُ عليه الأمر.

ابتسم قليلاً، وقال لي: تلك شقيقتي التي ليس لي غيرُها، فهي كلُّ أهلي، وإنِّي أحميها وأرعاها وأَحرِصُ عليها، بعد أن فقدنا الأُمَّ والأَب، وأحرُسُها كما تَحْرُس الجُفونُ العيونَ، ويُسعِدني ما يُسعدها، ويَسُوؤني ما يَسُوؤُها. إنَّها أختي الصغيرة، فاطمة.

فقلت له: ولماذا انتزعَتْ منِّي الكتاب بتلك الطريقة؟

فقال: لأنَّه لا يجوز لك أن تطَّلع على ذلك الكتاب.

فقلت: ولماذا؟

فقال: لأمر خاصّ.

فقلت: كيف ذلك؟

فقال: الكتاب يحتوي على عدَّة رسائل، هي مثل القانون لجماعة من الأصفياء.

فقلت: وما دَخْلُ شقيقتك في الأمر، هل هي من هذه الجماعة؟ بل، هل أنت أيضًا من هذه الجماعة؟ بل لعلّ أصدقاءَك الذين كانوا هنا هم أيضًا ينتسبون إلى الجماعة نفسها. وهل هي الرسائل نفسها التي كنتَ تقرأ فيها في دكَّانك، وتأبى إعارتي إيّاها؟

فقال: هذه أسئلة كثيرة، وهذا شأننا أن ننتسِبَ لجماعة معيَّنة. فأنت نفسُكَ تجالس الزهَّاد والصوفيَّة والفقهاء، وهم جماعات كغيرهم من الجماعات. فكيف تحلِّلُ لنفسك ما تُنكِرُه على غيرك؟

فقلت: لم أُنْكِرْ عليكم هذا، ولا أعلم عن شأن هذه الجماعة شيئًا، وإنَّما أنكرتُ انتزاعَ الكتاب منِّي بصورة غريبة.

فقال عبد الله: كلُّ ما في الأمر هو أنَّك لم تستأذنْ منَّا في مطالعته.

فقلت: إذا كان الأمر على هذا الوجه فأنت مُحِقٌّ، لكنْ لماذا لا تأتي شقيقَتُكَ وتخبرنا عن سِرِّ تَصَرُّفِها المفاجئ؟

لم أُنْهِ كلامي حتى ظهرَتِ الفتاة المنقَّبة، وتقدَّمَتْ نحونا، ثم قالت: يبدو أنَّك غيرُ راضٍ، لأنِّي انتزعتُ منك الكتاب.

فقلت: كان بإمكانِكِ أن تَطلبي منِّي عَدَمَ لَمْسِ الكتاب، فَأَمْتَثِل.

فقالت: لقد بدأتَ تَطَّلِعُ على أسرار في الكتاب لا تَخُصُّك.

لم يكن صوتُها غريبًا عليَّ، وبدا لي كأنّني سمعت هذا الصوت من قبل. ثم تقدَّمَتْ قليلاً، فَعَبِقَتْ أرجاءُ البيت بعطرها الأخَّاذ، فقلت لعبد الله، وقد جَسُرْتُ بانتِشاء عَبَقِ العِطر ألا تُقَدِّمُني لشقيقَتِك؟

فقال عبد الله: اْعْذُرْني، هذا صديقي الجنيد البغدادي الخَزّاز.

أومأَتْ برأسها إيماءةً خفيفة، فالتفتُّ إلى عبد الله حتى يُعَرِّفَني

بشقيقته، فانتبَهَ للأمر وقال: هذه شقيقتي فاطمة.

فقلت لها: تَشرَّفْتُ بمعرفتك، وبقدر ما أغاظَتْنِي حركةُ انتزاعِ الكِتاب منِّي بقدرِ ما أنا سعيدٌ بغيرَتِك على الكُتُبِ وحُرْمَةِ ما فيها. وأَضَفْتُ: فربَّما لا أَستَحِقُّ ما جاء في هذا الكتاب من حِكمة. وقد قيل «لا تُعْطوا الحِكمةَ غَيْرَ أهلِها، فَتَظْلِمُوها».

لكنَّها أضافَتْ مُعتذِرة: «ولا تمنَعوها أهلَها فتظلِموهُم».

ثم أطرقَتْ برأسها إلى الأرض، فقال أخوها نيابةً عنها: إنَّها بالفعل مُحِبَّةٌ للكتب، وترى أنَّ على المرء أن يستحقَّ ما فيها حتى يَحوزَها.

ابتسمتُ لها، فَحَسَرَتْ عن وجهها، فإذا بي أُفاجَأ بأنَّها الفتاة التي وَلِعْتُ بها لمَّا زارتني في دكَّاني، ثم اختفَتْ منذ ذلك الحين. لقد تغيَّرَتْ ملامِحُها قليلاً، وأصبحَتْ فتاة كاملةَ الأنوثة. فَغَرْتُ فاهي بدون شعور من فَرْطِ المفاجأة، فضحِكَتْ ضَحْكةً خفيفة. التفَتَ إليَّ عبدُ الله لمَّا رأى تَغَيُّرَ حالي، وسألني قائلاً: ما بكَ يا جنيد؟

فقلت: واللهِ، لا شيءَ سوى أنَّ شقيقتَك كانت من زُبنائي، ثم انقطعَتْ عن دُكّاني، وهجَرَت الشراءَ منِّي، إذ ربَّما رأَتْ أنِّي دلَّسْتُ عليها في الثوبِ الذي اشترَتْهُ منِّي قبل سنوات.

ابتسمَتْ فاطمة مرَّة أخرى، لكنَّ جوابي كان كافيًا لأُفْهِمَها أنِّي كنتُ متعلِّقًا بها، لِدَرَجَةِ أنِّي كنتُ أَتَمَنَّى عَوْدَتَها لزيارتي في الدكَّان.

ثم قال عبدُ الله: لا أذكرُ أنَّها كلَّمَتْني من قبلُ عن تاجرٍ مُدَلِّسٍ في السوق. لكنْ دَعُونا ننزل إلى البستان لِنُكْمِلَ حَديثَنا. تقدَّمَتْ فاطمة أوَّلاً، ومَشَى في إثْرِهَا شَقِيقُها يَحْجِزُها بِبَدَنِهِ عن نظراتي الفُضُوليَّة، ثم

تَبِعْتُهُمَا أخيرًا، أَسْتَرِقُ النظَر إلى قَدِّها ومِشْيَتِهَا. نزلنا إلى البُستان، وتقدَّمْنا في المَمَاشِي بين الغُروسِ والزهور والأَشْجَار، حتى وصَلْنا إلى قُبَّة خشبيَّة مَسقوفة بشكل بديع. كانت القبَّة في وسط البستان، وخلفَها جدارٌ عال يفصِلُها عن الدار المجاورة. كانت القبَّة مفروشةً بِفُرُشٍ وَثِيرَة ومِخَدَّات مُريحة. جلستُ على بساط سُوسنْجِرْدِي[1] سِتِّينيّ مُذَهَّب، بعدما طلب منِّي عبد الله أن أتفضَّلَ، فجلستُ وجلس بجانبي، ثم جلَسَتْ فاطمة في الجهة المقابلة لي، بحيث لَمَّا أتكلَّمُ مع شقيقها كانت في مرمى نظري مُباشَرَة.

وبعد أن استويتُ في جلستي، قلت: هل لي أن أَعْرِفَ عن هذا الكتاب الذي تَضِنِّينَ به على أمثالي من الجَهَلة؟

فقالت: هل تريدُ أن تَعْرِفَ كلَّ شيءٍ في أوَّلِ زيارةٍ لنا؟

سعِدتُ بالأمل الذي فتحَتْهُ فاطمةُ في مُعاودة الجلوس إليها، إذ كلّ أَوَّلٍ لا بُدَّ له من ثَانٍ يَعْقُبُه، وثَالثٍ يَخْلُفُه، وهَلُمَّ جرًا. فقلت: فَهَلَّا عرَّفتِني بهذا العلم المضنون به على مثلي؟

أخرجَتِ الكتابَ الذي كان بين ثيابها، ثم قالت بعد أن نظرَتْ فيه: الطالبُ المستبصِر عند إخوانِ الصفاء وخُلّان الوفاء ينبغي أن يكون «عالمًا خبيرًا فاضلاً، ذكيًّا مستبصرًا، فارسيَّ النسبة، عربيَّ الدين، حنفيَّ المذهب، عراقيَّ الآداب، عبرانيَّ المَخْبَر، مسيحيَّ المنهج، شاميَّ النُّسُك، يونانيَّ العلوم، هنديَّ البصيرة، صوفيَّ السيرة».

فقلت معترضًا: مهلاً فاطمة، كيف يستقيم جَمْعُ هؤلاء في واحد؟

---

(١) سوسنجرد، قرية من قرى بغداد.

فقالت: أرأيتَ أنَّك لا تستحِقُّ هذه المعارف التي منعناك منها، فها أنت تُنْكِر قبل أن تَعْلَم. إنَّما حديثُ الكتاب كان عن الإنسان الكامل الذي جمع من كلِّ هؤلاء أفضلَ ما عندهم، فصحَّ له الكمال.

فقلت: أيُّ كمالٍ يَصِحُّ، والجمعُ المذكور تلفيقيٌّ بين عبرانيّ ومسيحيّ ومسلم، وبين هنديّ وفارسيّ ويونانيّ، وبين صوفيّ وحنفيّ.

فقالت: لقد حجبَتْكَ كثرةُ الصور والأشكال عن تَبيُّن حقيقة الإنسان الواحد خلف هؤلاء جميعًا

فقلت: لعلَّكِ مُحِقَّة، لكنَّنا نجدُ الخلافَ مُسْتَحْكِمًا في أصحاب المذهبِ الواحد، بل في أطوار الرجل الواحد، فكيفَ وقد اختلطَ الكلُّ في واحد؟

فقالت: ألا يعتري المرءَ حالاتٌ من الفرح والحزن، والضحِكِ والبُكاء، والبَسْط والقَبْض، والخوف والأمل؟ ألا يَمُرُّ الإنسان من طور إلى طور؟ ومع كلِّ هذا، فحقيقةُ هذا الإنسان واحدةٌ لم تتغيَّر، رغم هذه الأحوال العارضة. فإذا كان هذا يقع لشخص بعينه في أخصِّ ما يُلابِسه، فكيف تُحيلُ ذلك فيما هو دونه ممّا هو من عالم الأفكار؟

فقلت: هذه أحوالٌ مُرْتَحِلَة غيرُ ثابتة، وكلامي معك عن المعتقدات التي تستَغْرِقُ الكَائِنَ كلَّهُ مَشَاعِر وأَفْكارًا.

فقالت: ما أفْسَحَ الأملَ عندَك، وهل تعتقِدُ أنَّ عقيدةً واحدةً، أو فكرةً وحيدة تستغرِقُ حقيقةَ الإنسان؟

فقلت: نعم، إن كانت مشفوعةً بشاهدين عدلين من كتاب وسُنّة.

فقالت: كلامي معكَ في غير هذا، وأنت تعلم أنَّ الناس اختلفوا

في العقيدة الواحدة، وكلُّهم يدَّعي استمدادَه من نفس الشَّاهِدَيْن العَدْلَيْن، فَلِمَ أوجب المعتزلةُ، مثلاً، أَخْذَ الناسِ بمحنة خَلْقِ القرآن، إن كان الجميع يستند إلى القرآن والسُّنَّة؟

فقلت: ها قد رجعتِ إلى كلامي من أنَّ الاختلافَ حاصلٌ حتى عند من يعتنق العقائد نفسها، فكيف الحالُ، وقد تباينَتْ تلك العقائد إلى الحدِّ الذي جمعت بين المسلم واليهوديّ والنصرانيّ واليونانيّ والفارسيّ والهنديّ وهَلُمَّ جَرًّا. في شخص واحد؟ كيف يستطيع من تجاورَتْ فيه كل هذه العقائد أن يعيش دون أن ينهارَ أو ينتحر؟

وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث، إذ بحَمَام زاجِل يَحُطُّ على طَرَفِ القبَّة، وفي إحدى رجليه لولَب صغير. أدركتُ من البداية أنَّه يحمِلُ رسالة. أخذ عبد الله الحمامة، وفكَّ من رجلها الرسالة، فقرأها بسرعة، ثم أعطاها لأخته لتقرأها تغيّر لونهما، لكنَّهما لم يذكرا لي شيئًا عن فحوى الرسالة.

ثم قال عبد الله لشقيقته، وكأنَّه يريد تغيير الموضوع: ليتكِ تعزفين لنا على ذلك العود. وأشار إلى الآلة التي كانت رابضةً في ركنٍ من القبَّة.

نادت فاطمة على وصيفتها، وطلبت منها أن تَصُبَّ لنا بعض الشراب، ولعلَّها أرادت أن تُرَوِّحَ عنِّي من أثر النقاش المحتدِم بيننا، فقدَّمَتْ لي الوصيفةُ شرابًا باردًا بالزنجبيل والقرفة، وقالت لي فاطمة: لعلَّه يذكِّركَ بأمر ما؟ ولعلَّك تذكَّرتَ وصيفتي أيضًا لمّا زرناك في الدكَّان؟ فها قد رَدَدْتُ لك المجاملةَ من جنسها.

ضحكَتْ فاطمة وضحكتُ، وأدركتُ أنَّها سقتني الشراب نفسه

الذي سقيتُها وقتئذ، لكي تستثيرني في هذه اللحظة، كما استثرتُها في دكّاني، فسرَّني منها هذا الذكاء الباهر. ونظرتُ إلى الوصيفة، فتذكّرتُ أنَّها الفتاة نفسها التي كانت ترافقُ فاطمة في زيارتهما لدكّاني.

امتثلَتْ فاطمة لطلب أخيها في رهبنة الناسكات. أخذتِ العود واحتضنته. لمَّا رأيتها على هذه الهيئة، لم أمنعْ خاطرًا مرَّ بي في هذه اللحظة، وتذكَّرتُ أوّلَ لقاء لنا في دكّاني بالسوق، وكيف أنِّي اخترتُ لها ثوبًا مناسبًا لبشرتها وأقنعتُها بذلك، حين طرحتُ الثوب على العود الذي كان في دكّاني، إذ كان لونُه يشبه لونَ بشرتها. نظرَتْ إليَّ فاطمة وكأنَّها استحضرَتْ الخاطر نفسه، فابتسمَتْ. واستحضرْتُ كلامها كما لو أنِّي أسمعُه منها أوَّلَ مرَّة «هذا ثوبُ جمادٍ أُلْقِيَ على عُودٍ جَماد، فما بالُكَ أغْفَلْتَ النفوس والأرواح؟». نقرَتْ نقرةً على العود ثم نظرَتْ إليَّ، وكأنَّها تقولُ بلغة النفوس والأرواح، «الآنَ أجيبُك بالحال لا بالمقال، ها هي روحي تعزف على العود، وها هو ثوبُ نفسي مطروحٌ على ذاتي. الآنَ، الآن فقط، ترى حيًّا يعزِفُ على حيٍّ»

شككتُ فيما عندي، وقلتُ لنفسي: هل حقًّا قالت لي فاطمة اليومَ هذا الكلام؟ أم أنّها نفسي التي توهَّمَتْ حصولَه؟

نظرتُ إلى فاطمة مرَّة أخرى، فابتسمَتْ لي ابتسامة عريضة وكأنَّها أدركَت صراع خواطري، فأرادتْ أن تؤكِّدَ لي أنَّها استطاعت أن تخاطبني بلغة الأرواح لا بلغة الكلام. نقرَتْ نقراتٍ أخرى، فأحسستُ كأنَّها تُوَقِّع على روحي. كان نظري ينتقل من العود إلى أناملها، ومن أناملها إلى وجهها، فأدركتُ سرَّ اهتبالي. كان الكلُّ على نسبة شريفة من الانسجام والاتِّساق. كان عودُ فاطمةَ من أربعةِ أوتارٍ مَشدودة أسافلُها في المُشْط، ورؤوسُها في الملاوي. كان طولُ الوَتَر مقسّمًا

إلى أربعة أقسام متساوية، بينما وُضِعَ دِسْتَانٌ على الربع الأخير ممّا يلي عنقَ العود. مضت تُسَوِّي عودَها وتُديرُ الملاوي، حتى تساوَت الأنغام. استوتْ فاطمة في جلستها، ثم أرسلَت رسولَ سبّابتها على أوتار العود، وضغَطت بأعوان الشمال على الدستان، فحدَثَتْ في الأسماع والأرواح نغماتٌ متآلِفة متناسبة، تراوحَتْ بين الحِدَّة والغِلظة، والخِفَّة والثقَل، فكأنَّ بعضَها أجسادٌ لأرواح، والأخرى نُفُوسٌ لأبدان. اتَّحَدَتْ تلك النغمات وامتزجَت وصارت ألحانًا، فَانسلَّتْ إلى أسماعنا بلا استئذان، وحازَتْ مِنَ البَهَا كلَّ استِحْسَان. وبقدر ما تمادَتْ فاطمةُ في العَزْفِ بقدر ما انبعَثَتْ لذلك العزف رائحةٌ طَيِّبَة، فكنت أتعجَّبُ من هذا الأمر وأسأل نفسي، كيف تُؤَثِّرُ النغَمَاتُ الملموساتُ بالبَنَان على المسموعات والمشمومات؟ لقد تداخلَتِ الحَوَاسُّ لِتَوَحُّدِ النفوس والأرواح. كانت تلك الرائحةُ الزكيَّةُ رائحةَ الغالية التي جَهِدْتُ في طلبها حتى صنعَها لي صديقي العطَّار في السوق، لكنِّي لم أقف على صاحبتها منذ مدَّة غير يسيرة، ثم لمَّا فقدتُ الأمل في لقائها، وركبني اليأس، حتى أَحَلْتُ كلّ إمكانيَّة لمعاودة الجلوس إليها والحديثِ معها، إذا بي جالسٌ اليومَ أستمِعُ إليها وأَشْتَمُّ رائحتَها وأسمَعُ عزفَها وغناءَها، فهل بَعْدَ هذا الفَضْلِ فَضْلٌ؟

كانت فاطمة تامَّةَ الاعتدال في قدِّها وجلستها، وكان العود تامَّ الاستواء والاعتدال، فكأنهُما سُوِّيَا على النِّسبة الشريفة نفسها كنت أُرَاوِحُ النظر بين الوجه والأثر، فألمحُ أحوالَ القلوب وتَباريح الهوى، ورَشْحَ الوَجْد، ونَسمات الروح، كانت الأنامل تَقْرَعُ صفحةَ العود فَتُحْيِي كَوامِنَ الألحان الشجيَّة، وتُريحُ بِزَمِّ الدساتين أرواحًا نَدِيّة. أيُّهما العازف وأيُّهما المعزوف؟ في اتِّصال العود بجوفِ عازفِه أُلْفَةٌ

وائتلاف. ومن أناملِ العازف، التي هي رُسُلُ روحِه، يَحْصُلُ التمَاسُّ مع أوتار العود المصنوعة من مُصْرَانِ الحيوان. أنامل حَيَّة تضغط على أوتار التحِيّة. وبينما كنت في تَرجِيع هذه الخواطر السارحة في صحراء ذاتي القاصية، طرقَ سمعي صوتٌ شَجِيٌّ كأنَّه الندى، ونَغَم بَهِيٌّ كأنَّه الصدَى، وعَبِقَ طيبُ فاطمةَ حتى بلغَ المدَى. كلُّ حواسِّي كانت قائمةً غير ضامِرة، وأوتارُ روحي مَعزوفةٌ بأرض الساهرة، فأنا فتًى صامتٌ ناطق، مُريدٌ ومراد، مُجيبٌ وجَواب، شَوق واشتياق، حُرقة ولوعة، لهيبٌ وظمَأ، صوتٌ ورائحة، طارفَةٌ وتالِدَة. سوقٌ ودكّان، أُذْنٌ وخَاصِرة، قلبٌ وباصِرة، حرير وكتّان، خَزٌّ وقَوارير. أين أنا، في السوق أم في الدكّان؟ في القصر أم في البستان؟ مع فاطمةَ فقدتُ النُّهَى، وفارقتُ الحِجَا، وتوضَّأتُ بماء الأزل.

بالله عليكِ، لا تَفطِميني من هذا اللحن وهذا البهاء.

هكذا خاطبَتْ رُوحي روحي، تَخالَلَتِ الأرواح، فأين روحي مِنْ روحي؟ مَنِ الخِلُّ ومَنِ المُخَالِل؟ بل أين الخَلَلُ حين لبستُ هذه الحُلَل؟ أين الذات وأين الصفات؟ أين الفاعل؟ أين المفعول؟ أزواجٌ وأَزواج ثم أَزواج، كلُّها في نِكاح سرمديّ، وتَوالُج أزليّ. سَكَتَ نُطقي وأفصح سِرّي عن سِرِّ سرّي. ما لي أرى البيان عَيِيًّا حَصِرًا، والبلاغةَ في لزوم الوَداعَة تفصيلاً وجُمَلاً؟ إنَّ الغناءَ لغةٌ فوقَ اللغة، هو الناطقُ حينما يسكُت المنطِق عن الكلام بالألحان المطربة والأنغام المُخْلِبَة. لِمَ أصابَ المنطقَ عِيٌّ وحَصَر؟ ولم يستطع ببلاغته وفصاحته أن يُظهِر كوامنَ الروح بالعبارة، فأظهرَها بأنغام الإشارة.

لقد استقطَعَتْ منّي فاطمةُ كينونةَ وُجودي، حتى لم أَدْرِ أين أنا؟ لقد دخلتُ عالَم الاستحالات، فَطَفِقْتُ أتحوَّلُ من كينونة لأخرى، حتى

صِرْتُ أطلُبُ أن أكونَ أُنْمُلاً من أناملها، بل لقد تمنَّيْتُ أن أكونَ مِضرابَها الذي تُوقِّعُ به على عودِها، أو لعلِّي آثرتُ أن يُحِيلَني الخالقُ وَتَرًا على عودِها جالت بنا في طَرائِفِ النَّغَم، وعرَّسَتْ بنا في عَرَصَاتِ النِّعَم، وسافرَتْ بنا عبر منازل النفوس والأرواح، حتى حصل الوَجْد وأعقبَهُ الوجود.

أَنْ تَطْرَبَ وتَتَوَاجَدَ يعني أن تُوجَد، أي أن تَكون، لأنَّ الكلَّ في قبضَةِ العَدَمِ مَطْوِيّ، فلا يحصُلُ الوجود إلَّا بالوَجْد، وكلُّ وَجْدٍ لا يُنْتِجُ وُجودًا فليس بِوَجْد، وإنَّما هو نَقْرُ خاطِر، وادِّعَاءٌ بَاطِر. حينما يتواجد المرء يُسْتَثَارُ كامِنُ كينونة الإنسان بفعل توقيع الأنغام على دُسُوتِ العيدان.

وبينما أنا في ماء الوَجْدِ أَسْبَحُ، ودموعي تُغازل أجفاني بماء روحي، وخدِّي أرضٌ تتشوَّفُ لِسُقْيَا عيوني، إِذْ بفاطمةَ تُنْشِدُ حُرْقَةً:

بَكَرَتْ تَحِنُّ وَمَا بِهَا وَجْدِي وَأَحِنُّ مِنْ وَجْدٍ إِلَى نَجْدِ
فَدُمُوعُهَا تَحْيَا الرِّيَاضُ بِهَا وَدُمُوعُ عَيْنِي أَقْرَحَتْ خَدِّي
وَبِسَاكِنِي نَجْدٍ كَلِفْتُ وَمَا يُغْنِي لَهُمْ كَلَفِي وَلاَ وَجْدِي
لَوْ قِيس وَجْدُ العَاشِقِينَ إِلى وَجْدِي لَزَادَ عَلَيْهِ مَا عِنْدِي

ما فعلته فاطمة بي، بشدوها لهذه الأبيات، لم يفعله بي فاعل من قبل، وقد بلغ الوجد منتهاه، فَدَرَّتْ عيوني بالسقْيَا وجاش قلبي باللقْيَا، وكدتُ أجودُ بالروح في رياض الأُنس. وبينما كنتُ في الرمَق الأخير من النجيع حين توجَّعَتْ فاطمة بهذا الطرَب الفَجِيع، إذ بعبد الله يُصَفِّقُ ويُثني، ويَطْرَبُ ويَتَواجَد. توقَّفَتِ الحمَامة الطروب، ووضعَتِ العودَ بجانبها، فصمَتَ وَرَبَضَ لا يَرْشَحُ منه شيء إلَّا السكون، ولا يبدو عليه

فَجَعٌ سوى الطمأنينة. فما أوثَقَ العيدان بمقامات الكمال؟ أَبَعْدَ هذا السمَاع لا تَحْصُلُ المواجيد، ولا يُصاب بالمَوْجَدَةِ مَنْ استَثَارَ الطرَب؟ لعلَّه مثلَ الجبالِ حينما تتسمَّعُ الكلام، فَيَحْسِبُها الرائِي جَامِدَةً وهي تُحلِّقُ في غُلالات السحَاب.

بعد حينٍ، خفَّت الأحوال، فأثنيتُ على فاطمة التي شكرتني. كان بِجُعْبَتِي أشياء كثيرة كنت أريدُ أن أَبُثَّهَا، لكنَّ الوقت لم يكن يَسمحُ بذلك، فاستأذنتُ من مُضيفي، فخرج معي بعدما ودَّعتُ فاطمة، فابتسمَتْ لي، ووعدتني بزيارتي في السوق لشراء أقمشة حريريَّة. خرجتُ من عندها أَطير، ولم تكن لديَّ رَغبةٌ في المشي بعد هذا اليوم المليء بالمفاجآت، فعرَّجتُ نحو المراكب التي تُقِلُّ الناس من فُرْضَة إلى أخرى من بغداد على طول نهر دجلة.

كانت جنباتُ دجلةَ مليئةً بالناس الذين كانوا يتنقّلون من جهة لأخرى، أو من محلّة لثانية. كان فيهم التجَّار والشيوخ وعامّة الناس. وبقدر ما كنت متوجِّسًا في الذهاب، كنتُ رَجُلاً آخر في الإياب. لم أَدْرِ سِرَّ هذا التحوُّل! هل لأنَّ ركوب النهر أَيْسَرُ من العودة مشيًا على الأقدام؟ أم لأنَّ مَسَرَّات اللقاء بفاطمة، والوَجْدَ الحاصلَ من لقائها، والجلوس إليها، والحديثَ معها قد صفَّى كلَّ كُدورات النفس، فتحوَّلْتُ من الريبة إلى اليقين، ومن التوَجُّس إلى الترَبُّص؟

وصلتُ إلى قَطِيعَةِ زبيدة على ضفَّة دجلة، حيث الفُرْضَةُ العُلْيَا كان أحدُ أصحابِ المراكب ينادي على الزبناء الراغبين في العبور إلى الجهة الثانية من النهر. كان واقفًا على رصيفٍ ماسِكًا بحبلٍ في يده، يُمْسِكُ به مركبَه المسمَّى بالطيَّار أو الطيّارة لِسُرعَةِ جريانه. تقدَّمْتُ قليلاً أُرَاقِبُ مُخْتَلفَ المراكِب من زَبَازِبَ وطيَّارات وسُمَيْرِيّات، حتى سمعتُ صاحبَ مركبٍ آخر من نوع الزلالات ينادي على القاصدين إلى الجسر

الكبير أو الجسر الأوسط. ركبتُ في ذلك المركب، ونقدتُ صاحِبَهُ مُقدَّمًا ثمنَ الرحلة إلى الجسر الوسطي. وبعد أن ركب الناس نساء ورجالاً، صعد مَلَّاحُ المركب، وأخذ في الإبحار. دفع الربَّانُ المركَبَ ليبتعد عن الرصيف بمجدافه، فانطلق في النهر وأخذ يجدِّفُ حتى ابتعدَ عن جَنَبَاتِه. كانت رحلةً ممتعةً، أمتعنا الملَّاح خلالها بغنائه رغم فساد لحنه وكلامه. لم أتوقَّفْ أثناءها عن مراقبة حركة المراكب ومعاينة البِناء على ضفَّة النهر. غادرنا الفُرضة العليا، وتقدَّمنا في وسط دجلة حتى وصلنا إلى الجسر الأعلى. كان على الجسر أطواق، بنى عليها بعض القوَّاد دورهم. أمَّا الدورُ الشاطئيَّة، فكانت غايةً في الجمال والهندسة الرائعة. عاينتُ تلك الدورَ، فبدا لي بعض أصحابِ الحُظْوَةِ جالسًا في قبَّة واقعةٍ على السدَّة، وعليه ثوبٌ مُصَمَّطٌ أسودُ وعِمامة رُصَافِيَّة. كان بلا شكّ من أشراف البيت العبَّاسيّ وأمرائهم. كانت بعض دور ضفّتيْ دجلة متهدِّمة جرَّاءَ الفيضانات التي كانت تتوالى في بعض السنوات على بغداد. وأذكُر أنِّي سمعتُ والدتي، رحمها الله، تُخبرني مرَّة أنِّي وُلدتُ في السنة نفسها التي حدث فيها فيضان كبير على عهد المأمون سنة ٢١٥ هـ، حيث ارتفعَ مستوى المياه على ظهور بيوت الرّحَى من نهر الصرَاة في الجانب الغربيّ من بغداد، وتقطَّعتْ وقتئذٍ جُسورُ المدينة من قوَّة هذه الزيادة. ولعلِّي أذكر، وأنا ابنُ خمسةِ أعوام، أنَّ زيادةً أخرى في مستوى المياه حدثت في دجلة، ولا زلت أذكر أنِّي كنت ألعب في بيتنا الذي غمره الماء، وأمِّي تصرخ مرعوبةً، وأبي يلتقطني، ويصعد بي فوق سطح البيت مع أمِّي. وبينما كنَّا نُبْحِرُ، إذ بي أُعايِنُ سَفِينَةَ الخليفة تُحيط بها سُفُنٌ صغيرة، وعليها حَرَسٌ يحملون الشموع والمشاعِلَ الضخمة التي تُسَمَّى الموكِبيّات، فَحَزَرْتُ أنَّ الخليفةَ ربَّما كان سيخرجُ في رحلةٍ على دجلة. وكلَّما تقدَّمنا،

عاينتُ القصورَ والدورَ المنتشرةَ على طول ضِفَّتَي النهر، ثم اقتربنا من جامع الرصَافَة الكبير في الجهة الشرقيَّة. ثم رأيت السدود والبُثُوق التي بناها الخلفاء لحماية المدينة من الفيضانات. كان المركب يتلَوّى بتلَوّي النهر، فلَفَّ جهة اليسار، أي باتِّجاه الشرق، حتى وصل إلى الجسر الكبير المُسامِت لباب خراسان في الجهة الغربيَّة من المدينة المدوَّرة. وهناك توقَّفَ في الفُرْضَة المعَدَّة للإركاب، فنزل بعض الركَّاب وركب آخرون، ثم واصل الملَّاح الرحلة بنا على متن الزلالة، حتى وصلنا إلى قصر الخُلْد ثم حدائق القصور في الجهة الغربيَّة، وأخيرًا وصلنا إلى الجسر الوسطي، فنزلتُ قرب محلَّة التستريِّين، ومشيتُ على طول نهر البزّازين، ثم دخلت محلَّة الشرقيَّة حتى وصلتُ إلى مسجد الشونيزي، فرأيت خالي مع صديقي أحمد بن أبي الورد. حاولت أن أتفاداهما، لكنّ خالي أبصرني، فسلَّمْتُ عليهما، فنظر إليَّ متفرِّسًا، وقال: «المحبَّة لا تصلح بين اثنين حتى يقولَ الواحدُ للآخر يا أنا». تحلَّب ريقي وزاد عطشي لاطِّلاع خالي على سِرِّي حين اطَّلَعَ على باطني، فقال: خُذْ اِشْرَبْ. وناوَلَني كوزَ ماءٍ، فأخذتُ منه آنيَّةَ الطين بعدما كنتُ قد شربتُ في أواني الزجاج عند فاطمة وأخيها عبد الله. وكأنَّه أدرك تردُّدِي، فقال لي: خُلِقَ الإنسان من جنس الطين، فلا يَشْرَبُ إلَّا في الطين، ولا يَسْتَعْمِلُ في أغراضه إلَّا أواني الطين، ولا حِسابَ عليه.

شَرِبْتُ من الكُوز، وأَحْسَسْتُ بطينيّتي الآدميَّة، ثم شكرتُه، واستأذنتُ في الانصراف إلى داري التي دخلتُها بعدما انكشفَ حالي لخالي.

* * *

بعد أن غادر الجنيد بيتَ عبد الله وشقيقتِه، انفرد الأخُ بأختِه

وتحدَّثا عن الرسالة المفاجئة، فقال عبد الله: هذه أوَّل مرَّة تصل لنا فيها مثل هذه الرسالة.

فقالت فاطمة: نعم، لم يحصل من قبل أن طُلِب منَّا استضافةُ إخوان الصفاء في البيت. وإنِّي خائفة.

فقال عبد الله: أعلم ذلك، وحتى أنا منزعج من وصول الرسالة على هذه الصفة، في هذا الوقت بالذات.

فقالت: ولِمَ ذلك؟

فقال عبد الله: أخشى أن يكون لهذا الأمر علاقةٌ بتصفيةِ تركَةِ كفيلِنا عبد الله البغدادي.

فقالت فاطمة: وما علاقةُ هذا الأمر بالرسالة التي وصلَتِ اليوم؟

فقال عبد الله: لقد كان عبد الله البغدادي أحدَ حُجَجِ الإمام، وله سمعةٌ كبيرة عند إخوان الصفاء. ولا شكَّ أنَّه كان يختزن كثيرًا من أسرارهم. ولعلّ في هذه الدار من تلك الأسرار التي لا نعرفها نحن، ويعرفها بعض خَواصِّ الجماعة. فقد ذكر لي أحدُهم في السوق أنَّ على البغدادي ديْنًا، ولعلّ أحدًا سَيُطالِبُ به. وقد شككتُ في الأمر، وتوقّعتُ حدوثَ أمرٍ معيَّن في قابل الأيَّام، رغم أنِّي لم أُحدِّثْك بهذا من قبل، لكنَّ وصولَ هذه الرسالة جعلني أربطُ بين الأمرين.

فقالت فاطمة: إن كان دَيْنًا، وأشُكُّ في ذلك كثيرًا، فعبد الله لم يكن مُعْدِمًا حتى يتركَ ديونًا عليه، ثم إنَّه لم يكن ليوصي لنا بهذه الوصيَّة، وهو يعلم أنَّ عليه ديونًا مترتِّبَة. إنِّي مُتَخَوِّفَة ممَّا قد تُدبِّره لنا الجماعة، وأخشى أن ينتزعوا منّا ما تركه لنا عبد الله البغدادي.

فقال عبد الله: ما أستغربه هو أنَّ الرسالة لا تعطي تفاصيل كثيرة،

بل هي تحدِّد أنَّ موعد اجتماع إخوان الصفاء سيكون عندنا، وأنَّ علينا الاستعداد للأمر.

فقالت فاطمة: ذلك ما يُحيِّرني، فماذا يعني أن نستعدَّ للأمر؟ هل سيطلبون منَّا أشياء ليس في وُسعِنا تقديمُها؟ إنِّي خائفة يا عبد الله.

فقال عبد الله: هَوِّني عليك، لقد طلبتُ منكِ أثناء وجود الجنيد أن تعزفي حتى نستروحَ من ثقل صدمة الرسالة.

فقالت: وماذا نحن فاعلان؟

تفكَّر عبد الله، وقال: يجب أن نتشبَّث بحقِّنا في حيازة ما أوصى به لنا عبد الله البغدادي. أمَّا ضيافة اجتماع إخوان الصفاء، فهو أمر ميسور. وسأشتري ما يلزم لضيافتهم. كما سَنُعِدُّ لهم مجلسًا حول القبَّة ونفرشه لهم.

فقالت فاطمة: نِعْمَ الرأي، فإنِّي لا أريد أن يدخلوا الغرف، لأنَّها ستُطْمِعُهُم بما فيها من فِراشٍ وأثاث.

فقال عبد الله: لو أنَّ الأمر اقتصر على الأثاث لهان، لكنِّي أخشى أن يطلبَ الداعيةُ الذي خَلَفَ عبدَ الله البغدادي الانتقالَ للسكنى في بيتنا.

مسكَتْ فاطمةُ رأسَها، وصرخَتْ صرخةَ تعجُّب، وقالت: غير ممكن أن أُساكِنَ غريبًا في دارنا.

فقال عبد الله: أحاول أن أضعَ جميع الاحتمالات حتى لا نُفاجَأ، وحتى أجدَ الجوابَ عن كلِّ الطلبات الممكنة.

فقالت فاطمة: وربَّما كان القوم يبحثون عن شيء آخر تركه عبد الله البغدادي في البيت.

فقال عبد الله: وما هو هذا الشيء؟ هل من الممكن أن يكون قد أخفى كنزًا أو سرًّا من الأسرار في هذه الدار؟

فقالت فاطمة: إنَّ حرص القوم على الاجتماع هنا يَشِي بأنَّهم مهتمُّون بشيء ما

فقال عبد الله: لا تقلقي الآن، سأتدبَّر الأمر، وسوف نقاوم بكلِّ الطرق كلّ المحاولات التي يمكن أن تأتي من الجماعة لتضييع حقوقنا

ثم أضاف: قومي الآن لتستريحي، ولا تفكِّري كثيرًا في الأمر.

قامت فاطمة وهي مذعورة، وقام شقيقها في إثرها

* * *

لازمتُ دروسي على شيوخي، المحاسبي وأبي ثور، فكنت أقصد الأوَّل ليلاً، والثاني نهارًا. وفي بعض الأحيان، كنت أرافق الحارث المحاسبي خارج بغداد، حيث أسأله كما هي العادة، فيجيبني بما عنده. ومن أجَلِّ ما استفدتُ منه معرفة النفس الإنسانيَّة. وقد كان يحصر المعرفة في أربعة أشياء: الله، والنفس، والدنيا، والشيطان. وقد استشكلت عليه الخبر المنسوب إلى النبيّ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» أو «أَعْرَفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرَفُكُم بِرَبِّهِ».

وقد قلت له: إنَّ الحديث لم يجعل الطريق إلى معرفة الله إلَّا بمعرفة النفس. وأمَّا الدنيا والشيطان، فأمور ملهيات خارجيَّة، فالمعرفة بها من باب معرفة النفس. لكنَّه قال لي: أصلُ الطاعةِ الورَعُ، وأصلُ الوَرَعِ التَّقْوَى، وأصلُ التَّقْوَى مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ، وأصلُ مُحاسَبةِ النَّفْسِ الخوفُ والرَّجاء، وأصلُ الخوفِ والرجاءِ معرفةُ الوَعْدِ والوعيد.

وأصلُ ذلك الفِكْرَةُ والعِبْرة.

وصار يسلسل في المُولَّدات بين الأُصولِ والفُروع، حتى أَعْظَمْتُ عِلْمَه بدقائقِ النفْس البشريَّة. ثم قال: وأَصْدَقُ بَيْتٍ قالته العربُ قولُ حَسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

وما حمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ ظَهْرِهَا أَبَـرُّ وَأَوْفَـى ذِمَّـةً مِـنْ مـحـمَّـد

فكأنِّي استشكلتُ قوله، لا من حيث معناه، لكنْ في كونه لا يمنَعُ من إيرَادِ قَوْلِ النبي: «أصدقُ كَلِمَةٍ قالها شاعرٌ، كَلِمَةِ لَبِيد: «ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل»، فابتسم وقال: لكنَّه ﷺ لم يقل: «أصدقُ بَيْتٍ قالته العرب»، وإنَّما قال «أصدقُ كلمةٍ قالها شَاعِر»، والعبارة مِصْرَاعُ بيتٍ أو جزءُ بيتٍ وليس بيتًا كاملاً، فالأدبُ حاصلٌ مع رسول الله ﷺ، ولم نُقدِّمْ، يا بنيْ، بين يديه شيئًا.

وأمَّا أبو ثور، فكنت أذهبُ إلى بيته وأرافِقُه إلى المسجد، حيث يُلْقِي دروسَه في الفقه الشافعي. كان يحادثني، ويَطْلُبُ منِّي أن أُفْتِي في حَلْقَتِهِ، حتى أتدرَّبَ على الفُتْيَا منذ بَلَغْتُ العِشْرِينَ من عمري. وكان في حلقته نُجَبَاءُ كُثُرٌ، منهم داود الأصبهاني، الذي كان يميل إلى ظاهر النصوص.

خرجتُ من بيتي، وقصدتُ بيتَه، لأماشيه من داره إلى المسجد آخذًا بيده. فلمَّا دخلنا المسجدَ الجامع، رأينا جماعة من العلماء المحدِّثين جالسينَ في صَحْنِ المسجد يتذاكرون، ومعهم امرأةٌ، وكانوا يشيرون إلينا، فاتَّجه أبو ثور صوبَهُمْ وطلب منِّي أن أتبَعَه. فلمَّا وصلنا لِجِهَتِهِمْ، كان فيهم يحيى بنُ مَعين، وأبو خَيْثَمَة، وخلَف بن سالم، فسلَّم عليهم فردُّوا التحيَّة. ثم بادَرَتْهُ المرأةُ بالسؤال: هل تُغَسِّلُ المرأةُ

الموتى إذا كانت غَسَّالَةً، وهي حَائِض؟

نظر إليَّ أبو ثور، وكأنَّه كان يريدني أن أُجيب، لكنَّه عدل فجأة عن ذلك، حتى لا يظنّ المحدِّثون أنّه انتقصهم حين أوكلَ الجوابَ إليّ، وقال للمرأة: نعم، تُغَسِّلُ، لحديث القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال لها: «إنَّ حيضَتَكِ ليستْ في يَدِك»، ولقولها «كنتُ أُفرِّقُ رأس النبي ﷺ بالماء وأنا حائض». ثم أضاف: فإذا فُرِّق رأسُ الحيِّ، فالميِّتُ أولى به.

فقال المحدِّثون: نعم.

وأخذوا يتكلَّمون في الحديث وطُرُقِ روايته: رواه فلان، وأخبرناه فلان، ونَعْرِفه من طريق كذا، وخاضوا مُدّة في الروايات والطرُق.

فقالت المرأة: فأين كنتم إلى الآن؟

فخجلوا، ثم مشى أبو ثور إلى حلقته، وقال لي: أرأيتَ يا بنيْ، هؤلاء من كبار المحدِّثين، لكنَّهم أهملوا الفقه. فلو أنَّهم اهتمُّوا بمعرفة الأحكام الشرعيَّة إلى جانب اهتمامهم برواية الحديث، لنفعوا الناس، ولكنَّهم اقتصروا على رواية الحديث دون معرفة طرائق استخراج الأحكام الشرعيَّة، فلم يعرفوا كيف يُرشِدون تلك المرأة. فلا رواية بلا فقه يا ولدي.

فقلت: لعلَّهم كانوا يتورَّعون من الحديث في مسائل الفقه.

فقال أبو ثور: هم من أعلام المحدِّثين. وأيُّ وَرَع في كَتْمِ العلم إن كانوا يعرفون الحكمَ الشرعيّ، حين يُسألون في مسألة من المسائل التي يَحتاج إليها الناس، كما هو شأن هذه المرأة؟

ثم دخل حلقته التي كان ينتظره فيها العشرات من الطلبة. بدأ أبو

ثور بالحديث عن الفقه، وتحدَّث عن الاجتهاد والقياس، ثم طلب في نهاية الدرس من طلبته أن يَطرحوا أسئلتهم عليه، فقام طالب فسأله سؤالاً، فأجابه ثم طالب ثان، فأجابه. إلى أن قام عبد الله شقيق فاطمة، فسأله قائلاً: إذا مات الرجلُ وترك دَيْنًا، وأوصى بوصيَّة، فهل يُقَدَّمُ الديْن على الوَصيَّة أم الوصيَّة على الديْن؟

فقال أبو ثور: بل تقدَّمُ الوصيَّة على الديْن.

ثم توسَّع أبو ثور في الموضوع، بعد أن استشكلَ عليه أحدُ الحاضرين الغرباء بوجودِ الإجماع بين الفقهاء على وُجوبِ تقديم الديْن على الوصيَّة، فنازع أبو ثور في وجود مثل هذا الإجماع وردَّهُ، فأطرقَ الرجلُ الغريبُ، ثم قام من الحَلْقة مع آخرين، وانصرفوا على عَجَل.

ثم سأله طالبٌ آخرُ عن رجلين اجتهدا في القِبْلة، وأدَّى اجتهادُ كلِّ واحدٍ منهما إلى خلافِ اجتهاد الآخَر، فكيف يُصلِّيان، وكيف يأتَمُّ الواحدُ بالآخر، وهما على خلاف في تحديد جهة القِبلة؟

فقال: «يجوزُ أن يأتَمَّ كلٌّ منهما بصاحبه ويصلِّي كلُّ واحد منهما إلى جهةٍ، كمن صلَّى حول الكعبة، فإنَّه يجوز لمن يصلِّي إلى جهةٍ، الائْتِمَامُ بمن يُصلِّي إلى جهةٍ أخرى».

أذَّنَ المؤذِّنُ للصلاة، فصلَّينا لجهة القِبلة بلا خلاف، ثم رافقتُ أبا ثور إلى داره. كان التعبُ باديًا عليه، ولم أكن قد رأيته على هذه الحال. كان وَرِعًا لا يطلبُ زخارفَ الدنيا رغم إقبالها عليه، بل كان متقلِّلاً أخذ بيدي وتوكَّأ عليَّ، فشعرتُ بأنَّه لم يكن قادرًا على المشي، فاحتمَلْتُه، ومشينا ببطءٍ شديدٍ إلى داره. لكنَّها كانت مناسبةً لكي نتحدَّثَ قليلاً قال لي: يا بنيْ، تفقَّهْ واحْفَظِ الحديثَ، واجمَعْ

بينهما، تَكُنْ فردًا بين الأقران، ونَجْمًا بين العُلَماء. يا بنيْ، لقد كنتُ في بداية أمري أقولُ بالرأي، لكنّي لمّا الْتَقَيْتُ الشافعي وأخذتُ عنه، رجعتُ إلى الحديث.

قلت له: يا سيِّدي، لعلَّ المسائلَ التي أفتيتَ بها اليومَ تبدو مخالفةً للإجماع، فكيف تُوجِّه ذلك؟

فقال: لعلَّكَ تَقْصِدُ قضيَّةَ تقديم الديْن أو الوصيَّة. في واقع الأمر، الديْن حقٌّ للغَيْر، والوصيَّة حقٌّ للغَيْر أيضًا، فهما متشابهان من هذه الحَيْثِيَّة. وحيث ثَبَتَ هذا التماثُل بينهما، فكلُّ مجتهدٍ قد يُسَوِّغُ تقديمَ أحدِهما على الآخَر، دون أن يكونَ في الأَمْرِ أيُّ شذوذ. تَخيَّلْ معي، أنَّ رجلاً أوصى ببعض مالِه لِقَريبةٍ له لا تملك شيئًا، وليس لها من يَعُولُها ولا من يَقومُ بشؤونها وهَبْ أنَّ لهذا الرجل دُيونًا مُترتِّبة لأُناسٍ انقَطَعَتْ أخبارُهم، في بلاد بعيدة، فبماذا يُفتي القاضي في هذه النازلة؟ أَيَدْفَعُ حقَّ الوصيّة للمرأة من مَالِ الهالِك، أم يمنَعُ عنها وصيَّتها، ويتحرَّى في البحث عن الدائنين لكي يدفعَ لهم ديونَهم، مع تَعذُّرِ الوصول إليهم في تلك البلاد؟

فقلت: وِفْقَ هذه الصورة، فإنَّ تقديمَ الوصِيَّة أولى من تَسديد الديُون، لأنَّ ما يترتَّبُ عن عدم إيصال حقِّ الوصيَّةِ للمرأة من مَضارَّ يُحَتِّمُ هذا الاختيار الفقهي.

فقال: هذا هو فِقْهُ الأولويّات يا بنيْ. فكلّها حُقوق، والفقيه أو القاضي يحاول الموازنة في هذه الأمور حتى يُؤَدِّي تلك الحقوق لأصحابها فلماذا يترك الهالِكُ الوصيَّةَ مع وجود ديونٍ مترتِّبَةٍ عليه؟ لا شكّ أنَّه اجتهدَ في أنَّ المرأةَ التي أوصى لها أَوْلَى، لِعِلْمِهِ بشُبهة تَعذُّرِ

تسديدِ الدينِ لأصحابه لأسبابٍ لا نعلمُها نحن، أو لكونه يَطْعَنُ في صِحَّة الديون المترتِّبة عليه، أو غير ذلك من الاحتمالات.

كان كلامُ أبي ثور مُقنِعًا رغم مخالَفَتِهِ لإجماع الفقهاء، لكنِّي اكتفيتُ منه بهذا الجواب، وسَكَتُّ عن حِكايَةِ الإجماع برأيٍ مُخَالِفٍ لِرَأْيِهِ في القضيَّة.

تنهَّدَ أبو ثَوْرٍ قليلاً وأمالَ رأسَه إليّ، وقال: يا بنيْ، لقد أصبحتَ فقيهًا يُفتي في مسائل الفقه، فعليك بِمُواصَلَةِ طلب العلم حتى تُصبحَ نجمًا بين العلماء، يُرْجَعُ إليه في بغداد.

كان أبو ثور يتضاءَلُ في يدي ويتثاقَل، فماشيتُهُ حتى وصلنا إلى داره. وحين وصلنا، سمعنا قارئًا يقرأ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ تواجَدَ أبو ثور، وقال لي: لعلَّهُ يُعيدُ قراءَتَها، فَأَوْمَأْتُ للقارئ، فأعادَها، ثم أعادَها، ثم أَعادَها، ونحن نستمع إليه. أخرجتُ ما في جيبي، ودسستُه في يَدِ القارئ. قال أبو ثور: هذا نَعْيِي قد جاءَ يا جُنَيْد، وكم كنتُ أقولُ لهذه النفس ارجِعِي، فليس تَرْجِع.

ثم تواجدَ حتى خِفْتُ أن تَذهَب روحُه. وفي اليوم الموالي، لم يَأْتِ للتدريس في المسجد، وبعد أيَّام قليلة تُوفِّي، رحمة الله عليه، فحضر جنازتَه خلقٌ كثير. حَزِنْتُ عليه كثيرًا، وحَزِنَ عليه أهلُ بغداد. وكان أحمد بن حنبل يُحِيلُ عليه حينما يُسْأَلُ في المسائل الفقهيَّة، ويُوجِّهُ السائلينَ إليه، ويقول عنه «أَعْرِفُه بالسُّنَّة منذ خمسين سَنَة، وهو عندي في مِسْلاخِ سُفيان الثَّوْري». ولمَّا ماتَ مَاتَ الورعُ، كما ماتت السُّنن لمّا مات الشافعي، وهكذا الرجال تَنْهَدُّ بموتهم أركانُ العلم.

* * *

بعد ذلك بأيَّام، ذهبتُ إلى السوق أَطْلُبُ عبدَ الله شقيقَ فاطمة في سوق الزجَاج. دخلتُ فسلَّمتُ عليه، وسألته عن شقيقته، فأخبرني بأنَّها بخير، فذكرتُ له أنَّها لم تَزُرْنِي بَعْدُ، فَأَخْبَرَني أنَّها أخبرَتْهُ بأنَّها ستزورني قريبًا ثم جرّنا الحديث إلى ذكر سيرة أبي ثور، فسألتُه عن سِرِّ سُؤاله في الحَلْقة، وهل يعرفُ نازلةً مماثلةً حصلَت لمن نعرف، فحاول مُداراتي ولم يُجِبْنِي، وإذا بشقيقته فاطمة تدخُلُ علينا في دكّانه؛ فسلّمتُ عليها، فردَّتْ عليَّ السلام، وكانت تَضَعُ رائحةَ الغالية التي كانت سَبَبَ اهتِبَالي بها أوَّلَ مرَّة، وبحثي عنها في أسواق بغداد. جلَسَتْ، فأخبرتُها بسؤال شقيقِها قبلَ أيَّامٍ في حلْقَة أبي ثور، فقالت بدون مُوارَبَة: هذه نازلةٌ حصلَتْ لنا فقد أوصى لنا كَفِيلُنا بوصِيَّةٍ من ماله، هي الدارُ التي زُرتَنا فيها مع البستان وما فيها من أثاث وكتب، لكنَّ قومًا غرباء أَتَوْا وادَّعَوْا أنَّ على ذِمَّة الهالك دُيونًا طلبوا تسديدَها، فاتَّفقنا على الاحتكام إلى الفقهاء، فأشار علينا الناسُ بسؤال أبي ثور.

فقال عبدُ الله: لقد سَألتُ أبا ثور عن المسألة، فأفتى بأنَّ الوصيَّة مقدَّمَة على الديْن. وقد كان أصحابُ الديْن وَقْتَئِذٍ حاضرينَ في الحلقة بعدما اتَّفَقْنَا، كما قالت فاطمة، على أن نسألَ أبا ثور ونرضى بفتواه مهما كانت. فلمَّا سمعوا الجواب، أخذوا نعالهم وركبوا دوابَّهمُ، وخرجُوا إلى بلادهم.

صاحتْ فاطمةُ مُبتهجَةً: الحمدُ لله.

فقلت: لقد رأيتُ بعضَ الغرباء ينازعُ شيخَنا أبا ثور، رحمةُ الله عليه، فيما ذهب إليه، وادَّعَى الإجماعَ في وجوبِ تقديم الديْن على الوصيَّة، لكنَّ أبا ثورٍ ردَّ حكايةَ الإجماع في المسألة حتى استَوْفَى

الكلامَ فيها، فقام الغريبُ السائلُ وجماعتُه، وانصرَفُوا من حَلْقَةِ الدرس.

فقالت فاطمة: تلك قصَّة منتهية، وإنِّي أُريدُ أن أشتري منكَ بعض الأقمِشَة، فهل نذهبُ إلى دكَّانك؟

ابتهجتُ بدعوتها، حتى أتكلَّمَ معها دون حضور شقيقها، وقلت: بكلِّ فرح، وسأُقدِّم لكِ أفضلَ ما لديّ.

ثم ودَّعتُ صديقي عبدَ الله، واتّجهنا صَوْبَ سُوقِ الحَرَّارين حتى وصلنا إلى دكّاني ففتحتُه، وطلبتُ من فاطمة أن تجلس، فجلَسَتْ. ثم ناديت على غلام السوق لكي يُحْضِر شرابًا باردًا، وأخرجتُ بعض الفواكه الجافَّة التي كنتُ أحتفِظُ بها في صندوقٍ بالدكَّان، فوضعتُها على الطاولة. وبعد قليل، أتى الغلام بالشراب. دعوتُ فاطمة لتأخذَ بُلْغَتها، فأصابَتْ ممَّا قدَّمْتُ لها، ثم جلسنا نتحدَّث.

كانت فاطمة تَلبسُ الثوب الذي اشترَتْهُ منِّي أوّلَ مرَّة، فراقني منها هذا الاختيار، وخَمَّنتُ أنَّها قصدَتْ مُلاطفتي. نظرتُ إلى العود الذي كان في دكّاني، ثم نقلتُ بصري إلى وجهها، وكأنِّي استَحْضَرْتُ نِقاشَنا في الدكَّان أوَّلَ مرَّةٍ، قبلَ سنواتٍ قليلةٍ خَلَتْ، فأدركَتْ بِحَدْسِها الأُنْثَوي الفائق خواطري، فابتسمَتْ، وقالت: لعلّ هذا العود قد حنَّ إلى مثل هذا اللقاء؟

فقلت: صدقْتِ، فقد بقي المسكينُ رابِضًا في مكانه هذا منذُ لقائِنا أوَّلَ مرَّة، ولم يُحرِّكْ ساكنًا، فكأنَّه صَامَ عن العَزْف منذ أن غِبتِ عَنَّا ابتسمَتْ لي لمّا رأَتْ أنِّي أكَّدْتُ على كلامي، حين رَفَعْتُ صوتي قليلاً عند استعمال ضمير الجمع «عَنّا»، بدل ضمير الغيبة «عنه»، أو بإسقاط الضمير.

ثم قالت: ولِمَ لَمْ تحاول تقَصّي أخبارنا منذ ذلك الحين؟

فقلت، وقد فتح لي كلامُها فرصةً لأعبِّرَ لها عن مشاعري: بلى يا فاطمة، قد بحثتُ عنك في كلِّ مكان، بل لقد.

توقَّفْتُ عن الكلام، لأنّي كدتُ أُذِيعُ سِرَّ الغالية، التي كنتُ طلبتُ من محمَّد ابن الورد أن يُعِدَّهَا لي بعد اختفاء فاطمة.

فقالت: ما الذي دعاك إلى التوقُّفِ عن مواصلة حديثك؟ لربَّما كنتَ ستخبرني بأمر ما

تَلَعْثَمْتُ في كلامي، وقلتُ بتردّد فاضِح: أبدًا

ضَحِكَتْ ضحكة استنكاريَّة، ثم ألقَتْ نظرها على العود، فكأنَّها لمحَتْ شيئًا ما، فقامت لترى ما هو. أخذتِ العود وعاينَتْ ما في جوفه، فرأتْ قطعةَ قُماشٍ صغيرة. تذكَّرتُ وقتَها أنّي كنتُ أَخفَيْتُ في جوف الآلة قطعةَ قماشِ فاطمةَ التي تركَتْها عند صاحبي ابن الورد العطّار. أردتُ أن آخُذَ العود من يدها، لكنَّها كانت قد أخرجَتِ القطعةَ من جوف العود، ولوَّحَتْ بها في وجهي، وقالت: من أين حصلْتَ على هذه القطعة؟

قلت بدون ثقة: لعلّ غلامَ السخرة تركها في الدكّان.

فقالت فاطمة بمكر: غلامُ السخرة؟ أم أنَّ فتى الصبابة يخفي عنّي أمرًا آخر؟

فقلت مُغالطًا: لربَّما تركها أحدُ أصدقائي أو زبائني، أو لربَّما وضعها عازفُ عودٍ من جُلسائي.

ضَحِكَتْ مرَّة أخرى، وقالت: دَعْكَ من هذا، فأنت لا تُحْسِنُ الكذب، واصْدُقْنِي القَول.

حَنْحَنْتُ بصوتي وغيَّرتُ في جلستي، وحاولتُ أن أُرَاوِغَ، لكنِّي قلت لها: لقد وجدتها عند صديق لي عَطّار، فاستحْسنْتُ العطرَ المنبعثَ منها، فأخذتُها منه.

فقالت: ولماذا استحسنتَ هذا العطرَ دون غيره؟

فقلت: هكذا، بلا علَّة ولا سبب.

فقالت فاطمة: هذا العطرُ نادرٌ يا جنيد، وهو وَصْفةٌ خاصَّة لا مَثيلَ لها، لكنِّي أكادُ أقولُ بأنَّ دكّانَكَ يفوحُ منه شَذَا هذا العطر بقوَّة.

فقلت: إنَّه منبعثٌ من القُماشة.

ضحكَتْ مرَّة أخرى، وقالت: هل رأيتَ عطرًا يزكُمُ الأنوفَ، يبقى أثرُه سنواتٍ على قطعةِ قُماش؟

فقلت: لعلَّه يمكن.

نظرَتْ إليَّ، ورفعَتْ حاجبَها كمن يَجْرَحُ في مثل هذا الادِّعاء، وقالت: ولماذا لا تُقِرُّ بأنَّك طلبتَ من صاحبِك أن يصنعَ لك هذا العطر نفسه الذي استحْسَنْتَه، وأصبحت تتطيَّبُ به؟

نظرتُ إليها، ولم أَجِدْ بُدًّا من الاعتراف: فقلت، صحيح. لقد أعجبَني هذا العطر، فطلبتُ من صاحبي العطّار أن يصنعَ لي مثله، فجهَّزه لي.

فقالت: ألا يزعِجُك أن يكونَ هذا العطر خاصًّا بصاحبته؟

ثم أضافت، قبل أن تتركَ لي الفرصةَ للجواب: ألا يريبُك أن يكونَ هذا العطرُ خاصًّا بي؟ كفاكَ مُراوَغَة يا جنيد، فأنت تعلمُ أنَّ صاحبَك قد أخبركَ بلا شكَّ أنَّ هذا العطرَ فريدٌ من نوعه، وأنَّ صاحبَته قد طلبَتْهُ منه، فأمهلَها ما يزيدُ على الشهرين ثم صنعه، وتأتي أنتَ

اليومَ، وتقولُ ببلاهةٍ مُصطَنعَة إنَّك وجدتَ هذا العطر عند عطّار، فاقتَنَيْتَه بكلِّ هذه السهولة. ليس لمثلي تُحْكَى مثلُ هذه التخاريف والأسمار، فلستُ بنتَ يَوْمٍ وَلَيْلَة.

سكتُّ قليلاً، ثم قرَّرتُ بعد كشفها لمراوغاتي أن أعترفَ لها، فقلت: صدقتِ يا فاطمة، لن أخفي عنك شيئًا، وسأصارحك بما حصل بالتمام.

ثم أضفت: بعد زيارتك الأولى لدكَّاني ومغادرتِك المباغتة دون أن تتركي لي فرصة التعرُّف عليك، بحثت عنك في كلِّ مكان، وجُبْتُ جميع الأسواق، وصرتُ أتعقَّب رائحةَ هذا العطر، فلم أعثرْ لك على أثر، فساءَ ظنِّي وخابَتْ آمالي. وأخيرًا، لمعَتْ في ذهني فكرة أن أبحثَ عن العطَّار الذي صنع لك هذا العطر، فقصدتُ سوقَ العطَّارين، واخترتُ صديقًا لي من جملة جُلسائي مع شقيقِه، فعرضتُ عليه الأمر، ووصفتُ له ما استطعتُ أن ألتقطَه من هذا العطر المتفَلِّت، فعرض عليّ ما في دكَّانه من عطور، فلم نهتدِ إلى تحديد مُكوِّنات العطر المطلوب. وبينما أنا غارق في هذا اليأس، إذ حصلَتْ لي رغبة عارمة في العُطاس جرَّاءَ ما استنشَقْتُ من عطور، وحيث إنِّي لم أُرِدْ أن أُرسلَ نُثارةَ خياشيمي على سِلعة صاحبي الثمينة، فإنِّي التقطتُ بسرعة قطعةَ قماش كانت ملقاةً في ركن من الدكّان، فَعَطِسْتُ عليها حتى تتلقَّفَ نُثارتي. وهنا كانت المفاجأة، إذ كانت تَعْبَقُ بالعطر نفسه الذي كنتِ تضعينه، فأخبرتُ صاحبي بالأمر، وطلبتُ منه أن يصنعَ لي عطرًا مماثلاً، فتمنَّعَ في بداية الأمر وتعلَّلَ بتَعِلَّاتٍ كثيرة، لكنَّ الصداقة التي كانت بيننا أرغمَتْهُ على أن يُمْهِلَني إلى الغد حتى يصنعَ لي العطر نفسه. فلمّا كان يوم الموالي، ذهبتُ إليه، ولم أَكُنْ قد

مكتبة الرمحي أحمد

طَعِمْتُ نومًا تلك الليلة من شِدَّةِ شوقي إلى ذلك العطر النافح. فلمّا الْتَقَيْتُهُ، أَخْرَجَ لي قنّينةَ العطر المطلوب، لكنّي كنتُ أُدرِكُ أنَّه لم يَصنَعْهُ بين عشيَّة وضحاها، وإنَّما كان قد احتفظَ ببقيَّة من العطر الذي كان قد قام بتحضيره لكِ، إذ يستحيلُ تحضيرُ العطور في يوم وليلة، بل لا بُدَّ من وقت طويل كما ذكرتِ من أنَّه استَمْهَلَكِ مدَّة تزيد على شهرين.

سَكَتُّ قليلاً، وكانت فاطمةُ تنظر إليَّ بإعجاب ورغبة، فأدركتُ أنَّ الصدقَ أقربُ طريقٍ إلى قلب الأنثى.

أخذتْ فاطمةُ يدي وجَسَّتْها بنعومة، وقالت: كان بإمكانك أن تُخبرني عن كلِّ هذا بدون التِوَاء. لكنْ أخبرني، ماذا صنعتَ بعد ذلك؟

كنتُ في غَمْرة السعادة بوضع يدي في يد فاطمة، فقلت لها: لقد بحثْتُ عنكِ في كلِّ مكان، وسألتُ عنك كلَّ من أعرف، بل لقد ترصَّدت بكلّ الفواطم في بغداد علَّ وعسى أن أجد إليك طريقًا، لكنَّ محاولاتي كلّها باءت بالفشل، وبقيتُ معذّبًا من هذا اللقاء اليتيم، فصرفتُ نفسي للعلم ومصاحبة الأخيار لعلّي أجد بعضَ سُلْوَان.

أخذَتْ فاطمةُ يدي الأخرى، فطار قلبي، وتقلَّعَتْ روحي من أحشائي من فرط السعادة الغامرة التي اكتسحَتني، ثم قالت: فعلتَ كلّ هذا من أجلي وأنا لا أعلم. إنّ هذا أمر محيّر.

فقلت: ولماذا هو أمر محيّر؟

فقالت: قد يحبُّ بعضُ الناس من نظرة، لكنَّك أحببتَ من أوَّل نَفَس. لا شكَّ أنَّك من أصحاب الأنفاس.

فقلت: بل جمعتُ ذوقَ النظر لجمالك البهيّ، إلى ذوق الأنفاس باشتمام عطرك الشذِيّ. فمن يرى مثل هذا الجمال، ويَشمُّ هذا العطر

لا شكّ سيذوبُ حرقة، ويكتوي لوعة، ويَسْقَمُ نحولاً، ويَسْعَدُ ضُمورًا.

كان التمَاسُّ قد حصل بيننا، فقلتُ لفاطمة مرَّة أخرى: إنّني أحتاج إلى الحبِّ كما أحتاجُ إلى القوت.

فقالت: هذه صورة غير مرضيَّة حتى تُصَوِّرَ الحبَّ بهذه الصورة الحسِّيَّة.

فقلت: بلى، إنَّها رضيَّة مرضيَّة، فالإنسان لا يعيش إذا حُرِمَ القوت، فكذلك يموت إذا حُرِمَ الحبَّ، وهذا ما أَشعُر به. ولولا العناية، لكنت هلكتُ من فَقْدِك.

فقالت: هذه حالة عجيبة واختصار نادر لحاجات الإنسان.

فقلت: لولا الحاجة لما وُجِدَ الحِجَا

فقالت: بل لولا الحاجة لاستغنى الحِجَا بادِّعاء الغِنى.

كنت أنتظرُ أن تسمحَ لي فاطمةُ باحتضانها، فليس بعد الذي حصل إلَّا أن أشتمَّ عطرَها من ذاتِ عِطْرها إنَّ الخطوةَ الضروريَّة التي كانت تنتظرُنا هي أن نتَّحِد.

نظرَتْ إليّ كَمَنْ يقول لي صدقتَ. غالبتُ إحجامي وطرَحْتُ تمنُّعي، وأخذتُها بمجامعي، فانساقَتْ لهذه الحركة القهريَّة دون مقاومة. أحسستُ في حضن فاطمةَ برجوعي إلى حضنِ أمِّي التي فقدتُها. ثم استحضرتُ أنَّها حبيبتي، فكيف الفيصل بين هذا الحُبّ وذاك؟ إنَّها مشاعِر ملتبسة عند الرجل حين يُحبّ، فهو لا ينسى حنانَ أُمِّه، ولا يمكنه أن ينساه، لكنَّه يتذكَّرُ الفِطام الذي فَطِمَتْهُ أمُّه، فيقوم بنقلة في مشاعره لحبيبته. لا انتقالَ في الحبّ إلَّا عبر الفطام. ففي المنع عينُ العطاء. لقد زاد من عمق هذا الإحساس أنَّ أُصُولَ والدتي

من فارس، كما هو شأن فاطمة. وهنا، تذكَّرتُ أنَّه عليَّ أن أعرفَ أشياء لا أعرفها عنها، فقطعتُ حبل التوَحُّد والتوَدُّد، وسألتها عن قصّة السؤال الذي سأله شقيقُها عبد الله في حلقة أبي ثور حول الديْنِ والوصيَّة.

أخرَجَتْ فاطمة من بين ثيابها لُفَافَةً من الأوراق، ثم فتحَتْها، ونظرَتْ إليَّ نظرةً عميقة، ثم شرعَتْ في قراءة بعض ما في تلك الأوراق: «اعلم أيُّها الأخُ البارُّ الرحيم أنَّنا نحن جماعة إخوان الصفاء أصفياء وأصدقاء كرماء، كنَّا في كهف أبينا آدمَ مُدّة من الزمان تتقلَّب بنا تصاريف الزمان ونوائب الحَدَثَان، حتى جاء وقت الميعاد بعد تفرُّقٍ في البلاد في مملكة الناموس الأكبر، وشاهدنا مدينتنا الروحانيَّة المرتفعة في الهواء».

قلت لها: مهلاً، ماذا يعني هذا الكلام، وما هي هذه المدينة؟

نظرَتْ إليَّ، وقالت: هذا ما أريد أن أعرفه أنا أيضًا، لكنَّ هذا الكلام يروقني، وأجد فيه راحتي.

فقلت لفاطمة: لا بدّ أنَّ في هذا الكلام إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾

فقالت: نعم، لعلَّه كذلك.

ثم سألتها: ومن أين حصلتِ على هذه الأوراق؟

قالت: هي من تَرِكَةِ صاحبِ الدار التي أسكنُ فيها مع أخي، وهو الذي كفَلَنا بعد موت والدَينا.

فقلت: ولماذا أوصى الرجل بداره لكما؟

فقالت: كان أبي ينحدر من أصل كسرى أنو شروان، لكنَّه نشأ يتيمًا، فكفله أحد كبار دعاة الأئمَّة العلويِّين، وسمَّاه «حسين»، وحدب عليه وأحسن تعليمه، وصار مثلَ ابنه. ثم إنَّه أرسله ضمن المهمَّة التي بعثها المأمون إلى أمبراطور الروم لجلب كتب القدماء، فقام بمهمَّته أحسن قيام، لأنَّه كان يحسن الفارسيَّة والروميَّة إلى جانب العربيَّة. وخلال تلك الرحلة، جلب بعض الكتب التي تحتوي على حكمة القدماء، وسلَّمها لذلك الداعية. وقد علمتُ فيما بعد أنَّ الإمام، بمساعدة بعض أتباعه الكبار، قام بتحرير عدَّة رسائل تستوعب أمّهات العلوم، وسمُّوها «رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفاء». وهذه الورقات التي قرأتُ عليك هي جزءٌ منها

فقلت لها: إذن، أبوك حسين هو من كان وراء جَلْبِ كتب القدماء، وسلَّمها إلى أحد دعاة أئمَّة العلويّين. ثم بعد ذلك، اعتمد هذا الإمام على تلك الكتب في تحرير الرسائل التي معك.

فقالت: بالضبط هذا ما حصل. ثم إنَّ والدي توفِّي مع والدتي، فبقينا أيتامًا، لكنَّ داعية الإمام واسمه عبد الله، كان يرعانا ويحدب علينا، وقام بتربيتنا وتعليمنا كما فعل مع والدنا من قبل، حيث زوَّجه بأُمِّنا. ثم ما لبث أن توفِّي الداعية هو الآخر، وبقينا نسكن داره. ثم بعد مدَّة، جاء بعض الأشخاص، وطلبوا منّا أن نؤدِّي الديون التي على الداعية عبد الله، فلم نستجب لهم، لأنَّنا لم نكن نعلم عن أمر هذه الديون شيئًا، وليس معنا مالٌ كافٍ لنسدِّدَ به تلك الديون المزعومة سوى مَداخيل تجارة شقيقي، وهي لا تكفي. وقد أخبرنا أولئك الأشخاص أنَّ تلك الديُون هي ما كان يترتَّب على عبد الله من حقوق كان يدفعها للإمام. وحيث إنَّه لم يدفع لعدَّة سنوات، فقد تراكمَتْ عليه

مستحقَّاتٌ يجب استخلاصُها. ثم اتَّفَقْنَا على طَرْحِ الأمر على فقيه بغداد أبي ثور، والقبول بفتواه مهما كانت. فأفتى بما سمعتَ في الحلقة، فانصرف القوم إلى بلادهم. هذه هي قصَّة الوصيَّة والديون.

فقلت: وهل تعرفين أحدًا من هذه الجماعة؟

فقالت: كلّ ما أعرف هو أنَّهم يجتمعون ثلاث مرَّات في الشهر لدراسة تلك الرسائل.

فقلت: وهل حضرتِ تلك اللقاءات؟

فقالت: لم أحضرها، فلم يبلغني أنَّ النساء تحضرها، لكنْ أخبرني عنها شقيقي عبد الله. ولعلَّ الجماعة تعقد قريبًا، اجتماعًا في دارنا.

فقلت لها: وكيف عرفتِ هذا؟

فقالت: أتذكر الحمَام الزاجِل الذي حَطَّ على طرف القُبَّة في البستان حينما كنَّا مجتمعين؟

قلت: نعم، أذكر ذلك.

فقالت: لقد كانت رسالة من الداعي، يخبرنا بموعد ومكان الاجتماع في دارنا، ويطلب منّا أن نتهيّأ للأمر.

فقلت لها: هل يُمكنكِ أن تُعِيرينَنِي تلك الرسائل حتى أطَّلِع عليها.

فقالت: إنَّ تلك الرسائل من جملة الموروثات التي تركها لنا الداعية، ولا أدري هل يحقُّ لي أن أُعيرَها لك، إذ ربَّما هي خاصَّة بأعضاء الجماعة، وأنتَ غريب عنهم.

فقلت لها: لعلّ حبِّي لك يشفعُ لي ويجعلُك تسلِّمِينَها لي، حتى أقرأَ فيها وأَطَّلِعَ على محتوياتها، وأُخْبِرَكِ برأيي حولها.

فقالت: هكذا، بكلّ سهولة قرَّرْتَ أنَّ حُبَّكَ سَيَشْفَعُ لك.

ثم أضافَتْ، حتى تَسْتَجْلِي حقيقةَ مشاعري نحوَها: ومن أدراني أنَّكَ صَادِقٌ في حُبِّك؟

فقلت: سلي قلبَك يُخْبِرْكِ عن صدقي.

فقالت: لم يَقُلْ لي قلبي شيئًا ممَّا تدَّعِي يا جنيد.

فقلت: فليس لي غير قلبي دليلاً إليك، فافعلي ما بدا لك، وليس بالعقل سأبرهنُ لك عن حبِّي، فلا خير في حُبٍّ يُدَبَّرُ بالعقل.

فقالت: صدقتَ.

وأضافت: اطْمَئِن، سأسلِّمُك الرسائل.

فقلت: وأنا سأُهديك ما تحبِّينَ من قماش في دكَّاني.

فقالت: حسنًا، لقد قبلتُ برشوتك. ثم ضحكت.

أعطتني الأوراق التي معها، ثم وعدتني أن تأتيني بالرسائل قريبًا أخذتُ الأوراق وبدأتُ أنظرُ فيها، وانشغلتُ عن فاطمة بمطالعتها أمَّا هي، فقد كانت مهتمَّة بمعاينة بضاعة الدكَّان، وانصرفَتْ تَقِيسُ ثوبًا بعد الآخر، حتى استقرَّ رأيُها أخيرًا على ثوبين أهديتُهُمَا لها.

ثم قلت لها ممازحًا هذا مُقَدَّمُ صداقي يا فاطمة.

فقالت: أتظنُّ أنَّ سليلة كسرى ستقبل بهذا الصداق الهزيل؟

فقلت: إنَّه ليس هزيلاً، لأنَّكِ فُزْتِ بقلبي، وأنا لست هزيلاً وقلبي ليس بالهزيل.

سكتَتْ قليلاً، ثم ابتسمَتْ علامةً على سعادتها.

* * *

وفي هذه السنة من عام مائتين وواحد وأربعين، توفِّي الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث عن سنٍّ عالية، فخرجت في جنازته كلّ بغداد، فأصابني الحزن كما أصاب كثيرًا من الناس، رحمة الله عليه. وكما مات الورع مع موت سفيان الثوري، وماتت السنَن مع الشافعي، فقد ظهرت البِدَع بعد موت أحمد بن حنبل.

حصلتُ بعد ذلك من فاطمة على الرسائل، وطالعتُها حتى استوفيتُها. فوجدتُها مُوفِيَةً بأغراضها غير مُوفِيَةٍ بأغراضي. وزَّعتها إلى أربعة أجزاء، وسلَّمت كلّ جزء إلى مجموعة من النسَّاخ الذين أَعْرِفُهم في سوق الورَّاقين، وطلبتُ منهم أن يُسرِعُوا في نسخها خلال أسبوع، فقاموا بذلك، ونقدتُهُمْ ما يستحِقُّون. احتفظت بهذه النسخة المنسوخة في بيتي، وقرَّرتُ أن أُعيدَ النسخة الأصليَّة لصاحبتها كنت أرغبُ في معرفة المزيد عن هذه الجماعة، فقصدتُ شقيقَ فاطمة، وتحادثتُ معه بشأن التمكين لي في حضور إحدى جلسات الجماعة الشهريَّة. لم يُطاوعني عبدُ الله في البداية وأنكرَ خبر الاجتماع، لكنْ بعدما أطلعتُه على ما قالته لي شقيقته حول رسالة الداعي، لاَنَ موقِفُه واتَّفَقَ معي على أن يَأخُذَنِي إلى تلك المجالس دونَ المشاركة فيها، بحيث أجلسُ في مكان أُراقبُ ما يجري، دون أن يعلمَ بي أحدٌ من الحاضرين. كان هذا الحَلُّ أوفقَ لي من غيره، لأنِّي كنتُ راغبًا في الوقوف على أسرار تلك الجماعة وما يتداولونه في مجالسهم، دون كشفِ هويّتي لهم. سُرِرْتُ بالأمر، لأنّي أعرفُ المكان، وأَشعُرُ فيه بالأمان أكثرَ من أيّ مكان آخر، ثم سأكون قريبًا من فاطمة، ولعلِّي أراها هناك، قبل اللقاء

أو بعده. اتَّفَقْتُ مع عبد الله على أن أذهبَ معه إلى داره قبل اللقاء بوقتٍ كافٍ، حتى يجدَ لي موضعًا مناسبًا أَلْبُدُ فيه، وأتتبّعُ ما يجري في لقاء الجماعة.

ولمَّا حان يوم اللقاء، مررتُ على عبد الله في دكَّانه، وذهبنا سويًّا إلى جهة الكاظميَّة. وبدل أن نخترقَ بغدادَ مَشْيًا، قَرَّرنا أن نركبَ مركبًا طيَّارًا من مراكبِ دجلةَ السريعة، حتى نتفادى المفاجآت واللقاء بمعارف عبد الله في الطريق. وصلنا إلى الدار، ودخلتُ في إثر عبد الله، فأخبرني بأنَّ اللقاء سيُعقَد في البُستان في الساحة التي أمام القُبَّة، والتي فُرِشَتْ بالحُصر السامَانِيَّة والعَبَادانِيَّة، ثم أُلْقِيَتْ على الباحة القريبة من القُبَّة بعض البُسُط الرفيعة حتى يجلس عليها أعضاء الجماعة، بينما سيجلس الداعية وكبارُ مُعاونيه على مَقاعد تُسْتُرِيّة بعضها مُربّع، وبعضُها الآخر مُدوّر في القُبّة. كانت رائحةُ البخُور المسمّى بالمُثَلَّثَة البَرْمَكِيَّة تعبَقُ في المكان، والتي تجمَع ثلاثةَ أصنافٍ من الطيب. تبعتُ عبدَ الله الذي أخذ ممرًّا خاصًّا حتى وصل إلى الجدار الذي تستنِدُ إليه القُبّة. مشينا في ذلك الممرِّ حتى نهايته، ثم لَفَفْنَا داخلَ الدار عِدَّةَ لفّات، وأوصلني إلى غرفة صغيرة لها مَشربيَّة. أَطلَّ عبدُ الله برأسه من المشربيَّة، وقال لي: ٱنْظُرْ، يمكنُكَ أن تُتابعَ ما يجري من خلف هذه المشربيَّة، دون أن يشعر بوجودك أحد.

اقتربتُ منه ونظرتُ من وراء المشربيَّة، فرأيتُ القبَّة قريبة. كان في الغرفة ماءٌ وفواكهُ على مِنْضَدَةٍ صغيرة. كنت أحمِلُ معي الرسائل التي كنتُ سأُعيدها إلى فاطمة، ولأنِّي كنتُ أُريد أن أتابعَ معهم في حال ما إذا قَرَأُوا بعضًا منها

استأذنَ منِّي عبد الله حتى يجهِّزَ نفسَه لاستقبال ضيوفه، وطلب

منّي أن أمكُثَ في الغرفة الصغيرة دون حِراك، حتى لا أُثير الشكوك.

مَكثتُ في الغرفة الصغيرة، لا أعرفُ ماذا أصنَعُ، وكيف أُسَلّي نفسي حتى يأتي القوم، ثم بدا لي أن أبدأَ بركعتين شكرًا لله، ودفعًا لأيِّ مكروه. تحرَّيْتُ القِبْلَةَ وَصَلَّيْت. ثم أخذتُ أَذْرَعُ الغرفة الصغيرة أَنتظِرُ الذي يأتي. أصابني الملل، وفجأة، طرق غرفتي طارق، فَلَبَدْتُ مُحاذِرًا الردَّ، فطرقَ مرَّة ثانية ثم ثالثة، لكنّي لم أُحرِّك ساكنًا كان قلبي ينبُضُ بسرعة مخافةَ أن يَكتَشِفَني أحدٌ من الجماعة. ولمَّا لم أفتَحْ بابَ الغرفة اقتَحمَها الطارق. بقيتُ لابِدًا في ركن من الغرفة، فإذا بي أرى شخصَ امرأة. حقَّقتُ النظرَ، فتيقَّنتُ أنَّها فاطمة. ذُعِرَتْ لمَّا رأتني في الغرفة، لكنَّها تمالكَتْ نفسَها بسرعة، وعاتبتني قائلة: لقد ذَعرتني يا جنيد. أما كنتَ تجيبُ لمّا طرقتُ الباب؟

فقلت: سامحيني، خشيتُ أن يكونَ الطارق واحدًا من الجماعة.

فقالت: سامحتُكَ، لقد أخبرني عبد الله بوجودك في الغرفة، فأتيتُ للاطمئنان عليك قبل أن يبدأَ أفرادُ الجماعة في الوصول.

فقلت: لو كنتُ أعلَمُ أنَّكِ خلفَ الباب، لفرشتُ لك خدِّي لتمشي عليه.

ابتسمَتْ لي وسَرَّتْها مغازلتي، وقالت لي: هل يَنقصكَ شيء؟

قلت لها: لا شيء سوى النظر إليك والجلوسِ معك، ولقد أحضرتُ الرسائل بعدما أنهيتُ المطالعة فيها

فقالت: وما قولُك فيها؟

فقلت: لقد كانت الرسائل مُوَفِّيَة بأغراض من وضعَها، لكنَّها لم تُوَفِّ بأغراضي.

فقالت: وكيف ذلك؟

فقلت: هذه الرسائل جَمَعَتْ كثيرًا من المعارف والعلوم، إلّا أنّها لا تستوعِبُ تلك العلوم والمعارف، وإنّما تُعطي المبادئ الأوّليّة والمفاتيح الضروريّة لفهمها وعلى طالب العلم أن يتابع رحلة البحث بنفسه، حتى يستكمل تكوينه.

فقالت: ليس يُعابُ هذا، بل هو المطلوب. لكنْ أخبرني، هل رابَكَ شيء أو استوقفَك أمر؟

فقلت: لعلّي أنتظر اللقاء حتى أفهمَ سياق الرسائل وسِبَاقَها ولِحَاقَها، لكنّي منذ البداية أستشعرُ أنَّ هناك طبقات من المعاني، وأنَّ الرسائل تتوجّه إلى فئات مختلفة من الناس. وقد أفاجِئُكَ إذا قلتُ لك إنَّ اسم الجماعة في حدِّ ذاته مُحيِّر مُلغز.

فقالت فاطمة، وقد أعجبَها حديثي: إنّي متشوِّقَةٌ لمعرفة رأيِكَ حول هذه الأمور.

وفجأة، سمعنا وَقْعَ خطوات وأصوات تقترب. دَنَتْ منّي فاطمة، وألصقَتْ شفتيها بشَحمة أذني اليسرى، حتى سرى في ذاتي كلِّها شُحنَةٌ من التوَتُّر والرغبة، ثم همست لي بصوت خفيض: سَنُكْمِلُ حديثَنا بعد انصراف القوم.

لم أستطع أن أُقاومَ إغراءَ الْتِصَاقِ ذاتِها بذاتي، فأخذتُها بين يديَّ، ثم طبعتُ قبلةً على شفتيها، فانتفضَتْ عن ذراعي مُتَمرِّدَةً، وفرَّتْ خارج الغرفة، وابتسامةٌ ماكرة تُجَلِّلُ مُحيَّاها. لم أَعْرِفْ ما الذي دهاني، لكنَّ للذوات مَنْطِقًا آخر عند التمَاسِّ والاقتراب، فإنّها تنفعِلُ لبعضها مثلما ينفَعِلُ الحديدُ لحجر المغناطيس. فَأيُّنَا الحديدُ وأيُّنَا

المغناطيس؟ لا شكَّ أنّي حديدٌ صَدِئٌ ينفَعِلُ بحركة مغناطيسِ فاطمة. ومهما كان إحجامي قويًّا عن انتهاك حُرْمَتِها، فإنَّ القُرْبَ حوَّلَهُ إلى رغبة عارمَة وإِقْدامٍ مُتهوِّر. كنتُ سَادِرًا، أتأمَّلُ في هذه الخواطر المتباينة بين اللذّة والتأنيب، حتى اقتربَتِ الأصواتُ وارتفعَتْ. جلس القادمون، ثم أتى بعد ذلك آخرونَ، وآخَرون من بعدهم، حتى امتلأ المجلس. وفي الأخير، جاء كبيرُهم مع حاجبين من حُجَّابِه، فقام له القومُ جميعُهم. كان عليه مِئْزَر، وعلى ظهره رِداءٌ خَفيف، وفي رجليه نَعْلان غليظان يُسْمَعُ لهما صوتٌ وصِرٌّ، حتى يُعْلِمَ غيرَه بقُدومه، فلا يُخْفَرُ جَنَابُهُ بقولٍ أو فِعْلٍ غيرِ لائقٍ من الأتباع. كانت تلك النعال الكُنْباتيَّة تَرِدُ من كُنْبَايَة في الهند، ويلبَسُها ظرفاءُ بغدادَ وأعيانُهم. سلَّم عليهم، فَرَدُّوا عليه التحيَّة، ثم أخذ مكانَه في صَدْرِ القُبَّة، وجلس إلى جانبيه بعضُ كبرائِهم، ووقف الحاجبان خلفه يحرسانه. أمّا سائرُ الأعضاء، فقد جلَسوا على البُسُطِ التي كانت مَفروشةً على الأرض.

لَبَدْتُ في مكاني دون حركة، حتى لا يَنْتَبِهَ القومُ لناحيتي. تكلَّم الداعية، ورحَّب بجميع الإخوان الذين كانوا يجلسون وِفْقَ نظام خاصّ. فقد اصْطفُّوا أربعَ طبقات، طبقةٍ أولى من الفتيان سِنُّهم في حدود خمس عَشْرة سنة، وطبقةٍ ثانية من الشبّان أعمارُهم في الثلاثين، وقد رأيت عبدَ الله شقيقَ فاطمة يجلس ضمنهم. وطبقةٍ ثالثة من الإخوان ممَّن بلغوا الأربعين، وأخيرًا طبقةٍ رابعة للإخوان ممَّن أتَمُّوا الخمسين. جلسَتْ كلُّ طبقة في جهة من المجلس، وتميَّزتْ كلُّ واحدة بلون خاصّ وهيئة خاصَّة. وبالإضافة إلى كلّ هؤلاء، جلستْ جماعة قليلة في جهة منعزلة.

تكلَّم الداعية فحمد الله، وبعد الصلاة والتسليم على النبيّ

الأمين، ثنَّى بالسلام على آل البيت الأطهار والأئمَّة الأخيار، فعدَّد مناقِبَهُم، وسرد مآثِرَهم واحدًا واحدًا. ثم سلَّم على الإمام المستور، وأثنى عليه بأبلغ بيان. وبعد ذلك، رحَّب بالأعضاء الجُدُد الذين يبدو وكأنَّهم مُحِّصُوا تمحيصًا شديدًا قبل حضور هذا اللقاء. وبالإضافة إلى امتحانهم السابق، فإنَّهم سُئِلُوا في هذه الجلسة أسئلةً عديدة، حتى تتَّضِحَ نواياهُم من الالتحاق بالجماعة. وبعد أن امتثلوا لكلّ هذه التحقيقات الجديدة، أقسموا بأغلظ الأَيْمَانِ على حِفْظِ الأمانة وعدم خيانة العَهْد، والقبول بشتَّى أنواع الامتحان التي ستُطلَبُ منهم مستقبلاً، مثل مُفارقة الأهل والأولاد والأوطان والأموال في سبيل الدعوة. وبعد أن أقسموا على ذلك، أخبرَهُم الداعية بأنَّ نيلَ الأسرار والسعادة لا يتمُّ إلَّا بعد النجاح في هذه الامتحانات والمِحَن. فلمَّا وافقوا على ذلك، أُلْبِسُوا خِلَعًا جديدة. ثم أخذ سارِدٌ يَقرأُ رسالةً من رسائل الجماعة، فيشرحُ لهم الداعية فصولها شَرْحًا وافِيًا

استمَرَّ الأمرُ مدَّةً طويلة في القراءة والشرح، حتى حَلَّ الظلام وأرسل أجنحته على الدنيا في بداية اللقاء، كانوا يقرأون من الرسائل ويشرحها لهم الداعية، وبعد ذلك، حينما سقط الظلام، قرأ عليهم رجل مُقرّب من الداعية اسمه «بهبوذ» نصًّا كونيًّا تحت قبّة السماء الساطعة بالنجوم. على ما يبدو، كان شرط قراءة هذا النصّ الكونيّ تحت قبَّة السماء أمرًا ضروريًّا وفي الأخير، تلا عليهم الداعية صلاة أسماها لهم بـ «صلاة أفلاطون»، ثم قرأ عليهم نصًّا آخر تحت اسم «ابتهال إدريس»، وخُتِمَتِ هذه الحِصّة بترنيمة أَرِسْطُو السرِّيَّة.

قام القومُ، فصلُّوا صلاةَ المغرب ثم العِشاء، فصلَّيتُ مُنْفَرِدًا دون أن أَأْتَمَّ بإمامهم، لشَكِّي في عقائدهم وشُبْهَةِ الصلاة خلفَهم، لكنِّي

خفضتُ صَوْتِي حتى لا يسمعني أحد. وبعد انتهاء الصلاة، سمعتُ واحدًا من الجماعة مِمَّنْ يَلِينِي، يقولُ لصاحبه: لعلَّ أحدًا كان يقرأُ مع الإمام، فقد سمعتُ من يقرأ جهرًا خلفنا

فقال له الثاني: وأنا كذلك. فهل تظنُّ أنَّه أحد إخواننا؟

قال الأوَّل: لا أظنّ، فإنَّ هذا سوءُ أدبٍ لا يقوم به أعضاء جماعتنا، كما تعرف. فالامتثال والاتِّباع سلوكٌ لازمٌ لكلّ أخٍ برٍّ رحيم. ولعلّ أحدًا ما غريبًا هو الذي كان يجهر بصلاته.

فقال الثاني: ربَّما ينبغي علينا أن نُعْلِمَ القَيِّمين، فقد يكون في الأمر مكروه.

فقال الأوَّل: صدقتَ، سأُخبرُ أحدَ الحاجبين.

ثم قام، واتَّجَهَ نحوَ الداعية، وتَكلَّم في أُذْنِ حَاجِبِ اليَسَار الذي كانت عليه أمارات الريبَة والغَضب. صَرَفَ الأخ، ثم همس بدوره في أذن الداعية الذي كان منشغلاً بتوزيع المجاملات على أصحابه. فلمَّا سمع ما أخبره به، أمره بشيء، فانصرفَ حاجبُ اليَسار جهةَ عبدِ الله الذي كان مُنشغلاً بتنظيم نَصْبِ أَخْوِنَةِ الطعام. تكلّمَ معه الحاجبُ، فكان يَنْفِي برأسه ما كان يُؤَكِّدُ عليه الحاجب، فعلمتُ أنَّ الأمر كان متعلّقًا بردِّ تُهْمَةِ وُجُودِ شَخْصٍ غَريبٍ يتجسَّس على الجماعة. ثم طاوعَ عبدُ الله الحاجبَ، ورافقه في البحث على الضَّنِينِ جهةَ نافذةِ الغرفة التي كنت فيها، بعدما أشار إلى ناحيتها الحاجب.

توقَّعت أن يأتي الرجلان ناحيتي، فخرجت من الغرفة بسرعة وصعدت سلّمًا يؤدِّي إلى الطابق الأعلى. أسرعت في مشيتي، ودخلت الغرفة التي جلست فيها أوَّل مرَّة زرتُ فيها هذا البيت. دخلت

وحاولت الاختباء هناك، لكنِّي فوجئت بوجود فاطمة في الغرفة. لمَّا رأتني تفاجأت، إلَّا أنِّي وضعت يدي على فمها حتى لا تصرخَ من المفاجأة، ثم ضممتُها إلى صدري، ومسحت على ظهرها وشعرها، فاستكانت. همستُ لها في أذنها أنَّ أمري قد انكشف، وأنَّ أحدَ زبانيَّة الداعية كان يبحث عنِّي. لم يَلْزَمْهَا وقتٌ طويل حتى فتَحَتْ دولابًا، وأمرتني أن أدخُلَه وأمكُثَ بداخله. دخلتُ وسط الدولاب، فعَبِقَتْ منه أنفاسُ غالية فاطمة، لأنَّ ثيابها كانت داخل الدولاب. ثم سمعتها تُقفِل باب الدولاب، وتأمرني أن لا أتحرَّك حتى تتدبَّر الأمر. بقيتُ داخل الدولاب، وأصوات القوم تَصِلُنِي في البستان، حيث كانوا بصدد تناول الطعام والإصابة منه.

بقيت مدَّة معتبرة، لا أنيس يؤنسي سوى عبق عطر غالية الغالية حتى سمعتها تطرقُ مرَّة أخرى الدولاب، وتفتح الباب، فقالت لي: لقد زال الخطر، فقد عاد الحاجب ليقف خلف سيِّده. ألقيتُ نظرة خاطفة من النافذة على البستان والقبَّة، فلمحتُه واقفًا هناك، فتنهَّدْت. كما لمحت عبدَ الله يعتني بضيوفه، ويدعوهم للطعام. طلبَتْ منِّي فاطمة أن ننزل إلى الغرفة، فتبعتها، حتى نزلنا مرَّة أخرى إلى المكان الأوَّل. لكنَّ فاطمة تركتني مرَّة أخرى، وأغلَقَت الباب خلفي وأدارت المفتاح حتى لا يدخلَ عليّ أحد، وطلبتْ منِّي أن أمكثَ دون حراك، حتى تعود إليّ.

طَعِمَ القوم وأصابوا ممَّا قُدِّمَ لهم، ثم خرجوا من حيث أَتَوْا فُرادى، الواحدَ بعد الآخر، حتى لا يُثِيرُوا شكوكَ الجيران أو الشرطة.

فمنذ أن خالف المتوكِّل سياسةَ أسلافه، ابتداء من المأمون في تقريب العلويّين، وشدَّد عليهم، بل إنَّه كان قبل سنوات قد أمر بهدم

قبر الحسين في كربلاء، وهدم كلّ ما حوله من المباني والدور. لهذا كان أتباعهم يحتاطون في إظهار تشيُّعهم لآل البيت وولائهم لهم، خوفًا من بطش المتوكِّل ورجاله. ولا شكّ أنَّ خروجهم على هذه الهيئة فرادى، كان بهدف عدم إثارة الشكوك حول اجتماعهم، فإنّ العيون مُنْبَثَّةٌ في كلِّ مكان، بل إنَّ أحد الخلفاء كان قد وظَّف أَلْفَ عجوز لرصد الأخبار، وتزويد مصالح الشرطة بها

لم يبق في المجلس سوى الداعية مع مرافقين له، أحدهما «بهبوذ» الذي قرأ صلاة أفلاطون تحت قبَّة السماء، وقد كان يناقشه حول نجوم تلك الليلة، وموافقتها للنصّ المقروء. كان يبدو على علم بالنجوم واقتراناتها. وحتى يشغل نفسه، فإنَّه أخرج آلة أسطرلاب من بين ثيابه، وأخذ يقيس ارتفاع القمر والنجوم، ثم قال للداعية: لقد تأخَّرنا، وعمّا قليل سيتغيَّر اتِّجاه الريح، وستَهُبُّ ريح غربيَّة يعقبها مطر، فلا بدّ أن نغادر قبل أن يُدركنا المطر في شوارع بغداد. وقبل أن ينهي كلامه، كان عبد الله قد عاد، فجلس يتحدَّث إلى الداعية. بدأ الأخير يعدِّد خصال والد عبد الله ويثني عليه، وكيف أنَّه بذل الكثير في سبيل الدعوة، حتى إنَّه أحضر مخطوطات نادرة لعلوم القدماء في المهمَّة التي بعثه إليها كفيلُه. كان عبد الله يوقِّع على كلام الداعية بانحناءة متواصلة برأسه إعلامًا برضاه. وبعد ذلك، انتقل الداعية للحديث عن الدار التي يسكن فيها عبد الله وشقيقته، فأبدى إعجابه بها، ولمح إلى أنَّها مكانٌ مناسب للسكنى بقرب مدافن الإمام موسى الكاظم وحفيدِه الإمام الجواد. تخوَّف عبد الله من سياق هذا الكلام. لكنَّه انتقل إلى الحديث عن الجماعة التي جاءت قبل مدَّة للمطالبة بالديون المستحقَّة على الكفيل الهالك، الذي ترك هذا البيت وصيَّة لفاطمة وأخيها ثم أخبره

الداعية أنَّ جميع ممتلكات الدعاة هي ممتلكات للإمام، فهو الآمر الناهي فيها، وهو المتصرّف فيها. توقّف عبد الله عن تحريك رأسه، وتغيَّر لونه لمّا سمع كلام الداعية. أدرك الأخيرُ أنَّه أفزع عبدَ الله، فطمأنه وقال له: لا تخش شيئًا، فذلك أمر قد انتهى، وليبارك لكما الله في رزقكما، لكنّي جئت لأسألك عن شيء آخر.

فقال عبد الله: وما هو؟

فقال الداعية: لقد كان في حوزة صاحبنا الحجَّة رسائلُ استودعها عنده الإمام الوفيّ عليه السلام، وقد جئت لأستردَّها.

فقال عبد الله: لكنَّها من التركة التي أوصى لنا بها كفيلنا.

فقال الداعية: إنّ الأشخاص الذين حضروا للمطالبة بالديون هم من جماعتنا وقد أرسلهم الإمام لاسترداد كلّ ممتلكات حجَّة الإمام الذي كفلكم. وحيث إنَّهم لم ينجحوا في استرداد الممتلكات بالطرق الشرعيَّة، فإنَّ الإمام الوفيّ عليه السلام كلَّفني بعقد هذا الاجتماع هنا، حتى أتحدَّث معك في هذه القضيَّة، وأخبرك بأمر الإمام الذي أكَّد عليّ في أن أترك لكما الدار، وأستردَّ فقط الرسائل المذكورة.

تنفَّس عبد الله نفَسًا عميقًا، لأنَّه كان يخشى أن يُطالبه الداعية بردّ الممتلكات رغم وجود الوصيَّة. لكنَّه كان يعلم أنَّ الجماعة قويَّة، ويمكنها أن تحصُل على ما تريد، وإن لزمها الأمرُ استعمالَ وسائل الترهيب. لم يحاول أن يحتجّ أو يعاند، بل حرَّك رأسه مرَّة أخرى ليثبت رضاه، وقال: السمع والطاعة لأوامر سيِّدنا الإمام الوفيّ عليه السلام.

فقال الداعية: بورك فيك، وسأخبره بتفانيك وإخلاصك في محبَّة

إخوانك. فقم الآن، وأحضر لي تلك الرسائل.

* * *

كنت أنتظر حتى جاءتْ فاطمة إلى الغرفة لتطمئنّ عليّ، ففتحَتْ بابَ الغرفة، ودخلَت. لم أفاجأ هذه المرَّة بمجيئها، بل كنت أتوقَّعُه. كانت متوتِّرة بعض الشيء ربَّما بسبب ما حصل بيننا، لكنِّي تظاهرتُ باصطناع الغفلة. كانت حذرة، أو هكذا خُيِّلَ لي. لعلّها كانت تتوقَّع أن أُواصِل جسارتي معها، لكنِّي لم أَكُنْ لأفعلَ ذلك مهما دفعتني غريزتي نحوها لقد كنتُ منهَكًا من طول الانتظار والتركيز لسماع حديث الجماعة، والخوف الذي ركبني بعدما بحث عنِّي الحاجب، لذا لم تكن لي أيّ رغبة في معاودة مغامرتي العاطفيَّة مع فاطمة، سيَّما وأنَّ الداعية ما زال في القبَّة مع حاجبيه. كانت تقف في طرف قَصِيٍّ من الغرفة، وهمستْ لي: ماذا رأيتَ أو سمعتَ يا جنيد ممّا يستحقُّ الذكر؟

فقلت: والله، هذه جماعة سرِّيَّة، يبدو أنَّها مزيج من مذاهب متعدِّدة، لكنِّي أعتقد بأنَّ «إخوان الصفا» مرتبةٌ في الجماعة هي غيرُ مرتبةِ «خُلّان الوفا».

فقالت: وكيف ذلك؟

فقلت: بحسب الطريقة التي كان يتمّ التمييز بها في الكلام، أدركتُ أنَّ هذه الصفات تدلُّ على مراتب أعضاء الجماعة. فإخوان الصفا هم الرعيل الأوَّل من الجماعة. أمَّا خُلَّان الوفا، فهم الطبقة الثانية التي أَتَتْ بعد الأولى.

فقالت بتعجُّب: ربَّما معك الحقّ فيما تقول. فلقب الإمام الحالي

هو «الوفيّ»، بينما كان لقب والده الإمام عبد الله، «الصفيّ».

فقلت: إذن، اتَّضَحَ الأمر، فإخوان الصفا هم دُعاةُ الإمام المعروف بالصفيّ؛ بينما «خلّان الوفا» هم دعاة الإمام الثاني الملقَّب بالوفيّ.

ثم أضفت: هل تعرفين هويَّة الإمام الحالي؟

قالت: ممّا استطعت أن أعرفه من شقيقي هو أنَّ اسمه الإمام أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

فقلت: يبدو لي يا فاطمة أنَّ عدد الرسائل له علاقة بالإمام الثاني، لأنَّ عدد كلمة «أحمد» ٥٣، وهو عددُ الرسائل نفسه. فلا شكّ عندي أنَّ هذا الإمام الثاني هو الذي أشرفَ على كتابة تلك الرسائل، وإكمال ما بدأه والده. لكنْ، مع ذلك، هناك نقطة تُحيِّرني.

فقالت: وما هي؟

قلت: يبدو أنَّ الجماعة تنظيمٌ سِرّيّ تابعٌ لطائفة من العلويِّين، بينما عقائِدُهم من خلال الرسائل تبدو متضاربةً، فنجدهم يقولون بآراءَ مأخوذةٍ من كلِّ المذاهب، سواء من الفلسفة الفيثاغوريَّة أو المَشَّائيَّة أو العقائد الهِرْمِسِيَّة والحَرَّانِيَّة والفارسيَّة والهنديَّة والإسلاميَّة.

فقالت: هذا أمر معروف، فالرسائلُ موسوعةٌ في جميع المعارف والعلوم، وطبيعيّ أن يعكس هذا التنوُّع في المواضيع تَنَوُّعًا في المصادر التي اعتمدوا عليها وقد ذكرتُ لك أنَّ والدي كان أحدَ الذين أَحضروا مجموعةً من هذه الكتب القديمة من بيزنطة في عهد الخليفة المأمون.

ثم قلت لها: هل سبق لك أن رأيتِ الإمام؟

فقالت: أبدًا

ثم سألتها: وهل تعرفين مقرّ إقامته؟

فقالت: أجهلُ ذلك، لكنْ يبدو من خلال بعض الإشاعات التي سمعتُها أنَّه يُقيمُ في رأسِ جبلٍ في بلاد الشام.

كان الوقت قد تأخَّر، والريح الغربيَّة بدأت تَهُبُّ وتُميلُ أغصانَ الأشجار، فتذكَّرتُ كلام بهبوذ الذي أخبر الداعية بذلك، فبدأتُ أستعدّ للذهاب وتوديع فاطمة، حين دخل علينا عبد الله الغرفة وهو يلهث. كان لونه ممتقعًا وحالته غريبة، فسألَتْهُ أختُه عن سبب ذلك، فقال لها: كنت أبحث عنك في كلِّ مكان، فلم أَجِدْك.

@ktabpdf تيليجرام

فقالت: ولِمَ ذلك؟

فقال: لقد طلب منِّي الداعية أن أُسَلِّمَه الرسائل.

فقالت: مستحيل، فهي مِلْكٌ لنا، وقد أوصى لنا بها كفيلنا عبد الله البغدادي.

فقال عبد الله: الأمرُ أَعْقَدُ من ذلك يا فاطمة، وإنَّ هذا الاجتماع لم يُعْقَدْ في بيتنا إلَّا لغرض استرداد الرسائل. كما أنَّ أصحابَ الديون الذين حضروا قبل مدَّة كانوا يريدونها، بعد أن طلبها الإمام الوفيّ. واليوم لا يمكننا أن نرفض، وإلَّا سيقع لنا مكروه.

فقالت: ماذا تقول؟

فقال: هذه هي الحقيقة، لم تكن مسألة المطالبة بالديون إلَّا غطاء لأخذ الرسائل، وقد جاء الداعية اليوم بنفسه لأخذها، بعدما أمره الإمام الوفيّ بذلك، فلا تتعنَّتي في هذا الأمر. وأخبريني الآن عن مكان وجودها حتى أسلِّمها للداعية.

فقلت: هي معي.

نظر عبد الله إليّ، وقال لي بصوت حازم: أعطني إيّاها

نظرتُ إلى فاطمة، أطلبُ عونها فيما يطلبُ منِّي شقيقها، فلم تنظر ناحيتي، فأخرجتُ الرسائل وسلَّمتها إلى فاطمة، وشكرتها على إعارتها

أخذَتْها منِّي فسارع أخوها لأخذها من يدها، ثم خرج مسرعًا ناحية الداعية الذي كان قد استبطأ رجوعَ صاحبِ البيت، وطلب من حاجبيه أن يبحثا عنه. وفي الممرّ إلى القبَّة، صادفاه، فأخبراه بانزعاج الداعية. كنت أتابع مع فاطمة ما يجري من نافذة الغرفة الصغيرة، فلم يغب عنّا شيء. وقف عبد الله أمام الداعية، واعتذر إليه وأخبره أنَّه بحث عن الرسائل طويلاً حتى وجدها، بعدما كانت شقيقته قد أخفتها في مكان لا يعرفه، فاضطرّ إلى البحث عن أخته حتى ترشده إلى مكان وجود الرسائل. اعتذر عبد الله مرَّة أخرى عن تقصيره. لم يقل الداعية شيئًا، لكنَّه كان غير راضٍ، لأنَّه انتظر وقتًا طويلاً أخذ الرسائل، ونظر في بدايتها ثم في نهايتها، كأنّه كان يريد التأكُّد من اكتمالها وتمامها ثم نظر إلى عبد الله وابتسم له، وقال: هل تعلم أنَّ هذه هي النسخة الوحيدة المكتملة من هذه الرسائل؟ وقد كانت وديعةً عند الحُجّة عبد الله البغداديّ. سيكون الإمام مسرورًا باستردادها يجب أن تعلم أيُّها الأخ البارّ الرحيم أنَّ الحجّةَ عبدَ الله البغدادي رحمه الله كان يحفظ الرسائل كلّ مرَّة في أحد بيوت الشكل المُتَّسعِ من هذه الدار. ولو تأخّرت، لكنت ذهبت بنفسي لاستخراجها من أحد بيوت هذه الدار.

لم يفهم عبد الله كلام الداعية، وارتعب، لكنَّه اطمأنّ، لأنّ

الداعية لم يبحث عن الرسائل بنفسه في الدار. حاول أن يستفسر عن قضيَّة البيوت التسعة، لكنَّ الداعية تعلّل بأنَّ الوقت متأخِّر، ثم قام وسلَّم لأحد رجاله الرسائل ليحملها، وغادروا. خرج عبد الله في إثرهما ذليلاً يعثر في ثيابه.

وبعد قليل، عاد إلينا وأخبرنا بما حصل. سعدت كثيرًا، لأنِّي كنت قد تحوَّطتُ في نَسْخِ الرسائل عند بعض أصدقائي من النسَّاخ الأتقياء في سوق الورّاقين، لكنِّي لم أَقُلْ شيئًا عن ذلك، واستأذنتُ من فاطمة وشقيقها في الذهاب. لم يكن بإمكاني أن أعودَ إلى سُكناي مَشْيًا، فركبتُ أَحَدَ المراكب الذي قادني إلى وجهتي. وأثناء نُزولي من المركب، بدأَتْ حبَّات المطر تنزل، فاستغربت من علم بهبوذ الذي توقَّع ذلك بحساباته من الأسطرلاب. دخلت بيتي منهكًا وقطرات المطر تُبَلِّلُ وجهي، فقصدتُ سرير نومي، واستلقيتُ عليه. لم أخلعْ سوى عمامتي وجُبَّتِي، ونمتُ نومًا عميقًا.

* * *

حدَثَتْ أمور كثيرة في بغداد خلال هذه السنوات، فقد هَرِمَ شيخي الحارثُ المحاسبي، ولم تَعُدْ له القُدرةُ على الخروج إلى الصحراء، كما كنّا نفعل من قبل، بل كنتُ آتِيهِ في بيته مع جماعة صغيرة من الأقران فنتدارسُ العلمَ، إذ كان قد اعتزل الناس، ثم ما لبث أن توفِّي سنة مائتين وثلاث وأربعين، فحزنتُ عليه كثيرًا وقد مشى في جنازته نَفَرٌ قليل، لأجل عُزْلته عن الناس واستيحاشِه منهم، فلم يَسمَعْ بوفاته أحدٌ إلَّا بعد أن دُفِن. حَزِنْتُ عليه كثيرًا، فقد كان أستاذَ البغداديِّين وإمامَهم بلا نزاع. وقد ترك رحمه الله كتبًا نفيسة، انتفع بها أصحابه وطلبته. لقد ظلّ يحاسِب نفسَه على خواطره كلِّها، يمحِّصُها ويميِّز بين

ما هو خاطر إلٰهيّ، وربّانيّ، ونفسيّ، وشيطانيّ. ولم يكن هذا العلمُ عند الناس، فَنَكِرَهُ عليه بعض أصحابِنا ممَّن لم يكن لهم فيه ذوق، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّ معرفةَ الخواطر ليستْ في يَدِ العباد بل هي لربِّ العباد. لكنْ لم يكن لهذا التحْجير سنَد شرعيّ، بل كان محضَ وَرَعٍ وتَحَوُّطٍ. ومتى ما كان المرء جاهلاً بالنفس وتقلُّباتها، فالأحوطُ له أن لا يفتِّشَ عن معرفة وساوسها وخواطرها، ويَنْسُبَ كلّ خاطر لمرتبته ومصدره، لأنَّ الغلط يأتيه من هذه الناحية، فَيَضُرُّ نفسه وغيره. أمّا شيخنا المحاسبي، فقد كان يعرف دقائق النفوس، ويميِّز بين أهوائها وتقلُّباتها المختلفة. وقد استفدت منه كثيرًا، رغم أنّه كان قد توقَّفَ عن إعطاء دروس عامّة منذ حوالى عشر سنوات، بعد وصول فكر محافظ مع الخليفة المتوكِّل الذي انتصر لأهل الحديث على المعتزلة. وكان المحاسبي يستعمل علم الكلام ليردَّ على أدلّة المعتزلة، لكنّ المحافظين من علماء الفروع والحديث كانوا يعارضون كلّ من يستعمل علم الكلام. فلمّا رأى هذه المعارضة الفكريَّة، انكمش على نفسه واعتزل الناس، ولم يعد يعطي الدروس إلَّا لبعض خواصّ طلبته في بيته، حتى توفّي رحمة الله عليه.

بعد الحزن الذي أصابني بغياب المحاسبي، قرَّرت الزواج في السنة الموالية من فاطمة، بعد أن استوثقتُ منها واستوثقَتْ منِّي، وكنت قد استملتُها إلى سلوك طريق الآخرة، وصرفتُها عن العقائد المتضاربة التي طالعَتْها في رسائل إخوان الصفا كنت أُحبُّها حبًّا كبيرًا، وكانت تبادلني الحبّ نفسه، إن لم يكن حبُّها يزيد على حبِّي، أو هكذا يُخَيَّلُ لي، إذ كانت لها قدرة عجيبة على إظهار حبّها خلافًا لتحفُّظي. ولعلّ الحبَّ أوفقُ لطبيعة النساء منه لطبائع الرجال، إذ يعطين كلَّهنّ للحبّ

إذا أحببن، بينما يستبقي الرجل بعض ما لديه من كبرياء ونخوة، فيخشى إن هو أظهر صبابَتَه ذَلّ. وما علمَ أنَّ الحبّ يكمن في التذلُّل للمحبوب. فكان أغلبُ الرجال يُحجِمُ عن استيفاء حقوق المحبّة وبلوغ مقاماتها العليا وأطوارها السامية. إنَّ في المرأة سرًّا يجعل وشائجَ المحبَّة عندها أقوى، بينما يَخْفُتُ هذا الأمر عند الرجل، أو هو لا يُريدُ إظهارَه. إنّ الرجل يُحِسُّ كأنّه يُفضي بنفسه إلى حَتْفِها إنْ أَظهر هشاشَتَه في الحبّ، ولم يَدْرِ المسكينُ أنَّ تلك الهشاشة هي الجوهرُ اللطيف المطلوب، هي الروحُ إذا تنوَّرَت بسرِّ الحبّ، هي الزيتُ الذي يسقي فَتيلة العشق فَيَشِعُّ نورًا. وكلّ الاستثناءات، سواء عند النساء أو الرجال، تأكيدٌ لهذه الطباع العامّة.

تزوَّجنا في ربيع سنة مائتين وأربع وأربعين، بعد مرور حوالى سنة على وفاةِ شيخي المحاسبيّ، وكنتُ أُحِسُّ أنَّ هذا الانفصالَ القَسري عن شيخي المحاسبيّ لا بدَّ أن يَعقُبَه ارتباط آخر. فلمَّا مَرَّ عامٌ من الحزن، كان الزواجُ بعدَ طولِ انتظار، ونُمُوّ محبّة، ورَعْيِ مودَّة. لقد تباطأتُ كثيرًا في الاقتران مع فاطمة، حتى تأكَّدْتُ من خُلوصِ محبَّتِها لي، وحتى وثِقْتُ من استعدادي النفسي للزواج.

كان العرس بسيطًا، ليس فيه من مظاهر الأُبَّهة ولا البهرجة شيء، بل حضر في اليوم الأوَّل الرجال، وكُتِبَ الكِتابُ، فذكر الفقيه العدل بأنَّ هذا الزواج هو على كتاب الله وسُنَّة رسوله بالأمن والأمان والرضا بين الزوجين. ثم وعظنا بخطبة قصيرة حول عقد النكاح، قال فيها: إنَّ جميعَ عقودِ المسلمينَ مبنيَّةٌ على المحاسبة، والإحسانُ فيها فَضْلٌ، إلَّا عقدُ الزواج فهو مبنيّ على المُكارَمَة، والإحسانُ فيه أصلٌ.

وبعد كَتْبِ الكتاب، تلا قارئ جزءًا من القرآن، فطربَتِ الأرواحُ

وخشعَتِ القلوب، ثم كانت حِصَّةٌ من السماع أقامها أصحابنا وبعد ذلك، طعمنا من وليمة العرس، ثم انصرف الجميع. وفي اليوم الثاني، كانت نوبة النساء، فاجتمعَتْ نساء الحيّ والأصحاب ظُهرًا، ففرحن بالعروسة وغنَّين وطربن، ثم طعمن. وقبل الغروب، انفَضَّ المجلس، وعادت كلٌّ واحدة إلى بيتها. كان عرسًا يشبه أعراس الناس العاديِّينَ حينما يفرحون ويسعدون.

كان زواجي من فاطمة يوم عيد الأضحى، فانضافت إلى ذبيحة العيد ذبيحةُ العرس، وأَوْلَمْتُ بكبشين مَليحين أقرنين من حُرِّ مَالي. ومن أغربِ الأمور، أنَّ يوم الأضحى صادف عيد الشعَانين عند النصارى، وعيد الفطير عند اليهود، فتفاءلتُ بذلك خيرًا، لأنّ يوم القِرانِ وافق أيضًا قِرانًا بين أعياد ديانات أهل الكتاب وفرحتهم. كان ذلك اليوم يومَ تكبير في كل المساجد عند المسلمين، كما صدَح اليهود بترانيمهم، والنصارى بصلواتهم في كنائسهم وأديرتهم المبثوثة في كلِّ أحياء بغداد. فكنَّا نسمع إلى جانب التكبير، صلاةَ النصارى يقولون «هُوشَعْنَا، مُبَارَكٌ الآتي باسم الربّ، هُوشَعْنَا في الأعالي». كان أحدُ أصدقائي من النصارى قد لبس كباقي قومه أحسنَ الثياب، وحَمَلَ سَعَفَة نخلة وغُصْنَ زيتون، فسألته عن هذه الكلمة «هُوشَعْنَا» التي يردِّدونها، فأخبرني بأنَّها كلمة عبريَّة تعني «خَلِّصْنَا»، للتذكير بصرخة سكَّان بيت المقدس لمّا دخلها السيِّد المسيح عليه السلام، فتلقَّوْه بأغصان الزيتون وسَعَفِ النخل. فأخبرته بأنَّنا معاشر المسلمين استقبلنا مخلِّصَ العالمين في المدينة المنوَّرة بنشيد «طلع البدر علينا من ثنيَّات الوداع».

أمَّا اليهود، فقد احتفلوا أيضًا في هذا اليوم الذي وافق عيد الفطير عندهم. وقد كنت أعلم من يهود بغداد في السوق أنَّ هذا العيد

مرتبط عندهم بذكرى خروجهم على عَجَلٍ من مصر، وحَمْلِ نسائهم لعجين الخبز الذي لم يختمر بعد. فلمَّا عبروا البحر الأحمر، صنعوا خبزًا فطيرًا لم يَخْتَمِرْ، فَرَحًا بنجاتهم من فرعون وجيوشه. كان هذا العيدُ عيدَ الخلاص من العبوديَّة في أرض مصر، فلهذا كانوا مبتهجين به، وكانوا يُهدون جيرانهم في هذا اليوم من ذلك الفطير الذي يصنعونه خصِّيصًا لهذه المناسبة.

* * *

بعد زواجنا، تركَتْ فاطمةُ سكنى الكاظميَّة مع شقيقها، وجاءت لتسكنَ في داري. ومرَّة، كنتُ أقرأ في الرسالة الثانية من القسم الرياضي من نسخة رسائل إخوان الصفا التي نسختُها، فاستغربَتْ واستفسَرَتْ منِّي عن هذه النسخة، فأخبرتُها بحقيقة الأمر. لم تكن راضية عن فعلي، لكنِّي قلت لها: أنت لم تشترطي عليَّ عدمَ نسخِ الرسائل حين أَعَرْتِنِيهَا.

فقالت: المسكوتُ عنه لا يُبيحُ الفِعل.

فأجبتها: كما أنَّه لا يمنَعُ عدمَ الفعل، فإذا استوى الأمر بين الفعل وعدم الفعل، جاز فِعْلُ أحدهما بلا خلاف.

فقالت لي: لا أفهم هذا المنطق الذي تُحسِنُونَ تدبيجَه، معاشر العلماء، وإنَّما أنا أتكلَّم معك من حيثُ الأخلاق، ما كان عليك أن تنسخَ هذه الرسائل دون إخباري.

فقلت لها: لا شكَّ أنَّكِ اليومَ مسرورةٌ بفعلي، لأنَّ الرسائلَ خرجَتْ من يَدِكِ، ولولا فعلي هذا لما بقي لنا منها أَثر. وكما يقول الفقهاء «مِنَ الحَزْمِ سوءُ الظنّ».

فقالت: لا يا سيِّدي، الظنون لا تُساوي شيئًا عند أصحاب القلوب، بل كلُّ شيءٍ مبنيٌّ على سلامَةِ الصَدْر وحُسْنِ الظنّ.

فقلت: صدقتِ فيما تقولين، وصدقتُ فيما فعلتُ. وإنّي أريدُ أن أُطلعَك على أمر خاصّ.

فقالت: ما هو ذاك؟

فقلت: أتذكرين لمّا كنّا في الغرفة الصغيرة في داركم بالكاظميَّة، وكان أخوك عبد الله يسلِّم الرسائل إلى الداعية؟

فقالت: نعم أَذْكُر.

فقلت: هل تذكرينَ أنَّ الداعية قال له أمرًا مُلغزًا، لم يفهمه عبد الله؟

فقالت: وما هو ذلك الأمر الملغز؟

فقلت: لقد قال له، إنَّ الحُجَّة عبد الله البغدادي، كفيلَكم وصاحبَ تلك الدار، كان يحتفظ بالرسائل في بيوت المُتَسَّع.

فقالت، وقد ازداد فُضولها: نعم، أذكر ذلك. وقد استغربتُ ذلك الكلام، ولم أفهمه.

فقلت لها: انظري إلى هذا الشكل المُتَسَّع في الرسالة الثانية من رسائل إخوان الصفا

| | | |
|---|---|---|
| 4 | 9 | 2 |
| 3 | 5 | 7 |
| 8 | 1 | 6 |

نظرتْ فاطمة إلى ذلك الشكل، وقالت: صدقتَ، إذن هذا هو الشكل المتسَّع الذي كان يتحدَّثُ عنه ذلك الداعية. لكنْ ما علاقةُ هذا الشكل بدار عبد الله البغدادي؟

فقلت: هذا هو الذي أُريدُ أن أكتشِفَهُ مَعَكِ. فلا شكّ عندي أنَّ تلك الدار مبنيَّة على هذا الشكل المربَّع الذي بداخله تسعة بيوت. وقد علمتُ أنَّ التربيعَ عندهم هو الأصل، فهناك مرتبة الآحاد، والعشرات، والمئات، والآلاف. وكلّ الأعداد أصلها من الواحد إلى الأربعة. فمثلاً، إذا أُضيف واحدٌ إلى أربعة كانت خمسة. وإن أُضيف اثنان إلى أربعة كانت ستّة. وإن أُضيف ثلاثة إلى أربعة كانت سبعة. وإن أُضيف واحد وثلاثة إلى أربعة كانت ثمانية. وإن أُضيف اثنان وثلاثة إلى أربعة كانت تسعة. وإن أُضيف واحد واثنان وثلاثة إلى أربعة كانت عشرة. وعلى هذا النحو كانت سائر الأعداد من العشرات والمئات والألوف، وما زاد على ذلك. فالتربيع هو الأصل، ولا شكّ عندي أنَّ دارَ عبد الله ودُورَ كبرائهم مبنيَّة على التربيع، وتقسم بعد ذلك بحسب مقام كلّ واحد. فقد يكون داخل المربّع تسعة بيوت، أو ١٦، أو ٢٥، أو ٣٦، أو ٤٩، أو ٦٤، أو ٨١، أو ١٠٠، وهذا هو الحدّ الأقصى، ولا يكون ذلك إلَّا للإمام، لأنَّهم يعتبرون الإمام المستور قائمًا بحقيقة الأسماء الحسنى.

ثم أضفت: فكم عدد البيوت أو الغرف في داركم؟

قالت فاطمة مستغربة: عددها ثمانية. وهذا لا يستقيم مع قولك، من أنَّ الدار على شكل المتسّع.

فقلت: مهلاً يا فاطمة، أليستِ القُبَّة التي في وسط البستان بيتًا من البيوت؟

ثم أضفت: إنّها تقابل العددَ ٥ في المربَّع.

أبدَتْ تَعَجُّبَهَا بعد أن فَطِنَتْ للأمر صدقتَ، إنَّ كَفِيلَنا كان كثيرًا ما يجلسُ في القُبّة، ويقرأ في تلك الرسائل. بل إنَّه كان حريصًا على أن يقرأ من تلك الرسائل في كلّ بيت من البيوت الثمانية الأخرى.

قلت: هل لتلك البيوت أو الغُرَف أسماء؟

قالت: نعم، وما علاقة هذه الأسماء بما نحن فيه.

فقلت: أخبريني بأسماء تلك البيوت.

قالت: كان يُوَزِّعُ جلوسَه في الدار بحسبَ الفصول الأربعة، وكان يُسمِّي هذه البيوت بأسماء تلك الفصول، الربيع والصيف والخريف والشتاء.

فقلت: لعلَّها هي البيوت التي في الزوايا الأربع.

تعجَّبَتْ من قولي، وقالت: كيف عرفتَ؟

قلت لها وما اسم البيوت الأخرى؟

فقالت: كان يسمِّيها بأسماء الرياح الأربع، الصبا والدبُور والجَنوب والشمال.

فقلت: بقي لنا فقط اسم القبَّة.

فقالت: كان يسمِّيها بيتَ النَّفْس الحافظة.

فقلت: لا شكّ أنَّه لمّا سمَّى البيوت الأخرى، بما هو خارجٌ عن الإنسان من فصول ورياح، كان لا بدَّ أن يُسمِّي قلبَ الدار باسم يُحيلُ على النفس البشريَّة الحافظة للكلّ، والتي تتعرَّض لتلك التأثيرات الخارجيَّة من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة. إنَّ النفس الإنسانيَّة مُكوَّنة

من الأخلاط الأربعة، التي هي: الدم، والبَلْغَمُ، والمِرَّة الصفراء، والمِرَّة السوداء. والإنسانُ صاحبُ هذه النفس الحافظة هي التي تحفظ باقي المكوِّنات من معادن ونبات وحيوان، إضافة إلى الإنسان نفسه.

فقالت فاطمة: وكيف أدركتَ كلّ هذه الأسرار، مع أنَّك لم تسكن تلك الدار؟

فقلت: من مُطالعتي في تلك الرسائل يا فاطمة.

دعوتُها مرَّة أخرى إلى مُعاينة مربّع آخر مُتَسَّع البيوت كذلك:

| | | |
|---|---|---|
| ب | ط | د |
| ز | ه | ج |
| و | ا | ح |

فقالت لي: ماذا يعني هذا المربَّع؟

فقلت لها: إنّه المربَّع الأوَّل نفسه، إلَّا أنَّ تَعْمِيرَهُ كان بالحروف المقابلة لتلك الأعداد. وإنّ لهذا المربّع، سواء العدديّ منه أو الحرفيّ، خواصّ كثيرة. وكيفما عُدَّ كانت جُمْلَةُ العَدِّ ١٥ في كلِّ الأضلاع عَمُودِيًّا وَأُفُقِيًّا وَرَأْسِيًّا.

ثم قالت لي: هل يمكن أن تقسِّم بغداد أيضًا وفق هذا المربَّع؟

فقلت: نعم، فالمدينة المدوَّرة هي قلب المربّع، وجهاتها الشرقيَّة والغربيَّة والشماليَّة والغربيَّة تُشَكِّلُ باقي أضلاع المتسّع. ولا شكَّ أنَّ هدف الجماعة في النهاية هو الوصولُ إلى قلب المدينة المدوَّرة في قلب بغداد، وحكمها لكنَّ هذا القلبَ في بغداد هو مركزٌ للدولة، وليس للإمامة التي ينبغي أن تكونَ في بلاد الحرميْن.

كما أنَّه يمكن تقسيم بلاد الإسلام وغيرها أيضًا وفق هذا المتسَّع. فإمام جماعة إخوان الصفاء، كما ذكرتِ لي بحسب ما وصلك من الإشاعات، أنَّه يسكن في أحد جبال الشام.

ثم أخذتُ قلمًا وورقة، وخَطَّطْتُ عليها جدولاً عمّرتُه على هذا الشكل:

| | | |
|---|---|---|
| بلاد الترك | الشام | المغرب |
| العراق وفارس | مكة والمدينة | مصر |
| الهند والصين | اليمن | بلاد السودان |

ثم قلت: لا شكّ أنَّهم قد وضعوا دعاتهم في هذه المناطق، وقسَّموا الأرض وفق هذا النموذج. وحيث إنَّ مركزَ المربّع هو بيتُ الهاء أو الخمسة أو بلاد الحرمين، فإنَّه أفضلُ مكان للحفظ، لكنَّ الإمام المستور لا يمكنه أن يُظهِر نفسَه هناك، لأنَّه يعلَم أنَّ عيونَ السلطان تُراقِبه. لذا، فإنَّ إمامَهم عَدَلَ عن سكنى المركز إلى سكنى الأطراف.

فقالت فاطمة: هذا أمرٌ مُذهِلٌ ومخيف. ولعلَّ للجماعة حَسْبَ ما تقولُ حُجَجًا ودُعاةً في كلِّ مكان من هذه الأمكنة.

فقلت: نعم، ألم تقولي لي بأنَّ والدَك استطاع أن يصحبَ الوفدَ الذي بعثه المأمون إلى بيزنطة لجلب كتب القدماء. فلولا أنَّ للجماعة رجالاً في قلب الدولة، لما استطاعوا أن يفعلوا ذلك.

إنَّني أشعر بالجوع يا فاطمة، فهلَّا قُمْتِ وهَيّأتِ ما بَقِيَ ممَّا أرسله لنا شقيقك من طعام عُرسه، من الجَرَادِق، والخَبِيصِ، واللُّوزِينْج،

والفَالوذَج[1]، وفطائر السّنبوسج المُثَلَّثَة المحشُوّة باللحم والجوز، حتى أُكْرِمَ بعضَ أصحابنا ممَّن لا يَطْعَمُونَ هذه الأطَايِب.

فقالت: كنت أيضًا أُفَكِّرُ في أن أَطلب منك أن تُؤْثِرَ بهذا الطعام بعضَ أصحابك الفقراء، وتدعوهم لزيارتنا في بيتنا

فقلت: بورك فيك. *مكتبة الرمحي أحمد*

ثم ناديت على خادمة كانت تساعدنا لكي تشتري جَرَّةَ ماءٍ زُلال في الساحة التي أمام المسجد. كانت المياه تُباع في الساحات وتُوضع في جرار كبيرة، وتُغَطَّى بِسَعَفِ النخيل، ويشتري الناس حاجتهم فَيُصَبُّ لهم في جِرار صغيرة. ومن الآداب المعمول بها أنَّه يُمْنَعُ الشُّرْبُ من الجرار، كما يُمْنَعُ وضع الأيدي فيها أمَّا مياه النهر، فكانت تُباع في قِرَبٍ جِلْديَّة. أعطيتُ لجاريةٍ تساعد زوجتي رُبْعَ دينار لكي تذهب وتشتري الماء، فَخَرَجَتْ لقضاء مهمَّتها ثم ذهبتُ أنا إلى بيت خالي السَّريّ السقطيّ، فوجدتُ الجماعة متحَلِّقَةً عنده، وفيهم بِشْر الحافي، وأحمد بن أبي الورد، وأبو الحسين النوريّ، وسمنون الخَوّاص، وأبو سعيد الخرّاز، ورُوَيْم البغداديّ، وأبو حمزة البَزَّاز وآخرون، وكان يحدِّثهم. فلمَّا رآني رحّب بي، وقال لي: جئتَ في الوقت المناسب، فقد كنتُ أَهُمُّ بذكر حادثة كنتَ شاهدًا عليها

كان خالي يتكلَّم ببطء، وكان نحيفًا للغاية، لأنَّه كان يُؤْثِرُ الجوعَ ويصوم غالب أيَّامه. وقد تدهورَتْ حالتُه الصحِّيَّة مع تقدُّمِه في السنِّ.

---

(١) الجرادق: الرغيف بالفارسيَّة. الخبيص: الحلوى. الفالوذج: فارسيَّة، حلواء تُصنع من الدقيق والعسل والماء. اللوزينج: صنف من الحلوى، يسمِّيه أهل بغداد أحجار الجنَّة.

فقلت: يَسُرُّني سماع ذلك، لكنِّي أريد أن أدعوكم لطعام في بيتي، فأرجو أن تَقْبَلوا دعوتي لكم جميعًا

فقال السَّريّ: قَبِلْنا

ثم قاموا، وجئنا إلى الدار. كانت فاطمة قد أعدَّت لنا مجلسًا، وفَرَشَتْ مع مُساعدتها بعضَ المطارح على الأرض، ونَشَرَتْ بعض المخَدَّات. جلس القوم، فَغِبْتُ عنهم حتى أُحضِر الطعام. وقبل ذلك، غَسَلوا أيديهم من إناء، كنت أَصُبُّ لهم منه الماء. وُضِعَ الطعام أمامهم، فقال السَّريّ: من أين هذا الطعام؟

فقلت: أرسله لي شقيق زوجتي بمناسبة زواجه، فأحببت أن أوثِرَكُمْ به.

فقال السَّريّ: فهو طعامُ عُرس. ولو كان الحارث المحاسبيّ بيننا، لانتظرنا أن يخبرنا عنه.

فقال القوم: وكيف ذلك؟

فقال السَّريّ: سَلُوا الجنيدَ يخبركم عمَّا حصل له معه.

اِلْتَفَتُوا إِلَيَّ مُستفْهِمِينَ، فقلت: «مرَّ بي يومًا الحارث المحاسبيّ رحمه الله، فرأيت فيه أثر الجوع، فقلت: يا عمّ، تدخلُ الدار وتتناولُ شيئًا؟ فقال: نعم. فدخلتُ الدار وطلبتُ شيئًا أقدِّمُه له، فكان في البيت شيء من طعام حُمِلَ إليّ من عرسٍ في بيت عَمٍّ لي، فقدَّمتُه إليه، فأخذ لقمة وأدارها في فمه مرّات، ثم إنَّه قام فَقَاءَهَا وألقاها في الدهليز، وخرج. فلمَّا رأيته بعد ذلك بأيَّام، قلت له في ذلك، فقال: إنِّي كنت جائعًا، وأردتُ أن أَسُرَّكَ بأكلي، وأَحْفَظَ قلبي، ولكنْ بيني وبين اللهِ سبحانه وتعالى علامةٌ، ألَّا يُسَوِّغَنِي طعامًا فيه شبهةٌ، فلم

يُمْكِنِّي ابتلاعُه. فمن أين كان لك ذلك الطعام؟ فقلت: إنَّه حُمِلَ إليَّ من دارٍ قريبٍ لي من العُرس، ثم قلت: هل تَدخُلُ اليوم؟ فقال: نعم، فقدَّمتُ إليه كِسرًا يابسة كانت لنا، فأكل، وقال: إذا قدّمتَ إلى فقير شيئًا فَقَدِّمْ إليه مثلَ هذا».

هَمْهَمَ القوم، فقال السَّريّ: ماذا أنتم فاعلون؟

فقال بعضهم: نقتدي بالحارث، وقال آخرون: نأكل الطعام، ولا نَرُدُّ الدعوة.

فقال السَّريّ: هل لأحدكم علامة مع الله في الطعام كما كان للمحاسبيّ؟

فقالوا جميعًا: لا

فقال أبو الحسن: إذن، فالطعام حلال علينا، ولا نستَحِلُّ ذوقَ المحاسبيّ، فإنَّ تلك العلامةَ التي كانت له مع الله حين يُقَدَّمُ له طعام فيه شبهة أن ترتفع إلى أنفه منه زفرة. فهل شَمَّ أحدُكُم شيئًا في هذا الطعام؟

فقالوا جميعًا: لا

فقال السَّريّ: توكّلوا على الله إذن، ومُدُّوا أَيْدِيكُمْ إلى هذه الطيِّبات، فليس كلُّ يوم نأكلُ مثلَ هذا الطعام. ولْنُدْخِلِ السُّرورَ على الجنيد، فلم يَدْعُنَا إلَّا وهو يريدُ أن يفرحَ بنا، ومَنْ فَرِحَ بنا فَرِحْنَا به.

تنفَّسْتُ الصعَدَاءَ، وكنتُ خشيتُ أن يَرُدَّ القومُ طعامي مرَّة أخرى. ولَشَدَّ ما كانت خشيتي على فاطمة إن رَدَّ القومُ الطعامَ، فلعلَّها لا تَحْتَمِلُ ذلك. إنَّ الواحدَ منهم حريصٌ على دينه، وأن لا يَدخُلَ جَوْفَه شُبْهَةٌ حتى لو تَقَطَّعَتْ أَمْعَاؤه من الجوع.

أكلَ القومُ كثيرًا، حتى لم يتركوا فَضْلَةً في الأواني، فقال لي السَّريّ: ما بالُ أصحابنا يأكلونَ كثيرًا؟

فقلت له: لأنَّهم يجوعونَ كثيرًا.

فقال أَحَدُ الجماعة: ماذا أراد أهلُ الجوع بالجوع؟

يقصِدُ القومَ الذين اختاروا الجوعَ طريقًا في المجاهدة.

فأجابه السَّريّ: ماذا أراد أهل الشبَعِ بالشبع؟

ثم أضاف: إنَّ الجوعَ أورثَ هؤلاء الحِكَم، وإن الشبعَ أورثَ أولئك الغَمّ.

فقال له القوم: يا أبا الحسن، أكْمِلْ حديثَك الذي كنتَ تحدِّثُنا إيَّاه قبل أن يدعونا الجنيد.

فقال السَّريّ: قل لهم ما سمعتَ يا جنيد.

فقلت: بتُّ ليلةً عند السّريّ، فلمَّا كان في بعض الليل، قال لي: يا جنيد، الساعةَ أوقفني الحقُّ عزَّ وجلَّ بين يديه، وقال لي: يا سَريّ خَلَقْتُ الخلقَ كلَّهم فادّعَوْا محبَّتي، فَخَلَقْتُ الدنيا فاشتَغَلَ أغلبُهم بها إلَّا قِلَّة. وخلقتُ الجنّة، فاشتغلَ بالجنَّة أغلبُهم إلَّا قلَّة، فسلَّطتُ عليهم شيئًا من البلاء، فاشتغلَ عنِّي أغلبُهم بالبلاء وبَقِيَتْ قِلَّةٌ، فقلت لهم: أنتم لا الدنيا أَرَدْتُمْ، ولا في الآخرة رَغِبْتُمْ، ولا من البلاء هَرَبْتُمْ، فماذا تريدون؟ قالوا إنَّك لتعلَمُ ما نُريد، فقلتُ: إنِّي سأُنْزِلُ عليكم من البلاء ما لا تُطيقون، ولا تحمِلُهُ الجبالُ الروَاسِي، أَفَتَثْبُتُونَ لذلك؟ قالوا: أليس أنتَ الفاعلُ بنا، قد رضينا. بكَ نحمِلُ، وفيك نَحْمِلُ، ولك نَحْمِلُ ما لا تُطيقه الجبال، فقال لهم: أنتم عبيدي حقًّا

هلَّلَ القَومُ وكبَّروا، فقال لهم السّريّ: فهل أنتم هؤلاء القوم؟

قالوا جميعًا: نسألُ الله أن نكونَ منهم.

ثم قام أحدُهم وصفَّقَ بيديه، فقاموا لقيامه، وأخذوا في الذِّكْر، ثم اسْتَروحُوا بالسماع حتى تواجَدوا وطابت نفوسُهم.

كانت فاطمةُ تَسْتَرِقُ السمعَ إلى القوم، فجرَتْ عيونُها بدموع صادقة لمَّا رأَتْ صفاءَ هذه الطائفة في اجتماعهم ومحبّتهم وإيثارِهم، وقيامَ بعضهم على خدمةِ بعض.

* * *

في سنة ستٍّ وأربعينَ ومائتين، نزل مطر شديد متواصل على بغداد حتى نبت العشبُ فوق سطوح البيوت، وعكف الناس داخل بيوتهم لا يخرجون لانقطاع السُّبُل. ولم تعد الحركةُ عاديَّةً إلَّا بعد الصحْو وانقشاع الغيوم.

كان الخلفاء قد نقلوا العاصمة إلى سامرَّاء منذ عهد المعتصم، فخفَّ أذى الجنود الأتراك عن بغداد. أمَّا في حاضرة الملك، فقد كان نفوذهم يشتدُّ ويزداد يومًا بعد يوم. وقد سعى المتوكِّل إلى الحَدِّ من تدخُّلهم في الحياة العامَّة، بل إنَّه لمَّا أحسَّ بخطورتهم كان يريد أن يبطش بكبار قادتهم، وخاصَّة القائد وَصِيف الذي صار مثل السلطان في الدولة.

وفي ختام شعبان من سنة سبع وأربعين ومائتين، زارت فاطمةُ شقيقَها، فأخبرها بهذه التحوُّلات، وبما يجري في قصر الخلافة في سامرَّاء، واشتكى لها من نفوذ الأتراك على المتوكِّل، وأخبرها أنَّ الخليفةَ كان قد كتب كتابًا أَمَرَ فيه عُمَّالَه بحجز أملاك القائد التركيّ وصيف في أصبهان والبلاد التي تُواليها لكنَّ رجالَ وصيف احتالوا

على الغلام وهو في طريقه لختم الكتاب قبل إرساله، حتى عرفوا منه فحواه، فأخبروا وصيفًا فلمَّا كانت أوَّل جمعة، وكان الخليفة مريضًا، نصح الوزيرُ الشاعرُ الأديبُ، الفتحُ بن خاقان، المتوكِّلَ بإسناد الخطبة وإمامةِ الناس إلى ولده «المعتزّ»، رغم أنَّ ولاية العهد كانت لولده الآخَر «المنتصر» الذي كان يسانده وصيف وباقي الأتراك. فلمَّا صلّى بالناس، وكان فصيحًا، أُعجِبَ به أهلُ بغداد فَأَثْنَوا عليه بمحضر أبيه، فَسَرَّهُ ذلك، وساء أخاه المنتصر الذي كان يرى أنَّ له أحقِّيَّةً في إمامة الناس وخُطبَتِهِم، لكونه صاحب ولاية العهد، فاشتكى من الأمر.

فلمَّا حلَّ عيدُ الفطر، أمر المتوكِّلُ أن يصلِّي المنتصرُ بالناس، لكنَّ الفتحَ بن خاقان وعبيد الله بن يحيى اللذان كانا يناصران المعتزّ، نصحاه بأن يصلِّي هو بالناس، حتى لا يُرْجِفَ الناسُ بِعِلَّتِهِ ويطمعَ الأعداء في ملكه، فمال المتوكِّل إلى رأيهما وصلّى بالناس. ثم تحسَّنت حالُه قليلاً وفي ثالث شوال، أقام المتوكِّل وليمةً فيها شراب ولهو وطرب، فشرب كثيرًا، وأخذ يَسُبُّ ابنَه المنتصر ويعبثُ به، ويَحُطُّ من قدره ومن أنصاره الأتراك، ويقدَحُ فيهم. كما أمر الفتحَ بن خاقان أن يصفعَ المنتصر أمام مُنادميه، ففعل. ثم قال المتوكِّل: اشهدوا عليَّ جميعًا أنِّي قد خلعتُ المستعجلَ يعني المنتصر ثم التفَتَ إلى ولده، وقال: سَمَّيتُكَ المنتصر، فسمّاك الناسُ لحمقِكَ المنتظِر، ثم صرتَ الآن المستعجِل.

فقال المنتصر لو أمرتَ بضرب عنقي كان أهونَ عليّ ممَّا تفعَلُه بي.

وأكثرَ المتوكِّل من العبث بابنه تلك الليلة، حتى خرج من عنده مَهينًا مُنكسرًا عازمًا على الانتقام. وكان الأتراك قد اتَّفقوا معه على

قتل المتوكِّل تلك الليلة. فأخرجوا كلّ الندمان، ولم يبق مع الخليفة إلَّا الفتحُ بن خاقان، وأحدُ أبنائه، وأربعةٌ من الخدم. ثم أغلقوا جميعَ الأبواب إلَّا باب الشَّطِّ، ومنه دخل رجالٌ عُهِدَ لهم بهذه المهمَّة الخسيسة، فقتلوا المتوكِّلَ والفتحَ بن خاقان، وخرجوا إلى المنتصر فسلَّموا عليه بالخلافة. بعثَ المنتصِر إلى وصيف بأنَّ الفتحَ بن خاقان قد قتل الخليفة، وأنَّه قتَلَه انتقامًا منه. وفي الصباح، جاء الأشراف والقضاة والفقهاء والقوَّاد والأمراء، وأُخِذَت البيعةُ للمنتصر.

هكذا نقلَتْ لي فاطمةُ وقائعَ ما حصل في سامرَّاء، كما حكاها لها شقيقها عبد الله الذي استقى معلوماته من عيون جماعته. بعد ذلك، نما الخبر في بغداد وشاع أنَّ الأتراك قتلوا الخليفةَ ووزيرَه الفتحَ بن خاقان. كانت هذه الأخبار غير سارَّة، فاستنكر الناسُ قَتْلَ الخليفة، وتَحَكُّم الجنود الأتراك في الدولة، فبدأت بعض القلاقل والاحتجاجات.

مرَّت أشهر قليلة، وازداد نفوذ الأتراك، فتجنَّدت الحركات المناهضة وسعت للثورة عليهم. وكان من بين هؤلاء الثوَّار رجل فارسيّ يُقال له عليّ بن محمَّد. كان ممَّن خالط جماعة إخوان الصفا كما أخبرتني فاطمة، وتعلَّم على يد أساتذتهم، لكنَّه كان طموحًا وثوريًّا، ففصلوه عن الجماعة، فالتحَقَ بسامرَّاء وأصبح يُدَرِّسُ النحو والخَطَّ والنجوم. فلمَّا وَلِيَ محمَّد المنتصر، قرَّبه إليه من بين مَنْ قَرَّب، بما في ذلك العلويِّين، لأنَّه أحسَّ بخطر الأتراك، فأراد أن يعتمد على أبناء عمومته من العلويِّين، وكان يعلم تعلُّقَ الناس بهم، حتى إنَّه سمح للناس بزيارة قبر الإمام عليّ والحسين عليهما السلام، وردَّ كثيرًا من المظالم التي طالتهم في عهد أبيه المتوكِّل. كان عليّ بن

محمَّد شاعِرًا، وله شخصيَّة قويَّة، فأقنعَ المنتصر بالانقلاب على الأتراك، رغم أنَّ سامرَّاء تكادُ تكونُ مدينتَهم منذ أن بدأ المعتصم سياسةَ شراء المماليك، وجعل منهم قوَّة كبيرة في الدولة. لم يكن هؤلاء المماليك يهتمُّون بالعلم والعقليَّات والفلسفة، وليست لهم اهتمامات حضاريَّة، لهذا كان تفكيرهم أقرب إلى العامَّة. وما كان لعليّ بن محمَّد أن يرضخ لهم، بل كان يزدريهم. ولمَّا رأوا تَغيُّرَ المنتصر عليهم مع جماعته، أمروا طبيبه الطيفوريّ، فدسَّ له السمَّ، فمات بعد ستَّة أشهر على وفاة أبيه، وأَوْدَعُوا حاشيتَه وأصحابَه السجون، أو نفوهم أو قتلوهم. كان عليّ بن محمَّد وقتئذ في بغداد، فأُودِعَ في أحد سجونها وهناك وصلَتْ أخبارُه إلى الجماعة، بعدما طلب عونهم في تخليصه من السجن. وقد علمتُ من فاطمة أنَّه «بهبوذ» الذي رأيته في الاجتماع الذي أقامته الجماعة في بيت عبد الله وفاطمة في بغداد، وقد غيَّر اسمه وانتحلَ نسبًا علويًّا ثم نصَّبَ الأتراكُ خليفةً ضعيفًا، هو أحمد المستعين من حفدة الخليفة المعتصم، وفاءً لسيِّدهم الذي كان أوَّلَ من مَكَّن لهم في الدولة.

وحدث أن تمرَّدَ فريق من الجند والشرطة في بغداد، وشاعت فيها فوضى عارمة، وانضمَّ عامَّةُ بغدادَ إلى المتمرِّدين، فاقتحموا السجون وأطلقوا سراح من كان فيها، فاستغلّت الجماعة تلك الفوضى، وأخرجت «بهبوذ» أو عليّ بن محمَّد من سجنه، ونصحوه بأن يهدأ حتى يَحِينَ الوقتُ للظُّهور، لكنَّه كان مستعجِلاً، إذ بمجَرَّد خروجِه من السجن عادَ يُؤَلِّبُ على الدولة والأتراك مرَّة أخرى.

لكنَّ الجماعةَ طلَبَتْ منه أن لا يمكُثَ في بغداد بل يغادرها، فغادر إلى سامرَّاء، ومنها إلى البحرين.

في هذه الأجواء المتلَبِّدَة، ساءت أحوال البلاد، وشاع الخوف بين الناس، وتحكَّم كبار الجند في البلاد، سيَّما وَصِيف وبُغَا، وسَامُوا الناس الظلمَ والذلّ، فظهرت حركات ثوريَّة أعلنت رفضها لما كان يجري، وانساقَ وراءَها كثير من الناس في مناطق مختلفة من البلاد. ومن بين الحركات التي سمعنا عنها، حركة «بهبوذ» أو عليّ بن محمَّد في البحرين.

توالى الجند الأتراك على إقالة الخلفاء، حتى أصبحوا يعزلون ويقتلون بحسب أهوائهم.

انشغلت كثيرًا مع خالي السَّريّ السقطي الذي هرم، لكنَّه كان يحضُّني على أن أجلس للتدريس. لم أكن واثقًا من نفسي، فتعلَّلتُ كثيرًا. وقد كانت طريقة خالي في التدريس بسيطة وصعبة في الآن نفسه، وتدلّ على سعة علمه وفتحه، فقد كان يعتمد على السؤال، وإذا أراد أن يُفِيدَ أحدًا، سأله. وكنَّا إذا اجتمعنا عنده لا نَعُدُّ أنفسنا من المسلمين، لأنَّه كان دائم الشهود، صائمًا قائمًا لا ينام الليل. لا يفتر عن الذكر والفكر، حجّ على قدميه ستِّين سنة من غير زاد ولا راحلة، وكان إفطاره على قرص من الشعير  نظرت إليه، فأشفقت عليه لمّا رأيت جلده قد التصق بعظمه، فلا يكاد يُعْرَف. لقد كان يأوي لمجلسه خيار القوم وكبار الفقهاء، بل إنَّ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان يأتيه كلَّ يوم مع الفقهاء. كان يختم القرآن في ركعة واحدة.

جلست مرَّة في مجلسه، وقد جلس على ركبتيه كعادته، فسألته أن يستريح في جلسته، فقال: كيف يستريح ويتمكَّن في جلسته من قد عزم على الخروج وتأهَّب للرحيل. كان المجلس غاصًّا بأصحابنا، فتكلَّم السَّريّ مرَّة أخرى، وطلب منِّي أن أجلس للتدريس وإقامة حِلقة

خاصَّة، فاعتذرت له، وقلت: إنِّي لست أهلاً لذلك. ألحَّ عليَّ المريدون والشيوخ، فقلت: لن أتكلَّم ما دام شيخي موجودًا.

فالتفت السَّريّ إلى القوم وكانوا حوالى ثلاثين رجلاً، كلُّهم من البُدلاء، فأجمعوا على أنِّي أهل للتدريس والدلالة على الله والدعوة إليه. لم أطاوعهم، وبقيت متحرِّجًا، حتى رأيت في المنام النبيّ ﷺ، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلَّم على الناس.

وبمجرَّد حصول هذه الرؤية، انتبهتُ من نومي، فوقر في قلبي أنَّ درجتي صارت فوق درجة شيخي، فأتيت باب خالي السَّريّ السقطي قبل أن يصبحَ الصباح، فطرقتُ الباب، فأجابني: لم تُصدِّقْنا حتى قيل لك.

ثم ألبسني الخرقة، وقال لي: هذه خرقتنا، قد ألبسنيها شيخي معروف الكرخيّ. أحسست أنِّي نُفِخْتُ بطاقة عجيبة، ثم خرجنا إلى الجامع، وعقب صلاة الصبح، قمتُ لأتكلَّم، فجاء الناس أفواجًا أفواجًا، وكأنَّما نادى مُنَادٍ عليهم بالحضور. قام أحد المريدين، فسأل السَّريّ: هل يكون لمريدٍ درجةٌ أعلى من درجةِ الشيخ؟

قال نعم، وبرهان هذا ظاهر، فللجنيد درجة فوق درجتي.

لمَّا سمعته أخبر بما رأيته في منامي، أدركتُ صِحَّةَ ذلك الإخبار، وعلمتُ مقام السَّريّ، وأنَّه لا محالةَ مُطَّلِعٌ على ظاهري وباطني، وأنَّ درجته فوق درجتي لإشرافه على أحوالي وأسراري، بينما أنا لست كذلك.

قعدتُ، فبرز إليَّ رجلٌ، وسألني: ما التوبة؟

فأجابه السَّريّ، وتكلَّم عنها بلسان الفقهاء، وذكر شرطها

فقال الرجل: فما حقيقتها؟

فأجابه السَّريّ: حقيقة التوبة ألَّا تنسى ما من أجله كانت التوبة.

فقال الرجل: حقيقة التوبة ألَّا تذكر ما من أجله كانت التوبة.

ابتسم السَّريّ وأخذ يفكِّر في كلام الرجل؛ فتكلّمتُ وأثنيتُ على كلام الرجل، وقلت: ما أحسنَ ما قلت.

فسأل السّريُّ، وقصدُه أن يجعلَ أوَّلَ درس على طريقته في التعليم بالسؤال: وما معنى هذا الكلام؟

فقلت: «يا أستاذ، إذا كنتُ معك في حال الجفاء، ونقلتني من حال الجفاء إلى حال الصفاء، فذكري للجفاء في حال الصفاء غفلة».

فقال السَّريّ، وقد بدا عليه الانشراح: كلام نفيس.

انطلق لساني، فوجدت نفسي أتكلَّم بكلام عجيب: كيف تذكرُ الذنبَ في حضرة قابل التوْب وغافرِ الذنب؟ ومتى كان للذنب وجودٌ حتى يحجُبَكَ عن واهِب الوجود؟

بعد ذلك، زاد عدد الحاضرين، وعزمتُ على أن أشرعَ في الدرس، فقام إليَّ رجل، وسألني عن معنى حديث «اتَّقُوا فِراسةَ المؤمِن، فإنَّه ينظرُ بنور الله».

تفرَّسْتُ في الرجل، وأطرقتُ قليلاً؛ ثم أخذني حال عجيب وكُوشِفتُ بحال السائل، فقلت له: أَسْلِمْ، فقد آنَ لَكَ أن تُسْلِمْ.

تعجَّب الحاضرون، لكنَّ الشابّ قام فأقرَّ بأنَّه نصرانيّ، كان يريدُ أن يختبر صدقَ حديثِ نبيِّ الإسلام باختبار مدى اطِّلاعِ خِيارِ المسلمين على ضمائر القلوب، فسأل عن حلقة صالحيهم، فَدلُّوه على هذه الحلقة، فدخلها وعزم أن يسألَ المتصدِّرَ للدرس. فلمَّا سأل، كشف

الله بنوره لشيخ الحلقة عن ضمير السائل، فأسلم النصرانيّ وتاب إلى دين الإسلام.

هكذا بدأ أوَّل درس بكرامة ربَّانيَّة، أجراها الحقّ على يدي في حلقة الجامع. كانت بداية الدرس من لسان فقه الشريعة، فانتقلنا بسرعة الأنفاس إلى لسان فقه الحقيقة.

بعد الدرس، جاءني الشيوخ والأقران يهنِّئونني على نجاحي في أوَّل جلوس لي للتدريس. شكرتهم، وخرجت مع خالي الذي بدا متعبًا كان يتَّكِئُ عليّ، فاحتَمَلْتُه حتى أوصلتُه إلى داره. دخلنا، فجاءت زيتونة التي كانت تخدم السَّريّ وتخدم الصالحين. فلمَّا رأتنا، احتمَلَتْهُ معي حتى أجلسناه على لِحَافٍ، فاضطجَع. كانت أوَّلُ مرَّةٍ أراهُ مضطجعًا منذ أن عقَلْت، بل لقد حكى لي بعض أقرانه من أصحابنا أنَّه ما رُئِي مضطجعًا قطّ. كان يُديم النظر إلى أنفه، فقلت له: لماذا تنظر إلى أنفك؟

فأجابني: مخافة من أن يكون وجهي قد اسودَّ خوفًا من الله.

فقلت: يا خال، أَمِثْلُكَ يقول هذا، وأنت أَعْبَدُ مَنْ رأيتُ من أهل الأرض؟

فقال: مهلاً عليك يا جنيد، فالله أعلم بما في القلوب، وإنّ لله عبادًا أتقياء أخفياء لا نصل إلى مقدار عشر طاعتهم واستهلاكهم في محبوبهم. يا جنيد، «ما رأيت شيئًا أحبطَ للأعمال، ولا أفسدَ للقلوب، ولا أسرعَ في هلاك العبد، ولا أدومَ للأحزان، ولا أقربَ للمَقْتِ، ولا ألزمَ لمحبَّة الرياء والعُجْب والرِّيَاسة، من قلَّة نظر العبد لنفسه، ونظره في عيوب الناس، لا سيَّما إن كان مشهورًا، معروفًا

بالعبادة، وامتدَّ له الصيتُ حتى بلغ من الثناء ما لم يكن يُؤمِّله، وتربَّص في الأماكن الخفيَّة بنفسه، وسراديب الهوى، وفي تجريحه في الناس ومدحه فيهم».

ثم خرجت إلى بيتي. وطَفِقْتُ أزورُه كلَّ يوم، بعد أن مرض ولم يعد قادرًا على الحركة. وفي يوم الثلاثاء سادس رمضان عام مائتين وثلاث وخمسين، جئت أعودُه، فقلت له: كيف تَجِدُكَ؟

فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي أصابني من طبيبي

كانت حراراته مرتفعة، فأخذتُ المروحة لأرَوِّحَ عليه، فقال: كيف يجد المروحةَ من جوفُه يحترق من داخل.

ثم غاب عن وعيه، فوضعت خدِّي على خدِّه، فدمَعَتْ عيناي، فوقع دمعي على خَدِّه، فانتبه ورجع له وعيُه، وفتح عينيه، وقال لي: من أنت؟

فأجبت: خادمُك الجنيد.

فقال: مرحبًا

فقلت: أَوْصِنِي بوصيَّة أنتفعُ بها بعدَك.

قال: إيَّاكَ ومصاحبةَ الأشرار، ولا تنقطع عن الله بصحبة الأخيار.

ثم أضاف: يا جنيد، إنِّي أشعر أنَّ ساعتي قد حانت، وإنِّي أشتهي أن أموتَ في بلد غير بغداد.

فقلت: ولِمَ ذلك؟

فقال: أخاف ألّا يقبلني قبري، فأُفْتَضَح.

ثم تضاءل حتى أُغْمِيَ عليه، فلمَّا عاد إلى وعيه، رأيته كأنَّه يتأهَّب للموت ويتشجّع، فسألته: مَنِ الشجاع؟

فقال: «خمس من كنَّ فيه فهو شجاع بطل، استقامةٌ على أمر الله ليس فيها رَوَغان، واجتهادٌ ليس معه سهو، وتَيقُّظٌ ليس معه غفلة، ومراقبةٌ لله في السِّرِّ والجهر ليس معه رِيَاء، ومراقبةُ الموت بالتَّأَهُّب»

ثم أضاف، وكأنَّه يتحدَّث عن نفسه: يا جنيد، «لو أنَّ رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خَلَقَ الله من الأشجار، عليها جميع ما خلق الله من الأطيار، فخاطبه كلّ طير منها بلغته، وقال السلام عليك يا وليّ الله، فسكنَتْ نفسُه إلى ذلك كان في يديها أسيرًا».

فقلت له مواسيًا: يا خال، هَوِّنْ عليك، فإنَّ الله قد كتبك في عباده الصالحين.

فقال: «وددتُ لو أنَّ حُزْنَ الخلق كلِّهم أُلقِيَ عليّ».

فقلت: ومن ذا الذي يُطيقُ أن يتحمَّل أحزانَ الخلقِ كلِّهم؟

فقال: الصالحونَ لحضرة الحقِّ يتألَّمون لِتألُّم خلقه، فَيَرْجُونَ أن يتحمَّلوا عنهم أحزانَهم رحمةً بهم.

فقلت: ما أوسعَ قلبَك يا خال، وما أرحمَه بعباد الله.

فقال: أوسعُ قلب يا جنيد، قلبُ سيِّد الخلق أجمعين، الذي قال «إنَّما أنا رحمةٌ مهداة». فالوليّ المحمَّديّ يرجو أن يكون وارثًا لشعرة واحدة من هذه الرحمة المحمَّديَّة التي تحمَّلَتْ أذى الناس، واحتَمَلَتْ أحزانهم وعذاباتهم.

ثم نظر إلى جلده وقد التصَقَ بعظمه، فالتقَط رقعةً وناولنيها، فإذا

فيها شِعْرٌ، كان كثيرًا ما يردِّده في مجالسه ليتَّعِظَ به على قَهْرِ نفسِه، وتكذيبِ دعاويها:

ولمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قالت كَذَبْتَني    فَمَا لِي أَرَى الأَعضاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
فلا حُبَّ حتى يَلْصَقَ الجِلْدُ بِالحَشَا    وَتَذْبُلَ حتى لا تُجيبَ المنادِيَا
وَتَنْحَلَّ حَتَّى لا يُبْقِي لَكَ الهوَى    سِوَى مُقْلَةٍ تَبْكِي بِهَا وَتُنَاجِيَا

بقيت جالسًا معه، حتى أسلَم الروح إلى باريها، فحضر جنازَتَه خَلْقٌ كثير، ولم نَفْرغ من تجهيزه إلَّا عند وقت التطفيل لرغبة كثير من الناس في الظفر بنظرة أخيرة إلى وليّ من أولياء الله تعالى. صلَّينا عليه العصر، ثم دفنّاه في مقبرة الشونيزيَّة.

كان فَقْدُ خالي شديدًا عليَّ، إذ بموته انهَدَّ ركنٌ عظيم في بغداد وفي حياتي، لكنَّه لم ينسحب من هذه الحياة، حتى أخذ بيدي وأجلسني في حلقة العلم. لو كانت أمِّي على قيد الحياة، لما وسعها إلَّا أن تثني على شقيقها الذي اعتنى بابنها وعلّمه حتى تَصَدّرَ للتدريس في جامع بغداد. رَحِمَ الله السّريّ السَّقطي، وألحقنا به مؤمنين غير مُبدّلين ولا مُغيِّرين.

* * *

كانت حالُ الخلافة تثير الشفقة، فقد واصل الأتراكُ التحكُّمَ في الخلفاء، وتنصيبَ من يناسب أهواءهم، وعَزْلَ من يرغب في الاستقلال عنهم. قتلوا المتوكِّل، ونصّبوا المنتصر، ثم ما لبثوا أن دسُّوا له السمَّ، ونصَّبوا المستعين خلفًا له، ثم عادوا فخلعوه، ووضعوا مكانه المعتزّ الذي كان والدُه المتوكِّل يرغب في إسناد الخلافة إليه بدل أخيه المنتصر، لكنَّ الأتراك دبّروا غير ذلك. كان المعتزّ طويلاً

جسيمًا، أبيضَ البَشَرَة، حسنَ الوجه. كان للمعتزّ رغبةٌ في الثأر من الأتراك، لأنَّهم قتلوا أباه المتوكِّل وحرموه من الخلافة، ونصَّبوا أخاه المنتصر، ثم لمّا دَسُّوا السُّمَّ لأخيه، ونصَّبوا ابنَ عَمِّه المستعين الذي أودعه السجْنَ واستولى على أمواله. لكنْ، رغم الظلْمِ الذي عاشه، إلَّا أنَّ المعتزَّ كان طاغيةً، سَامَ الناس الظلْمَ والهوانَ، فقتل أخاه المؤيَّد بعدما سحب منه ولاية العهد، ثم انتقم من المستعين وقتلَه. وبدل أن يُقلِّلَ من نفوذ الأتراك حتى لا تبقى الدولة ألعوبةً في يدهم، فقد اضطرّ إلى التمكين لهم من جديد بعد ظهور الثورات ضدّه. ثم ثاروا عليه وخلعوه، وطلبوا من عمّ أبيه محمَّد بن الواثق الذي كان قد نفاه المعتزّ إلى بغداد، أن يتولَّى الخلافة، لكنَّه لم يَرْض إلَّا بعد أن استوثق أنَّ المعتزّ قد خلع نفسه، وأشهد بذلك أمام محمَّد بن الواثق الذي بويع، ولُقِّبَ بالمهتدي بالله سنة ٢٥٥ هـ. ثم ما لبث الأتراك أن قتلوا المعتزّ كان المهتدي رجلاً صالحًا زاهدًا، يُصلِّي بالناس ويَخْطُبُ فيهم، ولا يُغَيِّرُ ثوبَه لعِدَّة أيَّام.

تعاطف الناس مع المهتدي بالله، ووُزِّعَت المنشورات في المساجد والأسواق لمساندة الخليفة ضدَّ الأتراك الذين استوْلوا على الخلافة. وقع في يدي أحدُ هذه المنشورات، وفيه: «يا معشر المسلمين، ادْعُوا الله لخليفتكم العدلِ الرضَا المضاهي لعمر بنِ عبدِ العزيز أن ينصره الله على عَدُوِّه». كان المهتدي على رأس المقاومة؛ وانضمَّ إليه جيش من الجنود المغاربة، وجيشٌ من قبائل ما وراء النهر من الفَراغِنة والأَشْرُونْسِيّة وغيرهم. كان الخليفة يحمل سيفه، ويتقلَّد المصحف في عنقه، ويتقدَّم هذا الجيش الذي لم يَصْمُد أمام أعدائه، إذ خذلَتْهُ تلك القبائل التركيَّة وانضمُّوا إلى باقي الأتراك، فهرب الخليفة

منهم، بعدما أُصيب بسهم، ثم قَبضوا عليه وأهانوه وعذَّبوه، ثم قتلوه سنة ٢٥٦ هـ، وبويع مِنْ بعدِهِ للمعتمد على الله.

وفي هذا العهد، اشتعلَتْ ثورة الزَّنْج، التي كان على رأسها «بهبوذ» أو عليّ بن محمَّد الذي كان قد بدأ سلسلة ثوراته في البحرين، لكنَّه أخفق، فدخل العراق واستقرَّ في البصرة. ولمَّا رأى أنَّ مشروعه لن ينجح إلَّا بالاعتماد على فئة المتضرِّرين من ظلم مُلَّاك الأرض الكبار، فإنَّه تاجر بقضيَّتهم، وحرَّض الرقيقَ من الزَّنج الذين كانوا يشتغلون في استصلاح أراضي جنوب العراق للفلاحة، على الثورة. كان العمل شاقًّا، لأنَّ أراضي تلك المناطق سَبِخَةٌ وبها أملاح، فكان استصلاحُها يتطلَّبُ مجهودًا كبيرًا، لم تَقْوَ عليه إلَّا هذه الفئة من المستضعفين الذين استُغِلُّوا استغلالاً فاحشًا، ولم يأخذوا ما يستحقّون مقابل كدحهم. فلمَّا اتَّصَلَ بهم «بهبوذ»، أقنعهم بتحريرهم من العبوديَّة، والثورة على أصحاب الأراضي المستغلِّين، فاستجابوا له. وحتى يُقنع هؤلاء، فإنَّه ادَّعَى نسبًا علويًا، ثم ادّعى حصول الكرامات والخوارق، وأنَّ له اطّلاعًا على ما يجول بخواطر أصحابه.

كانت الثورات تتوالى. فإلى جانب ثورة الزَّنج، انطلقت ثورة الخوارج. كانت الحكمة تقتضي أن يحتاط الإنسان لنفسه حين تظهر مثل هذه الفتن. فقد كان للدولة عيون في المسجد، كما كان لخصومها عيون فيه. كان الكلّ يراقب الكلّ، ويتمّ تصريف المواقف السياسيَّة في حلقات العلم ومنابر المعرفة. كانت الأسئلة التي يلقيها بعض الطلبة تندرج نفسُها في هذا السياق، فكلَّما كان الهدفُ إظهارَ موقِفٍ أو الكشفَ عن توجُّه، أو الدفاعَ عن مذهبٍ، أو محاربةَ طائفة، يتمّ من خلال هذه المواقف غير المباشرة. لهذا، كنتُ أحتاط كثيرًا من الأسئلة

التي كانت تُلقى إليّ في حلقة الدرس من بعض الغُرباء، ورؤوس الفتنة. كان عليّ أن أزن كلَّ سؤال بميزان رفيع، حتى لا أُوَرِّط نفسي وأُوَرِّط أصحابَنا في أمورٍ لا تحمَدُ عواقبها. كانت حلقات الدروس مِجَسَّاتٍ حقيقيَّة لما يقع في البلاد. عاد الخليفة المعتمد للاستقرار في بغداد، وجعلها حاضرة الدولة من جديد. لم يكن الأتراك ممَّن يحكمون الدولة مهتمِّين بالعلوم والمعارف والفنون، بل كانوا منصرفين إلى الأمور العسكريَّة والمناورات الداخليَّة للمنافسة على الحكم، وجمع الثروات وتكديسها كان ما يقع في حلقات الدروس، وما يتمّ تصريفه من مواقف فيها يسمح بهامش للحرِّيَّة، رغم أنَّ الآلة العسكريَّة آلة تنفيذيَّة لا تسمح بالنقاش وتصريف المواقف، وترك هوامش للتنفيس عنها. إنَّها آلة تضيق بالحوار والاختلاف، والسلطة فيها سلطة إداريَّة تنفيذيَّة تتمّ بقرارات، بينما حلقات الدروس التي يعطيها العلماء من كلٍّ فنٍّ وعلم قائمة على سلطة أخرى، هي السلطة المعرفيَّة التي لا تُمنح بموجب قرارات. كثير من سوء الفهم الحاصل، بين من يملك السلطة التنفيذيَّة وبين من يملك السلطة المعرفيَّة، مردُّهُ إلى عدم تقدير دائرةِ نفوذِ كلِّ سلطة. حينما تجتمع السلطة في شخص واحد يكون قادرًا على التمييز بين دوائر التصَرُّف في كلتا السلطتين، فإنَّ الحرِّيَّة تكون مكفولةً لكلِّ أصحاب المذاهب والملل والنِّحَل، لكنْ حين تتقلَّص المعرفة لدى الحاكم وتضعُف، يتسلَّطُ أصحابُ القوَّة على أصحاب المعرفة، فتحدُثُ الكوارث، ويُتعَقَّبُ الناسُ ويُمتَحَنون، لكنْ قد يحدث أن ينتصر حاكم عارفٌ لمذهب بعينه لأسباب سياسيَّة، من أجل التمكين لسلطته، لكنَّ القاعدةَ العامَّة على خلاف ذلك. أمام هذا المشهد، كانت بغداد العالمة تأنَفُ من الخضوع لغطرسة العسكر.

كانت تُنافِح عن هوامش الحرِّيَّة فيها، باستدعاء تاريخها الحافل، الذي سمح بأن يكون لكلِّ ذي مذهب ونحلة ومِلَّةٍ منبر يعتليه ويتكلَّم من أعلاه بما يرضيه، دون أن يخشى التضييق عليه. كان التعدُّد ضمانًا لحرِّيَّة الجميع، وكان أيّ تهديد لحرِّيَّة الواحد تهديد للجميع. كلّ هذه الاعتبارات لم يكن يعيرها العكسر اهتمامًا، بل كانوا يأنفون من كلِّ جهد فكريٍّ ومعرفيّ، ويرون أنْ لا طائلة تحته. ويكفي أن يتجسَّس عليك ناقم أو غريم، وينقل لهم عنك قولاً يشعر برائحة تهديد لسلطتهم، حتى تراهم يَهُبُّون إلى مضايقتك أوَّلاً، ثم القضاء عليك ثانيًا، ثم قطعِ شأفة كلّ من تُسَوِّلُ له نفسُه أن يركبَ تلك المراكب أو يعتلي تلك المعالي. أمام هذه التطوُّرات، كان يلزمني أن أحترز فيما أقول، وأُطوِّرَ مُعْجَمَ الاصطلاحات الدائرة بين القوم، حتى لا يتسلَّلَ المتسلِّلون إلينا فيقضون على أصحابنا من أهل الاستنارة في بغداد. لم تكن العبارةُ عندنا قد تَقَعَّدَتْ، ولا الاصطلاحُ قد استقَرّ، فبدأتُ أتكلَّمُ في مثل هذا، وبَنَيْتُ دروسي على التوحيد، إذ هو جوهَرُ الإنسان. هذا العلم الذي نتكلَّم فيه مردُّه إلى ثلاثة أمور، هي مصادر المعرفة فيه، وهي القرآن والسُّنَّة والوجود. كثيرٌ من سُوءِ الفَهْم الحاصلِ مَرَدُّهُ إلى عدم إدراك تعدُّد هذه المصادر، فترى بعض الجُهَّالَ لا يميِّزون بينها، ويستدعون دليلاً واحدًا دون إدراك الأدلَّة الأخرى، فيُنكِرون على من كان أُفُقُه أَرْحَب، ودائرةُ مصادِره أوسع، وأدِلَّتُه أَنْفَع. إنَّ كثيرًا من أحوالِ أهل الله ومواجيدِهم مرجِعُها إلى الوجود، ولا يمكن إنكارُها بحجَّةِ أنَّ مَثيلاتها لم تَحْصُلْ لمن سَبَقَهُمْ من الصحابة والتابعين والسَّلَف الصالح.

# كتاب الميم

عـلـم الـتَّـصَـوُّفِ عِـلْـمٌ لَـيْـس يَـعْـرِفُـهُ    إلّا أَخُـو فِـطْـنَـةٍ بِـالـحـقِّ مَـعْـرُوفُ
ولـيـس يـعـرفُـهُ مَـنْ لَـيْـس يَـشْـهَـدُهُ    وَكَـيْـفَ يَـشْـهَـدُ ضَـوْءَ الـشـمْـسِ مَـكْـفُـوفُ

**(الجنيد)**

* * *

كان يلازمني جماعة من الطلبة والأصحاب، فنجتمع في حلقات الدرس، أو في بيت أحدنا. كما كنت أمضي الوقت في دكّاني.

وقد حزنت كثيرًا لموت شيخي في الحديث الحسن بن عرفة، كما فارقنا أحد أصحابنا من كبار رجالات القوم، هو أبو سعيد الخرّاز. في ظلِّ هذه الظروف، كان عليَّ أن أسيحَ في الأرض، ورغبت في أداء فريضة الحجِّ، وقد كان كثير من أصحابنا الذين أدَّوْا فريضة الحجِّ مرارًا يُلِحُّون عليّ في مرافقتهم. وقد كان خالي السَّريّ السقطي قد حجَّ ستِّين مرَّة. لكنِّي لم أُغادر بغداد، وكنت أعتذر لهم بأنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام

لم يحجّ إلّا مرَّة واحدة. لكنْ بعد موت خالي، جاءني جماعة من الأصحاب الذي أَلِفُوا مصاحبته في رحلات الحجّ، لكي أرافقهم. كنت متوجِّسًا، فقلت لهم: لعلَّ الطريقَ غيرُ آمِنٍ هذه الأيَّام مع ثورة الزَّنج.

فقال الجريريّ: لا تَرُعْ يا أبا القاسم، فهناك طريقان إلى الحجِّ، طريق البصرة، وهو غير آمن، لأنَّ بهبوذ زعيم الزَّنج يجوس مع أتباعه هناك خلال الديار؛ ثم هناك طريق الكوفة المعروف بدرب زبيدة، وهو آمن.

فقلت: لقد عاث بهبوذ فسادًا، حتى أحرق قرى بكاملها، وقتل الآلاف، بل وسبى الشريفات العفيفات من وِلْد الحسن والحسين والعبَّاس من الهاشميَّات، فباعهنَّ كالجواري بالدرهم والدرهمين لرجاله من الزنوج، فوطأوهنَّ، وصرن خادمات عند نساء الزَّنج.

فقال الجريريّ: سمعنا بهذه الشناعات يا أبا القاسم، لكنَّ الخليفة المعتمد قد استدعى أخاه أبا أحمد الموفَّق بالله من مكَّة، وولَّاه أقاليم الكوفة، وطُرُقَ مكَّة والحرمين. وهو رجل معروف بشجاعته وبسالته وحزمه.

فقلت: لا تأمنوا مكر الله يا أصحابي، فإنَّ الفتن كثيرة. وقد تعرَّض كثير من الحجَّاج للقتل والسرقة والسَّبْي والرِّق.

فقال النوريّ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾ يا أبا القاسم.

فقلت: إن كنتَ تأمَلُهُ، فَلا تَأْمَنه. لكنِّي واحدٌ منكم، ولن أتخلَّفَ عنكم.

فقال سمنون: بوركَ فيك يا أبا القاسم. وكَمْ في السفر مع الأحبَّة من مَزايا؟

ثم قاموا وانصرفوا عنِّي. بقيتُ متفكِّرًا في ما قاله الأصحاب، ثم صلَّيت ركعتيْ استخارة، فرأيت في صلاتي أنِّي أضع خاتمًا نُقِشَ على فَصِّه «إن كنتَ تأمَلُه فلا تأمَنُه». أغلقت دكَّاني، وخرجت قاصدًا سوق الصاغَة، فوقفتُ عند صاحبٍ لي يبيع الخواتم، وطلبت منه أن يصنع لي خاتمًا من الفضَّة والعقيق اليمني، وينقش على الفَصِّ عبارة «إن كنت تأمله فلا تأمنه»، ثم أعطيته عربونًا، وانصرفت إلى بيتي.

دخلت على فاطمة التي كانت تحمل ولدنا محمَّدًا، فابتسمتُ لهما، وأخذتُ منها محمَّدًا فقبَّلته. نظرَتْ إليَّ فاطمة، ثم قالت: ما لي أراك مُشوَّش الخاطر يا أبا القاسم؟

فأجبتها لقد طلب منِّي الأصحاب اليومَ أن أرافقهم في رحلة الحجّ.

فقالت: وما المزعج في الأمر؟

فقلت: أخشى أن أتْرُكَكِ وحدَك مع ولدِنا الصغير.

فقالت: لا عليك، فأنا أُحسِنُ تدبير أمري، وسأعتني بمحمَّد في غيابكَ عنايةً خاصَّة.

تهيَّأتُ للسفر، وأخذتُ معي بعض الأغراض، وكيسًا من المال للنفقة عليَّ وعلى أصحابي من الفقراء. اتَّفقنا على أن نخرجَ مع ركب الحَجِّ العراقي. كان ركبُ هذه السنة أقلَّ حَجْمًا من رَكْبِ الأعوام الماضية، نظرًا لتخوُّفِ الناس من فتنة الزَّنْج، لكنَّ الأصولَ المرعِيّة للركب العراقي بقيَتْ على حالها ككلِّ سنة. خرجنا من بغداد بعد صلاة الصبح، واتَّجهنا نحو الحلّة التي تقع على نهر الفرات. وهناك، يجتمع جميع الحجَّاج القادمين من فارس وبلاد ما وراء النهر،

ويلتحقون بركب الحجّ العراقي. كانت البلدة آهلة بكلِّ الأجناس. نزلنا على أهل بيت هناك كان من أصحابنا، فأكرم وفادتنا وفي اليوم الموالي، قطعنا النهر من أضْيَقِ نقطة منه على المراكب التي تُقِلُّ الناس من ضفَّة لأخرى.

## مقامات السير ومنازل المعرفة

كنَّا نمشي على الأقدام على عادة القوم في مجاهدة النفس، ولم نركب الدوابّ أو الرواحل. كنَّا نسير في مقدِّمة الركب، ومشينا حتى وصلنا إلى الكوفة، فنزلنا عند بعض أهلها في خيام نُصبتْ للحجيج مُقابل ثمن معلوم. استرحنا من وَعْثَاءِ السفَر، وتدبَّرنا أُمورَ زادِنا كانت الشمس قد قَرُبَتْ من المغيب، وكان جَوُّ الصحراء الهادئ قد أصبح يُخَيِّمُ على هذه الربُوع، لكنَّ ركْبَ الحجَّاج قد أحدثَ حركة كبيرة في المدينة وضاحيتها. أَذَّنَ المؤذِّنُ لصلاة المغرب، فاجتمع الحُجّاج يُصَلُّونَ خلفَ إمام الركْب، لكنَّ الفضاءَ لم يكنْ يسمَحُ بأن يصلِّي الجميع معه، فصلَّى كثيرون في جماعات صغيرة. صلَّينا المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا وبعد الصلاة، جلستُ أُعطي درسًا كانت العادة أن يَبدَأ الدرسُ بالأسئلة التي يطرحها الأصحاب. بادر أحدهم، فسألني قائلاً: ما هي الأسُسُ التي بُنِيَ عليها طريق القوم؟

فقلت: «بُنِيَ الطريقُ على أربع، لا تتكلَّمْ إلَّا عن وجود، ولا تأكلْ إلَّا عن فاقة، ولا تَنَمْ إلَّا عن غلبة، ولا تَسكتْ إلَّا عن خشية». وليس بين العبد وربّه إلَّا خطوة يخطوها خارج نفسه، وكلَّما أبعد في الخَطْو خارجها كان أوثَقَ في الوصول إلى المطلوب.

فقال السائل: لعلَّك تهيِّئنا يا أبا القاسم لرحلة الحجّ هذه.

فقلت: الطريق نوعان، حسِّيّ ومعنويّ، وطريقنا هو الحجّ الأكبر، وقد بُنِي على هذه الأربع، وهي: قلَّة الكلام، وقلَّة الطعام، وقلَّة المنام، وقلَّة الأنام. أو لتقلْ، بُنِيَ الطريق على الصمت والعزلة والجوع والسهر فهذه الأربع هي التِرْياقُ لِعِلَلِ النفس واضطراباتها. إنَّ مَنْ جَرَّب هذه الأربع حصل له تغيير في أعماقه يجعل صفاته تتبدَّل، وأحوالَه تتلوَّن، حتى يتمكَّن. فما لم يُخْمِدِ السالكُ صفاته البشريَّة لا حظَّ له في بلوغ مقامات العارفين.

ثم سأل آخر عن معنى المعرفة والعارف؟

فقلت: لون الماء لون إنائه، فالمعرفة هي الماء، والعارف هو الإناء، فهل يَصِحُّ حملُ الماء في غير إناء؟ فكذلك المعرفة لا يحمِلُها إلَّا عارفٌ حتى يمتزجا، فلا يُدرَكُ الفَرْقَ بين الحامل والمحمول، ولا بين الصفة والموصوف، ولا بين الذات والموضوع، ولا بين المسنَد والمسنَدِ إليه.

فقال آخر وما علامة العارف؟

فقلت: العارف هو الذي «ينطق عن سِرِّكَ وأنتَ ساكِت».

فقال: كيف ذلك؟

قلت: السكوتُ عَدَمُ الكلام، والعارفُ يعرفُ منك ما لا تعرفه عن نفسك، مثله مثل الطبيب، فإنَّه يعرف صحَّتك من مرضك بمجرَّد النظر إليك ومعاينتك، ممَّا لا تعرفه أنت عن نفسك. والعارفون هم أطبَّاء النفوس. العارف يشبه الماء الذي يتلوَّن بلون إنائه، فهو المتخلِّق بأخلاق الله. فأوَّل معرفته بالله، ونهايتها في الله. العارف غائب عن نفسه لاستيلاء ذكر الحقِّ عليه، مستهلَكٌ فيه، فلا يشهد غير الله، ولا

يؤوب إلّا إليه، فهو يحيى بربّه.

ثم سأل أحد أصحابنا الشباب: وكم يلزم من الوقت للوصول إلى هذه المرتبة يا أبا القاسم؟

فقلت: إنَّ وحدة القياس في المعرفة بالله يا أخي لا تُقاس بالزمن، وإنَّما بالخطوات التي تخطوها خارج نفسك. وتلك الخطوات تنقلك من حال إلى حال، أي من مرتبة وجوديَّة إلى مرتبة وجوديَّة أخرى. وكلَّما كانت خطواتُك آكَدُ، كانت أحوالُك أعمَق. فالحركة الحقيقيَّة هي حركة الأنفاس لا حركة الأشخاص. إنَّ كلّ خطوة خارج نفسك تُحدِث فيك تحوُّلاً، يجعلُكَ تَذوقُ معنى الحرِّيَّة الحقيقيَّة. جعلنا الله من أصحاب الخطوة إلى الله.

أَمَّنُوا جميعًا على الدعاء.

بقينا نتحدَّث في مثل هذه الأمور حتى أدركنا الليل، فأخلدنا للراحة في انتظار اليوم الثاني من رحلة الحجّ الكبرى. لم نكد نستلقي قليلاً، حتى جاءني صاحبي الجريريّ فزعًا، فقلت له: ما وراءك؟ وما لي أراك فَزِعًا؟

فقال: أَدرِكْ يا أبا القاسم، فقد وصلَتْ للتوِّ أخبارٌ سيِّئة عن صاحب الزَّنج.

قمتُ وقام الأصحاب، فجلس الجريريّ، وبجانبه شخصٌ كان ضمنَ ركبِ الحجّ العراقي، فقال الجريريّ: هذا أحمد اليعقوبي، ابنُ صاحب البريد، وقد أخبرني أنَّ زعيم الزَّنج قد فتك بأهل البصرة، وأنَّه قضى على الجيش الذي بعثه الخليفة لقتاله.

تكلَّم اليعقوبي، فقال: لقد وصل بعضُ الحجّاج هاربينَ مَرعوبين

ممَّا رأوا وشاهدوا من الفَظاعات التي ارتكبَها الزَّنج، ولم يُفلِتوا من بين أيديهم إلَّا بمهارة أحدِ رُبَّان المراكب التي تُبحِر في نهر دجلة، فقد راوغَ سُفنَ أعدائهم التي كانت تتعقّبهم، وسلك بهم في بعض الأذْرُع حتى تَوارَوْا عن مُطارديهم، ثم سلكوا الطريقَ البرِّيَّة التي تتَّجِهُ إلى الكوفة، حتى وصلوا قبل قليل مذعورين.

فقلت: وأين هم هؤلاء الحُجّاج المساكين؟

فقال اليعقوبيّ: إنَّهم مع القاضي وقائدِ الجيش يحكون لهما ما حصل، وقد كتب أمير الركب العراقي رسالةً عاجلة إلى شقيق الخليفة، الموفَّق بالله، يُطلِعُه على هذه المستَجَدّات.

فقلت: كيف ذلك؟ وكيف لهذا المتمَرِّد أن يَقضي على جيشِ الخلافة؟

فقال اليعقوبيّ: إنَّه يتحصَّنُ في مدينته المسمَّاة بالمختارة في منطقة سَبِخَة، لا تستطيعُ أن تدخلَها الجيوش لوُعورتها وتحصيناتها، وكثرة مياهها وعوائقها

فقلت: وكيف استفردَ بأهل البصرة؟

فقال: لقد استعمَلَ الحِيلَةَ معهم، حيث وعدَهُم بأن يُعطيهم الأمان مُقابلَ أن يَدفعوا له أموالهم، فلمَّا استلَمَ الأموالَ من أغنيائهم، قتلَهُمْ. أمَّا فقراؤهم الذين استسلَموا له، فقد قتلَهم لأوَّل وَهْلَة. وقد سالتِ البصرةُ بالدماء، حتى لم يبقَ بيتٌ إلَّا وقد عمَّته الفَاجِعة. ومن نجا منهم اختَبأَ في السطوح، ولا يَخرُجونَ إلَّا ليلاً للبَحثِ عن الطعام، بعدما نَهَشَهُم الجوع. بل إنَّهم أكلوا لحومَ القِطط والكِلاب، بل أكلوا لحومَ الآدميين من جُثَثِ الأموات. إنَّ ما حصل أمرٌ لا

يُصدَّق، لكنَّه عينُ الحقيقة. أمَّا الحُجّاج الذين وصلوا إلى البصرة، فقد سَلَبَ ما عندهم وقتل كثيرًا منهم. وقد بلغنا أنَّه يريدُ أن يَفْتِكَ بركب الحاجِّ في طريق الكوفة. لهذا، جئتُ أُخبِرُكم بأن تتأهَّبُوا للرحيل على وجه السرعة في أوَّلِ ساعة عند السحَر

ضربتُ يدًا في يَد، وَالْتَفَتُّ إلى الأصحاب، فرأيت الرعبَ في عيونهم من هَوْلِ ما سمعنا. لم يستطعْ أحدٌ أن يَنْبِس بكلمةٍ من هول الصدمة، رغم أنَّ الإحساس الذي انتابَنا لم يكنِ الخوفَ من الموت، فهو أمرٌ خَبِرَه الأصحاب، وليس لهم أدنى تخوُّف منه، بل كانوا لا يَعُدُّون الرجلَ من القومِ حتى يستَوي عندَه الموتُ والحياة.

خاطبتُهم قائلاً: لا بدَّ أن نُساعدَ بقيَّةَ الحَجِيج في جمع أغراضِهم، حتى يُغادرَ الجَميعُ في الصباح البَاكر

كان الأصحابُ يعرفونَ قِيَمَ الفُتُوَّةِ والنجْدة والمروءة، ولم يكن كلامي ليقعَ منهم إلَّا مَوْقِعًا حَسَنًا نِمْنَا تلكَ الليلةَ، وكلُّنا مُتَوَجِّسٌ من أن يُغير علينا جيشُ بهبوذ في ظلمة الليل. وقد آثرَ النوريّ أن يَحرُس خِيامَنا. عند التبَاشِير الأولى للفجر، قُمنا فتوَضَّأنا وصَلَّينا رَكْعَتَي السُّنَّة، وبدأنا نُساعدُ بقيَّةَ الحُجّاج في جمع أغراضهم ووضعِها على ظهور رَوَاحِلِهم. أذَّنَ المؤذِّنُ لصلاة الصبْح، فصلَّيْتُ بهم على عَجَلٍ، ثم صَلَّينا صلاةَ الغَائِب على الضحايا، وجَأَرْنَا بالدعَاءِ، لكي يَرْفَعَ اللهُ عنّا هذا الضُّرّ ويكشِفَ عنّا هذا الغَمّ، ويَنْصُر جيشَ الخِلافة على المتمَرِّدِين. كانَ أميرُ الركْبِ قد أعطى أوامِرَهُ للجيش المرافِق لنا، حتى يستحِثَّ الناس على المغادرة بسرعة. لم تكن أشعَّةُ الشّمس قد طلعَتْ بَعْدُ، فَسِرْنَا مُسْتَحِثِّينَ الخُطى. كنَّا نتقدَّمُ الركب الذي كان يمتدُّ على مسافة طويلة، كأنَّه مدينة كبيرة تتحرّك، فيها مِنْ كُلِّ الأجناس. كانت

الأرضيَّةُ التي نمشي عليها خَلِيطًا من الحَصْبَاء والطِّينِ والرَّمْل، ولهذا سُمِّيَت المدينةُ بالكوفة اشتِقاقًا من معاني لَفظَةِ «الكوفة» في العربيَّة. كنَّا نسمَعُ أصواتَ نِعالِنا تَخْصِفُ على هذه الحصباءِ الرمليَّة، ولم يكن أَحَدٌ راغِبًا في الكلام. ومِنْ خَلْفِنَا، كانتِ الإبِلُ والروَاحِلُ تَمُدُّ أعناقَها، كأنَّها تَطلبُ غايةً تقصِدها هي الأخرى. كانت قلوبُنا مَكلومَةً ممَّا سمعنا عن المجزرةِ التي قام بها أتباعُ بهبوذ، فلم يكن يَحْذُو الجميعَ إلَّا الرغبةُ في الإفلاتِ من هؤلاء الرعاع المتوحِّشِينَ، الذين لم يُراعُوا ذِمَّةً ولا حُرْمَةً لأحد، بل قتلوا وسلَبوا وأحرَقوا ودمَّروا وعَاثُوا فسادًا في الأرض. اتَّفَقْنا على أن نمشي اليومَ كلَّه، ولا نَستريحَ إلَّا عند النزولِ في أقربِ مرحلةٍ تَلِينَا كان عددُ المراحلِ على دَرْبِ زبيدة ٥٣ مَرحلةً. سبعٌ وعشرونَ منها محطَّات رئيسة، والباقي محطَّات ثانويَّة. فلعلَّ الله يُوفِّقُنا لكي نَجْمَعَ بين حقيقة هذا الطريق الحسِّيَّة، وبين حقائقه المعنويَّة؛ ولعلّ في حقيقة اسمنا «جنيد» ما يَدُلُّ على هذه المعاني العظيمة. كانت هذه المحطَّات على مَسارات الأودية والشعَاب، بحيث عندما تَهْطِلُ الأمطارُ وتأتي السيُول، تمتلئُ الأَحواضُ والبِرَكُ والخَزّاناتُ الأرضيَّة، ويبقى فيها الماء أَشهرًا عديدةً، يتزوَّدُ منه الحُجّاجُ والمسافرون وبَهائمُهُم. ويرجِعُ الفَضْلُ في ذلك إلى السيِّدة زبيدة بنت الخليفة المنصور وزوج هارون الرشيد، التي خَبِرَتْ مَشَقَّةَ الحجّ على هذا الطريق، ولقيت عَنَتًا شديدًا في مَسيرها، ورأتْ ما يُعانيه الحُجّاج من عطش وعَنَتٍ وجهد، فهداها الله إلى بناء تلك الأحواض والبرك والآبار بطريقة بديعة، حتى تُخَزَّنُ فيها المياه.

عند الضحَى، بدتْ لنا زوبعةٌ من الغُبار في الأُفق، فحَسِبناها من أَثَرِ الريحِ التي عادةً ما تثيرُ مثل هذه الزوَابع، وكأنَّها صغارُ الجَانِّ

تَلْعَبُ في هذا الفضاء الرحْبِ الخالي من الإِنْس، لكنَّ الجَوَّ كان هادئًا، والريحَ منعدمة. ومع مرورِ الوقتِ، كانت الزوبعةُ تقتربُ وخيالاتُ أشخاصٍ تتراءَى لنا  تنبَّه قائدُ الركب إلى الأمر، فأرسل كتيبةً لناحيةِ الزوبعة التي كانت تقترب أكثر، وتتَّضِحُ معالِمُها بشكل أجلى، حتى لم نَعُدْ نَشُكُّ في أنَّها رَكْبٌ صغير. كانت الكَتيبة قد وصلَتْ قُرْب الزوبعة، فتصاعد الغُبار بشكل أكبر، ثم بَدَتْ لنا شيئًا فشيئًا بعضُ الرواحل تركُضُ نحونا، فأدركَ أميرُ الركبِ أنَّ الأمر جَلَلٌ، فأرسلَ كتيبةً أخرى لمساعدةِ الكتيبةِ الأولى. كان الخوفُ قد استولى على ركبنا، وأخذ الناسُ ينظرُ بعضُهم لبعضٍ، ويتساءلونَ عن الأمر، وأدركوا أنَّ هناكَ خَطرًا قادِمًا، فاختلَّ نظامُ الركب، وحاول البعضُ أن يَفِرَّ في الاتِّجاه المعاكس، لكنَّ رجالَ الأميرِ أعادوا تنظيم الركبِ، وطلبوا من الحُجّاج المرعوبين أن يَثْبُتوا في أماكنهم حتى ينجلي الأمر، وطمأنوا الناس بأنَّ الوضعَ تحت سيطرتهم، فلا داعي للخوف والرعب. وبينما كنَّا ننتظرُ ما سَتُسْفِرُ عنه هذه اللحظاتُ الثقيلة، إذ بدأ الغبارُ ينقَشِعُ كلَّما اقتربَ الركبُ ناحيتَنا  وفجأةً، اتَّضَحَ الموقفُ. لقد كان جماعةٌ من الزنوج والأعرابِ يتعقّبونَ بعضَ الحُجَّاج، واستطاعوا أن يَظْفَرُوا ببعضهم ممَّن كانت راحلَتُهُ بَطيئَةً، فرأيناهم يُعْمِلُونَ فيهم السيوفَ والرمَاح. طارتْ بعضُ الرؤوسِ في الهواء، لكنَّ وصولَ الكَتيبَتَيْن أوقفَ هَجماتِ الزنوج والأعراب على الحُجّاج الهاربين لمَّا اشتبكتا معهم، واستطاع غالبيَّة الحجّاج أن يَسْلَمُوا من مُتَعَقِّبيهم، وما زالوا يستَحِثُّون رواحِلَهم حتى وصلوا ناحيتنا  تلقّاهم أميرُ الركب ورجالُه، وأحاطوا بهم. ذهب اليعقوبيّ لِيَسْتَفْسِر عن الأمر ناحيةَ الأمير، بِحُكْمِ أنَّ أسرَتَهُ هي التي تُمْسِكُ خَدماتِ البريد في الدولة، وله

معارف ومداخل، بحيث كانت الأخبارُ تَقَعُ عندَه في أَوَّلِ حُصولها استمرّتِ الاشتباكاتُ بين الفريقين مدّةً معتبرةً، حتى تغلَّب الجُنْدُ على الزنوج والأعرابِ، وقتلوا منهم جماعةً، فيما فَرَّ الباقون. جاء اليعقوبيّ أخيرًا ناحيتَنا مَرفُوقًا ببعض الحُجّاج الذين نَجَوْا من المذبحة، وأخبرنا بما حصل. سقيناهم بعض الماء، واعتنينا بهم، وأحطنا بهم وآزرناهم وواسيناهم. كانت سحناتهم ملتهبة كالجمر بحرارة أبدانهم، وزادها العرق الذي كان يتصبَّب من جباههم لمعانًا وسُطوعًا، بسبب أشعَّة الشمس المحرقة. تسابقَ أصحابنا في خدمتهم والتخفيف عنهم. كانوا من الحجَّاج القادمين من جهة نيسابور ومَرْو. تلقّفناهم بالعناية وأحطناهم بالرعاية، حتى استأنسوا وطابت خواطرهم، وفارقهم رعب اللحظات التي عاشوها تكلَّم أحدهم يحكي لنا ما حصل، فقال: كنَّا قد وصلنا إلى البصرة، ومكثنا فيها عدَّة أيَّام ننتظر اجتماع الحجيج الوافدين من خراسان وبلاد ما وراء النهر وغيرها وكنَّا متخوِّفين من الخروج من المدينة، حتى نتأكَّد من زوال تهديدات الزَّنج. فلمَّا كان يوم الجمعة السابع عشر من شوال، وقت صلاة الجمعة، هاجم الزَّنج البصرة وأخذوها، فقتلوا أهلها مع وقت الصلاة، واستمرَّ القتل حتى يوم السبت. كانت جماعتنا تختبئ عند بعض أهل البصرة، وحاول أحد أعيان المدينة أن يأخذ الأمان لأهل المدينة، فأعطاه قائد الزَّنج الأمان، ونودي في المدينة بذلك. فخرج الناس معتقدينَ صِدْقَ نوايا البحرانيّ، قائدِ جيش الزَّنج. اختلفت جماعتنا بين من وَثِقَ في أمر الأمان، وبين من شكَّ في صحَّته، فخرج منَّا من صدَّق بالأمر، وبقينا في جماعة نترقّب كيف نَفِرُّ من البصرة. بعد مغادرة أصحابنا، تشاورنا في الأمر، فأشار أغلبنا بالخروج والهروب حالاً، لأنَّه أفضل من البقاء

في مخبئنا. خرجنا من ناحية لم تكن محروسة، فوصلَنا صراخُ من وَثِقَ بالأمان، ورأينا عن بعد كيف كانوا يقتلونهم ويَبْقُرُونَ بطونَهم بسيوفهم ورماحهم. ثم عمدوا إلى المسجد الجامع في المدينة، فأحرقوه بمن فيه من المصلِّين، وأضرموا النار في المزارع والحقول، حتى شبَّت الحرائق في وسط المدينة وأطرافها، فأحرقَتِ البشر والدوابّ والبيوت. كانت رائحة الأجساد المحترقة لا تُطاق، وكأنَّ نار جهنَّم قد سُعِّرَت في الدنيا، ولكأنَّ جحافلَ الشيطان تنتقمُ مُسْبَقًا عن المصير الذي ينتظرها يوم القيامة. كانت رائحةً تنشر الموتَ حتى ينسَلَّ إلى شُغَافِ القلوب، فيُزعِجها بالوَجِيبِ المتّصل، والخَفَقَان المرتبك، والهشاشة المرتعشة. سيق من نجا إلى قائدهم البحرانيّ، فاستخلص أموال أغنيائهم، وقتلهم. أمَّا الفقراء، فقُتلوا في البدء. كما قَتَلُوا جماعةً من الفضلاء وأعيان البصرة من الفقهاء والعلماء والمحدّثين والأدباء. ومن بقي من الناس اختفى في الآبار والأماكن المهجورة، ولا يظهرون إلَّا في الليل. فيأخذون الكلاب والفئران والقطط، فيذبحونها ويأكلونها من فرط الجوع. بقينا عدَّة أيَّام مختبئين حتى وجدنا فرصة للهرب، فتسلَّلنا في جُنْح الليل بحذر شديد وحيطة كبيرة، نُحاذِرُ أن يقبضوا علينا خرجنا من المدينة من جهة خالية، فلم يصادفنا أحد من الزَّنج، وما زلنا نسير حتى وجدنا مجموعةً من الدوَابّ، كانت قد هرَبَتْ من النيران التي اندلَعَتْ في المدينة، وهامَتْ سائبةً على وجهها في الخَلاء، هاربةً من روائح الموت وتَعفُّنِ الجُثَث، فركبناها، ويَمَّمْنا جهةَ الغَرْب فارِّينَ من هذا الهَوْل العظيم. قطعنا الليلَ بالنهار، وواصَلْنا المسير دونَ تَوقُّف. وبعد يومين من خروجنا، وصلنا إلى درب زبيدة، فمشينا فيه حتى وصلنا إلى إحدى محطَّات الطريق بعد الكوفة، فارتوينا ورَوَتْ

دوابِّنا، بعد أن أصابَ منَّا الجوعُ والعطشُ والإجهادُ مبلغًا كبيرًا. سألنا بعضَ أهلِ تلكَ النواحي عن رَكْبِ حُجّاج البصرة الذين خرجوا قبلَنا، فأخبرونا أنَّهم لم يَمُرّوا من محطَّتهم، فَسَاءَتْ ظُنُونُنَا بأنَّ الزنُوجَ والأعرابَ تعقَّبوهُمْ، ولَحِقُوا بهم وأَفْنَوْهُم. ثم سألنا عن ركْبِ حُجَّاج الكوفة، فأخبرونا بمرورِهم من هذه المحطَّة ليلةَ أمس. وعند سَحَر هذا اليوم، قمنا على صرخةِ امرأةٍ روّعَها زنجي واغتصَبَها، فقمنا مَذعورينَ لا نَلْوِي على شيء. حاول أحدُنا أن يدافعَ عن شَرَفِ المرأة، فالْتَقَفَهُ زنجيّ ثانٍ بسيفه وطوَّح بعنقه على الأرض، ثم رأينا مجموعةً أخرى تقتربُ لِتَفْتِكَ بنا، فرمَيْنَا بأنفُسِنَا على دَوَابِّنا، لا نطلبُ سوى النجاة من هؤلاء البُغَاة. فررنا من جماعةِ الأعرابِ والزَّنْجِ التي كانت تجوسُ خلالَ تلكَ الديار، وتتعقَّبُ الفَارِّينَ من البصرة حتى وقعَتْ في ناحيتنا أَرْخَيْنَا العِنانَ لدوابِّنا التي هامَتْ لا تَلْوِي على شيء، وكأنَّها أدركَتْ ما ينتظِرُنا من الهلاك، فراحَتْ تعدو بسرعة، وكأنَّ سرعةَ وَجِيبِ قلوبِنا قد نقلَ إليها رُعْبَنا، فرمَتْ بنفسِها على الطريق فرارًا من الموت المحقَّق. تعقَّبَنا البُغاةُ طوال اليوم حتى أدركوا بعضًا منَّا، فأطاحَتْ سيوفُهُم بالرؤوس، ولم تُفلِتْ بقيَّتُنَا إلَّا بعد أن جاء **جُنْدُ** الركب، فتشابكوا مع الجُناة، فأنجانا الله منهم.

لم يكد الرجل يُنهي قصَّةَ ما وقع حتى انتبهنا إلى الطبُولِ تُقْرَع إيذانًا بالرحِيل، فمشينا أكثرَ عَزْمًا، وواصلنا مسيرنا على درب زبيدة طَوَالَ اليوم، ولم يحصُلْ ما يُكَدِّرُ صَفْوَنَا. لم يكن من الحِكْمَةِ التوَقُّفُ عن المسير بعد أن وصلَ مُرْتَزِقَةُ بهبوذ إلى هذه الجِهات. واصلنا، ولم نتوَقَّفْ إلَّا عند طُلوعِ السحَر من اليوم الموالي. كانت ليلةً مُقْمِرَةً من ليالي شهر شوّال، وكان الفصلُ نهايةَ الصيْف. والسيْرُ ليلاً مريحٌ

وهادئ. توقَّفنا في محطّة العُذَيْب، التي تُعتبر المحطَّةَ الرئيسةَ بعد الكوفة. وفي طريقنا، تجاوزنا عدَّة محطَّات ثانويَّة، مثل محطَّة النجف والقادسيَّة والرحبة. كان بين القادسيَّة والعُذيب سورٌ، بناه الفُرس قديمًا لحراسة طريق الحِيرَة القديم. كانت منطقةُ النجَف والقادسيَّة مناطقَ وفيرةَ المياه، وبها أراضٍ زراعيَّة. توقَّفْنا عند العُذيب، لأنَّ البرِّيَّةَ تبدأ من هنا. نزل الركبُ، فاغتسلنا، وتوضَّأْنا، وشربنا وطعمنا، ثم أذَّنَ المؤذِّن لصلاة الصبْح، فصلَّينا وبعد الصلاة، جلستُ للدرس.

## منزل الوصول

سألني أحد الحُجّاج ممَّن جلس يستمع إلى الدرس: كم بيننا وبين الوصول يا أبا القاسم؟

كان الرجلُ يسأل عن الوصولِ إلى مكَّةَ، فقلت. «اعلم يا أخي أنَّ الوَصْلَ إذا ما سألتَ عنه مَفاوِزُ مُهْلِكَة، ومَناهِلُ مُتْلِفَة لا تُسْلَكُ إلَّا بدَلِيل، ولا تُقطَع إلَّا بدَوَامٍ ورَحِيل، وأنا واصفٌ لك منها مَفازةً واحدةً، فافهَمْ ما أنعَتُه لك منها، وقِفْ عندما أُشيرُ لك فيها فإنَّ مِنْ أوائِلِها أن يُوغَلَ بكَ في بَرْزَخٍ لا أَمَدَ له إيغَالاً ثم تتخلَّى منكَ لكَ، ويتخلَّى منك له، فَمَنْ أنتَ حينئذ، وماذا يُرادُ بك، وماذا يُرادُ منك؟»

فقال الرجل: لقد رَوَّعْتَنِي يا أبا القاسم؟

فقلت: «أنتَ حينئذٍ في مَحَلٍّ أَمْنُهُ رَوْعٌ، وأُنْسُه وَحْشَة، وضِياؤه ظلمة، ورفاهيَّتُه شِدّة، وشَهادتُه غَيْبَة، وحَياتُه مِيتَة، لا دَرَكَ فيه لِطالبٍ. ولا نجاةَ فيه لهارب، وأوائلُ مُلاقاتِه اصْطِلَام. فمن المُسْتَخْرِجُ لك من تلك المهالك؟ احذَرْ، ثم احذَر، فَكَمْ مِنْ مُتعرِّضٍ

اختُطِف. جعلنا اللهُ وإيَّاكَ من الناجين، ولا حَرَمَنا وإيَّاكَ ما خَصَّ به العارفين».

التفَتَ الرجلُ إلى الحاضرين، فرأى عيونَ الأصحاب قد غمَرها ماءُ القلوب، فجرَتْ تَسْقي خُدودًا جافّة، فحار في الأمر، حتى أسعفه لسانُ أَحدِ المحبِّين لمَّا قال له: لا عليكَ يا أخي، إنَّكَ نَكأتَ بسؤالِكَ جُرْحَ الوَصْل والوُصول، فأفاض أبو القاسم في ذكرِ شرابِ الشمْلِ والشمُول. إنَّما حديثُه كان عن تجلِّيات اللقاء، ووصال الأحبَّة، فلا تغترّ بالأماكن والاستراحات، إنَّما الوصولُ إلى ربِّ البريّات.

ثم سأل سائل: إلى أين تنتهي عبادة أهل المعرفة بالله؟

فقلت: أراكُمْ مستعجلين في الوصول، وبلوغ النهايات، ونحن قد شرعنا في المسير. هَلْ روَّعَكُمْ زنوجُ القلوب، ولُصوصُ النفوس حتى استعجلتم النهايات؟

ثم واصلتُ مجيبًا: تنتهي عبادتهم إلى الظفَر بنفوسهم. فإن ظفِروا بها، فقد بلغوا نهايةَ عبادتهم فوقفوا مع مَا لَهُ، دونَ التفاتٍ إلى مَا لَهُمْ. وعامَّةُ الناس وقفوا مع ما لهم وأعرضوا عمَّا له. فَقِيسُوا أنفُسَكم بهذا المقياس، فإن أنتم وَقَفْتُمْ مع ما للحقِّ، كنتُمْ مِنْ هؤلاء العارفين بالله، وإن أنتم وقَفْتُمْ مَعَ مَا لأنفُسِكُمْ، كنتم من العَوَام. النهايةُ أيُّها الأحباب هي الرجوعُ إلى البداية، والواصلُ إلى ربِّه هو الحاصل.

أَسْفَرَ الصبْح، وكنت مُتْعَبًا من المشي المتواصل، ومع تباشير أوَّل أنوار الصباح، قمتُ من المجلس واعتزلتُ ناحيةً أذكُر فيها، حتى حصلَتْ لي أحوالٌ عجيبة. وبعد ذلك، قمتُ فصلَّيت ركعتين، ونمتُ إلى أن توسَّطتِ الشمسُ كَبِدَ السماء. قمتُ مرَّة أخرى، فجاءنا بَدْوُ

النواحي يبيعونَنا لبنًا وبيضًا مَسْلوقًا وخُبْزًا  تزوَّدْنا منهم بما نحتاجه، ثم صلَّينا الظهر والعَصْر. وعند التطْفِيل، قام الركبُ للمسير، فسرنا في طريقٍ تبدَّلَتْ معالمه. كنَّا سابقًا نمشي في مناطق زراعيَّة. وبعد العُذيب، شرعنا في دخول الصحراء التي تلتهب بحرارة عالية، لذلك كان السيْرُ ليلاً أوفقَ من السير نهارًا، لكنَّ هدفَ أميرِ الركب كان في مواصلة السير كلَّما سَنَحَتْ له الفرصةُ، حتى يصلَ بالحُجَّاج إلى الحِجَاز دون التعَرُّض لهجمات الزَّنج ولُصوص أعرابِ البادية، ممَّن ينتشرون على طول الطريق كالكلاب الجائعة التي تنتظر مرور هذه القافلة العظيمة لِتَنْهَشَهَا بأنيابها ومخالِبها  خلال رحلتنا، كنَّا نُلاقِي على الطريق بعضَ المسافرين أو عربَ البادية، فنستقي منهم الأخبارَ، ممَّا يُساعِدُ على تأمينِ سلامَةِ الحُجّاج. كان يُرافِقُنا قَوَّالٌ حَسنُ الصوْتِ، فَطَلَبْتُ منه أن يُنْشِدَنا حتى نستعينَ بإنشاده على تَزْجِيَةِ الوقت، فقام يُنْشِدُ بصوتٍ يملك القلوبَ ويَأْسَرُ الأَرْوَاح:

وغَنَّى لي مِنْ قَلْبِي وغَنَّيتُ كما غَنَّى
وكُنَّا حيثُما كانوا وكانوا حيثُما كُنَّا

فصار يُرَدِّدُها المرَّةَ تِلْوَ الأُخرى، يُوَقِّعُ بها على أنغامٍ متنوِّعة، حتى أخذَنا الوَجْدُ، وتحقّقنا معنى التوحيد الذي بموجِبِهِ تتوحَّدُ الذوات، وتحْصُلُ الموافَقَةُ بين الأَحِبَّة.

واصلْنَا المَسِير.  فمررنا بمحطَّة وادي السِّباع، فتجاوزناها، وأعمَلْنَا المسير قُدُمًا حتى وصَلْنا إلى المُغِيثَة بعد العِشَاء، ثم جمعنا للصلاة بين العِشاءين، وبقينا نَستريحُ إلى منتصف الليل، ثم واصلنا حتى وصلنا قبل الفجر إلى القَرْعَاء. كانت محطَّةً كبيرةً، بها آبارٌ كثيرة

وبِرَكٌ وأحواضُ ماءٍ. وهي محلَّةٌ كبيرة، بها بناياتٌ مختلفة ومَساكن وقَصْرٌ لأحد الأمراء. نزلنا بالقرعاء التي سُمِّيَتْ بذلك لِقِلَّةِ نباتها اغتَسَلْنا وتوضَّأْنا، ثم تناولنا ما نَتَقَوَّى به، وشَرِبْنَا، ثم استَرَحْنَا حتى أذَّنَ المؤذِّنُ، فَقُمْنَا للصلاة. كان بعض العلماء والفقهاء، ممَّن يسافرون مع الركب، يعقدون حلقات يُعَلِّمُون فيها الناس مناسكَ الحجِّ خلال رحلتنا هذه. ومن بين تلك الحِلَق حَلْقَة لفقيه اسمه أحمد الباهليّ، المعروف بـ غلام الخليل، وكانت له معرفة بأصحابنا، كما كانت له مخالطة مع رجال الدولة من أعاجم الخراسانيِّين، وله كلمة مسموعة. وقد التقينا وتبادلنا السلام، ورأيت معه فتاة، يبدو أنَّها من أقاربه. رفعَتْ رأسها لي وسلَّمت بخَفَرٍ ظاهر، فردَدْتُ عليها السلام. قال لي: هذه زُمُرُّد، وهي من أقاربي، وقد رغبَتْ إليَّ في أن أكلمكَ يا أبا القاسم كي تسمحَ لها بحضور حلقاتك العلميَّة، طيلة هذه الرحلة. كانت الفتاةُ ذاتَ قَدٍّ مائد، ودَلٍّ خَلُوب، وتمنُّع مُطمِع، وطَرْفٍ فاتِر، وأجفان سقيمة، وجمال آسِرٍ، فخشيتُ الفتنة، فقلت: ربَّما يكون أوفقُ للفتاة أن تحضر دروسَكم يا مولانا فقال: إنَّها مُصِرَّةٌ على حضور دروسك يا أبا القاسم. وإنَّ سُمْعَتَكَ في بغداد قد بلغَتْ كلّ ناحية. فقلت: إذا كانت مُصرَّة، فمرحبًا بها، فإنَّا لا نَرُدُّ من يطلب العلم معنا، ولتأتنا متى شاءت. شكرني الفقيه، وشكرتني زمرُّد، ثم رجعا إلى مكانهما راقبت الفتاة حتى أعرفَ منزلها من الركب. مشت قليلاً، ثم وقفَتْ تُكلِّم فتاةً في مثل سنِّها أمام راحلة مُجَلَّلَة بقُبَّة. كانت الفتاة تسافر داخل محمَلٍ مُثْبَتٍ على الراحلة، وعلى المحمَل قُبَّةٌ تُظَلِّلُهَا من حَرِّ الشمسِ ولَسْعَةِ الرياح والرمَالِ والحشَرات. كانت تُسمَّى تلك المحامل بالقَشَّاوات، وهي مثل التوابيت المجوَّفة، حيث يقعدُ فيها

المسافر كأنَّه ممتدّ على مهد فسيح، داخله فُرُشٌ وَثِيرَةٌ لَيِّنَة، ويجلس عَديلُه بإزائه الجلسة نفسها، فيتحادثان كيفما أحبّا طيلة الرحلة أو يخلُدان للراحة، أو يقرآن في مصحف أو كتاب، أو يتزوّدان بالطعام والماء دون انتظار توقُّف الركب، مثلما نفعل. ولا شكَّ عندي أنَّ الفتاتين كانتا تسافران على هذه الهيئة المخصَّصة لأهل اليسار والغنى.

ابتداء من القرعاء، تغيَّر نظامُ سيرنا، حيث نزلنا هناك إلى بعد صلاة الظهر، فتبايع الحُجَّاج مع البدو فيما أتوا به من لحم وسمن ولبن، وكان بالناس قَرَمٌ وشهوة إلى طعام البادية، فبادروا لابتياع ما عندهم ومُشاراتهم. رحلنا عند الظهر، ولم ننزل إلَّا مع العشاء الآخرة في محطَّة واقِصَة، وهي منزلٌ لبني شهاب من طَيّ. أرضُها منبسطة منفسحة، وفيها مَصانع للماء مملوءة. ثم قمنا بعد منتصف الليل، وأسرينا حتى الضحى، واجتزنا محطَّة عقبة الشيطان التي كانت لأعراب بني عكرمة من بكر بن وائل، وتعوَّذنا ممَّا يوحي به اسمها، وأعملنا المسير حتى وصلنا إلى محطَّة القاع. وفي هذه المحطَّة، نخلة تبدو للرائي من بعيد، ثم لمَّا وصلناها، صلَّينا بمسجدها كانت المحطَّة محصَّنة، وبها بعض القصور وبركتان عظيمتان لتجميع المياه. اتّفقنا مع الأصحاب أن نجلس للدرس بعد العشاء الآخرة.

## منزل المحبَّة

جلست للدرس، فجاءت الفتاة مع صاحبتها، وقدَّمَتْ لي جَرَّةَ لَبَنٍ وعُرجونَ تمر، كان يحملهما خادم برفقة الفتاتين. صبّ لي الخادم من اللبن في إناء، وناولني العُرجون كي أَقْطِفَ منه بضع رُطَبَات. استلمت الإناء، وشربت منه حتى ارتويت، ثم أكلت الرطَب، وطلبت منه أن

يسقي باقي جماعتنا، ويطعمهم من ذلك العرجون. لم يبق واحد من الحلقة لم يتناول من ذلك اللبن الطيِّب وتلك الرطب اللذيذة. شكرت الفتاة بإيماءة من رأسي، ثم شرعت في الدرس بتلقِّي الأسئلة، كما هي العادة. التحقَ بحلقتنا كثير من الحجَّاج نساء ورجالاً، فأجبت عن أسئلتهم حول مناسك الحجّ. ثم سألني حاجّ عن محبَّة الله عزَّ وجلَّ، فقلت: الناس على طبقات في محبَّة الله عزَّ وجلَّ، فالعوامّ أحبُّوه لكثرة نِعَمه ودوام إحسانه، إلَّا أنَّ محبَّتهم تقلّ وتكثر بحسب ما يعرض لهم من نِعَمٍ وإحسان؛ أمَّا الخواصّ، فأحبُّوه لما عرفوا من صفاته وأسمائه الحسنى، واستحقّ المحبَّة عندهم لأنَّه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النِعَم. وقد كان شيخنا السَّريّ يقول: لا تصلح المحبَّة بين اثنين، حتى يقول الواحد للآخر يا أنا.

ثم أرسلَتْ زمرُّد بطاقة مع الخادم، فيها سؤال. فقرأتُه على الحاضرين: وصلني سؤال يقول: على ماذا يتأسَّفُ المحبُّ من أوقاته؟ فقلت: على زمان بَسْطٍ أورثَ قبضًا، أو زمان أُنس أورثَ وحشة، ثم أنشدت:

قَدْ كانَ لي مَشْرَبٌ يَصفو بِرُؤْيَتِكُمْ  فَكَدَّرَتْهُ يَدُ الأَيَّامِ حِينَ صَفَا

وقع الكلام من الفتاة موقعًا عظيمًا، فسأل سائل: كيف بلوغ مقام المحبَّة؟

فأومأت إلى أحد أصحابي أن يتكلَّم، فقال سمنون: عليكم بالذكر.

فقال الرجل: إنَّا نذكر الله، ولا نجد في قلوبنا حلاوة.

فقال سمنون وقد توَرَّدَتْ خدودُه، وكان جميلاً كأنَّه البدر، بهيًّا

كأنَّه الشمس: احمدوا الله على أن زيَّن جارحةً من جوارحكم بذكره.

التفتَتْ زمرُّد إلى سمنون، فوقع منها موقعًا حسنًا، فأدركتُ من نظرتها أنَّها أُعجِبت به. فرأيتها تكتب على بطاقة ناولتها للخادم، وأمرته أن يعطيها لسمنون. حملها الخادم، فأخذها منه سمنون وقرأ ما فيها، ثم استأذن في الحديث، وقال: بلغنا السؤال التالي: كيف يُعبر المحب عن المحبَّة؟

فأقول: المحبُّ لا يُعَبِّرُ عن شيء إلَّا بما هو أرقُّ منه، ولا شيءَ أرقَّ من المحبَّة، فبم يُعَبِّرُ عنها؟

نظرتُ إلى الفتاة، وقد تَوَرَّدَ خدُّها واستحسنَتْ قول سمنون الذي تضاءل عند قوله، ورقَّ حتى صار كالزجاج، فقلت:

رَقَّ الزجاجُ وراقَتِ الخَمْرُ ... فتشاكلا فتشابَهَ الأمرُ
فكأنَّما خمرٌ ولا قَدحٌ ... وكأنَّما قَدحٌ ولا خمرُ

ما أحسنَ ما قلتَ يا أبا الحسن. وكيف يزيدُ المرءُ على ما قلتَ، إنَّ ذلك منتهى البلاغة في وصف المحبَّة.

ابتسمَتْ زُمرُّد، وصارت تَنظر جهةَ سمنون الذي راعها بجماله وفصاحَتِه ورِقَّتِه.

ثم واصَلتُ: فعلاً، إنَّ المحبين لا يُعبرونَ عن أحوالهم إلَّا بما هو رقيق ولطيف، ولا شيءَ في الوجود أرقُّ من المحبَّة، فَبِم يُعبَّرُ عنها؟ سؤالك يا أبا الحسن لا جواب له. إنَّ المحبِّين حين يصلون إلى نهاية تُخُومِ العبارة يتوسّلون بالإشارة، فإذا عَدِموا الإشارةَ أَنِفُوا منها، وعلِموا أنَّ مَنْ يشيرُ هو من كان بعيدًا، والمحبّون لا يَرضَوْن بغير القُرْب، فَبِم يُشيرون؟ أَيُشيرون بالبُعد؟ وإلى مَا يشيرون؟ وإلى مَنْ

يشيرون؟ لا شكَّ أنَّ فناء العبارة، وفناء الإشارة، يجعل ذواتهم ناطقةً بِنُطْقٍ لا تقوى عليه العِبارة ولا تُطيقه الإشارة، إنَّه نُطقُ أحوالِهم بمكنونات أرواحهم. ليست البلاغةُ بكثرة الكلام، ولا بإشاراتِ أهلِ الغرام، وإنَّما ببلوغِ المرام. وحيث إنَّ تلك الأحوال تَقْطَعُ كلَّ عبارة، وتُطَوِّحُ بكلِّ إشارة، فقد التزموا بشرط بلاغة الأحوال.

قال سمنون: ما أحسنَ ما قلت يا أبا القاسم، هكذا يكون الأساتيذ. فقد أطلقتُ مجمَلاً ففصَّلْتَ فيه، وأعلَمْتَنَا أنَّك خبِرْتَ الأمْرَ قبلَنا، حتى بَيَّنْتَ لنا إجمالَه وتفصيلَه.

كانت زمرُّد بتأثير هذا الحديث في غاية التوَرُّد. فأرسلَتْ مرَّة أخرى خادمَها بسؤالها وما بلاغةُ الأحوال؟

فقلت: لقد تأخَّر الوقت، وهذا السؤال يستدعي بَسْطَ الأمور، فستتكلَّم عليه في درسنا القادم، فحاوِلُوا أن تُفكِّروا في الموضوع.

كان الماء وفيرًا في هذه المحطَّة لوجود بِركتين كبيرتين متجاورتين. لمَّا بدأنا الدرس، كانت أُولَى الدوَابِّ قد شَرعَتْ في الشرْب، فلمَّا أنهينا الحديث وصلَ دورُ آخِرِ الدوَابِّ لكي تَرْوَى. حتى الدوابُّ تمشي بإيقاعات أصحابِ المنازل. بعض الحجّاج الآخرين يتناولون الطعام، ويتحدَّثون في سمَرٍ ليليّ رائق حول أُمورِ الطريق والحجِّ، وبعضهم كانوا يستريحون قبل أن يُعاودَ الركْبُ المَسِير كانت المصابيحُ تُضيءُ في ليل الصحراء الهادئ.

نِمْتُ تلك الليلة في هَدْأَةِ الصحراء. وعند السَّحر، أَذَّن المؤذِّن، فقمنا للصلاة، وصلَّيت في المسجد مع جماعتنا ثم واصلنا السير مع نَسَائِمِ الصبْح التي كانت تَقودُنا إلى الحِجاز. بدت لي زمرُّد على راحِلَتها

مع صاحبتها، وبجانبهما كان الفقيه أحمد الباهليّ، راكبًا على راحلته قرب رجال الأمير. بعد مدَّة، بدأت طلائع النور تهبُّ من جهة الشرق، وتسلَّلتْ أشعَّة الشمس الأولى تنشر دفئها على الأرض. وما لبث الدِّفْءُ الأوَّل أن تحوَّلَ إلى حَرّ، ثم إلى حرارة حارقة، كلَّما تمكَّن قُرْصُ الشمس من كَبِدِ السماء. أيُّ سَطْوَةٍ هاتِه التي يمارسها هذا الكوكبُ الوهَّاج على كلِّ الخلائق في الكون؟ وكأنَّه يقول: أنا الدفءُ، أنا الحرقة، أنا إن غِبْتُ قتلَكَمُ القُرّ، أنا إن طلعتُ أهلَكْتُكُمْ بالحَرّ. نظرتُ قليلاً جهة الشمس، فلم أَقْوَ على التحديق إليها، وغابت عيناي ونظري في أشعَّتها حتى عَشِيت. قلت لها مخاطبًا نفسي: ألم يكفِكِ أيَّتها الشمس الحارقة أن تجفِّفِي هذه الأرض، حتى عَمَدْتِ إلى تجفيف ماء عيوني؟ أَيُرْضِيكِ أن تأخذي بصري؟ من أنتِ حتى تتصرَّفي كالإلٰه القادر؟

لم تَفْتُرْ تُرْسِلُ إليَّ أشعَّتها الحارقة، وكأنَّها تتحدّاني. لَوَيْتُ عمامتي على وجهي، ولم أتركْ إلَّا منفذًا صغيرًا أكاد أُبْصِرُ منه بصيصًا من آثار خطوات أصحابي، الذين كانوا يتقدّمونني على الطريق، ويهدونني إلى وجهة التشريق. لقد أَغْشَتْنِي شمسُ الكون، فكيف يا تُرى لو طلعَتْ شمسُ المكَوِّن؟ كيف سيكون حالي؟ أمَعَ هذا الكون الآفِلِ قد ظهر عَجْزُنا، فكيفَ لو طلعَتْ شمسُ الوجود الباهِر في سماء الشهود؟ لعلَّ جِبالي تَصيرُ دكًّا من هَيْبَةِ التجلِّي، وسَطْوَةِ التدنِّي.

بعد أن اعتادَتْ عيوني على ظُلْمَة كَوْني خلف حجاب عمامتي التي حمتني من نور شمس نور الكون الباهر، بدأ نور بصري يعود. تعجَّبْتُ من أمري وأمر الإنسان: كيف يصبح ظلامُ كونه الداخليّ مصدرَ نورِه إلى الكون الخارجيّ؟ فلولا ظلمةُ النفس لما أدركَ نُور القُدْس.

أوَّلُ ما توضَّح لباصرتي أقدامي في شِرَاكِ نِعالي، التي سبق سمعي إلى التقاطِ صوتها على الحصباء المختلطة برمل. ثم بدأ بصري يعود لي قليلاً، فلمحت بعض النباتات المنتشرة هنا وهناك. تفكّرتُ مرَّة أخرى في سرٍّ هذه المخلوقات الضعيفة التي كانت تتحدَّى بحقارتها عناصر أقوى منها، لكنَّها بَقِيَتْ تعيش ببلاغة أحوالها في ظروف قاسية. لا تهاب الجفاف، ولا لهيب الشمسِ المحرقة. لقد كانت أحوالها ناطقة ببلاغة الحياة تناوش قساوةَ الطبيعة، فتأبى إلَّا أن تتحدَّاها، وتنمو في هذه البيئة القاحلة، بل لعلَّها لا تفعل ذلك تحدِّيًا، وإنَّما تفتِّيًا، حتى تؤنس طارِقِي هذه الأرض الجرداء من طير زائر، وإنسان عابر في وحدتهم القاسية. بعض الصخور تنتشر أيضًا على هذه الأرض الجافَّة. لقد عرَّت الرياح الأرض من ريش رملها، فبقيَتْ باديةَ العورة بعظام صخورها ورِمَمِ فِقَارِها. تعاقبت الرياحُ ولهيبُ الشمس على هذه الأرض، حتى أصبحَتْ باديةَ العورة، فارغةً حتى من الفراغ. مشينا طويلاً ذلك اليوم، فإذا بالأرض قد تبدّلت، وتغيَّر شكلُ الرمال ونوعُ الحصباء. ثم عادت الأرضُ صلبة بدون معالم ولا نباتات. منظرها كئيب كأنَّها رِمَمٌ بالية. إلَّا أنَّ لهذه الأرض الصلبة فائدة، وهي أنَّها لا تمتصّ المياه التي قد تأتي بها الأمطار، حين تنسى أن تمطرَ السماء في البيداء، فتبقى المياه على وجه الأرض وفي القيعان والشعاب الحجريَّة مدَّة، ينتفع بها كلّ طارق لهذه الطريق من إنس وحيوان ونبات. مكتبة الرمحي أحمد

من يسكن مثل هذه البيداء إلَّا الجنُّ والعفاريت ممَّن يصفِّرون مع الرياح ويهيجون مع الزوابع؟ على بعد ستَّة أميال من محطَّة القاع على يسار الطريق، بركة زبيدة، وقباب لقصر كانت قد بنته على هذا

الطريق، ومسجد. توقَّفنا قليلاً كي نشرب ونتوضّأَ ونصلِّي ونُورِدَ البهائم. ثم واصلنا السير. لم نتوقَّفْ في المحطَّات الثانويَّة التي اجتزناها، ومنها محطَّة منسوبة لحيٍّ من العرب من بني جريس من قبيلة أسد. وفي هذه المحطَّة، بركة ماء وقصر ومسجد وبئر جاهليَّة بها ماء على عمق خمسة أذرع.

## منزل بلاغة الأحوال

واصلنا السير هذه المرَّة نهارًا، حتى أدركنا الليل في محطَّة زبالة. وهي من المحطَّات الرئيسة العامرة على الطريق، وفيها ما يحتاجه الحجَّاج. نزلنا في ناحية، فاغتسلتُ وتوضَّأت، ثم استرحتُ قليلاً، حتى فاجأنا أهل البلد بسلعهم التي جاؤوا يعرضونها على الحجَّاج. كانت نفسي قَرِمَةً إلى خبز طازج، فقمت إلى أعرابيَّة تطبخ رِقَاقًا على ظهر كانون، يلفحها بحرارة لا تلقي لها بالاً من كثرة ما جلَسَتْ أمامه. اشتريت منها بعض الرقاق. كان خبزًا ساخنًا ومقرمشًا يغري بالأكل. نقدتها مالاً، ثم جاءتني أعرابيَّة تبيع اللبن والسمن. اشتريت منها حاجتي ويزيد لبعض صحبي. ثم دسست السمن وسط خبز الرقاق ودهنته، فذاب لتوِّه، ثم قضمته قضمًا من شدَّة الجوع، وشربت إثره لبنًا سائغًا، فطابت نفسي، وناولت بعض فقراء أصحابي ممَّا كان معي. أخلدت للراحة قليلاً، ثم قمت فصلَّيت مع الجماعة، وجلسنا للدرس مرَّة أخرى. وبعد برهة، جاءت زمرُّد مع صاحبتها وخادمهما أجبت عن بعض أسئلة الحجَّاج فيما يتعلَّق بشعائر الحجّ، ثم ذكَّرت بسؤال بلاغة الأحوال الذي بقي عالقًا منذ المجلس السابق.

قال الجريريّ: إنَّنا في شوق لسماع ما فتح الله به عليك يا أبا

القاسم عن بلاغة الأحوال.

فقلت: وإنِّي بشوق أيضًا لسماع فتوحكم في الموضوع، فهل هناك ما تَتَفَتَّوْنَ به علينا أطعمونا ممَّا أفاء الله به عليكم من رزق.

كان في الحلقة أحد أصحابنا الفقراء، فقلت له: هل الفقر حال لك يا فلان أم مقام؟

نظر إليَّ متعجِّبًا، وقال: أخشى عليك يا أبا القاسم من الفقر، لكنْ أخبرني عن أعزِّ الناس.

فقلت: «الفقر بحر البلاء، وبلاؤه عزّ»، وأعزُّ الناس الفقيرُ الراضي.

ثم قال: ومن الفقيرُ الصادق؟

فقلت: الفقيرُ الصادق هو الذي لا يستغني بشيء، ويستغني به كلّ شيء.

فقال الفقير وهل تزعمُ أنَّك لا تستغني بشيء، كزعمك أنَّ كلَّ شيء يستغني بك.

هزَّني ببلاغة أحواله، وغلبني بصدق مواجيده، فلم أستطع أن أتكلَّم؛ وعلمت أنَّ صاحب الحال يقطع صاحب المقال، فكيف أتكلَّم في الأحوال؟ بل كيف أتكلَّم في بلاغة الأحوال؟ إذا كانت البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الأحوال، فكيف تصلح الموافقة بين حال يفيض على بحر البلاغة بصمت الجوارح ونطق السرّ، ويُطوِّحُ بالكلام في بيداء الحَصَر والعِيِّ؟

كان الفقير ينظر إليَّ، وقد أفادني بصدقه علمًا لم يكن معي، فقلت بعد أن فتَرَتْ أحواله عنِّي: لا يتحقَّق الإنسان بالفقر، حتى يتقرَّر

عنده أنَّه لا يَرِدُ القيامةَ أَفْقَرُ منه.

ابتسم الفقير، وقال: الله، الله، هكذا يكون الفقراء إلى الله.

تكلَّمتُ بعد ذلك، وكأنِّي أعتذرُ لصاحبي الفقير: أيُّها الأحباب، إذا لقيتم فقيرًا، فَالْقَوْهُ بالرِّفْق، ولا تَلْقَوْه بالعلم، فإنَّ الرفقَ يؤنسه، والعلمَ يوحشه.

فقال صاحبنا الفقير، وكان اسمه المرتعش، وكأنَّه يريد أن يؤنسني ويعتذرَ عنِّي أمام أصحابي: يا أبا القاسم، لقد بنيت فقهي على التوحيد، وسلكته في ثلاث قواعد أختصرها لكم: «ربّ وفرد، ونفي وضدّ؛ والقاعدة الثانية، وجود فقدي وفقد وجدي؛ والقاعدة الثالثة، توحيد حقِّي بترك حقِّي. هذا كلّ ما عندي يا أبا القاسم، فهل يكون فقير يوحشه العلم؟

فقلت: نعم، الفقير إذا كان صادقًا في فقره، فطرحت عليه علمكَ، ذاب كما يذوب الرصاص على النار. لكنَّ القواعد الثلاث أخلَّتْ بالتوحيد، إذ إنَّها نِسَب عقليَّة، وكلّ توحيد مزعوم قام على ثلاث قواعد ليس بتوحيد على التحقيق.

اهتزَّ الرجل لسماع قولي، وأدرك سرّ إشارتي، وقال لي: قصمتَ ظهري يا أبا القاسم باعتراضك عليَّ، فإنَّ اختلاف هذه النِسب على قواعدي الثلاث قادح في التوحيد الصرف.

ثم أضفت: هذه هي بلاغة الأحوال يا أصحاب، فهي سفر روحي في مقامات العزّ والبلاء والفقر والصدق والعلم والتوحيد والرفق وغيرها. هكذا هي بلاغة الأحوال، سفر في المقامات.

استشكل الجريريّ قولي، وقال: كيف تتحوَّل الأحوال لتصبح

مقامات، والحال دومًا راحل غير مقيم، والمقام دومًا حاطِطٌ رحالَه في مضارب العارفين؟ فالحال مشتقّ من حَالَ يَحُولُ، أي زال.

فقلت: لعلَّك تريد أن تقول يا أبا محمَّد إنَّ الأحوال لا تدوم زمانين، فهي دومًا زائلة، لأنَّها مشتقَّة من: حَالَ يَحُولُ كما قلت، لكنْ قد يعترض عليك معترض، فيقول لك: بل إنَّها مشتقَّة من حَلَّ، ولا يَحُلُّ أمرٌ إلَّا إذا كان ثابتًا ودائمًا غير زائل.

فقال أبو محمَّد: لم يخطر ببالي هذا الاشتقاق الثاني يا أبا القاسم.

فقال: نحن في حضرة علم نتعلَّم جميعًا فالأحوال قد تزول، وقد تثبت، لكنّ المعوَّل عليه، حتى لا يضيع منَّا الفرق بين الأحوال والمقامات، أن نعتبر الأحوال زائلة، وإن تعاقبت في ذات السالك أو العارف. فمثلاً قد يتوهَّم متوهِّم أنَّ تعاقُبَ حالِ الفقر على قلب العارف قد يجعله مقامًا، لكنَّ الأمر على غير هذا الوجه، لأنَّ تعاقب الفقر هو تعاقب أحوالٍ تبدو متماثلةً، وهي في الواقع متغايرةٌ، لأنَّ شؤون الحقِّ مُتجدّدة في خلقه. فيظنُّ ذلك المتوهِّمُ أنَّ تعاقبَ نفْسِ الأحوال صيّرها مقامات، وهي في الواقع أمثال وأشباه، وهو لم يَدْرِ بذلك، فاشتقَّ الأحوالَ من الحلول. بينما الآخرُ قال بعدم دوام تلك الأحوال، واشتقَّها من المعنى الذي ذكرتَ. وحتى لا يضيع الفرق بين الأحوال والمقامات، لا بدَّ أن نميِّز بين الأمرين كما سبق وأن قلت، لكن لا ينبغي أن يغيب عنَّا المعنى الآخر. فغاية العارف أن يُفني كلّ غاية، وأن لا تسترقَّه الحدود التي يضعها للمفاهيم. فلا حدَّ للمفهوم إلَّا وهو حدٌّ لمن وضعه، فلا تنسوا هذه القاعدة، والعارفُ لا حدَّ له، فكيف يسيِّجُ على نفسه داخل حدود الأحوال والمقامات التي هي

أذواقٌ لغيره، والله لم يُحَجِّرْ عليه في تَلَقِّي فَيْضِه، والتنَعُّم بتجلِّيات شهوده ووجوده.

بلاغة الأحوال هي أن تنطق الذوات بلغة الباطن لا بلسان الظاهر  بلاغة الأحوال هي أن تبلغَ بها حتى تتحوَّلَ إلى مقامات، ثم تبلغَ بتلك المقامات حتى تتلوَّنَ في أحوال، وتتبذَّلَ في أمثال، وهكذا دواليك.  إقامة وارتحال، سفَر ونزول، وقوفٌ وقُعود، زوالٌ وثَبات، فَيْءٌ وظِلّ، شمسٌ وقمَر، أرضٌ وسماء، نور وظلام. حينما يجترح العارفُ أذواقَه في برزخيَّة أحواله ومقاماته، يكون حقًّا من العارفين، ويدركُ سِرَّ المعرفة، وهي أن يكونَ مع كلِّ مَعروفٍ بحسب ما يُعطيه من حالِه وذاته. المعرفةُ أيُّها الأصحاب هي مَعِيَّةُ استصحابٍ لكلِّ دلالة إلى نهايتها، والسفر في معانيها حتى غايتها  فها نحن نسافر في رحلتنا هذه، فهل نسافر بأشباحنا، أم بأرواحنا، أم نسافر بهما معًا؟ ألا ترون أنَّنا نسافر بالأبدان كما نسافر بحقائق الأعيان. فهل السفر هو ذات السفر؟ وهل الجوع هو ذات الجوع؟ وهل العطش في بيداء الطريق هو ذات العطش إلى لقاء الرفيق؟ منذ شرعنا هذه الرحلة ونحن في منازل السائرين ومحطّات العارفين، نَتَفَيَّأُ حين يَقودنا ماءُ السراب إلى ذلك الجَناب، ونكتوي بشمس الصحراء حينما ترتفعُ شمس التجَلِّي.

كان الوقتُ قد تَأَخَّر، فَسَكَتُّ عن الكلام، وقام بي حالُ الاعتبار، وأدركتُ بلاغة الأحوال في إفناء مقامات الأبدال.

تفرَّقَ الأصحابُ، وقام المتحلِّقون أفرادًا إلى مطارحهم يستفردون بأنفسهم مع خالقهم في هَدْأَةِ البادية وهَزيع الليل، لعلَّ نسمات الأسحار تَهُبُّ عليهم بفُتوحٍ من بلاد الأطهار.

قمنا قبل السحَر، وتوضَّأنَا ثم صَلَّينا، وأَعْمَلْنَا المسير مُسْتَحِثِّينَ الخَطْوَ مع انبثاق فجر المعارف في شرق الهدى. وما زال المسير مُستمِرًّا، والسيرُ متواصلاً طوال ذلك اليوم، فلفحتنا سمُومُ البيداء، وهبَّت علينا رياح محمَّلة بحبَّات رملٍ جارحة. نال منَّا العَجَاج نيلاً عظيمًا حتى لم نعد نرى الطريق، لكنَّ القافلة العظيمة كانت تواصل المسير، وتقاوم لهيب الشمس وسِياطَ الرمال، حتى غُمَّ البصرُ نهائيًّا، واختلَّ النظر، ولم ينفعنا إلَّا دوابُّ الركْب التي كانت مُنجذِبة بمغناطيسِ السيْر إلى بلاد الحجاز. مشينا مدَّة في هذا العَجاج حتى كفَّ أخيرًا عنَّا، فإذا بي أَشُمُّ رائحةَ الشِّيحِ تعبق في الأرجاء. تَلَفتُّ عن يميني ويساري، فرأيت أنَّنا كنَّا نمشي في قيعان نبتت بالشيح على طول الطريق، ثم رأيت نباتًا آخر، أخبرنا بعض من أصحابنا ممن حجُّوا مرارًا أنَّه نبات يُقال له العُبيثران، ورقه أكبر من ورق الشيح، وعيدانه بيضاء. مررنا على عدَّة محطَّات ثانويَّة، حتى وصلنا محطَّة الشقوق، وبها بئر عظيمة سقينا منها حاجتنا وتزوَّدنا للطريق. كانت محطَّة هادئة، وبركها مليئة بالمياه، فارتوت الدوابّ، وأراق الناس ما معهم من مياه وجدَّدوا حاجتهم بماء هذه المحطَّة العذب. اغتسلنا هناك في صهريج عظيم وعميق لا يقطعه السابح إلَّا بعد مشقَّة وجهد. استرحنا في الشقوق ثم غادرناها، ولم أجلس للدرس على العادة نظرًا للتعب الذي لاقيناه قبل وصولنا إليها  أعملنا المسير مرَّة أخرى على درب زبيدة الذي كانت أرضُه صلبة، ثم ما لبثَتْ أن اكتحَلَتْ برمال صحراءِ قبيلة كلب النجديَّة، وهي رمال ذهبيَّة وكثبان دانية. لم نصادف رياحًا في هذه الوهاد، التي تجتمع فيها كثبان الرمل التي نحتتها عوامل التعرية من أمطار ورياح عبر العصور حتى تصل إلى هذه الوهاد التي

تقلّ فيها الرياح، فتكوَّنت في شكل كثبان رمليَّة حمراء اللون. ولا يخدش جمالها بل لا يزيِّنه إلَّا وجود صخور يتيمة سوداء، كأنَّها كحل يسطِّر منعرجاتها وانسياباتها ازدادت حمرة الرمال كلَّما ازدادت حمرة الشفق، فكان المنظر رائعًا يغري بالشعر والسماع. فقام القوَّال وغنَّى لنا، وأمضينا جزءًا من الليل نستمتع بغنائه العذب. ثم قمنا عند السحر، وسرنا في الطريق مع نسائم الفجر الصادق.

قطعنا خلال تلك الأيَّام عدَّة محطَّات، منها محطَّة بطان والثعلبيَّة وخزيمة والأجفر وفيد وتوز وسميراء والنقرة. التحق بنا في هذه المحطَّة الوفد الأوَّل الذي قرَّر مغادرة البصرة قبل وصول باقي الحجيج إليها، وذلك لمَّا أحسُّوا بقرب هجوم الزَّنج على مدينتهم. ساعدناهم بقدر المستطاع، واقتسمنا معهم بعض ما لدينا من ماء وطعام، وهنَّأناهم بالنجاة. وبعد أن استراح الجميع، انقسم الركب الذي اجتمع مرَّة أخرى إلى قسمين، قسم يريد مكَّة المكرَّمة، وقسم آخر يريد المدينة المنوَّرة. لم يكن هناك متَّسع من الوقت للذهاب إلى المدينة، لأنَّ شعائر الحجّ الكبرى على الأبواب، فيمَّمَ بعض المسافرين نحو المدينة ممَّن لم يكن هدفهم الحجّ. قمنا نواصل المسير، فمررنا بمغيثة المأوان، والربذة، والسليلة، والعمق، ومعدن بني سليم، والغمرة، حتى وصلنا إلى ذات عرق، وهي ميقات أهل العراق، فنزلنا بها، وقد صرنا أرواحًا بلا هياكل. مرَّت بنا خلال هذا السفر الطويل صروف كثيرة، وتقلَّبت علينا السماء والأرض، فمن رمال صفراء إلى أخرى حمراء، إلى صخور شهباء، وثانية سوداء. ومن سماء صافية إلى سماء كئيبة باكية. ومن رياح عاتية إلى نسائم العافية. ومن نبات الشتيل والشيح، إلى شُجيرات العَرْفَج التي تعبث بها الريح.

وخلال الطريق، وجدتُ شابًّا من الدراويش في إحدى المحطّات جالسًا تحت شجرة أمّ غَيْلان في مكان صَعْبِ المرتقى. وصلتُ إليه بمشقَّة كبيرة، وجدته شبحًا مخيفًا، قد أنضجَتْهُ شمسُ الصحراء على صفائحِ هذه الصخور، لم يبق منه إلَّا عظامٌ تَقْصِف، وجلد مصهور لاصق عليها، مُعلَّقٌ بها لكنْ كان في عينيه بقيَّة بريق من ماءِ رُوحه النابضة. لم يبق من ثيابه إلَّا ما يستر العورة، بل لم يعد له عورة، إذ العورة تكون لمن يخطر في الرخاء، وليس لمن كان لابِدًا في مثل هذه الأرض الغبراء. لكنْ مع ذلك، كان حريصًا على التَّأَدُّبِ بأدب الشريعة حفاظًا على كرامته، إذ حِفْظُ العَورة حِفظُ كرامةِ الإنسان مهما أَزْرَتْ به السُنونُ والأيَّام. نظرتُ إليه، لكنَّه لم يَنظر إليَّ. كان غارقًا في عوالمه التي لا يَعرفها إلَّا أمثالُه ممَّن زهدوا في الدنيا واعتزلوا الخلق، ولم يَرضوا إلَّا بمجالسة الحقّ. وقفت عنده بالاعتبار، فقلت: يا أخي، ما أجلَسَك هنا؟

نظر إليَّ، وكأنَّه ميّتٌ عاد إلى الحياة، كان في عيونه شيء من السعادة الحزينة التي لا تخطئ المتَوَسِّم، فقال: اعلمْ أنَّه كان لي وقتٌ ضاع هنا، فجلستُ الآن أتوجَّعُ عليه.

كانت حالته تنبئ أنَّه كان قد التزم هذا المكان منذ سنوات، حتى إنَّ لونَه استحالَ كَلَوْنِ الموضع الذي يجلسُ فيه، فلا تكاد تميِّز بينهما عاد الطين طينًا تداخلت الأعيان، وقد صار إلى الموت قبل الموت. فقلت بيقين المتوسِّم: مُنْذُ كَمْ من السنين وأنت جالس هنا؟

قال: منذ اثنتي عشرةَ سنة.

نظر إليَّ مرَّة أخرى ببريق عينيه الحزينتين، سائلاً منِّي العون،

قائلاً: ابذل همَّتك يا شيخ لمساعدتي، لعلّي أصلُ إلى مرادي، وأستعيدُ وقتي.

طَفِقْتُ أُفكِّرُ في طلبه، كيف لِهِمَّةٍ كهذه أن تطلب المساعدة من أمثالي، بينما همَّته العالية دفعته إلى الجلوس منذ اثنتي عشرةَ سنة ينتظِر الخلاص. تعجَّبت من رجائه في الوصول إلى مراده، واستعادة وقته. هالني هذا الطلب، وتذكَّرت شيخي المحاسبيّ الذي كان من أصحاب محاسبة الأنفاس، وهي أصغر الأيَّام في فلك الإنسان. سبحان الله، كيف يستعيد المرءُ الوقت؟ وهل حقًّا يمكن استعادة الوقت؟ ما مَضى قد مَضَى بلا رجعة، لكنْ تبقى الذكرى، ويبقى الأمل في أنَّ العارف يملك الوقتَ ولا يملكُه الوقت. ثم كيف الوصولُ إلى المراد، والسِّرّ في السيرِ أنْ لا وصولَ أبدًا؟ ﴿يا أَهْلَ يَثْرِب لا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ الوصولُ هو أن تكون في وصال دائم، وفي طلب دائم. ومتى ما اقتنعتَ بانتهاء طلبك ووصولِكَ إلى المراد، فقد نَكَصْت.

تركتُ الشابّ الذي لم يبق من نَضارة شبابه إلَّا الاسم والرسم، ووعدته خيرًا في أن أدعو له عند البيت الحرام حتى يخلِّصه الله من سجنه في هذه البادية الجرداء، ويستعيدَ ما ضاع منه في وقت مضى، أو لعلَّه يستعيد ذلك الوقت في حضرة من حضرات الإمكان الذي يدخلها العارفون، ويسلكها السالكون الصادقون، فيؤدُّون ما فاتهم من حقوقِ الأوقات، أو حقوقٍ في الأوقات. ما هذا الشوق الذي دفع هذا الشابّ الدرويش أن يجاورَ الرمال والأحجار والشوك؟ ألم يقل سمنون بأنَّ المحبَّة لا يعبّر عنها إلَّا بما هو أرقّ منها، وأن لا شيءَ أرقَّ من المحبَّة، فكيف يعبّر عنها؟ لعلّ هذا الشابّ حينما لم يستطع أن يعبر عن رقَّة أشواقه جاور هذه الأشواك، فعبرت ذاته بمجاورة الأشواك

تنبيهًا على ما بداخله من الأشواق. فما ألطفَ المعاني، وما آثَرَ هذه الأواني؟ إنَّ أبدان الأطهار والأتقياء تحتمل من أرواحهم ومعانيهم ما لا تحتمله الجبال، فتراها تنحَلُّ وتتضاءلُ حتى لا يبقى منها إلَّا رِمَمٌ بالية، وأشلاءٌ متناثرة. ولعمري، لقد صرف بدنُ هذا الدرويش نضارَتَه وقوَّته تضحيةً بما يعتمِل في روحه الصافية الطاهرة من معاني سامية.

من ذات عِرْق، أحرمَ الحُجَّاج. قمنا فاغتسلنا ولبسنا ثياب الإحرام، ثم صلَّينا ركعتين وعقدنا نيَّة الحجّ، ثم شرعنا في التلبية. بدأَتْ تلك البقاع تهدر بصوت واحد، أيقظ الصحراء الممتدَّة من العُذيب إلى ذات عرق. لعلَّ هذه التلبية تطرد شياطين الإنس والجنّ، فقد آوى الركب إلى ركن شديد. حتى الطيور التي كانت تناوش الركب بحثًا عن طعام تختطفه أو حَبٍّ تلتقطه، لم تجرؤ أن تصدَح بأصواتها لقد كانت هيبة الهدير بالتلبية رادعًا لا يُسمح بصوت إلَّا صوت التلبية. وقد كان الصمت من باقي المخلوقات انخراطًا في هذه التلبية التي قام بها الإنسان الخليفة نيابة عن باقي المخلوقات، فاستجابَتْ بصمتها، وأقرَّتْ بلسان الإنسان الناطق نيابة عن ألسنتها زأر الكبار ورفع الصغار أصواتهم قبل الكبار، وهلّل المهلِّلون، وكبّر المكبِّرون، وجاشت الدموع بالدموع، أمَّا العيون فصارت كالسواقي، وهبَّت نسائم القرب على الحجيج، فانتعشَتْ أرواحهم، ونسوا أتعابهم. بقينا نلبِّي، ثم نفتر ساعة، ثم نلبّي عند كلِّ قيام أو تغيير أوضاع. وبعد أن امتلأت جيوب رِآتِنَا بأنفاس الذكر، فاحت روائح زكيَّة في مضارب الركب، ففتر الجميع حتى يتركوا عَرْفَ هذه الأنفاس يعبق في الأرجاء، وتتنسَّمه البطائح والأرواح.

طلب منِّي الأصحاب أن أجلس لدرس أخير، بعد أن أمضينا

طوال هذه الرحلة نوالي الدروس، بل نوالي المقامات والأحوال في منازل السير، بل منازل القرب ومنازل المعرفة، ومنازل التوحيد.

بدأ الليل ينزل، وغابت أشعَّة الشمس خلف الأفق، وبقيت أضواؤها تجرّ ذيولاً حمراء، كأنَّها بقايا جمرات خامدة متمرِّدة. صلّينا العشاءين، وجلست للدرس، فكبَّرت وهلَّلت ولبَّيت، وكبَّر وهلَّل ولبَّى من بعدي جمع غفير حمدت الله وأثنيت عليه، وذكّرت بما ينبغي به التذكير في مثل هذا الموطن، وأكَّدت على أنَّ القصد من الحجِّ هو الرحلة عن جميع المعاصي، منذ أن خرجنا من بيوتنا وودَّعنا أهالينا، ورحلنا عن أوطاننا ثم ذكَّرت بكلِّ المنازل التي قطعناها، فعند العُذيب يُستعذَب فراقُ الأوطان بغية لقاء الرحمٰن، وعند ذات عِرق ينبت عِرق التلبية في ذاتِ كلِّ قاصدٍ ربَّ البيت بالتلبية حتى يبلغَ الحَرَم ويعاينَ البيت الحرام. مواقيت الحجِّ أربعة باتِّفاق، هي: ذو الحليفة؛ وهو ميقات أهل المدينة؛ والجحفة ميقات أهل الشام؛ وقرن المنازل وهو ميقات أهل نجد؛ ويَلَمْلَمْ ميقات أهل اليمن. وفي عهد عمر بن الخطَّاب، اشتكى أهل الكوفة والبصرة من بُعد ميقات قَرْنِ المنازِلِ عنهم، فجعل لهم ميقاتَ ذاتِ عرق. فصارت المواقيت المكانيَّة خمسة على عدد الصلوات الخمس التي هي المواقيت الزمانيَّة. كنت أُذَكِّر بهذه المعاني السامية لمن غابت عنه، ثم حاولتُ أن أرفع همَّة من لم يبلغ تلك المقامات، كي يتأهَّل لما بقي من المنازل حتى لا يفوته القصد من الحجِّ، فقلت: حينما تحرمون من الميقات أيُّها الأحباب، لا بدَّ أن تتجرَّدوا من صفات البشريَّة كما تجرَّدتم من ثيابكم ولبستم ثياب الإحرام، وهي لباس كفنكم. لا بدَّ أن تموتوا عن نفوسكم وتخمدوا بشريَّتكم حتى تستفيق روحانيَّتكم. وحينما تقفون في عرفات،

احرصوا على أن يلوح لكم الوقت في كشف المشاهدة، فإن لم تظفروا بذاك فلم تقفوا هناك. وحينما نصل إلى مزدلفة، لا بدَّ من ترك جميع الرغبات النفسانيَّة، والازدلاف إلى طلب الخِلال الروحانيَّة. وحين تطوفون بالكعبة في الإفاضة، عايِنوا أسراركم في محلٍّ تنزيه لطائف حضرة جمال الحقّ، فذاك هو الطواف. وحين تقصدون السعي بين الصفا والمروة، فلا بدَّ من تحصيل مقام الصفاء ودرجة المروءة، فذاك هو المقصود من السعي. وحين تنفرون إلى مِنى يجب أن يسقط عنكم كلّ مُنى. وبعد أن تنحروا هديكم، فلا بدَّ أن تَضَحُّوا بنفوسكم وتتخلَّوا عن رغباتكم وشهواتكم. وحين ترمون الجمرات، فلا بدَّ أن ترموا كلّ ما صاحبكم من سفاسف الأخلاق ومن رذائل الصفات. فإن لم تفعلوا إلى ما أرشدتكم إليه، فما حججتم، وإنَّما الحجُّ هو هذه المعاني الشريفة واللطائف السامية.

سكتُّ قليلاً، فهلّل المهلّلون وكبَّر المكبِّرون ولبَّى الملبُّون، ثم سألني الأصحاب: ماذا نُسمِّي هذا المنزل الذي نحن فيه يا أبا القاسم؟

فقلت: كلّ واحد يسمِّيه بحسب ما يجد في نفسه من المعاني، فالاسم دلالة على ما في النفس، لكنَّه عندي منزل القصد والحجّ من منازل المعرفة. فالحجّ هو تكرار القصد إلى المقصود، أليس كذلك؟

فقام أحد أصحابنا، وكان كثير الحجِّ، وقال: هل عقدتم الحجَّ حين أحرمتم؟

قال الجميع: عقدنا الحجّ.

ثم قال: فهل فسختم كلّ عقد عقدتموه منذ خُلقتم ممَّا يعارض

هذا العقد ويضادُّه؟

هنا توقَّفوا عن الإجابة، وصمتوا، وخرسوا، لأنَّ ادِّعاء هذه النيَّة لا يقوى عليه إلَّا الرجال، ولا يعلمه إلَّا الآحاد ممَّن نصب لهم الحقّ علامة ليعلمهم بذلك.

ثم قال: هل تجرَّدتم من كلِّ شيء حين نزعتم ثيابكم عند الإحرام؟

قال بعضهم: نعم، وقال آخرون: لا

فقال: من تجرَّد عن كلِّ شيء فقد أحرم، ومن فاته ما ذكرت عليه بتصحيح العقد والنيَّة.

ثم سأل: هل سمعتم جوابًا عن تلبيتكم حين لبَّيتم؟

سكتوا مرَّة أخرى. فقال: لا بدَّ من سماع الجواب حتى تقبل التلبية.

فقلت: فَعَلَى هذا السنَن سنسير، وبهذا المعاني سنحجّ، ومن هذا المنزل سنلبِّي من الآن، فلبُّوا

زأرت الحلقة مرَّة أخرى تلبِّي وتصحِّح التلبية: لبَّيك اللَّهمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ومن عجيب الأمور أنَّ الرواحل سكنت، والجِمال توقَّفَتْ عن الرغاء، والطيور هدأت، والسنَانِيرُ والكلاب ربضَتْ، والكلّ ساكن تحت قهر هذه التلبية المجنحة، وما طَفِقَتِ السماء حتى تبسَّمَتْ بنسيم عليل، ثم هبَّت علينا ريح رخاء، ونزلت السماء بأمطار الخير، فاشرأبَّتِ الأعناق وتلقَّتِ الوجوهُ ماءَ التلبية، فعمَّت السكينة، فقلت

للقوم: ها قد سمِعَ ربُّ العباد نداءَكم وتلبيتكم، فأجابكم بسحائب الخير تسقي الأرض وتغسل النفوس قبل الأبدان، فجدِّدوا التلبية من الآن حتى تطيب أرواحُكُم في رحلة القدس. ثم سُمِعَ الركبُ كلُّه يلبِّي، وتناقل الحجيج ما دار في الحلقة من كلام.

وبعد أن سكنت النفوس مرَّة أخرى، عدتُ أتكلَّم مع خاصَّة أصحابي، دون بقيَّة الحجَّاج، في مقامات التوحيد والمعرفة بلسان الإشارة، ولعلَّها أخفى من الإشارة، فقلت: لقد قطعنا ثلاثًا وخمسينَ محطَّة، وهي ثلاثةٌ وخمسون منزلاً من منازل السير إلى رب العباد. لقد سرنا بأحرف فاتحة «ألم»، فهي ثلاثة أحرف، ألف القدم، وميم الحدوث، ولام العارف الذي هو مجمع البحرين ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ أو لنقل، الإفراد للبحر الأزليّ، والجمع للبحر الأبديّ، والمثنّى بينهما للبرزخ المحمَّديّ، وهو الإنسان. الألف إشارة إلى التوحيد، والميم للمُلْك، واللام بينهما واسطة ليقع الربط بين البحرين. إنّها منازل الأحمديَّة الخارجة عن القبضة، والقبضة هي نون الإجمال، والأحرف الثلاثة «ألم» إشارة إلى الجيم، والجيم خارج عن قبضة الخمسين من ٥٣. وإن سأل سائل منكم: ما القبضة؟ قلنا ﴿والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ فكلّ روح مقبوضٌ في جسم، لأنَّ هياكل الأرواح هي الأجسام، فأخبر الحقّ أنَّ الكلّ في قبضته. وإجمالاً، فإنَّ القبضة هي الإحاطة، والله محيط بكلِّ شيء. وكلّ الممكنات تحت قبضة الحقائق الإلٰهيَّة، وهذه القبضةُ أربعةَ عشر حرفًا، كما هي مفاصل يد الإنسان حينما يجمعهما في الدعاء، فتتشكَّل على صورة نون، ولم يخرج عن هذه القبضة إلَّا الجيم. إنَّ هذا الحرف أيُّها الأحباب هو حقيقة الجمع بين الجمال والجلال، أمَّا

النون فهي نون الإنية الجامعة، والياء حرف العُبُودَة والعُبوديّة، والدال حرف الدلالة. لقد حرسَنا «**جُنَيْدُ** الله» في رحلة حجِّنا، فسرنا تحت جنح هذه الأحرف التي تمتح من سرِّ الجنديَّة الروحيَّة. ورَدَّ عنَّا **جُنَيْدِيُّو** الركب كلَّ قواطع الطريق في رحلة الحجِّ، من زنوج وأعراب ولصوص في ظاهر الطريق، وخواطر نفسانيَّة وشيطانيَّة في باطن الطريق. في «ألم» ظهر عالم الملكوت (أ)، وعالم الجبروت (ل)، وعالم المُلك (م). فالأوَّل عالم العظمة، والثاني عالم الروح، والثالث عالم الحسّ؛ أو لنقل، فالأوَّل عالم الذات، والثاني عالم الصفات، والثالث عالم الأفعال. إنَّ ميدان الجنديَّة الروحيَّة هو بلاد التصرُّف، ولا ينبغي أن يحجبه ذلك عن عبوديَّته لله.

ثم أردفت: يا جُنيد الله، إنَّ الجيم خارجة عن القبضة، وهي النون. وعدد «جيم» ٥٣، وهو عدد كلمة «أحمد»، وهو نصف عدد «نون» ١٠٦، وعدد كلمتي «يَدُ محمَّد». والفاتحة هي القبضة العظيمة، وفيها الأحرف السبعة التي لها نوَّاب يقومون مقامها إلَّا الجيم فلا نائب له، لأنَّه خارج عن القبضة، فالجيم أحمدي، ورحلة حجّنا أحمديَّة أيُّها الأحباب. وعندما نقصد المدينة المنوّرة، سيكون حجّنا وقصدنا محمَّديًّا بإذن الله، فها قد دللتكم على ما لا ينبغي البَوْحُ به إلَّا للخاصَّة والأصفياء من الطائفة، فسيروا بنا سيرًا أحمديًّا محمَّديًّا

خرج هذا الكلام الذي هو من فتوح هذه السويعة من غير تَعَمُّل ولا قصد، بل كان تَفَتِّيًا على الإخوان، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾.

بعد هذا البَثِّ الروحي، أخلَدْنا للراحة تأهُّبًا للمرحلة الأخيرة قبل بلوغ مكَّة المكرَّمة.

وعند أوَّل نسمات الصباح، هبّت علينا نسائم القرب من جهة البيت العتيق، فقام القوم سكارى لا يلوون على شيء، وكأنَّ حادي الأرواح قد استَحثَّهُم على الرواح بعِرْقِ التلبية، فهبُّوا يُلَبُّون، ويُهلِّلون ويُكبِّرون، وكأنَّ زفَّةَ القيامة أوشكتْ، وكأنَّ القوم صرعى في مضاربهم، لا يملكون من أمرهم شيئًا سوى أنَّهم يقصدون بقلوبهم وأرواحهم مواطن السعادة، فطوبى لمن أحرمَ ولبَّى وطاف وسعى ووقف ثم ازدلف ونحر وتحلّل. الحجّ ثمانية أفعال، وكلّ فعل يدخل بصاحبه إلى جنَّة من الجِنان، فافهم يا جَنّان. صلَّينا صلاةً ذاتَ عِرْقٍ بلا عُروق، وسبحنا على أنفاس التلبية نَطِيرُ إلى لقاء ربِّ البيت. أمضينا ذلك اليوم كلَّه حتى وصلنا إلى مشارف مكَّة، فنزلنا واغتسلنا للطواف غسلاً خفيفًا، ثم صلَّينا العشاءين جمعًا وقصرًا إِئْتدَمْنَا بما كان عندنا تأهُّبًا لما ينتظرنا، وسرنا مرَّة أخرى حتى لاحت لنا مكَّة بين الجبال، فسالت الدموع، وبحَّت الأصوات من النداء والتلبية والتهليل والتكبير سرنا بنيَّة تكرار القصد، لأنَّ هذا هو الحجّ، حتى يتأهَّبَ القلبُ المطهَّر أن تقصده الأسماء الإلٰهيَّة، وهنا تحصل بلاغة الأحوال، لأنَّ لكلِّ اسم إلٰهيّ حالاً خاصًّا يطلبه، فمتى ما قام ذلك الحال بالعبد إلَّا وقام إليه ذلك الاسم الإلٰهي الذي يخصّه، يطلبه ويقصده، فالأسماء الإلٰهيَّة تحجّ إلى بيت القلب، لأنَّه وَسِعَ الحقّ. فلمَّا تكرَّر حجُّها لبيت القلب، سُمِّيَ قصدُها له حجًّا فهذا هو الحجُّ على الحقيقة، وما دونه فحجُّ أشباح، وليس حجَّ أرواح.

ثم لاحت لنا الأنوار، وتمدَّد الركب، فسرنا لا نلوي على شيء سوى أن نصل ونظفر بالقرب. دخلنا من كُداء، وجئنا من باب السلام، ولم نقطع التلبية، فلمَّا تراءى لنا البيت في هيبته وجماله

وجلاله، نُفحنا بطاقة نورانيَّة هائلة، وتضاءلت نفوسنا حتى خفتَتْ. قصدنا المطاف وشرعنا في الطواف، وسالت على الألسنة والقلوب أذكار وأوراد ودعوات، ثم مناجات ومساررات، ثم مشاهدات وفتوحات، وكان ما كان ممَّا لا يُقال ولا يدركه إلَّا من أتى بنيّة وقصد وقربات. وكأنّي بالكعبة تُشمّر عن سيقانها، وتبدو مثل صَبِيَّةٍ في عزّ صبابتها، فإذا بها تنادي عليَّ، ثم أناديها، ثم يغيب الكلّ في الكلّ، ونتعانق عِناقًا أبديًا، ويُقبّل بعضُنا بعضًا، فيسري في الواحد ما يَسري في الثاني من مَاءِ القُبَل. شرَّف الله قدرَكِ أيّتها الكعبة المقدَّسة، وشرَّف من طاف بك، وشَرُفْتِ بمن طاف بك من الأنبياء والأرسال والأولياء والأصفياء. هنا، أُبايع ربَّ البريّات على الميثاق الأوَّل الذي انتزعه من ظهر أبينا في عالم الغيب، في يوم ليس من أيَّام عالمنا، فأجبنا ﴿بلى﴾، ثم أبايع مرَّة ثانية الطاهر المطهَّر عليه الصلاة والسلام، الذي جاءه الملك في يوم من أيَّام عالمنا، فشقَّ صدرَه وأخرج قلبه وانتزع منه عَلَقَةً، ثم غسله وردَّه إلى موضعه وخاطَ الشّقّ. فهمتُ المعنى والدلالة، وأدركتُ أنَّ الميثاق الأوَّل تحقَّقَ فيه الطور الأوَّل من التزكية، ثم جاء الطور الأخير من التزكية الخُلُقِيَّة مع النبيّ الخاتم، فكانت حادثة شَقِّ الصدر، حتى يكتملَ الطور الأوَّل، وترتبط البداية بالنهاية. ولولا هذا الشقّ، لما كانت لهذا الإنسان الكامل قدرة على تَحَمُّل ما حَمَلَهُ من أعباء الرسالة، فكان رحمة للعالمين. فكلّ تابعٍ وارثٍ يحتاج إلى شَقِّ الصدر على يدِ عارفٍ خبير، وجرَّاحٍ يعلم بمَواطن العَلَقات حتى يستخرجها هنا، أَشْعَرْتُ بدني وشَقَقتُ صدري، واستخرجتُ علقتي في كعبة الحُسْن. وعند زمزم، غسلتُ قلبي وشربتُ ماءَ الطلاقة بلا ارتواء، وكيف الرِّيُّ في أمرٍ لا يكون فيه

رِيٌّ أبدًا؟ إنَّه شراب التوحيد. ومن قال بالريِّ، فقد قال بالذوق. ولا ذوق أصلاً في التوحيد، لأنَّ الموحِّدَ على الحقيقة هو الله. صلَّيتُ خلفَ المقام، وطُفْتُ بالمسعى سبْعًا، بعدما أدركتُ سر الطواف بالأسماء السبعة. فالأشواط على الحقيقة هي التخلُّق والتعلُّق والتحقُّق بالأسماء السبعة الأمَّهات: الحيّ، العليم، القدير، المريد، السميع، البصير، المتكلِّم. هذا هو الطواف بأشواطه. أمّا السعي، فهو الصفات المعنويَّة الناتجة عن هذه الأسماء السبعة، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. فلا شيء في الوجود إلَّا وهو أثر من أثر هذه الأسماء، فلا تَغرَّنَّكَ الأشكال والمتماثلات عن حقيقة السبعة، فالسماوات السبع والأرضين وغيرها لم تكن سبعًا، إلَّا لأنَّها على صورة الأسماء الإلٰهيَّة، فتحقَّقْ أيُّها القاصدُ في حجَّة العُمْر معنى السبعة.

بعد ذلك، نزلنا بدار قريبة من البيت الحرام. بقينا على الإحرام بحَجَّةِ الإفراد التي هي حَجَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام. لم نتحلَّل تمتُّعًا ولا أَقْرَنَّا بالقِرَانِ، بل اخترنا لأرواحنا حَجَّةَ الإفراد، «فالتوحيد إفراد الحدوث عن القدم» خلال تلك الأيَّام، لم نَفْتُرْ عن العبادة وطَلَبِ الترقِّي، حتى تفسَّخَتْ أقدامي وتشقَّقَت أعقابي. كنت أوثر الطواف كلَّما جنّ الليل حين يَخِفُّ الزحام، ويسكن الأنام، فتحلو المناجاة مع الرحمٰن. وفي ليلة ليست كالليالي، وبينما كنت أطوف بقلبي في المطاف، إذ سمعتُ جاريةً تطوف، وتقول:

أبى الحبُّ أن يَخفَى وكَمْ قد كَتمتُهُ ... فأَصبحَ عندي قد أَناخَ وطَنَّبا

إذا اشتَدَّ شَوقي هامَ قلبي بِذكرِهِ ... فإنْ رُمْتُ قُربًا من حبيبي تَقرَّبا

وَيَبدو فأفنَى ثم أَحْيا بِهِ لَهُ    ويُسعِدُني حتى أَلَذَّ وأطرَبا

فقلت لها يا جارية، أما تَتَّقِينَ اللهَ، في مثل هذا المكان تتكلَّمين بمثل هذا الكلام؟

فالتفتَتْ إليَّ، وقد عرفتني أجلسُ في حلقات الدروس في طريق الكوفة، فقالت: يا جنيد.

لولا التُّقَى لم تَرَنِي أَهْجُرُ طِيبَ الوَسَنِ
إنَّ التُّقَى شَرَّدَني كما تَرَى عَنْ وَطَني
أَفِرُّ مِنْ وَجْدِي به فَحُبُّهُ هَيَّمَني

ثم قالت: يا جنيد تطوف بالبيت، أو بربِّ البيت؟

فقلت مُداريًا عن حقيقة قصدي، وإرغامًا لنفسي عن الدعوى: أطوف بالبيت.

فرفعَتْ طرفها إلى السماء، وقالت: سبحانك، ما أعظم مشيئتك في خلقك! خَلْقٌ كالأحجار يطوفون بالأحجار، ثم أنشأَتْ تقول:

يَطوفونَ بالأحْجَار يبغونَ قُربةً    إليكَ وهم أقسى قلوبًا من الصخْر
وتاهُوا فَلَمْ يَدْروا من التِّيهِ مَنْ همُ    وحَلُّوا مَحَلَّ القُربِ في باطن الفِكْرِ
فلو أخلَصوا في الوُدِّ غابَتْ صِفاتُهمْ    وقامَتْ صِفاتُ الوُدِّ لِلْحَقِّ بالذِّكْرِ

ثم تركتني متفكِّرًا في كلامها، أحجار تطوف بأحجار، فهلَّا طافت أشجار بأشجار؟ وهكذا، بل هلَّا طافت أنوار بأسرار؟ ليس للسالك والسابح سوى الطواف، فإن بنفسه أو بقلبه أو بروحه أو بسرِّه أو بربِّه. لا بدَّ له من طواف، لأنَّه العبادة المثلى، فكلّ مخلوق يطوف بمن هو أعلى منه أو أدنى منه، والكلّ في طواف.

عدت إلى الطوافّ بعد هذا التنبيه، وتذكَّرت الشابّ الذي التقيته في طريق الحجّ بين الأحجار والأشواك، كأنَّه صار شوكًا من شدَّة ما يعانيه من أشواق، فدعوت له أن يخلِّصه الله من سجن ذلك المكان، وأن يبلغه مراده. أتراه طائفًا وقد أمضى أكثر من اثنتي عشرة سنة لابِدًا في موضعه؟ فقد صار كعبة طواف تمرّ عليه قوافل الحجيج ذهابًا وإيابًا منذ هذه السنين، وهو في مكانه لا يبرحه. لقد استحال ترابًا وشوكًا، ومع ذلك، فإنَّ الحجيج يمرُّون من هناك ويعرجون عليه. ما تراه فاعلاً لو انزعج عن موضعه ذلك، لعلَّ حركة الطواف في تلك الناحية تختلّ، فيأتي بدل عنه يصحِّح حركة الأفلاك الطائفة. فلو أنَّ الكعبة نُقلت لاختلّ الطواف العام في الأرض والسماء.

دعوت للشابّ الدرويش أن يَخْلُصَ له المطلوب، وأن يعودَ له وقتُه الذي فات منه. وما كدت أُنهي الدعاء حتى حلَّق أمامي طائر، ودنا منِّي، ثم حطَّ على المطاف أمامي، وكأنِّي به خطَّ خطًا على رَمْل المطاف، ونظر إليَّ، ودسَّ رأسه تحت جناحيه، ثم نظر إليّ مرَّة أخرى وغرَّد وطار، فَوَقَرَ في سِرِّي أنَّه رسولٌ جاء يُبشِّرني باستجابة الدعاء، فحمدت الله.

جاورتُ بمكَّة وقضينا المناسك، ووقفنا بعرفات، وعرَّسْنا في مِنَى أيَّامَ التشْريق، ثم نحرنا الهدي، وأفضنا وفي يوم النحر، سِيقَتْ كسوة الكعبة من محلَّة أمير الركب العراقي على أربعة جِمال، ووُضِعَتْ على سطح الكعبة، فلمَّا كان يوم الثالث عشر من ذي الحجَّة، قام بنو شيبة بإسبال الكسوة الخضراء على باقي الكعبة.

أصابتني بعد نحر الهدي عِلَّة، وقَوِيَ عليَّ فيها الوجودُ، حتى لم أَقْدِرْ أن أقولَ «سبحان الله والحمد لله». كان الوجودُ المطلق قد لَفَّنِي

واكتَنَفَنِي، وانْسلَّ في كلِّ شِرْيَانٍ من شراييني، حتى لم أَعُدْ أَقْدِرُ أن أُنادي، ومن يُنادي إلَّا البعيد؟ وقد كنتُ في عَيْنِ القُرب وعَيْنِ التكوين، فَمَنْ أنادي؟ أبعيدًا أبغي لِقَاه، أم قريبًا وقد صرتُ في حِمَاه؟ دام لي هذا الحالُ مدَّةً، حتى أراد الله سراحي، فَفَكَّ عنِّي طُورَ هذا التجلِّي، وأطلقَ لساني بالنطق، فعُدْتُ إلى بحر العبوديَّة واردًا، وفي محراب الفَقْر لائِذًا، ثم أزعجني إلى الرحيلِ، لأنَّ مجاورةَ البيت أمرٌ عسيرٌ، بَلْهَ مجاورةَ ربّ البيت. ماذا أقول؟ ومعيَّتُه للعبد في بيتِ القلب لا تنقطِع، هذه هي حيرةُ العارف حين تتناوشه هذه الأحوال، فلا يدري بأيّ لسانٍ ينطق، ومن أيِّ جهة يأتيه الوجود، فيركَبُهُ الوَجْد وتجري عيونُه بماء منهمر، ولا يزال يَنْحُفُ ويَرِقُّ ويتضاءل حتى يصير هباء، ثم يَنْحَلُّ مثل ثلجة أذابها أوّلُ شعاع في التجلِّي. هكذا، كانت رحلة الحجّ الأحمديَّة التي أسلمتني لرحلة الحجّ المحمَّديَّة.

قمت ورفاقي، فطفنا طواف الوداع، ويمَّمنا صوب المدينة المنوَّرة قاصدين الحبيبَ المصطفى. وما هي إلَّا بضعةُ أيَّام حتى وصلنا هناك، فدخلنا حَرَمَ المدينة، وسرى فينا من أنوار المصطفى نسائمُ زكيَّة، أَحْيَتْ مواتَنا وجدَّدت عزائمنا نزلنا بقرب الحرَم، وأوينا نُصلِّي هناك الصلوات بعد الصلوات من ليل ونهار. زرنا الحبيب المصطفى وصحبيه. ثم زرنا آل البيت وأمّهات المؤمنين عليهم السلام، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ووقفنا للاعتبار أمام تلك المشاهد العظام التي رسَمَتْ معالم الخلاص والهدي إلى العالمين إلى يوم الدين. بعد أن قضينا حاجتنا، تركنا الركب العراقي يعود من حيث أتى. لكنَّ زمرُّد رغبَتْ في ملازمة جماعتنا مع صاحبتها وبعض من يقوم بخدمتها تكلَّمَتْ مع الفقيه الباهلي في الموضوع، فحاول ثَنْيَهَا عن الموضوع،

لكنَّها أصرَّتْ. فأخبرني بالأمر، فاعتذرْتُ له لصعوبة المسالك التي كنَّا نَطْرُقُها كان الباهليّ مقتنِعًا بكلامي، لعلمِه بما كان عليه الأصحاب من تخريب الظاهر والاكتفاء بما يَسُدُّ الرَّمَق، لكنَّ زمرّد كانت قد تولَّهَتْ بسمنون، ولم ترغَبْ في مفارقة الجماعة خشيةً مِنْ مفارقته. أدركتُ مشاعرها، فازددتُ ممانعةً في طلبها، فتغيَّرَتْ حالُها عليّ، ثم رأيتُها تُكَلِّمُ سمنون، فردَّها كما رددتها، واعتذر لها بأنَّ قلبَه مشغول بربِّه وليس له مكان يُفْرِدُه لغيره، فانكفَأَتِ المسكينة تبكي على حالها، ولم تفهَمْ كيف يمكن لمحبٍّ أن لا يحبَّ ما به كمالُه في حبِّ رِّبه. لعلَّها كانت صائبةً فيما تقول بلسان الحقائق، لكنَّ لسان الشرائع يُحِيلُ الأمر، ويُقِيمُ الفرق. فارقناها مع الركب العراقيّ وهي تبكي على أحرّ من الجمر؛ فأصابتني شفقةٌ عليها، لعلمي بأفانين المحبَّة، لكن ليس في اليد حيلة، وسمنون لم يكن من النوع الذي يقبل أن يُخيَّرَ بين حبِّ من لم يزل، وحبِّ من لم يكن. لعلَّ قلبَه يحترق هذه الساعة من حبِّ هذه الصبيَّة المتيَّمة، لكنَّه لا يستطيع أن يَبَرَّ بحبِّها، ولا أَحدٌ من جماعتنا، فقد كنَّا نعيش حياةَ تقشُّفٍ وتقلُّل وتخريبٍ للظاهر ليس للواحد منَّا إلَّا خِرقَةٌ تستُر عورَته، وإبريقٌ يتوضّأ منه، وعصًا يَهُشُّ بها ويتَّكئ عليها، ويحمل عليها رزمَةً تحمل بعض أغراضه القليلة. هذا هو كلّ متاع هؤلاء الفتية الذين رحلوا في طلب العُلا، ولم يطلبوا شواغل الدُّنا، فكيف العمل؟

يمَّمنا صوب سيناء نحو طُور التجلِّي، نرغَبُ في الوقوف على سرِّ التَّكليم من خلف حجابِ الشجرة الملتهبة، وكيف اندكَّ الجبل حين طلب موسى عليه السلام من الحقّ أن يُرِيَهُ النظرَ إليه. مشينا في تلك الفِجاج، والتقينا في الطريق ببعض العُبَّاد والزهَّاد من مسلمين

ونصارى. كنَّا على طريق الحجاز، حتى وصلنا إلى طور سيناء. صعدت الجبل، وصعد جماعتنا، وكانوا نحوًا من ثلاثين شخصًا، فلمَّا وقفنا في الموضع الذي وقف فيه موسى عليه السلام، وقعَتْ علينا هيبة المكان، وكان معنا قوّال، فأشرتُ إليه بالإنشاد، فقام يُنْشِد:

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِمَا انْدَمَلَ الهَوَى　　بَـرْقٌ تَـأَلَّـقَ مُـوهِـنًـا لَـمَـعَـانُـهُ
يَـبْـدُو كَـحَـاشِـيـةِ الـرِّدَاءِ وَدُونَـهُ　　صَـعْـبُ الـذرَا مُـتَـمَـنِّـعٌ أَرْكَـانُـهُ
فَبَدَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ لَاحَ فَلَمْ يُطِقْ　　نَـظَـرًا إِلَـيْـهِ وَصَـدَّهُ سُـبْـحَـانَـهُ
فَالنارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ　　وَالـمـاءُ مَـا سَـمَـحَـتْ بِـهِ أَجْـفَـانُـهُ

تواجدتُ وَجْدًا عظيمًا لموافقة المقال مقتضى الحال، وتواجد أصحابنا، فلم نَدْرِ أفي السماء نحنُ أم في الأرض؟ وغبنا عن الإحساس، وقمنا نَعْمُرُ الوقتَ بحضرةٍ نرقصُ فيها بأرواحنا من شدَّة الوجد. وبدأنا بذكر الاسم المفرد، وغبنا بالذكر في المذكور، فلم يبق منَّا إلَّا لسان ذاكر، بل تعدَّدَتْ أَلْسِنَةُ الذِّكر بكلِّ جارحة، وانطلقَ القلب يتقلَّب في مقامات السعداء، ويَتَبَدَّى في حُلَل المقرَّبين، وعشنا لحظات من السعادة في مناجاة رب الأرباب، حتى كأنَّها الدهرُ كلُّه، وذُقنا وراثةً من مشكاة الخاتم معنى سرّ التكليم في جبل الطور.

كان بالقرب منَّا دَيْرٌ به راهب من النصارى، يتعبَّد الله في تلك النواحي، فنادى في جمعنا: يا أُمَّة محمَّد، بالله أجيبوني، فلم يلتفتْ إليه أحد، لانشغالنا بما كنَّا فيه من الذكر ومناجاة المذكور، وطيبِ اللقاء به والقربِ بجنابه والظفرِ بمشاهدته بلذَّة. لم يلتفتْ إليه أحد، ولم أشعُرْ بندائه، لأنَّ عادةَ أهلِ الله أنَّهم يَدورون مع الوقتِ بالأدب، فلا يَصرفون أوقاتهم إلَّا فيما ينبغي أن يصرفوها فيه، أمَّا الالتفاتُ عن

الحضرة في وقت المناجاة والمواجهة، فهو سوء أدب. نادانا الراهب مرَّة ثانية قائلاً: بدين الحنيفيَّة إلَّا أجبتموني، فلم يُجِبْه أحد. فنادانا الثالثة قائلاً: بمعبودكم إلَّا أجبتموني. فلم يَرُدّ عليه أحد.

وبعد أن فترنا عن السماع وزال عنَّا الوجد، وأعقبته سكينة الوجود، هممتُ بالنزول من الجبل، فقال لي أحد الأصحاب: إنَّ هذا الراهب، وأشار إليه، نادانا ونحن في السماع، وأقسم علينا، ولم نَرُدّ عليه، فقلت: ما سمعتُ شيئًا، لكن ارجعوا إليه، لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام، فما دعانا ونحن في الحضرة إلَّا وقد أراد الله به خيرًا فناديناه، فنزل إلينا من ديره، وسلَّم علينا، فقال: أَيُّمَا منكمُ الأستاذ؟ فقلت له: هؤلاء كلُّهم ساداتٌ وأساتيذ، فقال: لا بدَّ أن يكونَ واحدٌ هو أكبرُكم.

فأشار الأصحاب إليَّ، فقال الراهب: أخبرني عن هذا الذي فعلتموه، هل هو مخصوص في دينكم أو معموم؟

فقلت: بل هو أمر مخصوص.

@ktabpdf تيليجرام

فقال الراهب: لأقوام مخصوصين أو معمومين؟

فقلت: بل لأقوام مخصوصين.

فقال الراهب: بأيِّ نيَّة يقومون؟

فقلت: بنيَّة الرجاء والفرح بالله تعالى.

فقال الراهب: بأيّ نيَّة تسمعون؟

فقلت: بنيَّة السماع من الله تعالى.

فقال الراهب: بأيّ نيَّة تصيحون؟

فقلت: بنيَّةِ إجابةِ العبوديَّةِ الربويَّةَ، لمَّا قال الله للأرواح ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾

فقال الراهب: فما هذا الصوت؟

يقصد ذِكْرَ الاسْمِ المفْرَد «الله»، ثم ذكرَ اسْمِ الصَّدْر «آهْ» الذي كنَّا نردِّده في الذكر.

فقلت: نداءٌ أزليّ.

فقال الراهب: بأيِّ نيَّة تقعُدون؟

فقلت: بنيَّة الخوفِ من الله تعالى.

قال الراهب: صدقتَ.

ثم قال لي الراهب: مُدَّ يدكَ حتى أبايِعَك. أشهدُ أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا ﷺ عبدُه ورسولُه.

هلَّلَ الأصحاب وكبَّروا، وفرحنا بإسلام الراهب قَدْرَ فَرَحِنَا بتلك الساعة، التي منَّ الله علينا فيها بتلك الفتوح العظيمة، فتحقَّقنا سرَّ المناجاة والتوحيد.

ثم سألت الراهب: بِم عَرَفْتَ أنِّي صادق؟

فقال الراهب: لأنِّي قرأتُ في الإنجيل المنزَّل على عيسى بن مريم «خواصّ أمَّة محمَّد ﷺ يلبسون الخرقة، ويأكلونَ الكِسرةَ ويَرْضَوْنَ بالبُلْغَة، ويقومون في صَفاء أوقاتهم بالله يفرحون، وإليه يشتاقون، وفيه يتواجدون، وإليه يرغبون، ومنه يرهبون».

بقي الراهب رفقتنا على الإسلام ثلاثة أيَّام، ثم مات رحمه الله، فدفنَّاه وترحَّمنا عليه.

عُذْنا من طريق الحجاز، وسرنا في درب زبيدة نبغي مدينة السلام. وصلتنا أنباء عن ثورة الزَّنج التي استفحلَتْ، وظهر أمرُ ثوَّارٍ آخرين في البلاد. كنَّا نَسْتَحِثُّ الخُطا، حتى وصلنا إلى الموضع الذي التقيتُ فيه بالشابّ الدرويش الذي سألني الدعاء. وقفتُ عليه في موضعه الذي تركته لابِدًا فيه، فتهلَّل بِشْرًا هذه المرَّة، ونظر إليّ مَلِيًّا يفحَصُ أحوالَ قلبي بعد الحجّ، فانتقلَتْ إليه أحوالي ودَبَّ فيه النشاط، فقلت له: أيُّها الشابّ، لقد استعَدْتَ وقتَك، فلماذا لا تتحَوَّلُ عن هذا المكان؟

فقال الشابّ. أيُّها الشيخ، لقد كنت ألازمُ المكان الذي كان مَحَلَّ وحشتي، وأَضَعْتُ فيه رأس مالي، فهل يجوزُ الآن أن أتركَ المكان الذي استعدتُ فيه رأس مالي، وهو محلُّ أُنسي؟ فليذهَبِ الشيخُ بسلام، لأنّي سأخلِطُ ترابي بتراب هذا الموضع، حتى أرفعَ رأسي يوم القيامة من هذا التراب، الذي هو محلُّ أنسي وسروري.

تعجَّبْتُ من كلامه ومن هِمَّتِه، وكيف أنَّه لازمَ هذا المكان بالوحشة حين ضيَّع المراد، ثم لازمه بالأُنس بعدما حصَّلَ المراد. فكان بين أنس ووحشة. فأمّا الوحشة فقد أتلفته، وأمّا الأنس فقد هيَّمه، والنتيجة واحدة. والقوم دومًا بين أُنْسٍ بالله ووحشة بما سوى الله:

قَوْمٌ تَخالَجَهُمْ زَهْوٌ بِسيِّدِهِمْ وَالعَبْدُ يَزْهُو عَلَى مِقْدَارِ مَوْلاهُ
تَاهُوا بِرُؤْيَتِهِ عَمَّا سِوَاهُ لَهُ يَا حُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ فِي عِزِّ مَا تَاهُوا

سرنا في درب زبيدة، نقطع المراحل تلو المراحل نبغي الرجوع إلى دار السلام. كان الحنين يَهزُّني إلى أهل بيتي، وما أشَدَّ الحنينَ

بعد انْصِرام أَشْهُر الحجّ، فلا تكاد تجد حاجًّا على الحقيقة إلّا ورغبتُه في العودة إلى بيته وأهله قويَّة، لأنَّ مجاورةَ حَرمِ الله بالأدب التامّ فيه أمرٌ عَسير.

قطعنا الطريق ووصلنا إلى بغداد، فسرتُ إلى مسجد الشونيزيَّة، فصلَّيت ركعتين، ثم قصدت بيتي، فوجدت زوجتي فاطمة في انتظاري على أَحَرّ من الجمر عانقتُها وعانقتني، وتَنَسَّمَتْ رَوائِحَ أذواقي، وتنسَّمْتُ رَوائحَ أشواقِها بَثَتْهَا ما بي وبثَّتْني ما بها. ثم جاءني ولدي محمَّد وقد تغيَّر قليلاً عمَّا كان عليه حين خلَّفْتُه. لم يعرفني، فاستوحشَ منِّي بعد أن رأى لحيتي المغبرَّة، وشَعَثِي وإهمالي وتخريب ظاهري. ناديته، فلم يأتِ لمعانقتي، فأخذَتْ أمُّه بيده تطمئِنُهُ، وتقول له: هذا أبوك قد عاد من السفر. نظرتُ إليه نظرةَ الأُنْس، فزال ما به من وحشة، فجاء يتحسَّسُني ويتمسَّح بي ويطوف حولي، فلمَّا سرى فيه عرْقُ أُبُوَّتي عانقني، ثم أخذ ينتحِبُ. هدّأت من حاله ولاطفته حتى هدأ ثم أخرجتُ صُرَّتي، وناولتُه بضع حبَّات من تمر العجوة، ثم صببتُ له من ماء زمزم الذي كنت قد حملته معي على وجه التغريب. صببتُ لفاطمة، وناولتها بضع عجوات. ثم حكيت لها ما مرَّ بي منذ فارقتُها كان لديها كثير ممَّا تقوله لي، لكنِّي أمهلتُها حتى أستريح من وَعْثَاءِ السفر

* * *

مرَّت عدَّة سنوات، لم أَبْرَحْ فيها بغداد التي كانت الأوضاع فيها مستقرَّة، بفضل التوافق بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفّق بالله الذي كان هو الحاكم الفعلي. استطاع الموفّق أن يَحُدَّ من نفوذ الأتراك، فعادت للخلافة هيبتها رغم حركات التمرُّد التي كانت منتشرة في

البلاد، سواء من الزَّنج، أو الخوارج، أو العلويِّين في طبرستان، أو الطولونيِّين في مصر، أو الصفاريِّين في خراسان وسِجِسْتان.

بغداد هي بغداد سادِرةٌ في غيِّها، استطاعَتْ أن تنتزعَ من ضَرَّتها سامرَّاء ميزةَ احتِضان حاضرة الملك، بعد أن نكبَها المعتصم حين اختار سامرَّاء لتكون قاعدة الدولة، ولم يَكَدِ المعتمدُ يتولّى الحكمَ حتى نقل عاصمةَ الدولة إلى بغداد. كان هذا مُؤشِّرًا على تراجع نفوذ الأتراك، بعد الحظوة السابقة التي اكتسبوها منذ المعتصم حين مكَّنَ لهم في أجهزة الدولة. استبشر البغداديُّون بتقلُّص نفوذ الأتراك، وعادوا إلى ما كانوا عليه. بغداد تموجُ بكلِّ الفِرق والأُمم والملل والنحَل. كلٌّ يصنع عوالمه، ويُعِدُّ خطَطَهُ، لكنَّهم متَّفِقُون في النهاية على أنَّ رأسمالَ الجميع هو أن يحافظوا على الدولة التي تضمنُ لهم العيشَ بسلام، رغم أنَّ كلَّ فرقةٍ تطمع بأن تَتَنَفَّذَ داخل دواليب الدولة. الأدب منتشر، والفلسفة مزدهرة، والدينُ له فقهاؤه ومتكلِّموه، والسياسة لها أتباعُها ومناصِروها، وكلُّ ذي حِرفة أو صَنعة يظنُّ أنَّه مركزُ الكون. هكذا هي الحواضر الكبرى، تُعطي لأهلها الانطباعَ بأنَّهم فوق الجميع، وأنَّهم في أعلى دَرَجِ المعرفة. وإلى جانب هؤلاء وأولئك، هناك المتذَمِّرون ممَّا يجري، الساخطون على الأوضاع، الذين ينتظرون الانقضاض على الدولة والانقلابَ على النظام القائم.

كان إخوانُ الصفاء يتابعون اجتماعاتهم السرِّيَّة، ويؤسِّسون لنمط فكريّ يُؤَثِّرُونَ به على خاصَّة الناس، حتى إذا حان الوقتُ لظهور الإمام الغائب، كانت العقولُ والقلوب مؤهَّلَةً لِتَقَبُّلِ الفكرة. كانت أخبارُهم تأتيني من شقيق زوجتي الذي كان يتابع أخبارَهم من حين لآخر. لم يكونوا يُشكِّلون خطورةً على الدولة، لأنَّ التغيير يجب أن

يكون عندهم معرفيًّا بالأساس، رغم أنَّهم يأمَلونَ في إقامة مدينتهم الفاضلة. لكنَّ فِرقًا أخرى مثل المخمِّسة من الشيعة، كانت تُشَكِّلُ خطورةً على الدولة بسبب عقائدها الفاسدة المنحرفة.

أمَّا القوم من أصحابنا، فلم يكن لهم غرضٌ في خُطط الدنيا التي كانت تتهالك عليها هذه الفِرق، ولا يهتَمُّون بالوصول إلى السلطة، لكنَّهم كانوا يشكِّلونَ الضمير اليَقِظ الذي ينبِّهُ الغافلين. كانوا أصحاب سَيْرٍ، ويدعون الناس إلى السير، ولم يكونوا أهلَ توقُّفٍ في حظوظ الدنيا وشهواتها، لكنَّهم مع ذلك لم يَسْلَموا من تحرُّشَاتِ خُصومهم. وكان أشدَّهم عليهم مترسِّمَةُ فقهاءِ الفُروع الذين خالطوا الدنيا وذاقوا حلاوتها، وتبذَّلوا في المغانم، وتقلَّدوا المناصب. كان هؤلاء يدَّعون أنَّهم المرجعيَّة للأمَّة، وأنَّهم المقياس الذي ينبغي أن يكون عليه الناس، لأنَّهم كانوا يحدِّدون دوائرَ الفِعل، ودوائرَ التَرْك، أي أنَّهم يحدِّدونَ سلوكَ الناس في المَنْشَط والمَكْرَه، في الحركة والسكون. ومن كان له مثلُ هذه السلطة، أو هذا الزعم، لا شكَّ أنَّ كلمَتَهُ مسموعةٌ عند الجميع، ويخشى إن نافسه عليها مُنافس. كان التعليمُ عندهم بالقَول، بينما كان التعليم عند القوم بالأُسوة والقُدْوة. لم يكن علمُ القوم نظريًّا رغم أنَّه له قواعدَ نظريَّة، لكنَّه كان مرتبطًا بالعمل، ولا قيمة لتلك القواعد النظريَّة إن لم يصحَبْها علمٌ وتَزكية للنفس. كان معيارُ الصدق هو ذاتُ الإنسان نفسُه من خلال سلوكه. وشتَّانَ بين من أقبلَ على ربِّه وزهِدَ فيما سواه، وبين من يدَّعي الإقبالَ على ربِّه بينما هو راغبٌ فيما أيدي الناس من حُطام الدنيا كانت هذه المناوشَات بين الفريقين كفيلةً بإضرام نار الحِقد والعَداوة، عند مترسِّمَة الفقهاء، على القوم وأساليبِ عيشهم وسُلوكهم. لقد كان

القوم يعكِسون لفقهاء الفروع المتصدِّرينَ أَوْسِمَةَ خِسَّتِهِمْ مرآةَ قُبْحِهِمْ ونفاقهم، ومخالفة مَقالاتهم لسلوكهم. كانوا مثلَ الضمير الحيِّ الذي يؤَنِّبُهُمْ ويُعاتِبُهم، لهذا اطَّرَحُوهُم كَخُصُوم، وعملوا كلَّ ما بِوُسْعِهِمْ حتى يشكِّكوا في صِدْقِيَّتِهِمْ واستقامتهم. فتارة ينكرون عليهم أقوالهم، وأحيانًا ينكرون عليهم أفعالهم، وثالثة يُحاسِبونهم على إشاراتهم وتلويحاتهم، فلا يَسْلَمُونَ منهم إلَّا بتأييد ربَّاني أو عِلْمٍ صحيح. وكم وُجِّهَتْ لهم من تُهَم باطلة! وكم رُصِدَتْ لهم من مَراصِدَ بائسة! لكنَّ الناس كانوا يعلمون مَواطنَ الصدْقِ وأهلَ الصدِّيقيَّة من أهل الدجَلِ والتدْجِيلِ والدعَاوى العَريضة، فانحاشُوا إلى القوم وناصَروهم، واجتَمعوا إليهم، وتركوا أولئك المترسِّمَة، فغاظهم هذا الانحِياشُ، وزاد ذلك من حَنَقِهِمْ، فاستعانوا بسلطة الدولة للتشْكِيكِ في القوم والتضْيِّيقِ عليهم.

في هذه الأجواء، كان عليَّ مَسؤوليّات عظيمة في أن أُحَرِّرَ المسائلَ، وأن أُنْشِئَ خِطابًا يتوجَّهُ إلى الجميع ويَقْبَلُهُ الجَميع، فلساني لسانُ الشريعة، وحالي حالُ الحقيقة، وظاهري عبوديَّة، وباطني حرِّيَّة. وهكذا، خلَّصتُ العبارةَ الصوفيَّة من ارتِبَاكِها وعُذْرِيَّتِهَا الآسِرَة، حتى تتلقَّاها العقولُ والنفوس بصدر رَحْبٍ. جلستُ للعلم، فتكلَّمْتُ في الفقه الظاهر، وربطتُه بفقه القلوب، فسرى أثرُ هذا الكلامِ في النفوس رَوْحًا ورَيْحانًا. كانت حلقة الدرس عظيمة، يجتمع فيها الرجال والنساء ممَّن يطلبون العلم والعمل. كان يحضر هذه الحلقة الفقهاء والأدباء والفلاسفة والحكماء وأهل الله وأصحاب الصنائع، لا نُقْصِي أحدًا من الأخذ عنَّا والتعَلُّم في حلقتنا كان الفقهاءُ يبحثون عن أدلَّةٍ تدعَمُ نَصِّيَّتَهُمْ وتَوْقيفاتِهم، في حين كان

علماءُ الكلامِ يتصيَّدونَ كلَّ نُكْتَةٍ يلتقطونها لتأييدِ طُرُقِهِمْ في الجَدَل، ومعرفة التوحيد. بينما انشغل الفلاسفة بتصَيُّدِ ما يفيد التوفيق بين الشريعة والحكمة. لكلٍّ فرقة مطالب، وليس لنا مطلبٌ سوى المطلوبِ الواحد، إيَّاهُ نريدُ وإليه نقصِد ومنه نَرْتَقِي وإليه نَعْرُجُ وبه نعرف وعنه نأخذ.

كان الباهليّ ممَّن يأتي إلى حلقَتنا بعض الأحيان، ليُحادِثني قبل بدء الدرس، وليعرفَ ماذا يجري من شؤون، حتى يُذِيعَها في مجالسه مع القُوَّادِ والكُبراء. وذاتَ يوم، جلس إليَّ مع ابنِ سريج الفقيه الشافعي، فأخذ يتعجَّب من كثرة الواردين على حلقتي واختلاف مشاربهم؛ وكأنِّي به يُحَذِّرُنِي من هذه الفتنة. ولم يكن الباعثُ له على ذلك إلَّا الحَسد، لكنَّها كانت عادة هؤلاء الناس أن يُصَوِّرُوا لك الأمر على غير حقيقته. ثم تطوَّرَ الكلامُ بيننا، نحن الثلاثة. فقال الباهليّ: أَمَا كان لائقًا بك يا أبا القاسم أن تَقْصُر كلامَك على الفقه الشافعي الذي أخذتَه عن شيوخِك، وتتركَ تلك التلْوِيحَاتِ التي جَمَعَتْ حولَك أهلَ البِطالة من دارسيّ الجَدَلِ والسفْسْطِائِيِّينَ وأهل البِدَع والضلالات.

فقلت له: من تقصِدُ بالبَطَّالين وأهل البِدع والضلالات؟

فقال ابن سريج: لعلّه يعني الصوفيَّة.

فقال الباهليّ: إن كان بعضُهم سليمَ الصدْرِ صحيحَ الاعتقاد، فإنَّ الباقي لا عِلْمَ لهم، وإنَّما هي تَهْوِيمَاتٌ يَدَّعُونَهَا وأَحوالٌ يُلفِّقُونَها، ومبالغاتٌ يَفُوهُونَ بها فَيُشَغِّبُونَ على العَوَامّ.

فقلت: فهلَّا نَحْتَكِمُ إلى أَمْرٍ مَقْبُولٍ بيننا

فقال ابن سريج: في نفسي شيءٌ من هذا يا أبا القاسم، فلعلّ العلمَ عند الفقهاء، وكثيرٌ من روّاد مجالسِك أَصْحُابُ أحوال.

فقلت: لا خير في عِلْم إن لم يَقُمْ على الصدْقِ مع الله، وإنِّي أَزْعُم يقينًا أنَّ أصحابَنا على قَدَمِ الصدْق مع الله، بينما أولئكَ الفقهاء، الذين تقول عنهم بأنَّهم أعلى مرتبةً وأصدقُ منزلةً، لا يُرَاوِحُ عِلْمُهُم حَنَاجِرَهُمْ، ولا أَثَرَ له في سُلوكِهم.

فقال ابن سريج: لعلَّكَ تُبَالِغُ يا أبا القاسم.

ثم اعترض الباهليّ: هل تُشَكِّكُ في مرتبة الفقه يا أبا القاسم؟ وقد علمتَ ما ذكره الصَّادِقُ الأَمين، عليه أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم، عن الفقهِ والفقهاء، وعن الخير المرجُوّ منهم.

فقلت له مُؤَنِّبًا: هناك فرقٌ كبيرٌ بين العُلماءِ الربَّانيِّين وبين مُتَرَسِّمَةِ الفُقَهاء ممَّن طَلبوا الدنيا وتهالكوا على حُطامها، وآثَروا العاجلةَ على الآجِلة.

احمرَّ وجهُ الباهليّ، وخَشِيَ ابنُ سريج أن يتحوَّلَ مجرى النقاش إلى أمور غيرِ محمودة، فقال: هل مَعك دليلٌ على ما تزعُمُ يا أبا القاسم؟

فقلت: نعم، أَزْعُمُ أنَّ أصحابَنا هؤلاء، الذين ترى في تلك الحَلْقَةِ، أصدقُ من أولئكَ الفقهاء المجتَمِعينَ في الحلقة التي بجانبها

فقال ابن سريج: وكيف ذلك؟

أمرتُ أحدَ أصحابي أن يُلْقِي حَصاةً في حَلْقَةِ الفُقَراء؛ فلمَّا ألقاها، صاحوا جميعًا على قلبِ رجلٍ واحِدٍ: «الله، الله».

ثم أمرتُه أن يُلْقِي حَصَاةً ثانية في حَلْقَةِ الفقهاء، فصاحوا جميعًا:

«حرامٌ عليك، لقد أزْعَجْتَنا».

قامَ ابنُ سريج وقبّلَ رأسي، واعتَذَر. أمَّا الباهليّ، فقام ولوى طَرَفَ رِدَاءِهِ، وانصرفَ مُنْكَسِرًا مُتَجهِّمًا

قلتُ لابن سريج، هكذا حالُ أصحابنا، إن نَطَقُوا نطقوا بالله، وإن سَكتُوا سَكتوا بالله، وإن قاموا قامُوا بالله، وإن قَعدوا قعَدوا بالله. فكلُّ أحوالِهم على الله، فهو الذي يُدَبِّرُ أمورَهُمْ، وحيثُما كانوا فهم بالله لله مع الله. أمَّا غيرُهم، فمَعَ أَنْفُسِهِمْ. فانظرْ إلى هذه الحادثة البسيطة، كيف أنَّها كشفَتْ عن مَعْدِنِ كلِّ فريق. فأهلُ الرسُومِ، لَمْ يَرَوْا فيها إلَّا إزعاجًا، وأهلُ الحُضور رأوا فيها إزعاجًا إلى ذكر الله، فاجتمَعَتْ قلوبهم على الله. أيُّما خوفٍ أو رجاءٍ، أو قبض أو بَسْطٍ، إلَّا وهي فرصَةٌ لذكر الله. فكيف لا يكون هؤلاء مِنَ الصادقين، وهم مع الله في كلِّ حركاتهم وسكناتهم؟ وكيف لا يكونُ أولئكَ مع أنفُسِهِمْ، لأنَّ سوءَ الظَّنِّ بالناس يسبِقُ إليهم؟

اعلَمْ يا أخي أنَّه من بين أصحابنا الجالسين في تلك الحلقة من المستهترين بذكر الاسم المفرد. ومرَّة، وهو جالس، سقَطَ عليه جِذْعٌ، فشَجَّ رأسَه وسقط دمُه، فانكتَبَ منه على الأرض: «الله، الله». فانظرْ ما أعجبَ شأنَ القَوْمِ، فكلُّ إناءٍ بما فيه يَرْشَح، فلمَّا كان ذكرُه الغالب عليه «الله، الله»، لم يَنْكَتِبْ منه على حال الاضطرار شيءٌ آخرُ غيرُ «الله، الله».

قال ابن سريج: صدقتَ يا أبا القاسم. هؤلاء هم الرجال، ودونَهم طَغَامٌ ورَعَاع. وليستِ العِبْرَةُ بكثرة الحَذْلَقَة وترجيع الكلام، وإنَّما العِبْرَةُ بما وَقَرَ في القلب. بوركَ فيك يا أبا القاسم من أُستاذ

مُعَلِّم، وبورك في هذه الجماعة المباركة. لقد ذكَّرتمونا بالله، وأخرجْتُمونا من غَفْلَةِ أهلِ الظَّنِّ بالله، ودَلَلْتُمُونَا على أهلِ اليقين بالله.

كانت زمرُّد تحضُر حلقاتي، وكنت ألاحِظ أنَّها على وِدادها المعهود بسمنون، الذي لم يكن يُبادلها مشاعرَها، لأنَّ حبَّهُ قد استفرَغَهُ في خالقه، واستهلَكَه في مُوجِدِه، فلم يكن يَطلبُ حُبًّا للمُمَاثِل. كنَّا نعمل في هذا الأمر على التعريف المقرَّرِ بيننا حول التوحيد، بأنَّه إفرادُ الحدوث عن القِدَم. وكان لا بدَّ من ذلك حتى في المحبَّة.

من حسناتِ زمرُّد أنَّها كانت مستهلَكة في حبِّ سمنون، لكنَّها كانت تتوسَّلُ في حبِّها عن طريق الأسئلة التي تطرحُها في حلقة الدرس. لم تكن مقتنعةً بالتعريف المقرَّر عندنا عن التوحيد، لأنَّ أسمى مراتب التوحيد عندها في الحبّ، والحبُّ يقتضي اتِّحادَ الأحوال، فكيف القولُ بإفراد الحُدوث عن القدم، أو تمييزِ أحدِهما عن الآخر. كلّ تمييزٍ قادحٌ في معنى المحبَّة، فأرسلَتْ بطاقةً بهذا المعنى، تعترِضُ فيها على هذا التعريف، تقول فيها كيف يَصِحُّ التوحيدُ مع ادِّعاءِ التمييز بين الحدوث والقِدم، أو بين المحبِّ والمحبوب؟

كان سؤالاً رهيبًا ويَدُلُّ على أنَّ إدراكَ الأنثى للتوحيد أكملُ من إدراكِ كثيرٍ من كبار القَوم، لأنَّ صفةَ الانفعال التي عليها الأنثى تجعلُها تَسْلَمُ من دعوى الفِعْل الذي يقوم للرجل حتى في عَقْدِه حول التوحيد. فالقولُ بأنَّ التوحيدَ هو إفرادُ الحدوث عن القِدم، مَنُوطٌ بمن يُفْرِدُ ذلك الحدوث عن الوجود القديم، ومتى ما اشتغلَتْ هذه الدعوى عند العارف اشرأَبَّتْ نفسُه إلى الإشراف على تلك البلاد. والحقُّ أنْ لا أحدَ يشرِفُ على التوحيد إلَّا الحقُّ. فالكلامُ في

التوحيد هو كلامٌ بالنيابة فقط، بكلام المُنيب لا بكلام مَنْ أُنيب. ولا شكَّ أنَّ في تعريفِ التوحيد على هذا الحَدِّ دعوى غيرُ محرَّرة، ومَداخلُ الطعن إليها مُيَسَّرَة، وقد أَبْلَتْ زمرُّد بسؤالها، وكشفَتْ عورةَ الادِّعاء وسوءَ الاعتقاد.

قلت: صدقتِ يا سيِّدتي، فقد شُغِلْنَا بالتنزيه عن إدراك حقيقة التوحيد، حتى غَفَلْنا بالتمييز عن نسبة التوحيد إلى الموحِّدِ الحقيقيّ، ولا شكّ أنَّ حالَ المحبِّين في حبِّهم يُقرِّبهم من إدراك معنى التوحيد أكثرَ ممَّا يقرِّبهم حالُ النظر. فبالنظر، يسترسلون في إطلاق الدعاوي، ويعتقدون أنَّ العارفَ موحِّدٌ حين يرتمي في وحشة النفي، أو وَسْوَسَةِ التمييز، فلا يتوقَّف عن نفي الحُدوث عن الواجد الموجِد، والحقُّ أنّه إن فعل ذلك بنفسه كان من الخاسِئين، وأبان عن جهلِه، وعطَّل القُرْب من الألوهيَّة، ولم يَشَمَّ منها نَسْمَةً، ولم يُدْرِكْ ذَرَّةً من التوحيد؛ لكنَّه إن أَسْلَمَ القِيَادَ في تلك البلاد، عَلِمَ أنَّ أسمى مرتبةٍ له في التوحيد هي أن يُوَحِّدَ الله بكلامه الأزليّ الذي أنزلَه على رُسُلِه. وهو إن عبَّرَ عن حقيقة التوحيد بالمحبَّة، أدرك معنى المحبَّة ومعنى التوحيد، وتيقَّنَ أن لا مُوَحِّدَ على الحقيقة إلَّا الحقّ، وأن لا نسبةَ على الإطلاق في ادِّعاءِ التمييز. وها هنا مقام خطر لا ينتبه له حتى الراسخون، لأنَّه دلَّ على أنَّ الحيرةَ هي أسمى ما نطمع أن نصل إليه في معرفة الحقّ. فكلَّما قام لنا دليل على وحدانيَّته انخرمَ في اللحظة التي تَليها، فكيف نُوَحِّدُه؟ وما وحَّد من وحَّد إلَّا بكلام الواحد الأحد ﴿لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

وفي هذه الأثناء، استأذن شابٌّ في الكلام، فسألته عن اسمه، فقال: اسمي الحسين بن منصور الحلَّاج.

فقلت له: قلْ سؤالك.

فقال: يا أبا القاسم، كيف تقولُ بأنَّ التوحيدَ هو إفرادُ الحدوث عن القدم؟ وأين تكونُ أنت عند هذا التمييز؟ فهل بَقِيتَ على عبوديَّتك؟ فالحكمُ في التوحيد للحقّ ووجودِه، والعبدُ بربّه لا بنفسه، فكيف تتميَّزُ في توحيد الوجود عنه؟

نظرتُ إلى الشابّ الذي لَجَّ بنا في لُجَجِ التوحيد، بعد أن كنَّا نُراوِحُ الساحل بمراكبنا البسيطة، فقلت له: صدقتَ يا فتى، فالقول بالتمييز يُشْعِرُ بأنَّ العبدَ يكون في بينونة بين شهود الحقّ وشهود الخلق، فهو في حال استواء. كما يقتضي ذلك القولُ العلمَ بالمقامين مع الغيبة عنهما، أي أن لا يكونَ عبدًا وأن لا يكون ربًّا

فقال الحلَّاج: فلا توحيدَ مع شهود التميز وفق هذا الكلام.

فقلت: نعم، لا توحيدَ مع شهود التمييز، لكن يَصِحُّ التمييزُ في مراتب أخرى للتوحيد، مثل توحيد الأسماء، بينما ما ذكرتُ لك يتعلَّقُ بتوحيد الأحديَّة الذي تسقُطُ عنده كلُّ الغيريَّات.

فقال الحلَّاج: فلا بدَّ من تقييد تعريفِكَ للتوحيد يا أبا القاسم باسمٍ من الأسماء الإلٰهيَّة، لأنَّ التوحيدَ المطلقَ ذاتيٌّ للحقِّ، فلا ذوقَ للعبدِ فيه.

فقلت: صحيح، إنَّ للتوحيد ساحلاً ولُجَّةً، فالساحل توحيدُ الدليل، واللجَّةُ توحيدُ الذات. والساحل يُسْبَح فيه وفيه الأمان، واللجَّةُ مَظِنَّةٌ للغرَق. فالدليلُ يُقال، وارتفاع الدليل مُفْنٍ لكلّ حَالٍ ومَقال. وقد تكلَّمتُ على التوحيد، وذكرتُ لكم تمييزَ الحدوث عن القدم، من باب توحيد الساحل لا مِنْ مَدْخَلِ توحيد اللجَّة. وتوحيدُ الساحل هو توحيد

الأسماء. ولكلِّ اسْمٍ أحديَّةٌ تميِّزُهُ عن باقي الأسماء الأخرى، هي توحيدُه.

* * *

كنت أقضي وقتي بين البيت والجامع والسوق، أُخَصِّصُ لكلِّ فضاء وقتًا معيَّنًا كما رزقني الله ببنتٍ أبهجتني وأسعدَتْ فاطمة، فكنَّا نحوطُها بشتَّى أنواع الرعاية مع أخيها محمَّد الذي كَبُرَ واستوى فتًى يافعًا كان الناس في بغداد يُعظِّمونني، حتى كنتُ أتحاشى أن أَخْطُرَ في دروبها وأزقَّتِها، لأنَّهم كانوا يَقومون لي صفوفًا للتحيَّة، فخشيتُ على نفسي من الكِبْر، وحاذرتُ أن أَظْهَرَ في الطرقات، فصرتُ أَسْلُكُ إلى بيتي أو السوق طرُقًا مَهجورة أو غير سابِلة، حتى أختفي عن أنظار الناس. وإذا وصلتُ إلى الدكّان، أَسبَلْتُ الستارة وقُمْتُ أُصَلِّي. أحيانًا، قد أُصَلِّي ثلاثمائة ركعة في اليوم. وفي الأيَّام الأخرى، كنت أَجتمع مع الأصحاب في بيتي أو بيتِ أحدٍ منّا

مرَّة، دخلتُ على زوجتي، فوجدتُها جالسةً مع زمرُّد، فتعجَّبْتُ من هذا الأمر. لاحظَتْ فاطمة انزعاجي، فقدَّمَتْ لي زمرُّد التي سارعَتْ بالقول إنَّها تُتابِعُ حلقةَ دروسي، كما تكلَّمَتْ على الدروس التي كنتُ أُعطيها خلالَ رحلة الحجّ، وتكلَّمَتْ على تلك الذكريات بشوقٍ عظيم. رَحَّبْتُ بزمرُّد، فشكرَتْنِي. وبعد قليل، قامَتْ فاستأذنَتْ منَّا وخرجَتْ إلى حال سبيلها سألتُ فاطمةَ عن سبب زيارة زمرُّد، فقالت لي: اجلِسْ يا أبا القاسم حتى لا تتفاجَأ

فقلت: حاضر، سأجلِس.

جلست، فقالت فاطمة: لقد جاءتْ زمرُّد تتوسَّل إليَّ في أن

أُكلِّمَك حتى تخطُبَها لصاحِبِكَ سمنون، فهي مُغرمَةٌ به أشدَّ الغرام.

فقلت: ما هذا الطلَبُ الغريب؟ وكيف لي أن أتدخَّلَ في مثل هذه الأمور التي لا تَعْنِينِي؟ أمَّا سمنون، فرجلٌ مَشغول بربِّه، وليس له أدنى خبر عن مثل هذه الأمور، فهو مُستهلَك في حبِّه لله، ولا أظنُّ أنَّه سَيَقْبَلُ بالزواج من زمرُّد.

فقالت فاطمة: ليس مثلُكَ من يقول هذا الكلام يا أبا القاسم، فإذا قرَّبْتَ بين قلوب الناس، كان ذلك أَدْعَى للقُرب من الله، ولعلَّنا نرحم هذه المرأة إن توسَّطْنا في هذا الأمر، وأَرَحْنَاهَا من هذا الابتلاء.

فقلت: أخشى إن حاوَلْنَا التقريب بين زمرُّد وسمنون أن نُبعِدَ بينه وبين ربِّه. فشأنُ مثلِ هؤلاء الرجال عجيبٌ في إيثار محبَّةِ الخالق على أيِّ محبَّةٍ أخرى.

فقالت فاطمة: لطالما سمعتُكَ تتحدَّثُ عن التوحيد والمحبَّة، أليستْ محبَّة المخلوق من محبَّة الخالق؟ فلماذا التمييز في المحبَّة بين الحبّين؟

فقلت متعجِّبًا: لاشك أنَّ ذوقَ المرأة في معرفة الحبِّ أعلى من ذوق الرجال، لأنَّ جلالَ الحق يمنعُنا من تخليصِ عبارة الحبِّ ممَّا قد يَشُوبُهَا من محبَّةِ الخلائق.

فقالت: ليس مِنْ مُحِبٍّ سوى الحقّ، وليس مِنْ مَحْبُوبٍ سوى المخلوق، فعلى الحقيقة لا فرقَ ولا تمييز في المحبَّة.

فقلت: صدقتِ يا فاطمة، لكنِّي لا أستطيع أن أضمنَ لك أنَّ سمنون سيَقبل الارتباط بهذه المرأة، فجلالُ الحقِّ يُطوِّقُ أُفُقَهُ

الإدراكيّ، بحيث لا يسمَح لأدنى ذرَّة أن تُعَكِّرَ صَفْوَ هذا الخُلوص.

فقالت فاطمة: أرجوك يا أبا القاسم أن تُقنِعَ صاحبَك، فلَكَ دَالَّةٌ عليه، وزمرُّد مهتبِلة به أشَدَّ الاهتِبال. وقد حدَّثَتْنِي أنَّ حبَّها له قديم، منذ رحلة الحجّ التي قامَت بها في رُفقَتِكُم، ولم يزدَدْ حبُّها مع مرور الوقت إلّا رسوخًا

فقلت: سأحاول معه، وإن كنتُ أعلمُ أنَّه لن يرضى بذلك.

في الأيَّام التي تَلَتْ، دَعَوْتُ سمنون إلى بيتي واستضفته. فلمَّا أكلنا وشربنا، سألته عن أحواله، فأخبرني بما أعرف عنه، ثم تطرَّقت إلى موضوع زمرُّد وقلت له: يا أخي، إنِّي أرغب إليك في الزواج، وهي سُنَّةُ المصطفى عليه الصلاة والسلام. مكتبة الرمحي أحمد

فقال سمنون: نعم هي سُنَّةُ المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، لكنِّي غيرُ مُؤَهَّلٍ للزواج، فقلبي لا يُطاوعني في الركون إلى الأكوان. وهذه السُّنَّة ليست على الوجوب، فكم من الصالحين لم يتأهَّلْ لأسباب كثيرة، وأنا آخُذُ نفسي على هذا المحمَل.

فقلت: إنِّي أرى أنَّ الأصْلَحَ لك أن تتأهَّل، وهناك من النساء الصالحات مَنْ سَتُسَاعِدُكَ فيما أنت فيه.

فقال سمنون: كما قلتُ لك يا أبا القاسم، فإنِّي على أمري لا أَحِيدُ، ولستُ مطلوبًا للزواج، فلا تُحْرِجْنِي.

فقلت: لقد جاءتني فلانة التي تعرف، وهي مُتيَّمةٌ بك، وأخشى إن أنت صَدَدْتَهَا أن تتسبَّب لها في فتنةٍ عظيمة، فَفَكِّرْ في الأمر، ولا تُقَرِّرْ شيئًا الآن.

قال سمنون على وجه إنهاء الحديث: سأفعلُ إن شاء الله.

ثم استأذنَ وخرج.

جاءتني فاطمة، فقصصتُ عليها الأمر، فتعجَّبَتْ من حال سمنون، ومن خُلوص محبَّته لربِّه حتى لا تراه يَقْبَلُ بمزاحمة أَحَدٍ له في هذه المحبَّة. طلبتُ منها أن تُخبر زمرُّد بالأمر، وأن تَصْرِفَها عن طلب الزواج من سمنون. وعَدَتْني أنَّها ستفعل. في اليومين التاليين، زارتنا زمرُّد مرَّة أخرى، وتحدَّثَتْ مع فاطمة في الموضوع. كنتُ جالسًا في البيت ويَصِلُنِي ما يَدور بينهما من كلام، فسمعتُ زمرُّد تنتحِبُ، وتبكي حظَّها العاثر الذي جعل حبَّها يَعْلَقُ بقلبِ رجلٍ لا يَبْغي شيئًا منها ولا يُبادلُها مشاعِرَها. رقَّ قلبي لها، ورحمتُ ما بها، فمثل هذه المشاعر لا تَسْكُنُ إلَّا القلوب الصافية، ثم سمعتُ فاطمةَ تحاولُ تَطييبَ خاطِرِها، وطلبَتْ منها أن تَصرفَ نفسها عن حبِّ سمنون، فقالت لها زمرُّد: سأُكلِّمه بنفسي وأَعرِضُ عليه حبِّي، حتى أسمعَ منه جوابه، وسأرى ما سيقول، وإن أبى، فلي معه كلام آخر.

كان في كلامها تهديد لم يَرُقْ لي، لكنِّي كنتُ أُدركُ أنَّ للحُبِّ سَطَوَاتٍ تجعلُه ينتقلُ بسرعة من حالٍ إلى حَالٍ، ومهما بلغ حُبُّ الأمثال من آفاق، فقد يرغبُ أحدُهما في الانتقام. عجيبٌ أَمْرُ الحبِّ أن يتحوَّلَ من المحبَّة إلى إيقاعِ الأَذى والمذَمَّة. ما أعجبَ شأنَ الحبِّ الذي يتوسَّلُ في بلوغِ أهدافِه بما يُنافيه، حتى يُفْنِي مَوضوعَ حبِّه. ولعلَّ المرءَ إن خفي عليه من أمرِ الحبِّ شيءٌ أن يَبْذُرَهُ في أرض الصفاء، فإن نسي الموضعَ الذي غرس فيه بذرةَ حبِّهِ وخفيَ عليه مكانها، فإنَّ أمطارَ الخير كفيلةٌ بأن تُنْبِتَ تلك البذرة وتُطلعَها في سماء العناية زهرةً يانعة، فَتُظهرها له بعدَ طولِ خفاء. تلك هي بذرة المحبَّة التي على الإنسان أن يغرسَها في أيِّ أرضٍ متى حان وقتُ الإبذار، ولا ينتظر،

فقد يفوت الأوان، ولا يكون الإثمار. ولا عليه، إن نسيَ الأرض التي بذر فيها المحبَّة، فإنَّ المطرَ سيُظهرها له.

* *

اتَّصَلَتْ زمرُّد بسمنون وكلَّمته في الموضوع، فامتنعَ أشدَّ الامتناع وصرفها عنه. وتهرَّب منها، حتى تغيَّر قلبُها عليه. حاورَتْهُ كثيرًا، وحاولتْ معه بالترغيب تارة، وبالتهديد تارة أخرى، وسعَتْ بكلِّ ما أُوتِيَتْ من بلاغة أن تُثنيه عن قراره، وأن تُبَيِّنَ له أنَّ حُبَّها مِنْ حُبِّ الله، لكنَّه لم يكن يسمَع إلَّا نغمةً واحدة، فصدَّها صُدودًا، وصرفها بأبشعِ صورة عن مجلسه. ثم جاء يخبرني بذلك، فعاتَبْتُهُ على تَصَرُّفِه غير المحسوب، وقلت له إنَّه ما كان ينبغي أن يصرفَها بتلك الطريقة، بل كان عليه أن يتصرَّفَ بحكمة وأن يُداري تلك السيِّدة، ولا يَقْطَع شَعْرَةَ الأمل، لأن رَدَّةَ فِعلها قد تكون غير محمودة، والسيِّدةُ نافذةُ القَرار، مسموعةُ الكلمة، فقد يتأذَّى منها سمنون، بل قد يتأذّى منها أصحابُه. تعلَّل سمنون وتشبَّثَ بموقفه، فتركتُه على حاله. ثم جاءتني زمرُّد مرَّة أخرى بعد الدرس، فكلَّمتني في موضوع سمنون، فقلت لها بأنَّ الرجل لا يرغبُ في مثل هذه العلاقة، وحاولتُ أن أصرفَها بكلِّ ما أوتيتُ من أدلَّة، عن تلك المحبَّة، وبيَّنْتُ لها أنَّ الرجلَ مشغولٌ بربِّه. فقالت: ما قولُك يا أبا القاسم في رجلٍ كان طريقي إلى الله، فذهب اللهُ وبقي الرجل؟

كان كلامًا قويًا، فإنَّ كثيرًا من نساء بغداد كُنَّ يَرْتَدْنَ مجالس سمنون لعذوبة كلامه، ورقَّة أشعاره، وحسنِ دعوته إلى الله، وجمالِ صورته ونَضارته، فافتَتَنَتْ به مجموعةٌ من النساء، كان منهنَّ زمرُّد. وهي سيِّدة من بيتٍ كبير، لكنَّها تأثَّرتْ بكلامه. وها هي اليوم، تأتيني

لتخبرني بأنَّ من قادها إلى الله قد يصرفُها عنه ويوقِعُها في المخازي. كانت تريد أن تضغطَ عليَّ، حتى أُقْنِعَ سمنون بأن يرأفَ بها ولا يتركَها فريسةً للأهواء الشيطانيَّة، لكنِّي كنتُ أعلمُ بأنَّ سمنون لن يقبلَ، فقلت لها لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، حسبُنا الله ونعم الوكيل.

أصرَّتْ بأنَّها مقهورةٌ في حبِّها له. فلمَّا أعيَتْنِي الحيلة معها، قلت لها بأنِّي لا أملكُ أن أُغَيِّرَ هذا الأمر، ولا علاقةَ لي به، فذكرَتْ لي بأنَّ لي دَالَّةً على أصحابي، ومنهم سمنون، وأنَّ الأستاذَ يستطيعُ أن يُقنِعَ أصحابه بأمر من الأمور، إن كان فيه صلاحُهم، وأمرُ الزواج ينصلح به أمور كثيرة، فكيف لا أستطيع أن أساعِدَها في بلوغ هذا المرام، وكيف يَهربُ صاحبي سمنون من الحلال، أيرغبُ في أن أرتمي في الحرام؟

كان كلامها منطقيًّا، إلَّا أنِّي لم أكن أستطيع أن أغيِّرَ شيئًا، ثم إنِّي كنت أخشى على سمنون من حبِّ هذه المرأة التي كان لها نفوذ كبير في دواليب الدولة، لقرابتها من بعض العمَّال. وصاحبنا سمنون لم يكن ممَّن يبيعون آخرتهم بدنياهم. لمَّا أكثرَتْ عليَّ زمرُّد القول، وصارت إلى الوعيد والتهديد، أغلظتُ لها القول، وصرفتُها وطلبتُ منها أن لا تعودَ إلى حلقتي مجدَّدًا، فلن أسمحَ لها بالجلوس فيها خشية الفتنة المترتِّبة على ذلك. نظرَتْ إليّ نظرات ناقمة، ثم غادرَتْ. كنت أتوقَّعُ أن تَكيدَ لسمنون كيدًا لم يكن يستطيعُ أن يَرُدَّهُ، لكن هذا الابتلاء سنتحمَّله جميعًا

مرَّت عدَّة أسابيع، فجاء أحمد الباهليّ إلى حلقتنا، وجلس يستمع ما يجري من حديث. تكلَّم الأصحاب وسألوا، فكنتُ أجيبُ بفُتوح الوقت. ثم تكلَّم سمنون بكلام عجيب في المحبَّة، وقدَّمها

على المعرفة مخالفًا ما كان يقول به القوم الذين كانوا يقدِّمون المعرفة على المحبَّة، لكن مشربَه في المحبَّة كان صافيًا، وحالُه صادقٌ فيما يقول ويَدَّعِي. كان سمنون مُعَظَّمًا من الجميع في بغداد، وكان من أقران خالي السَّريّ السقطي، وصحبني بعد ذلك مع الجماعة حين قدَّموني عليهم. وقد وقعَتْ له كرامات عجيبة، ومن ذلك أنَّه كان يتكلَّم يومًا في المحبَّة، فجاء طائر صغير وحطَّ على رأسه، فلم يزل يدنو حتى اقترب من يده، ثم ضرب بمنقاره على الأرض بشدَّة حتى سال منه الدم ثم سقط ميِّتًا إذا كان هذا حال الطيور حين تدرك أحوالَ الصادقين، فما بال الآدميِّين لا يُقِرُّونَهُ على عُلُوِّ درجته في المحبَّة. رغبنا إليه في أن ينشدنا من رائق شعره، فقال:

وَقَدْ كانَ قلبي خَاليًا قبلَ حُبِّكُمْ ... وكانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهُو وَيَمْزَحُ
فَلَمَّا دَعَا قَلْبِي هَوَاهُ أَجَابهُ ... فَلَسْتُ أَرَاهُ عَنْ فِنَائِكَ يَبْرَحُ
رُمِيتُ بِبَيْنٍ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا ... إِذَا كُنْتُ فِي الدنْيَا بِغَيْرِكَ أَفْرَحُ
وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ فِي البِلَادِ بِأَسْرِهَا ... إِذَا غِبْتَ عَنْ عَيْنِي بِعَيْنِيَ يَلْمَحُ
فَإِنْ شِئْتَ وَاصِلْنِي وَإِنْ شِئْتَ لَا تَصِلْ ... فَلَسْتُ أَرَى قَلْبِي لِغَيْرِكَ يَصْلُحُ

ثم تكلَّم أبو الحسين النوريّ بلسان المحبَّة، وعلَّق على كلام سمنون، حتى قال مغلوبًا على نفسه: أنا أعشق الله، ثم غُشي عليه.

لمحتُ شبحًا جالسًا خلفَ أسطوانة، فمَرَّ بخاطري أنَّها زمرُّد، لكنَّها كانت في مكان بعيد عن الحلقة، ولم يكن لي أن أمنعَها من الجلوس هناك، إذ لم تقتربْ من حلقتنا. لكنْ ما كان يجري في حلقتنا كان يصل إلى مسمعها، ولعلَّها سمعَتْ جوابَ سمنون يتحدَّثُ عن

عُزوفه عن حبِّ الأمثال في هذه الأبيات الجميلة، فلعلَّها ترتدِعُ وتتركُه لحاله.

تكلَّم الباهليّ، وأنكر ما يقول سمنون، ولم يُجَوِّزْ أن يتكلَّمَ المخلوق بالحبِّ عن الخالق بهذه الطريقة، وأنكر ما قال سمنون، وأنكر أشدّ الإنكار ما قاله النوريّ. لكنَّ هذا الباهليّ لم يكن صادقًا ولا ورعًا فيما يقول أو فيما يُنكر به، وإنَّما كان يَغيظُه ما يحظى به القومُ من التعظيم عند خاصَّة الناس وعامَّتهم، فأراد التشويشَ علينا بكلامه، فقلت له: مثل هذا الكلام الرقيق لا يحتمل الشدَّةَ يا فقيه، فإمَّا أن يَذوقَه المرءُ أو لا يَذوقَه، فإن لم يَذُقْهُ فليس له أن يُنكِرَه، فإنَّما هذا من علوم الأذواق، وليس ممَّا تتبجَّحُ به الأشداق.

ازدرد الفقيه الباهليّ ريقَه، وزمجر، ثم قام ذليلاً من المجلس.

سعى غلام الخليل عند الموفّق الماسِك لأمور الدولة، وملأ قلبَه غيظًا على جماعتنا، وقال له: إنَّ ببغدادَ جماعةً من الزنادقة دمُهُم حلال. فإن قتلَهُمْ أميرُ المؤمنين، فدمهُمْ في عنقي. على إثر سِعاية غلام الخليل، بعث الخليفة إلى القاضي كي يقبضَ علينا كانت التهمة التي وُجِّهَتْ للقوم هي الزندقة، وكان على القاضي أن يستدعي الجماعةَ كلَّها سمع أهلُ بغدادَ بهذه التهمة العجيبة الغريبة، واستنكروها، ومُنِعْتُ من الجلوس في حلقة الدرس، ومُنِعَ أصحابُنا من الحضور، بل قُبِضَ عليهم جميعًا، وأُودِعُوا في السجن. كانت كلمةُ غلام الخليل نافذةً عند الكبراء، ولم يكن بإمكان القاضي أن يُخْلِي سبيلَنا رغم عَطفه علينا، فَجَمَعَنَا في محاكمة عجيبة.

كان قاضي القضاة، إسماعيل بن حمّاد، شيخَ المالكيَّة في بغداد،

وأحدَ كبار الفقهاء الذين يُشْهَدُ لهم بالتعظيم والقبول عند الجميع. كان رجلاً صالحًا فاضلاً يُعظِّمُ الصالحين ويُوَقِّرُهم، بل إنَّه كان يُؤْثِرُهُمْ على غيرهم ويجالِسُهم. وقد كان صاحبُنا أبو الحسن ابن أبي الورد من جُلسائه وأصدقائه، قبل أن يتولَّى إسماعيلُ خطَّةَ القضاء، فلمَّا تولَّاها هَجَرَه أبو الحسن.

جلس القاضي، وجلس عن يمينه الحاجبُ أبو عُمر محمَّد بن يوسف، وعن يساره أبو العبَّاس المعروف بالبَاز الأشهب. طلب القاضي بإدخال المتَّهمين، فدخلنا عليه، وبقينا واقفين. تكلَّم القاضي وحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم ذكَّر بالتهمة الموجَّهة إلينا، وهي تهمةُ الزندقةِ والقولِ في الجناب الإلٰهي بأقوالٍ غير مرضيَّة يأباها الشرع. لمَّا استمعنا إلى التهمة، طلبنا الدليل على ثُبوتها، فاستدعى القاضي شهودًا كان على رأسهم غلام الخليل. دخل ذلك الديكُ المنْفُوشُ يَخْطُرُ في طيلسانه، ويَتَقَلَّعُ من الأرض تَقَلُّعَ أَهْلِ الخِسَّة والبَطَر، ويَحْدِجُنا بنظراته الناقِمة، فازدريناه، وأعرضنا عن هذا المريض الذي لا يُرجى لمثلِه صلاحٌ. فلمَّا وقف أمام القاضي، طُلب منه أن يُدْلِي بشهادته، فقال: أيُّها القاضي المبجَّل، لقد خَبِرْتُ هذه الجماعة منذ سنوات، وجلستُ إليهم، وكنت أَحْمِلُ أقوالَهم وأفعالَهم على مَحامِلِ الخير، وكلَّما نازعني الحَزْمُ فيهم سَوَّفْتُه بِحُسْنِ الظنّ، متعلِّلاً لهم بشتّى التعليلات، مترخِّصًا بشأنهم كلَّ الرخَص، مُتعقِّبًا لكلِّ ما يُبْرِئُ ساحتهم، مستحضرًا أمر الشارع بِدَرْءِ الحُدود بالشبُهَات. وقد بقيتُ على هذا مُدّةً من الزمان، رغم أنَّ غيرتي على شرع الله كانت تدفعني إلى الذَّوْدِ عن محارم الله؛ ثم صحبتهم في رحلة الحجّ، ورأيتُ منهم أقوالاً وأفعالاً تُخالِف ما عليه أَمْرُ عامَّة المسلمين، لكنِّي لم أُنْكِرْ عليهم ذلك. فَلَبِسُ

المرقَّعات والتقَلُّل من الدنيا والزهد فيها، والبذاذَة الظاهرة وإخمادُ النفوس وتخريبُها، قد كان شعارَ السلَف الصالح وَزِيّهم؛ كما أنَّ هذا الاختيارَ لا يتعلَّقُ به أمرٌ ولا نهي، لكنَّه حينما يكون للشهرة، ويُستعمل لِتَصَيُّدِ البُلْهِ وتَغْرِيرِ الناس بحسن الطوِيَّة والسلوك، فلا بدَّ أن يُوزَعَ بالسلطان حتى لا يُدَلِّس على الناس، لما في ذلك من الفساد الظاهر، والتغرير بأصحاب النيَّات الصافية من الأحْداث والنسْوان والشيوخ وعامَّة الناس. ومع ذلك، بقيت متوقِّفًا بشأنهم، حتى جلستُ ذلك اليوم إلى حلقتهم في المسجد، فَدَارَ حديثٌ حول الصدق، وحول أَفْضَلِيَّةِ الفقراء، كما يَزْعُمُون، على حَمَلَةِ العلم من ساداتنا الفقهاء الحافظين للشريعة من جهل الجهلاء وتخليطات أهل الانحراف. وقد توسَّل زعيمهم هذا، وأشار إليَّ، في ذلك بحيلة يُتقِنها حتى دلَّس على الفقيه ابن سريج الشافعيّ، فصدَّقه في زعمه وأَقَرَّهُ على دعواه، وذلك أنَّ هذا، وأشار إليّ مرَّة أخرى، كان على اتِّفاق مع بعض جماعتهم إن ألقى حصاةً في حلقتهم تظاهروا بالخشوع والرحمة والإنابة، ونطقوا جميعًا بذكر اسم الجلالة في سكينة ووقار. ثم دسَّ في حلقة الفقهاء أحدَ أصحابهم، وأمره أن يَسْبِقَ بالقول إلى إظهار الانزعاج عند رمي الحصاة حتى يُقلِّدَه باقي الفقهاء في إظهار السخْط. فألقى الخبيث حصاةً في حلقتهم، وآذاهُم بفَعْلته المنكرة، وصرفَهم عمَّا كانوا عليه من العلم الصحيح في تبليغ الهدي وبيانه إلى الناس، فشغَلَهُمْ رَمْيُ تلك الحصاة عمَّا كانوا عليه من جلائل الأمور وإسعاف الناس إلى طريق البيان والهدى والاستقامة، فنَطَقَ المتواطئُ المدسوسُ أوّلاً بالإنكار، وتبعه الفقهاء على ذلك النحو، فأنكروا ذلك الفعل المنكر الذي يُنكره الشرع والعقل معًا فلمَّا سمع ابن سريج مقالةَ الفقهاء وقِلَّةَ

صبرهم وعَجَلتهم، ومقالةَ الفقراء وكثرة حِلْمِهم في الظاهر وتوكُّلهم على الله وإنابتهم إليه، دُلِّس عليه، وظنَّ أنَّ الأمر يقضي بصدق الفقراء على الفقهاء، وأَقَرَّ بِعُلُوِّ مرتبتهم، ولم يعلم بأنَّ هذا من ألاعيبهم التي يُدلِّسُون بها على الناس حتى يستقطبوهم، ويَشُفُّوا عليهم بما يزعمون من الخوارق والكرامات. لكنْ، كلُّ هذا ليس هو موضوع كلامنا وشهادتنا، بل إنَّ هذه الطائفة قد استباحت الكلام في مقام الألوهيَّة، حتى صاروا يتغزَّلون بالحقِّ، ويقولون فيه كلامًا لا يَقبله العقل ولا الشرع، بل إنَّ هذا الزنديق، وأشار إلى النوريّ، قد بغى في دعواه حتى جَوَّزَ العشق في الله، ولا يخفى على فضيلتكم ومقامكم الأسنى يا سيِّدي القاضي، أنَّه لا يجوز إطلاقُ العشق على الله، لأنَّ العشقَ في كلام العرب يُقال لما يُنْكَحُ، فأيُّ مقالةٍ غريبة هذه التي تستبيحُ ذلك الحِمَا، وتَنْزِلُ بمقام الألوهيَّة إلى مقامات أهل البدع والأهواء والضلال؟ وقد سمعتُ هذا الزنديق يقول: «أَعْشَقُ الله، وهو يَعْشَقُنِي».
فقال القاضي: هل صَحيحٌ ما يتَّهِمُكَ به الفقيه، يا نوريّ؟

فأجاب النّوريّ: سمعتُ الحقَّ سبحانه وتعالى يقول ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وليس العشقُ شيئًا آخر غير الحبّ، غير أنَّ العاشقَ ممنوع، والمحبُّ يتمتَّع بحبِّه. وما العشقُ يا سيِّدي القاضي إلّا فَرْطُ الحبِّ، ونحن قد شَاكَنَا حُبُّ الإلٰه بشوكةٍ في شُغَاف أفئدتنا، فجرى بدماء المحبَّة في كلِّ شرايين ذواتنا. أليستْ لفظةُ «العشق» مأخوذةً من العَشَقَة، وهي شجرة ذاتُ شَوْكٍ، تَخْضَرُّ ثم تَدِقُّ وتَصْفَرّ. فلأنَّ هذا الحبَّ الإلٰهيّ قد تعشَّقَ على قلوبنا بأشواك الطريق وأهوالها، قلنا ما قلناه، لكنَّه حبٌّ عفيفٌ وعذريّ. أيُّها القاضي، إنّ مدينتنا تُسمّى باللسان القديم «بغ ـ داد، أي بستان المحبَّة»، فهل ستكون القاضي

الذي سيقضي على المحبّة في مدينة المحبَّة؟

تأثَّرَ القاضي بكلام النوريّ، لكنَّه لم يتَّخذ قرارًا بشأننا، بل أَمَرَ بإيداعنا السجنَ، حتى يستأذنَ الخليفة.

بتنا تلك الليلة في ذكر، ولم يكن أمر الدنيا يهمُّنا، أو ما سيؤول إليه مصيرُنا، بل كنَّا على قلبِ رجلٍ واحد، نعيشُ اللحظةَ التي كنَّا فيها. فالصوفيّ ابنُ وقتِه، وابنُ ساعته، بل هو ابنُ أنفاسِه، بل هو ابنُ أَصْغَرِ أنفاسِه، وكلّ نفَسٍ منها حاملٌ للوجود، فأيُّ وجودٍ هذا الذي لا حُبَّ فيه؟ وأيّ فقهٍ هذا الذي يُنْكِرُ الحبَّ؟ وحيث إنّ أنفاس أهل الله دائمًا رطبةٌ بذكر الله، فكيفَ يدخلُ عليها الخوفُ أو الجزعُ من الموت أو ما دونه؟ وَعَظْتُ أصحابي، وكنتُ بالوعظ أولى، ووعدتُهم بالنجاة وكنتُ بالوعد أَدْعَى، ولم نَتَّفِقْ على خطّة معيَّنة للدفاع عن أنفسنا كان صدقُ أحوالنا مع الله هو سلاحُنا ودفاعنا، ولم نكن نَأْبَه بما يمكن أن يَقَع. مرَّت عدَّة أيَّام ونحن في السجن، واعتدنا على هذا الفضاء الجديد، فمهما ضُيِّقَ علينا فيه، فنحن في رحابة الوجود نَسِيحُ، وفي وُسْعِ قلوبنا نُسافر وليستْ هذه الحيطان أو القضبانُ بأفظعَ من سجن الدنيا للمؤمنين. لم نكن نشتكي ممَّا نحن فيه، بل كان لسانُنا بالذكر لاهجًا، وبالحمد ناهِجًا أصابتني كما أصابتِ النوريّ عِلَّةٌ داخلَ السجن، لكنَّنا لم نكن نشتكي، فسألني أحدُ الأصحاب ممَّن ضاق بالسجن، وقال يا أبا القاسم: لقد أصابَتْكَ هذه العلَّة، فتواجَدْتَ. وأصابتِ العلَّةُ أبا الحسين النوريّ، فَكَتَم.

فقلت: خيرٌ من الشكوى إن أصبحَتْ وَجْدًا وَجَدْوى. وما كنَّا شاكِينَ، ولكن أردنا أن نكشفَ عن عينِ القُدرة.

فسألَ الرجلُ النوريّ: لماذا كتمتَ يا أبا الحسين ما نزلَ بنا؟

فقال النوري: ما كنَّا لِنُبْتَلَى ببلوى فَنُوقِعَ عليه اسمَ الشكوى، ثم أنشد قائلاً:

إنْ كُنْتُ لِلسُّقْمِ أهلا فأنتَ لِلشُّكْرِ أَهْلا
عَذِّبْ فَلَمْ يَبْقَ قَلْبٌ يَقُولُ لِلسُّقْمِ مَهْلا

استدعانا القاضي مرَّة أخرى، بعدما سعى غلام الخليل عند الخليفة وأبلغه بما جرى، فانتصر له. أمَّا القاضي، فبقي متوقِّفًا في شأننا، وإن كان مطلوبًا منه أن يَحْكُمَ بالظاهر، لكنَّ ذلك ليس مَدْعَاةً للتهويل في أَمْرِ التهمة. إلَّا أنَّه لم يكنْ قادرًا على التأثير في القَضيَّة، ما دام أنَّ هناك شهودًا جاء بهم غلام الخليل ليشهدوا بما قيل في حلقة المسجد، فصدر أمرُ الخليفةِ بضربِ أعناقنا، وكاد الخليل يَطير فرحًا، إذ ستخلو له الدنيا في بغداد، وسَيَضْطَهِدُ أهلَ الله وعامَّةَ الناسِ على ما يخطّطُ له مع أمثاله من فقهاءِ الرسوم. لم يكن يُفكّر إلَّا في الحُظْوة التي سينالها، إذا ما تمَّ تنفيذُ الحُكْم، لأنَّ الناس سيهابون سطْوَتَه، وسيرهَبون تدبيرَه.

احتسبنا عند الله هذا الابتلاء، وهذه التهمَ الباطلةَ التي جرَّها علينا أهلُ الغِرَّة بالله. وعند الصباح، قُمْنا فصلَّينا، وبقينا في أماكننا نذكر، حتى طلعَتْ الشمس، ثم صلَّينا ركعتين، ولزمنا مواضع ذكرنا، حتى جاء السيَّاف مع زبانيَّته ممتَشِقًا سيفًا تلمَع صفحته، وكأنَّ لَمَعَانَ أرواحنا عَلِقَتْ على تلك النصَال، وكأنَّ نَعْيَهَا قد استكَنَّ في تلك المَحَال. أَيُّمَا رَمْسٍ هذا؟ وأَيُّمَا قَبْرٍ لا طينَ فيه. لعلَّ صفائحَ النصَال مقابرُ الأرواح. وبعد أن تَنْسلَّ من أجسادها، يُؤْذَنُ لمياه الروح أن

تسيلَ على تلك الصفَائِحِ، فَتَقْطُرَ دَمًا في ضَجْعَةِ الموت.

اقتادنا رجالُ السيّاف إلى ساحة في السجن تُقْطَعُ عندها الرؤوس. نطقنا بالشهادة، فخيَّرنا السيَّاف فِيمَنْ يتقدّم أوّلاً سارع النوريّ قبل الجميع، وقال مبتهِجًا: أنا أوَّلُ الشهداء، أنا أوَّل قطرة تسيل من السيوف البتراء.

ثم التفَتَ إليَّ، وقال لي مُستئذِنًا ومعتذِرًا أنا الإمامُ يا أبا القاسم في وطَنِ الشهداء.

تعجَّب منه السيَّاف، وقال له: لِمَ تقدَّمْتَ قبلَ أصحابِك؟ والحالُ أنَّ الناس يَفِرُّونَ من الزحْفِ، بَلْه الموت.

فقال النوريّ بلسان الصدق: ونحن نَلْقَى الموتَ بصدور عارية وأرواحٍ صافية. أتقدَّم على أصحابي حتى أُوثِرَهُمْ بساعةٍ يُمْضُونَها في ذكر الله بعد قتلي.

زلزلَ هذا القَوْلُ السيّاف وزبانيَّتَه، وارتعَشَتْ فرائِصُه، رغم أنَّه ممَّن لا يَهابُ الموتَ، بل مِنْ فَرْطِ ما قَطعَ من رؤوس لم يَعُدْ يُحِسُّ بِوَقْعِهِ في نفسه، وأضحى كَمَنْ يَقُومُ بِعَمَلٍ اعتياديّ. فلمَّا نَطَقَ أبو الحسين بقولته الصادقة، نَفَذَتْ إلى قَلْبِ السيّاف، فأظهرَتْ له حقيقةَ القوم وصدقَهُم.

توقَّفَ السيّاف عن تنفيذ حُكْمِ الإعدام، فلا عَجلَةَ في أَمْرٍ مثل هذا كانت هذه أوَّلُ مرَّة يتمنَّى فيها السيَّافُ لو لم يكن مُكلَّفًا بقطع رؤوس هؤلاء القوم، فقد استيقظَتْ فيه الرحمة رغم مُداومَتِه على هذا الموطن الذي تنعدم فيه الرحمة، لكنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، وقد يجري في القلب القاسِي عِرْقٌ ضئيل يَقْلِب عَيْنَ القَسْوَةِ إلى رحمة. كان اللقاء مع

القوم يَقْلِبُ الأعيان، ويحوِّلُ الأحجارَ إلى مَاءٍ وثمار. ليس من السهل أن لا تؤثر هذه الرحمة حتى فيمن لا يعرفُ الرحمةَ. لقد كان وجودُ القوم رحمةً للناس. خاف السيّاف إن أمضى أمر التنفيذ أن لا يرحمه الله بسبب هذه العجَلة، فلعلَّ التريُّثَ في هذا الموطن قد يَجْلُبُ له رحمةَ الله، وقد يكونُ هو أيضًا في موقِفٍ يحتاج فيه إلى مَنْ يُمْهِلُهُ، حتى يقضيَ الله أَمْرَ عُمُومِ رحمته في خلائقه. وعلى هذا العزم، خرج يُطْلِعُ القاضي بما سمع من مَقالة النوريّ وبقيَّة القوم.

لم يَكَدْ يَبْلُغُ هذا الكلامُ القاضيَ حتى جاء بنفسه، فسأل النوريّ في أمور من فقه العبادات، أراد بذلك أن يستوثِقَ من أنَّه ليس مجنونًا، ثم قال له: من أين تأكلون؟

فقال النوريّ: لسنا نعرفُ الأسبابَ التي تُسْتَجْلَبُ بها الأرزاقُ، نحن قومٌ مدَبَّرون.

ثم أردف قائلاً: إنّ لله عبادًا يَسمَعون بالله، ويَنطِقون بالله، ويَصْدُرُونَ بالله، وَيَرِدُونَ بالله، ويأكلون بالله، ويلبسون بالله، فكيف لا يُحِبُّونَ الله؟ وكيف لا يَهِيمُونَ على وجوههم في حبِّه، فماذا تُنكرون علينا؟ أَيُنْكَرُ علينا أنَّنا نُحِبُّ الله، بماذا ستَلقى الله أيُّها القاضي إذا وقفتَ أمام قاضي القضاة؟ وماذا سيكون جوابك إذا سألك قائلاً: لِمَ لَمْ تُخَلِّ بيني وبين عبادي؟ هلَّا شَقَقْتَ على قلوبهم، أما أدركتَ أنّهم عبادي وأحبَّائي الذين أُحِبُّهم؟ بِم ستجيبُ سيِّدي القاضي في حضرة قاضي القضاة؟ لكأنِّي بك ستكونُ مُعْتَقَلَ اللسان، مُنْعَدِمَ الدليل، فاقدَ العبارة، كاسِفَ الطرْف. فسؤالُ تلك الحضرة كفيلٌ بأن يُخرِسكَ إلى الأبد. نِعْمَتِ التهمة في الله إن كانت تهمةَ حُبٍّ في الله. وباسم هذه التهمة، نسأل اللهَ لكم جميعًا الرحمةَ، لأنَّها زادتْ من حُبِّنا لله.

فمرحى بحبٍّ يَقودُ إلى الموت في سبيل الله ومحبَّته. فمرحى بالعِشق في الله، فمرحى بهذه الشهادة التي سترفع درجةَ حُبِّنا عند الله، إذ صيَّرنا شهداء.

بكى القاضي، وقال لأبي الحسين النوريّ: كفى يا أبا الحسين، فقد وَفَّيْت. والله إنَّ كلامكَ لَأَشْكَى على قلبي من النصَال الملتهبة. كفى من هذا العِتَاب، كفى من هذا اللوم، لقد وفَّيْتَ في حُبِّكَ، وصَدَقْتَ في مقالتك، ولستُ أنا القاضي الذي يحكم عليكم بتهمة الحبّ. وها أنا ذاهب إلى الخليفة، فَمُخْبِرٌ بما رأيتُ وسمعتُ، ومُنْتَصِرٌ لبراءتكم وصِدقكم وطُهْرِكم ومحبَّتكم. ثم خرج القاضي إسماعيل يُخْبِرُ الموفَّق، حتى إذا وقف أمامه، قال له: مولاي إن كان هؤلاء زنادقة، فليس على الأرض مُوحِّدون، وإنَّه قد ثَبَتَتْ لي براءةُ هؤلاء القوم ممَّا اتُّهِمُوا به من خصومهم، وأرى أن تأمر بإطلاق سراحهم.

بعد الاستماع إلى القاضي، أمر الموفَّقُ بإطلاق سراحنا، فخرجنا من السجن واحتفل بنا الناس، وعدتُ للتدريس في الجامع. أمَّا فاطمة، فقد بلغ منها الحزن والأسى مبلغًا عظيمًا، فلم تتوقَّفْ عن البكاء، لأنَّها كانت قاب قوسين من أن تُرْزَأَ بفقدي، وأورثَها ذلك حَالَ قَبْضٍ مستمرَّة.

مرَّتْ سنة كاملة على المحاكمة التي انتهَتْ بهزيمة غلام الخليل وجماعة المترسِّمة، وظهورِ براءة القوم، لكنَّه لم يَقْبَلْ ما انتهى إليه أمرُ تهمتنا بالزندقة، فتطاولَ في سعيه وكثَّف من كيده ووِشايَتِه، وصادف أنَّ زُمُرُّد غُلِبَتْ على أمرها، وأرادَتْ أن تنتقمَ من سمنون وجماعتنا نظير إخفاقِها في إقناع صاحبِنا بالزواج منها. ذهبَتْ إلى غلام الخليل تستعينُ

به على إجبار سمنون على مُرادها، واتَّهَمَتْهُ بأنَّه اختلى بها عدَّةَ مرَّات، وذكَرَتْ له أنَّ سمنون كان يفعَلُ بها الفاحشةَ مع جماعةٍ من أصحابه. لم يسمَعْ غلامُ الخليل من كلامِ زمرُّد إلَّا نَقْرَةً واحدة على طَبْلِ سِعَايته، فوجدها فرصةً سانحة للإيقاع بخصومه مرَّة أخرى، فسارع إلى بعض أصحابه من كُبراء الدولة، وأبلَغَهُم بما سمع، وصوَّرَهُ في أَبْشَعِ صورة، وَأَشْنَعِ صِفَة، حيث انضاف إلى تهمة الزندقة تهمةٌ أخرى هي الإباحِيّة والفساد. رُفِعَ الأمرُ مرَّة أخرى إلى القاضي إسماعيل، فاستدعى سمنون وتلا عليه الحاجبُ نصَّ التهمة، وقال له: إنَّ سيِّدةً محترمة ادَّعَتْ أنَّك انتَهَكْتَ حُرمتَها وخَفَرْتَ بفسادِكَ جَنابَها، وتعرَّضْتَ لها واغتصَبْتَها، ومكَّنْتَ أصحابَكَ منها بعد ذلك حتى هَتَكْتَهَا. وهذه تُهَمٌ خطيرة عقابُها مُغَلَّظٌ في الشرْع الحَنيف.

تعجَّب سمنون من هذه التهمة العجيبة، وأنكرَها، فدعا القاضي بالشهود، فدخل غلام الخليل مرَّة أخرى، فأمره القاضي بالكلام، فتحدَّثَ وقال: أَشهَدُ أنَّ هذا الرجل من البطَّالين الذين لهم لسانٌ مَطلوق يُمَوِّهُ به بكلام مُلَفَّقٍ في المحبَّة، ويَستعمله في إغراء النِّساء المَصونات حتى يَتَصَيَّدَهُنَّ بادِّعاء محبَّة الله، فَيَفْتَتِنَّ به، وإنَّ السيِّدَةَ المصونةَ فلانة بنت فلان قد أخبرتني بأنَّ المتَّهمَ الواقفَ بين يديكم مسؤول عن هَتْكِ عِرْضِ هذه السيِّدة منذ زمان، وضالِعٌ مع جماعته في إشاعة الفساد في البلاد. فقد ذكرَتْ لي بلسان صادق وقلب جَريحٍ ناطق، أنَّ المتَّهمَ كان يُراوِدُها عن نفسها في طريقِ الحجّ منذ سنوات خَلَتْ، لكنَّها صَرَفَتْهُ بأدب وتلطَّفتْ في ذلك، ولم تُخْبِرْ أحدًا بأمره، لعلَّ الله أن يَهديه ويَصرفه عنها لكنَّه لم يَنْزَجِرْ حتى في أَطْهَرِ البِقَاع بمكَّة الحرام، حيث كان يُعاكِسُها ويَمشي خلفَها في المطاف، ويتغزَّلُ

بها ويُلْقِي على مَسامِعِها من أشعاره المغشوشة سُمومًا قاتلة، يَصرفُها بذلك عن عبادة ربِّها وتَطهيرِ قلبِها ثم استمرَّ في مُضايَقَتِهَا حينما عادَتْ من الحجِّ، وظَلَّ يُراوِدُهَا على نفسها وهي تَتَمَنَّع منه، ثم إنَّه انتقَلَ من المُراوَدَة إلى المُفَاحَشَة حين دعاها لحضور مجلس سماع. فلمَّا أُطْفِئَتِ المصابيح، تسلَّل إليها في الغرفة التي كانت تجلسُ فيها، وسحَبَها من مِعْصَمِهَا إلى زاوية في تلك الغرفة حَشَرَهَا فيها؛ ثم وضعَ يدَهُ على فِيهَا، وفعل بها الفاحشةَ بوحشيَّة لا تُوصَف، فلم تستطع الصراخَ، وكأنَّما قَدِ انْعَقَدَ لسانُها من هَوْلِ ما حَصَل. ثم تركها، وقد أصابها كَرْبٌ عظيم، وحُزنٌ قاتل، فلم تَدْرِ ما تصنع، إلَّا أنَّها لم تستطِعْ أن تَكْتُمَ غيظَها، حتى فاض على قلبِها بالهموم والأكدار، وخاف أهلُها عليها الهلاك. ولم يكتفِ الأفَّاكُ بهذا الأمر، بل إنَّه فعل بها هذا مرَّات عديدة، وكان قد أقنَعَها بأنَّه سيتزوَّجُها، وأن لا بأس عليها في أن تُفْضِي بنفسِها إليه. وقد استمَرَّ معها على هذا النحو من الفساد مُدَّةً من الزمن، حتى حدثَ أن زُرْتُ بيتَها فوجَدْتُها في حالة سَقيمة وصِفَة ذَمِيمَة، فاستفسرتُ عن سِرِّ هذا التحوُّلِ الغريب، فأخبرَني مَنْ كان واقفًا على خدمتها بتردِّي أوضاعِها وذهاب رَوْنَقِها، وذُبولِ نَضارَتِها منذ مدَّة، وأنَّهم حاولوا معها كي تُخْبِرَهُمْ عن سبب سقامِها، فكان لسانُها يَنْعَقِد، ولم يُفلحوا في فهم عِلَّةِ تَغَيُّرِ مِزَاجِهَا. آنذاكَ، طيَّبْتُ خَاطِرَهَا وآنَسْتُهَا حتى أَنِسَتْ، فسألتُها عمَّا بها، فتمنَّعَتْ في البدء ثم أَلْحَحْتُ عليها، وخَلَطْتُ كلامي بِوَعْظٍ ومُؤاساة وشفَقَة، ووعدتُها بالمساعدة في حَلِّ مُعْضِلَتِهَا، حتى استَجْمَعَتْ شجاعتَها وحَكَتْ لي ما حصل. فلمَّا سمعتُ قصَّتها، استعظمتُ هذه الجَرِيرَة، ووجدتها بأصحاب الفُجور جَدِيرَة، واتَّهَمْتُ نفسي في البداية، وقلتُ لعلَّه من

كَيْدِ النساء لَعَلّه، أو من تلبيسِ إبليس اللعينَ وحزبه، ثم خَبِرْتُ قصَّتها عن كَثَبٍ فعلمتُ أنَّها صادقة، وخالطتُ حلقات هؤلاء المبتدعة، فوقفتُ على تخاريفهم وأباطيلهم في زَعْمِ محبَّة الله، وتلبيسهم على الحرائر والإيقاع بهنَّ في الفاحشة. ثم استَخَرْتُ الله تعالى حتى هداني إلى أن أتَّصِلَ برجالات الدولة، فأخبرتهم بالقضيَّة حول هذه الجماعة المارقة، وتدليسِهم على الناس بادِّعاء المحبَّة وإفشاء عورات الخَرِيدَاتِ المصونات. فها أنا اليوم واقفٌ بين يديك أيُّها القاضي الجليل، لأُؤَدِّي هذه الشهادة، وأتَّهِمَ هذا الفاسدَ بالتُّهَم المذكورة، حتى تنتَصِفَ منه وتُنْزِلَ به أَقْسَى العقوبات على تَغْرِيرِهِ بشرف النساء الفاضلات، وتكديرِهِ عيشَ الحرائِرِ المحْبُورَات، والانتصارِ لحدود الله والذَّوْدِ عن حُرُمات الله بحدِّ الشرْعِ الشريف، وبما يستحِقُّ هذا المُرائي المُصَانِع مِنْ أَشَدِّ العذاب. كان القاضي يستمع بانتباه إلى المتَفَيْقِهِ الباهلي وهو يُبْلِي بلاءً كبيرًا في تَسْوِيدِ صَحِيفَةِ سمنون، ويُؤَثِّثُهَا بما ينبغي من لَحْنِ القَوْل، وتَمثيلٍ واقِعِيٍّ أَخَّاذ، ويُكثِر من إظهار الحَسْرة والتأَسُّف والانقباض، ويُوَقِّعُ كلامَه بكثرة التعوُّذ والحَوْقَلَة بين مَفاصِلِ الكلام وجُمَلِهِ، فشكره القاضي على شهادته وغيرته على الحُرُمَات، ثم صَرَفَه بعد أن استَمعَ إلى لَحْنِ قَوْلِهِ، ودعا بشهودٍ آخرينَ، فَأَثْنَوْا على سمنون، وذكروا ما يعرفون عن سيرته الفاضلة.

بعد الانتهاء من جلسة الاستماع إلى أدلَّةِ الادِّعاء والشهود وأدلَّة المتَّهم، أمر القاضي إسماعيلُ بسجن سمنون حتى يُنظرَ في أمره لاحقًا. مرَّتْ أيَّام عصيبة، كنَّا نزورُ خلالها سمنون في السجن ونُواسِيه في مِحْنَتِهِ ونرفَعُ من معنويَّاته، لكنَّ أكثرَ ما كان يُؤَرِّقُهُ هو أن يُتَّهَم في شَرَفِهِ. لقد كان الموتُ أَيْسَرَ المصائِب، لكنّ الطعنَ في شَرفه واتِّهامِه

بمثل هذه التُّهم الباطلة كاد أن يَقضي عليه. فَنَحُلَ نُحولاً زائدًا، وتبدَّلَتْ سِحْنَتُهُ واغْبَرَّ وجهُه، وفارقَتْهُ نَضارَتُهُ، وهَجَرَتْهُ رِقَّتُهُ الفائقة، وأحاديثُه الشائقة، وحكاياته وأشعارُه الرائقة، وحَفَرَتْ دُموعُه أخاديدَ الشعُورِ بالظلم على وجهه، حتى لكأنَّها دِجْلَةٌ قد فاضت تغسِلُ أَحَابِيلَ الدجَلِ في زمن الباطل.

ثم تضاعفَ الظلْمُ وعَظُمَتِ المصيبة بمصيبةٍ من جنسها أفحَشَ منها وأعظمَ، بعد أن سعى إسماعيل إلى الخليفة، فأمر رجالَه بالقبضِ على مجموعة من رُفقاء سمنون، الملازمين له، والمرتادين لمجالسه، وقد أعطى غلامُ الخليل أسماءَهم للقاضي، فَزَجَّ بهم مع سمنون في السجن؛ كما قُبِضَ عليَّ، فدخلتُ السجنَ مرَّة أخرى مع الجماعة، وكان معنا أبو الحسين النوري، وأبو حمزة البَزّاز، والشحَّام، والرقَّام.

قضينا أيَّامًا في السجن، والقاضي متردِّدٌ في هذه القضيَّة، لا يعرفُ كيف يَحُلُّها، ولا يملِكُ أن يصرفَنا رغم اقتِنَاعِه ببراءتنا وقد زَجَّ غلام الخليل باسمي في هذه القضيَّة، حتى ينتقمَ منِّي ويمنعَ الناس من حضور حلقات دروسي التي كنت أُعْطِيهَا في الجامع. كان التعْظِيمُ الذي نَحْظَى به في بغدادَ كبيرًا، وكان هذا ممَّا يَسُوءُ غلامَ الخليل وأقرانَه من فقهاء السوء وطُلّابِ الدنيا. استدعاني القاضي من السجن في مجلسه الخاصّ، فبيَّنتُ له ما أَعرِف، ونزَّهْتُ مقامَ هؤلاء الرجال عن مثل هذه الفواحش، وقلت له: كيف يَسْقُطُ في الحرام أيُّها القاضي من يتورّعُ عن الحلال؟ إنَّ هذه التّهمةَ لَهِيَ نَظيرُ التُّهْمَة الأولى لجماعتنا بالزنْدَقَة، وإنَّ سفَهَةَ المترسِّمَة هُمْ مَنْ يَكِيدُونَ لنا، لأنَّنا أَنْكَرْنَا ما هم عليهم من الترَفُّهِ والإعراض عن الآخرة، والإخلادِ إلى الدنيا، فَنَقِمُوا

على أمثالنا من الفقراء ما نحن فيه من الأُنْسِ بالله والوَحْشَةِ من الدنيا وأهلِها فقد حَسدُونَا حتى على نِعْمَةِ الفَقْرِ وحيثُ إنَّهم لا سلطانَ لهم على قُلوبِ الناس إلّا بإرغامِ العَامَّة على الانْزِجَارِ لهم، فإنَّهم أرادوا تسويدَ صورتِنا لدى الناس لما يَعلَمون من المكانة التي نحظى بها في قلوبهم، وحتى يَخْلُو لهم الجَوُّ لاعتلاءِ المناصبِ والخُطَط الدنيويَّة، التي نَهرُب منها كما يَهْرُبُ الناس من الطاعون. أيُّها القاضي، استَفْتِ قَلْبَكَ في هذه القضيَّة، فسترى أنَّها تُهَمٌ بَاطلة لا قيمةَ لها في ميزان الشرْع والعقل والكَشْف.

بعد ذلك، استدعى القاضي شاهدًا كان يثق فيه ويَأْنَسُ برأيه، هو أبو الحسن بن أبي الوَرْد من أصحابنا فلمَّا وَقَفَ بين يديْ القاضي، وكانت بينَهُما فيما سَلَفَ من الأيَّام مُصَاحَبَةٌ ومَوَدَّة.

دخل أبو الحسن، وضرَبَ على كَتِفَي القاضي، وقال له: إنَّ عِلْمًا أَجْلَسك هذا المجلس، لقد كانَ الجهلُ خيرًا منه! فوضع القاضي إسماعيلُ رِدَاءَه على وجهه، وأجهشَ بالبكاء حتى ابْتَلَّ الرِّدَاء. ثم تكلَّم ابن الورد، ونفى عن سمنون كلَّ ما قيل، وذكر له ما يَعرف من حاله وحالِ الطائفة، وحذَّر القاضي من مُشايَعَةِ فقهاء الدنيا، وعُلماء السوء، ومَرَدَةِ الإنس في افتراءاتهم وتلفيقاتهم. ثم بَرَّأَ ساحةَ أصحابنا، وأثنى عليهم بكلِّ خير. استمع إليه القاضي إسماعيل بتمَعُّن، ثم صرفه.

بقينا في السجن حتى تعاطفَ معنا الحُرَّاسُ، وصاروا يجلسون إلى مجالس الذِّكْر والوَعْظ التي كنَّا نَعْقِدُهَا، فوصل الخَبَرُ إلى غلام الخليل، فألَّبَ علينا بعض القُوّاد، فَنَمَا الخبرُ إلى الموفّق، وصُوِّرَ له في صورة غيرِ مرضية، وأنَّ هذه الجماعة تُؤَلِّبُ على الدولة وتُفسِد أعوانها، وتُثيرُ الفِتَن حتى في السجن، وإن هو لم يتدارك الأمر، سرى

الوَهَنُ وتَعَطَّلَتْ مصالح الناس، وضَعُفَ الوَلاءُ للدولة، فأمر الموفَّق بِحَسْمِ هذه الفتنة المزعومة، ومُعاقَبَتِنَا مُنِعَ الحرس من الاجتماع بنا، وضُرِبَ بيننا وبينهم بحجاب، ولم نَعُدْ نَلْقَى منهم ما كُنّا نَلْقَى مِنْ قَبْلُ مِنْ بِشْرٍ وتَعاطف. كما أنَّهم لم يَعُودُوا يَخدُمُوننا ويُقدِّمون لنا ما نحتاجه، فساءت حالُنا في السجن.

كانت زوجتي فاطمة تَزورني مع شقيقها في السجن، وقد صار لها القبضُ شِعَارًا، والحُزنُ دِثَارًا، وأبلغتني أنَّ أهلَ بغداد مستاؤون جدًّا ممَّا حصل، وأنَّ النساءَ قد هَجَرْنَ زمرُّد بسبب فَعلتها الشنيعة، بعدما اتَّهمَتْ زورًا أطهر رجالٍ في بغداد، وادَّعت عليهم باطلاً تلك الفِرْيَةَ المختَلَقَة. ثم أخبرتني فاطمة أنَّ زمرُّد جاءت إليها بعد أن ضاقت عليها الأرض بما رَحُبَتْ، وطلبَتْ منها المسامحةَ على ما تسبَّبَتْ به في حقِّ زوجها الجنيد وأصحابه، لكنَّ فاطمة أخبرتني أنَّها لم تَقْبَلْ منها اعتذارَها في البداية، حتى عادت مرَّة ثانية باكيةً نادمةً على ما صدر منها، متأسِّفةً على شقائها، طالبةً الصفْحَ والمغفرة. ثم اعترفَتْ لفاطمة بأنَّها اختلقَتِ القِصَّةَ لكي تنتقمَ من سمنون الذي كانت تحبُّه، لكنَّها بعد أن رأت ما حصل له ولأصحابه، وكيف أنَّ أهلَ بغداد صاروا يتكلَّمون فيها، بل أطلقوا عليها لقب «امرأة العزيز» تَأَسِّيًا بما حصل ليوسف عليه السلام من الباطل حتى أبرأَهُ الله. ضاقت الأرضُ على زمرُّد بما رَحُبَتْ، حتى لم تَعُدْ تَصْبِرُ على ما حصل، ونَدِمَتْ ندمًا شديدًا، فقرَّرَتْ أن تَحْسِمَ الأمْرَ وتذْهَب إلى القاضي لِتَعْتَرِفَ له بما حصل.

حَمِدْتُ اللهَ بعدما سَمِعْتُ هذه الأخبارَ الحسَنَة، وشَكَرتُ المولى على أن أحقَّ الحقَّ وَأَزْهَقَ الباطل، لكنَّ معركتَنا لم تَنْتَهِ بَعْدُ، إذ لا بدَّ

أن تعترفَ زمرُّد أمام القاضي وتشهدَ على نفسها بما دبَّرَتْهُ مع غلام الخليل.

بعد أن تَمَّ تشديدُ الحِراسَة علينا، وتَضييق حركاتِنا، واستياء أهل بغداد ممَّا حصل لنا، حتى أصبحنا حديثَ الخاصِّ والعامِّ في هذه القضيَّة العجيبة. كان الغضبُ قد عمَّ جميعَ فِئات المجتمع من هذا الظلْم الصرَاح الذي حَلَّ بطائفةِ أهلِ الله الذين يَفْزَعُ إليهم الناس في شدائدهم، ويجلسون في مجالسهم حتى يُذَكِّروهُمْ بربِّهم. لم يقبل أحد أن تُمَسَّ شَعْرَةٌ واحدة من طائفة أهل الصلاح.

كان الضغْطُ شديدًا على القاضي إسماعيل، وهو رجلٌ صالح وقاضٍ مشهودٌ له بالنزاهة، فأَنَّبَهُ ضميرُه أيّما تَأْنِيبٍ حتى لم يَعُدْ يَطْعَم الطعام، وساءت حالُه من كثرة أَرَقِهِ وسهَرِه في محاولة حَلِّ هذه القضيَّة، وتَفَكَّرَ في أمره، وكيف سيُقْبِلُ على ربِّه وهو ضالِعٌ في هذا الظلم وساكتٌ عن الحقِّ الذي يعرفه، لكنَّه كان مُلْزَمًا باحترام ظواهر الأحكام، ولم يكن بين يديه دليلٌ على دَفْعِ تُهَمِ المدَّعين. وأخيرًا، قرَّرَ القاضي أن يذهب لمقابلة الموفّق. ودار بينهما كلامٌ، طلَبَ فيه إسماعيل من الموفَّق أن يُعْفِيَهُ من مَنصِبِه، لأنَّه غيرُ مُقتَنِع بالتُّهم الموجَّهة إلى هذه الجماعة. غضب الموفّق من القاضي، وحاول أثناء غضبه أن يُوَجِّهَ أمرًا إلى رجاله بقطع رؤوس الجماعة، إلَّا أنَّ لسانَه انعقَدَ أمام رجاله، فلم يستَطِعْ إصدارَ ذلك الأمر، وزاد هذا من حَنَقِهِ رغم انبِلاجِ الحقيقَة وسُطوعِها أمامَه.

بقيَ الموفَّق مُتردِّدًا في قَرارَةِ نفسِه حول هذا الموضوع، لأنَّ انعقادَ لسانِه تأييدٌ إلٰهيّ للقوم، وكرامةٌ لهؤلاء الرجال، لكنَّه لم يتَّخِذْ قرارًا في شأنهم، وطلب من القاضي أن يَمْكُثَ في منصِبِه، ورفَضَ

استقالَتَهُ إلى أن يَنْجَلِيَ له الأمر.

وبينما كانا يتحدَّثان، إذِ استأذنَ أَحَدُ أقرباءِ زُمرُّد من كبار أُمراء الدولة على الموفّق، وذكر له أنَّ قريبَتَه تطلبُ مقابلةَ الأمير مع القاضي. أَذِنَ الموفق للمرأة أن تدخلَ، فدخلَت مع قريبها، فقال لها الموفَّق: ما وراءك يا امرأة؟

قالت: جئتُ لأُكفِّرَ عن ذنب اقترفتُه، وعن كبيرة ارتكبتُها

فقال القاضي: تكلَّمي، فنحن نَسمَعُك.

فقالت: لا يخفى عليكم ما حصل لهذه الطائفة في بغداد بعد الدعوى التي رفعتُها عليهم، والتُّهمة التي وجَّهْتُها لهم.

فقال القاضي: نعلَمُ كلَّ هذا، أَوْجِزِي يرحَمْكِ الله يا امرأة، فللأمير مشاغلُ كثيرة، وحيثيَّاتُ القضيَّة نعرفُها، فلا حاجةَ للتكرار.

فقالت زمرُّد: سيِّدي القاضي، إنِّي جئتُ أعترف لكم بعد أن هداني الله إلى الحقِّ، واستَخرتُ الله تعالى، أنَّ كلَّ ما ادَّعيتُه من تُهَمٍ في حقِّ سمنون وأصحابِه باطلٌ، ولا أساس له من الصحَّة، وإنَّما هو من كَيْدِي وتدبيري. فقد أردتُ الانتقامَ من هذا الرجل الصالح حتى يتزوَّجني، وزيَّنتُ الأمر للفقيه أحمد الباهليّ حتى يُسانِدني في هذه الجَريرة المذمومة. وإنِّي أستغفرُ الله تعالى ممَّا أذنبتُ واقترفت، ولقد دعاني لذلك حُبّي الأعمى لسمنون، وإنِّي أضعُ نفسي رَهْنَ إشارتِك سيِّدي القاضي، حتى تحكمَ في شأني بما تراه مناسبًا

قال القاضي: عجبًا، لقد كنتُ على يقينٍ من براءة القوم، وأنَّ هذا الأمر مُدبَّرٌ بِلَيْلٍ، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

فَتَلَتْ قولَ الله تعالى: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.

فقال الموفّق: ما أشبهَ قصَّةَ امرأةِ العزيز مع سيِّدنا يوسف بِقِصَّتِك. وبهذا يُعْرَفُ الله.

فقال القاضي: أرجو اللهَ أن يتقبَّلَ توبَتَكِ ويَغْفِرَ لك، لقد أَذْنَبْتِ ذنْبًا عظيمًا في حقِّ هؤلاء الرجال الأشراف، الذين هم بهجَةُ الدنيا ومَصابيحُها، وأُسْوَةُ الناس إلى الخير. وقد صَبِروا واحْتَسَبوا على هذا البلاء، رغم أنَّهم اتُّهِمُوا في شرفهم، لكنَّ ﴿رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المحْسِنِينَ﴾، فكفِّري عن ذنوبك واستغفري ليلَ نهار. أمَّا الحكمُ عليكِ، فإنَّ الله يتولاك، فإن شاء غفَر لك وإن شاءَ عاقبَك. أمَّا عن حقوق القوم، فلا بدَّ من أن أَستشيرهم، فإن سامحوك فَبِهَا، وإن لم يُسامِحوك فعليكِ السداد. فهذه حقوق للعباد لا تَسقط إلَّا بالتنازل أو العفو أو الديَّة، أو غير ذلك.

فقالت زمرُّد: رضيتُ بما سيقضي به سمنون في حقِّي، فإنَّ حُكْمَ الحبيبِ بَلْسَمٌ شَافٍ، وتِرْيَاقٌ من سُمِّ الأنانيَّة.

أمر الموفَّق زمرُّد بالانصراف، ثم استبطأ القاضي، لأنَّه أراد أن يخبره بأمر ما، فقال: لقد حصل لي البارحة أمر غريب، وذلك أنِّي رأيتُ في منامي كأنِّي أُعطي أمرًا بقطع رؤوس مجموعة من الرجال المتَّهمين بإشاعة الفساد. وبينما كان السيَّاف يستعِدُّ لتنفيذ الأمر، إذ جاءني رجل وقال لي: إنَّكَ إنْ أمرتَ بقطع رؤوس هذه الجماعة زالَ ملكُك، فقمتُ مذعورًا. ولم أربطْ بين هذه الرؤيا ومصيرِ سمنون والجنيد وجماعتهم، لكنِّي بعد أن استَمعتُ إلى المرأة، أدركتُ أنَّ

الرؤيا التي رأيتُ تخصُّهم، وأن الله أراد أن يجنِّبني الوقوعَ في هذا الظلم. فالحمد لله الذي أَبْلَجَ شمس الحقيقة، وأَبْرَأَ ساحةَ هؤلاء الرجال الذين هم نجوم الأرض التي تُضِيءُ للناس طُرُقَ الهداية.

فقال القاضي: هذا إخبارٌ إلٰهي يا مولايَ بأنَّ القوم قد ظُلِموا، وبعد اعترافِ المرأة بِجَرِيرَتِها، لم يَبْقَ إلَّا أن تَأْمُرَ بإطلاقِ سراحِهم وتُخْلِي سبيلَهُم، وتترُكَهُم لما هم فيه من العُزْلَة عن الناس والإقبالِ على الله، ولا تَلْتَفِتْ لكلام حُسّادهم وأعدائِهم.

فقال الموفّق: أحمدُ اللهَ أن شَرَحَ اللهُ صدري لإطلاقِ سراح هؤلاء. وقد رأيتُ البارحةَ أنَّ لساني انعقَد حين هممتُ بإعطاء الأمر بقطع رؤوسهم، وكأنَّ قوَّة عظمى حالتْ بيني وبين أن ينطلِقَ لساني بذلك القول. وإنِّي أحمَدُ الله أن نجّاني من إصدار ذلك الأمر ولمَّا رأيتُ هذه الرؤيا، زاد يقيني بصدقِ القَوم، وعلمتُ أنَّهم قد ظُلِمُوا مرَّتين. فلمَّا تكلَّمتِ المرأة ظهر اليقين، ولم يَعُدْ شَكٌّ في براءة القوم ممَّا اتُّهِمُوا به. ولعلَّ ما حصل كان تمحيصًا لنا جميعًا. فَقُمْ بنا حتى نَزُفَّ الخبر إليهم بأنفسنا، لعلَّ الله أن يغفرَ لنا ما كنَّا سَنَرْتَكِبُهُ من ظلمٍ فاحِش.

جاء الموفَّق مع القاضي إلى السجن واعتذر إلينا، وأمر بإطلاق سراحنا، فكبَّرنا وحمِدنا الله، ثم خرجنا في عِزٍّ وَنَصْر

* * *

عدتُ للتدريس وكَبُرَتْ حلقة الدرس حتى كانت لا تُدانيها حلقة أخرى، وتزاحَم الناسُ عليَّ من جميع الفنون والعلوم والمذاهب والصنائع. أمَّا غلام الخليل، فزاد حنقًا بهذه الانتصارات الربَّانيَّة، ولم

تزده براءَتُنا إلَّا غُرورًا وكِبْرًا، وهجر الناس ناحيته.

كنت أدعو إلى الله على بصيرة. وكان الحلَّاج مُداومًا على حلقتي، إلَّا أنَّه كان كثير الفضول، واشتكى لي من شيخه، صاحبِنا عمرو بن عثمان المكِّيُّ الصوفيّ المحدِّث الذي درس على الحافظ البخاري رحمه الله، فنهيته عن مخالفةِ الشيوخ وعدمِ الإنكار عليهم، حتى ينتفعَ بهم، فأصرَّ على سوء ظنِّه بشيخه.

كان الحلَّاجُ كثير الأسئلة، كثير الاستشكال، لم يكن يُسْلِمُ القِيَادَ حتى نَصِلَ به إلى برِّ النجاة، وكان أحبَّ ما يَروقُه أمورٌ في التوحيد لا يُدركها عامّة الناس. لم يكن بوُسْعي أن أمنَعَهُ، كما لم يكن بوسعي أن أَتْرُكَه يسترسِل، حتى لا يُشَوِّشَ على بقيَّة رُوَّادِ الحلقة التي تَسِيرُ بوتيرة الاعتدال، ووِفْقَ المنهج النبويّ «سِيرُوا بِسَيْرِ ضُعَفَائِكُمْ». فلو تركتُ له المجال لكي يسترسلَ في تلك الاستشكالات، لَافْتَتَنَ وفَتَنَ. كان يحبّ المجاهدات الشديدة، ويأخذُ نفسَه بالتخريب، لكنَّه سرعانَ ما يعود إلى نقيض ما كان عليه. ثم إنَّه كان يُخالط جماعةَ الفقراء، وبعد ذلك يَطْرُقُ دُورَ الكُبَرَاء، ويَلبس مع كلِّ فئة لَبوسهم، فلا يَستَقِرُّ على أمر. نهيته عن ذلك. ولمَّا رأيتُ لسانَه بالذمِّ في حقِّ شيوخه مَطلوقًا، علمتُ أنَّه لن يستفيدَ من شيخٍ أبدًا. فلَهُ نُزُوعٌ إلى الشفُوفِ والمشْيَخَةِ. وهذا نوع موجود في فئة من الأولياء، لكنَّه قليل، وسيْرُهُ سَيْرٌ مَحْفُوفٌ بالمخاطر، إذ هو مَجذوب، كثيرُ العِثَار. ولو لزم حلقةَ التربية لأخذنا بيده حتى يسلُكَ السلوك الصحيح، بَيْدَ أنَّ هذا قَدَرُه.

كان لا بدَّ أن يبتعدَ عن بغداد، لعلَّه يَبْرَأُ من أدوائه، وقد أخبرني تلميذُنا أبو يعقوب الأكتع البصريّ عن سبب خصومته مع شيخه عمرو المكِّيّ، وذلك أنَّ الأكتعَ زوَّجَ الحلَّاجَ ابنَتَه، وكان المكِّيُّ يرغب في

الزواج من ابنة الأكتع، ففاته ذلك، فحصلَتِ الوحشة بين الثلاثة. وعلى إثرها غادر الحلَّاجُ البصرةَ، وجاء إلى بغداد. وقد نصحتُه بالصبر على شيخه وعدمِ مؤاخذته، فلعلَّه رأى مصلحةً لم يَطَّلِعْ عليها الحلَّاج في ذلك الزواج. ثم نصحتُه بالعودة إلى البصرة والعيش بجانب صهره، تلميذِنا الأكتع، والصلح مع شيخه عمرو المكِّيّ. غادرنا الحلّاج، وخالط هناك جماعةً يُوَالُونَ صاحبَ الزَّنج، فعلمتُ يقينًا أنَّ الرجل مُتَقلِّبُ المزاج، لا يَثْبُتُ على شيء، وقد نتأذَّى منه جميعًا، وخاصَّة بعد الذي حصل لنا من مِحَنٍ في بغداد حتى اتُّهِمْنَا بالزندقة ثم بالانحلال الأخلاقي. فكيف سيكون الحالُ لو أنَّ الحلَّاجَ استرسلَ في استجلاب مثل هذه المعَرَّات على كلِّ الطائفة؟

استطاع الموفَّق أن يقضي على ثورة الزَّنج في البصرة، فأخبرني الحلَّاج أنَّه انتقل إلى مكَّة للجوار بها فلمَّا كان موعد الحجّ، التقاه أصحابنا، وأخبروني أنَّه كان يجلس صائمًا بين الركْنِ والمَقَام يحدِّث من يرتاده، ويقول له إنَّه جالسٌ في الموضع الذي سَيَخْرُجُ منه المهدي، وكأنِّي بالرجل قد استعجلَ ظهورَه، أو أنَّه أحد أصحابه، أو لعلَّه قد لُبِّس عليه في أمره، فظنَّ أنَّه هُوَ هُو. عمومًا، زاد يقيني بأنَّ صاحبنا يحتاج إلى السلوك، حتى يخرجَ من سجن نفسه. كان لا يَطعَم ولا يَشرب شيئًا، ويجلسُ في ضوء الشمس الملتهبة صائمًا، ويأخذُ نفسه بعظائم الأمور. وقد بقي على هذه الحال سنةً كاملة. عاد بعد ذلك إلى بغداد، وحاول أن يُجادِلنا في عدَّة قضايا، فأبَنْتُ له الحقَّ، لكنَّه كان على مذهب يخالف فيه الصوفيَّة، ويسترسل في انتقادهم. على إثر هذه الحادثة، تَبَرَّأَ منه صهره أبو يعقوب الأكتع. كما خلَع الخرقةَ التي ألبسها له أبو عمرو المكِّيّ، وأصبح يخالط أهلَ الدنيا من

القوّاد وجُباة المكوس، من اليهود والنصارى والمجوس. ثم قُبِضَ عليه وجُلِدَ لاتِّهامه بموالاة صاحب الزَّنج، وفتّانِ القرامطة. ثم انقطعَتْ أخباره بعد سياحته في الرُبُط المنتشرة في خراسان وبلاد الدَّيْلَم.

مرَّتْ سنوات توفِّي فيها الموفَّق سنة ٢٧٨ هـ، كما توفِّي غلام الخليل قبل ذلك، وانتهينا من كيده وحسده، لكنْ كان هناك كثيرٌ ممَّن هم على شاكلة غلام الخليل. كما توفِّي الخليفة المعتمد بعد أقلِّ من سنة على وفاة أخيه الموفّق. تولَّى الخلافةَ المعتضد بن الموفّق سنة ٢٧٩ هـ الذي كان له فضل كبير في القضاء على ثورة الزَّنج. كما وسَّع جامعَ المنصور لمّا ضاق بالناس، وزاد في أبوابه، واتَّسَعَتْ حلقة الدرس التي كنت أُلقي فيها الدروس. كما مَنَعَ المشعوذين وقُصَّاص الأسمار والخرافات الذين كانوا يتنبَّأون بأخبار سيِّئة، حتى أَثَّروا على كثير من الناس، فَنَزَحُوا من بغداد إلى البوادي والجبال. وتزوَّجَ المعتضِد من بنت خُمَارُويَه بن أحمد بن طُولُون، المسمَّاة قَطْر النَّدَى. ولم يُسْمَعْ بمثل هذا الزواج الذي حُمِلَ إليه من مصر إلى بغداد بكلِّ طَرِيفَةٍ وتَالِدَة. بل لقد بنى خُمارويه لابنته قصورًا بين مصر وبغداد، في كلِّ محطَّة تنزلها قصرٌ فخم. وقد تحدَّث الناس أزمانًا عن هذا الزواج الأسطوريّ. خلال هذا الزفاف، مَرَّ صاحبنا النوريّ بدِنانٍ مملوءة خمرًا كانت للمعتضد، فعمد إليها وكسرها وهو يعرف أنّها له، فقبضوا عليه وحملوه إلى المعتضد، فلمَّا وقف بين يديه، سأله: من أنت؟

فقال النوريّ: محتَسِب.

@ktabpdf تيليجرام

قال المعتضد: مَنْ وَلَّاكَ الحِسْبَة؟

فقال النوريّ: من ولَّاك الخلافة.

عَجِبَ المعتضد من صِدْقِ النوريّ، فأطلقَ سراحَه، لكنَّه أمر بترحيله من بغداد.

كان كثيرٌ من الأصحاب يَحُجُّون كلّ سنة. وفي سنة ٢٨١ هـ التَقَوْا في مكَّة بالحلَّاج، وأخبروني أنَّه صار مشهورًا بين الناس، ويمشي لابسًا المرقَّعة، ومعه أربعمائة مريد يتبعونه. وبعد سنة من ذلك، عاد الحلَّاج إلى بغداد ليسكن في محلَّة التستريين في الجهة الغربيَّة، غير بعيد عن الشونيزيَّة حيث كنتُ أَقْطُن.

لم يعد يطرُقُ مجالسنا، إلَّا أنَّه ارتبط بصداقة مع صاحبي أبي الحسن النوريّ، وتلميذٍ من تلامذتي هو الشبْلِي الذي كان أبوه نافِذًا في الدولة، ومن كبار رجالاتها لكنَّ الحلَّاجَ لم يمكث طويلاً في بغداد، بل غادرها إلى الهند متنقِّلاً في أقاليمها، وداعيًا الناس إلى ما يؤمن به.

* * *

**أَلَمْ** تر بغداد بعد طول هذا السفر قد صارت حفيلةً بماء الحضارة؟ لقد شربتُ هذا الماء طوال هذه السنين. وقد عايشتُ عدَّةَ خُلفاء تركوا أثرًا واضحًا على الحياة في خَاصِرَة العالم، وخَاصِرة الدنيا. أين الأمين وأين المأمون؟ بل أين المعتصم وأين الواثق؟ بل أين المتوكِّل؟ بل أين وأين وأين؟ كلُّهم راحوا، وما زلنا هنا، لكنَّنا سَنَرُوحُ أيضًا، وسيبقى أبدًا من لا يَرُوح. لم نَغْتَرّ يومًا ببهرجة الدنيا. كلَّما مررتُ في شوارع بغداد، وقف الناس صُفوفًا، كأنَّنا ملوك، ونحن نَبْرَأُ من أن نَمْلِكَ أو نُمْلَكَ. رَزَقَنا اللهُ مِنَ القُبول ما لم يُعْطَهُ غيرُنا، واجتمع لنا علومٌ وأحوال، وما وَقَفْتُ على علم إلَّا وقد وَهَبَنِيهِ الله

حتى أتحدَّثَ فيه، وأتكلَّمَ في مسائله بما يجعلُ أهلَه في حَيْرَةٍ من أمرهم. إنَّها المواهبُ التي لم نَشْدُدْ إليها زِيَمًا، بل جاءتنا تسعى دِيَمًا. اشتغلنا على شواهد الحقِّ، وعُدُولِ الصدق، فما وجدنا غير الكتاب والسُّنّة. ثم نظرنا في الوجود، فوافَقْنَا ظواهِرَنا وبواطِنَنَا على هذين الهَدْيَيْن، فما رأينا إلَّا الخير. وكلَّما فَجَأَنَا حالٌ غريب أو كشفٌ مُرِيبٌ، عرضناه على البَيَانَيْن فانجَلَتْ لنا الحقيقةُ ساطعةً. عِلْمُنَا هذا مُشَيَّدٌ على القرآن والسُّنَّة، مُقَيَّدٌ بهما سنقول للناس هذه الحقيقة على بساطتها، سَنُذَكِّرُهُمْ، ولن نتوقَّفَ عن التذْكِير. هذه مهمَّتُنا، أن نقفَ على الطرقات، ونُنادي، تعالَوا إلى الخبَر الرشيد، تعالَوْا إلى خير العمَل، تعالوا إلى أَقْوَمِ طريق، تعالَوا بنا نَذْكُر ساعة، تعالوا بنا نَسْتَرْوِح عند الحبيب. هناك من سَيَرُوحُ معنا، وهناك من سَيَصُدُّ عنَّا. ولسنا نملِكُ أن نَأْخُذَ الجميعَ معنا إلى مملكة الفَرَح. نحن قومٌ قائِمون بالتوحيد. خِلْنَا يومًا، أنَّ التوحيدَ «إفرادُ الحدوث عن القِدَم»، أو «إفرادُ القِدَم عن الحدوث». لعلّ مستشكِلاً يقولُ أنْ لا فرقَ بين الأمرين، لكنَّا نقول بأنَّنا نجد العُذرَ لمن يقول «التوحيد إفراد الحدوث عن القدم»، لأنَّ من خيَّم في رَحْلِهِ، وسكَن موطن الحدوث، فما خرج عن حاله ومرتبته؛ بينما الثاني الذي يدَّعي «إفرادَ القدم عن الحدوث» غارقٌ في تلك اللجَّة، سادِرٌ عن غَيٍّ تلك اللحظة، فلم يَدْرِ أنَّ إفرادَ القِدَم لا يكون إلَّا لمن اتَّصفَ بالقِدَم. وأَنَّى للحادث أن يُفْرِدَ القِدَم، وهو حادث؟ بان الفرق إذن، لكنَّ التوحيدَ غيرُ هذا، فلا هو إفرادُ حدوثٍ عن قِدَم، ولا إفرادُ قِدَمٍ عن حدوث، إنَّه جوهرُ الإنسان. وليس الإنسانُ غير صَنْجَةِ حديدٍ صَدِئَةٍ يَزِنُ بها ياقوتةً ثمينة لا ثاني لها، فإن وَضَعَ الحديدَ في كفَّة، والياقوتةَ في كفَّة، اجتمعا في القَدْر نفسه،

لكنَّهما تباينا في الذات والخاصِّيَّة. فالعبوديَّة صَنْجَةُ حديد، فالْزَمْ عبوديّتكَ أيّها السالك على درب العارفين. أمَّا الياقوتةُ التي لا أُخْتَ لها فهي ذلك التوحيد، فافْهَم.

نظرتُ إلى أُصبعي، فرأيت فَصَّ خاتمي يُذَكِّرُني بنقشه «إن كنتَ تأمَلُهُ فلا تَأْمَنْهُ». ليس العارف إلَّا اليَقِظ، وليس لنا إلَّا اليقظة، فإن أخذَتْنا الغَفلةُ لم نكنْ هناك. لا تأمَنْ مهما كان الأملُ كبيرًا ولا تقطَعْ أمَلَكَ مهما كان عَدَمُ أَمْنِكَ منه مُرشِدًا ودليلاً اِلْزَمْ تلك الأرض، ولا تَبْرَحْ هذا الميزان، وحَاذِرْ أن يُغَرَّرَ بك. لونُ الماء لونُ إنائه، فمن تأمَنْ؟ ومن تأمَلْ؟ الماء أم الإناء؟ لمّا قَبِلَ إناؤُكَ الماءَ صار في العين مُرَكَّبًا من مُتَلَوِّنٍ ولَوْن، لكنَّه على الحقيقة أَمْرٌ واحد، فكذلك التجلّيات التي تظهر في المظاهر الإلٰهيَّة، فَيُدْرِكُها العارفُ ويُفَرِّقُ بينها، وهو لم يَنْقَطِعْ عن تَلَقِّي تلك التجلّيات. لا تنس أنَّك المظهرُ الأتمّ لتلك التجلّيات الإلٰهيَّة. لا علمَ إلَّا بالتجلِّي، لكنْ لا تَعْتَقِدْ أنّك سَتُدْرِكُ كيفيَّة التجلِّي وإن حلَّ بذاتك، فذلك ممَّا اختَصَّ به المتجَلِّي. المعرفة والعارف لونُ الماء من لونِ إنائه، فالحرفُ هو الإناء، والمعنى هو الماء. المعنى هو أنتَ حينما تَعرف. ولو أنَّ سائلاً سألني عن القرآن وعن القلب الذي أُنزِلَ عليه القرآن، لما قلتُ له قولاً غير هذا «لونُ الماء لون إنائه». فالقلب هو العرش، والقرآن مُسْتَوٍ على ذلك العرش. والعرش مقيَّد ومطلق، والقرآن مقيّد ومطلق، والمطلق للمطلق، والمقيّد للمقيّد. فالعرش المطلق للقرآن المطلق، والعرش المقيّد للقرآن المقيّد. فانظر إلى ما نُعِتَ به العرش والقرآن تجد أنّهما وُصفا بالنعوت نفسها، فقرآن عظيم لعرش عظيم، وقرآن كريم لعرش كريم، وقرآن مجيد لعرش مجيد، فكلّ قرآن مُسْتَوٍ على عرشه. وهكذا قلبُ العارف

يشبه القرآنَ في نعوته، فأين استواؤك؟

صرت كثير الجلوس إلى فاطمة والأولاد، أتحدَّثُ إليهم وأُلاطِفُهُم. كانت لحيتي تمتدُّ إلى وسط صدري، وكانت قامتي طويلة، إلَّا أنَّ تَقَدُّمِي في السِّنِّ جعل ظهري يتقوَّس. كان لونُ عيوني قد تغيَّرَ قليلاً، بل أُشربَتْ خضرتُهما بلون بُنِّيٍ فاتِح، لعلَّ ماءَ العُيون قد نَضَب، فاسْتَقَت جذورُ عُروقي من شرايين دمي فتكدَّرَ لونهما. أو لعلّ العيون تشبه أوراق الشجر، تكون خضراء يانعة في شبابها، ثم تصفَرُّ وتَغْبَرُّ بعد ذلك إذا جاء خريفُ عمرِها فها قد جاء خريفُ العُمْر، لكنِّي كنت أُحسُّ أنَّ قلبي يجري بحيويَّة الشباب. كنتُ أَلْبَسُ مرقَّعَةً رغم أنّي تاجرُ حَرير، وكنت أضع على رأسي عمامةً متوسِّطةَ الكَوْر. لا تفارقني عصاتي التي كنت أتوكَّأ عليها، فهي شارة الأنبياء والصالحين، إنّها رِجْلٌ ثالثة تُوَقِّعُ المشيَ على وتيرة معيَّنة، تضبِط بها إيقاع الذات مع ما خرج عنها

جلست يومًا في دكَّاني في السوق، فجاءني الأصحاب، وجلسنا نتحدَّث على عادتنا كانت أغلبُ الأخبارِ تنزلُ في السوق قبل غيره من مَرافِقِ المدينة. كانت الأخبار المتردِّدَة بين الناس هذه الأيَّام حول حركات التمَرُّد، وخاصَّة منها حركة القرامِطَة. لم نكد نهنأ برجوع الأمن بعد القضاء على حركة الزَّنج، حتى ظهرَتْ هذه الحركة الجديدة. الكُلُّ يتحَدَّثُ عن مجموعةٍ من القرامطة الذين قُبض عليهم في الكوفة.

أخبرنا الشبلي، وقد كان على اطِّلاعٍ بما يجري، إذ كان أبوه من رجالات الدولة، فقال: لقد قُبِضَ على مجموعة من الثوَّار القرامطة، فأُشْخِصُوا إلى بغدادَ للاستنطاق. وقد أخبرني مَنْ أَثِقُ فيه أنَّهم ضُرِبُوا

بالسيَاط حتى أَقَرُّوا بضُلوعهم في إسقاط الدولة.

فقال النوريّ: لا أفهم لماذا تدَّعي هذه الحركات النسْبَةَ إلى العلويِّين.

فقلت: لأنّ العلويِّين يمثّلون أملَ الأُمَّةِ في تَولِّي عِتْرَةِ النبي ﷺ تدبير شؤونها فالجميع يعلم مدى حبّ الناس لآل البيت عليهم السلام، فلهذا ترى كلّ هذه الحركات تَسْتَغِلُّ هذا الشعور والولاء، فتدَّعي نَسَبًا عَلَويًّا، فيمشي خلفَها الدهماء والعامّة.

وبينما نحن جلوسٌ، إذ مرّ بنا الحلَّاج في جماعة من أتباعه. توقّف عندنا وسلّم علينا. لم أستطِعْ أن أمنعَ خاطرًا عن حديثنا عن القرامطة وطلوع الحلَّاج علينا هكذا هي الإخبارات الإلٰهيَّة لها علامات. كنّا في سنة مائتين وتسعين، وكانت تَروج أخبارٌ أنَّ في هذه السنة ستقوم قَوْمَةُ العلويين، وسيظهر المهدي المنتظر. وكان القرامطة من أكثر من يُشِيعُ هذه الأخبارَ في البلاد. ومن أدبيّاتهم الجَفْرِيَّة كلامُهم عن السين والميم والعين. لم نكن نفهم شيئًا في هذه الأبجديَّة المطلسَمَة، وما تشير إليه. فلمَّا ظهر الحلَّاج، كنت أُحبُّ أن أسمعَ منه ما تعنيه تلك الرموز عند القرامطة والإسماعيليّين، لمخالطته لهم ومعرفته بأسرارهم.

فقلت له: ما الذي أتى بك إلى السوق يا ابنَ منصور، هل جئتَ واعظًا على عادتك؟

فقال: جاء بي «الله».

ثم أردف: أيُّها الناس أغيثوني مِنَ الله، (كرّرها ثلاثًا)، فإنَّه اختَطَفَنِي مِنِّي وليس يَرُدُّني عَلَيّ.

فقال الأصحاب جميعًا  الله، الله.

فقلت له: وجودُ الله لا يَنْحَصِرُ بسوقٍ ولا بغيره، بل هو بمعيَّة الخلق جميعِهم.

فقال الحلّاج: لكنِّي رأيتُ أنَّ السوقَ يرتاده كلُّ أَحَد، ويكثُر فيه الباطل، فأردتُ أن أمحِّصَ نفسي مع أعوان الباطل.

فقلت له: وهل تمتحنُ الحقَّ بكلامك هذا يا ابنَ منصور؟ فما لك لا تُقِيمُ حيثُ أقامَك؟ أفلا ترضى بِحُكْمِ الله؟

فقال الحلَّاج: وهل إرادتي شيءٌ آخرُ غير حكمِه؟

فقلت: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، فلا تخلِطْ، وميِّزِ المراتب.

فقال الحلَّاج: وأنت يا أبا القاسم، لماذا لزمتَ حانوتكَ في السوق؟

مكتبة الرمحي أحمد

فقلت: نحن مع الله أينما كُنّا، بل هو معنا أينما كُنّا  اسمع يا حلَّاج، الجَسَدُ في الحانوت والقَلبُ في الملكوت.

ثم أضفت: إنِّي أعرفُ أنَّك خالطتَ كثيرًا من الفِرَق في الكوفة والبصرة، ووصلتَ خراسان وطلاقَان، ووقفتَ على كثير من الأسرار والأخبار، وإنَّنا صرنا نسمَعُ القرامطة هذه الأيَّام يتحدَّثون عن أتباع السين، وأتباع الميم، وأتباع العين، فإلى ماذا ترمُز هذه الحروف؟ ومن هم هؤلاء الأتباع؟ وهل أنت من هؤلاء أو أولئك؟

فقال الحلَّاج: لقد قلتَ يا أبا القاسم إنَّ الحقَّ مع الخلق، فلستُ منتسبًا إلَّا إلى الله. أمَّا الميم فيشيرون به إلى محمَّد ﷺ، والعين يشير إلى عليّ عليه السلام، والسين يشير إلى سلمان رضي الله عنه. أمَّا

القرامطة فهم أتباع «سلسل»، ويشيرون به إلى سلمان الفارسي.

فقلت: وهل يوافق العلويُّون على تقديم سلمان على آل البيت؟

فقال الحلَّاج: إنَّ الفرق العلويَّة لا توافق على ذلك، رغم أنَّ النبي ﷺ قال «سلمان منَّا آل البيت». فتقديم سلمان يَخْرِمُ كلَّ البناء الذي بنته الشيعة حول مسألة الأئمَّة.

وعودةً إلى السين، فهو عندَهم المهديّ المنتظر الذي هو الولد الروحي لآل البيت، وليس ولدَهم من الصُّلْب. وها قد أظلَّنا حَسَبَ العلويين زَمَنُ ظهورِ المهديّ وتولّي آل البيت الحكمَ، بعدما احتجَبَ ظُهورُهم ثلاثمائة وتسع سنين قدرَ نَوْمِ أصحابِ الكهف. ومِفتاحُ ذلك عندَهم في علم الجَفْرِ لفظةُ «مريم» أو «فاطر» التي يَرمزون بها إلى السيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

وكأنَّ الحلَّاج أحسَّ بامتعاضِنا من هذه التأويلات الغامضة، فأحبَّ أن يُغيِّرَ الموضوع، فقال: يا أبا القاسم، أخبرني عن معنى قولك في التوحيد من أنَّه إفرادُ القِدَمِ عن الحُدوث»، فإنِّي ما زلتُ مُسْتَشْكِلاً كلامَك، وأراه نازلاً عن كَمالِك.

فقلت: ذلك كلام قلناه للمبتدئين حتى لا يَقَعُوا في القول بالاتِّحاد، وإلّا، فلا مُوَحِّدَ على الحقيقة إلَّا الله.

تبسَّمَ الحلَّاج ونظر إلى أصحابه، ثم قال: ما لك يا أبا القاسم والمبتدئين أو الواصلين؟ أفما كان أولى أن تُخْبِر بما أنت عليه، وتتركَ لكلٍّ أهلٍ طريقَه.

فقلت: يا حلَّاج، لا يَصِحُّ لك هذا الاحتجاج، فنحن نُعِيرُ لساننا لمن لا لسانَ له، فإنَّ الله أقامنا لإرشاد الخَلْق والدلالة عليه، حتى

نتكلَّم بكلِّ لسان ونُسَبِّحَ بكلِّ بَنان وجَنَان، ولم يُكَلِّفْنَا سبحانَه بأنفسنا فقط. تخيَّلْ لو أنَّ كلَّ واحدٍ لم يَهتَمّ إلَّا بنفسه دون خدمة الآخرين، لكانت الدنيا أنانيَّةً لا تُطاق. لكنْ، أخبرني يا حلَّاج عمّا نُسِب إليك من القول: «يا عِلَّةَ العِلَل، ويا قديمًا لم يَزَلْ»، كيف صَحَّتْ عندَك العِلِّيَّة، وهذا قولٌ لا يقولُ به إلَّا جاهلٌ بمقام الألوهيَّة؟

فقال الحلَّاج: صدقتَ يا أبا القاسم، كيف يَقْبَلُ العِلِّيَّةَ من كان ولم يكن معه أحد. ثم أوجدَ العالم، وهو الآن على ما عليه كان؟ لو كان عِلّةً لارتبطَ بمعلوله، ولو ارتبطَ بمعلوله لم تَصِحّ ألوهيَّتُه.

فقلت: هكذا نَعرفُه فَالزَمْ. تعالى الله عن قول الجهَلَة عُلُوًّا كبيرًا.

نظرتُ إليه، وراعني ما هو عليه من النحول والتخْريب، فقلت له: لماذا تركتَ بيتَك يَخْرَب؟

فقال الحلَّاج لَمَّا تطاولَتْ عليه الأكوان بالمنع والتحجير والتبديع والتفسيق، بل والتكفير، فنيتُ ثم فَنيتُ ثم فنيتُ.

فقال الشبْلي: ولم فَنيتَ ثلاثًا يا حسين؟

فقال: فَنيتُ أوَّلاً عن كلِّ ما حولي من الحظوظ النفسيَّة، ثم فَنيتُ ثانيًا عن كلّ المشاهد الروحيَّة التي تتراءى للسالكين، ثم فَنيتُ ثالثًا عن كلِّ المشاهد القلبيَّة. فلمَّا وصلتُ عند هذا الحدِّ، وجدتُ البيتَ مفتقرًا إلى التدبير، فأطلقتُ لطيفتي من سجن بيتي، وانطلَقْتُ لا أُبالي بِمَنْعٍ أو حَظْر. فلمَّا انعتقَتْ روحي من سجن الأكوان تعطَّلَتْ وظائفُ جوارحي، فتخرَّب البيتُ بالإهمال لَمَّا لم يَبْقَ من يتعاهَدُه بالكَنْسِ والرشِّ والتدبير والإتقان. فلمَّا علمتُ ذلك، أَنِفَتْ نفسي أن تَعْمُرَ بيتًا امتدّتْ إليها يَدُ الأكوان، فقالوا عنِّي «مات الحلَّاج»، ولو أَنْصَفُوا

لقالوا خَرِب بيتُ الحلَّاج، وارْتَحلَ ساكِنُه.

فقلت له: لَسْتَ من أهل الاحتجاج يا حلَّاج. فإنَّك مَحجُوجٌ بقولك هذا، لأنَّكَ لمّا حكمْتَ بانعدام الارتباط بين الخلق والحقِّ، جرَّدْتَ الحقَّ عن الحقائق، وأخلَيْتَ بيتَكَ عن تدبير الحقِّ، ولو علمتَ أنَّ شؤون الخلق من شؤون الحقّ، لما تركتَ بيتَكَ يَخْرَب، ولتعاهَدْتَهُ بالتدبير والحِفْظ والإصلاح. ليس الشأنُ أن تَغِيب عن الأكوان، إنَّما الشأنُ أن تَغيبَ بالأكوان في المكوِّن، فتُعطي لكلِّ ذِي حقٍّ حقَّه، لكنَّكَ أَنِفْتَ من الأكوان، فزاحَمْتَ الربوبيَّةَ، فلم يَبْقَ إلَّا أن تقولَ على لسان الحقّ: يا أنا

ثم التفَتُّ إلى الأصحاب، وخصَّصتُ الشبلي منهم تحديدًا، لأنَّه كان يميل إلى مذهب الحلَّاج، وقلت له: اسمع يا أبا بكر، إنَّ مذهبَ السكر هذا لا يصلُحُ لك. إنَّنا قوم نُفضِّل الصحو على السكر، إذ السكر جَالِبٌ للآفات والاضطرابات وتَشَوُّشِ الأحوال وانعدام الإمساك بأَزِمَّةِ النفوس. فَمَا لِي أَرَاكَ دائِمَ السُّكْر يا شِبلي، ولو أَفَقْتَ لجاء منكَ إمامٌ يُنْتَفَعُ به.

فأجاب الحلَّاج لمَّا سمع مقالتي، للذَّود عن مذهبه، وعَلِمَ مَداخل الاعتراض عليه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. لو أَخَذْتُمْ بيدنا يا أبا القاسم ما وَقَعْنَا في هذه المهالك، وقدْ جئنا نَطلبُ صُحْبَتَكُم.

فقلت: لا صحبةَ لنا مع المجانين، لأنَّه ينبغي للصحبة الصحَّة، ونحن لا نَقْبَلُ أن تَفْعَلَ معنا كما فَعَلْتَ مع سهل التُستري وعمرو بن مكِّي، لمَّا أكثرتَ مِنَ الاعتراض والتشْغِيب.

فقال الحلَّاج: يا أبا القاسم، الصحْو والسكر صفتان للعبد.

فقلت: «يا ابنَ منصور، أخطأتَ في الصحو والسكر. وأنا أرى في كلامِك فضولاً كثيرًا، وعبارات لا طائلَ تحتها».

لقد عَثَرْتَ مرارًا، وأخذنا بيدك، لكنَّ شُفوفًا في نفسك كان يمنَعُك أن تُسْلِس القِيادَ مِنْكَ لنا، وها قد أصبحتَ شيخًا يمشي في إثره العشرات، مع أنَّك ما زلتَ محتاجًا لمن يَسْلُكُ بكَ في لُجَجِ التوحيد.

فقال الحلَّاج: وقفتُ على ذلك البحر، ورميتُ أثوابي وتقاذَفَتْنِي الأمواج فمنعَتْنِي من السباحة، فوجدتُ نفسي وَسْطَ تلك اللجَج، فما أدركتُ الساحل.

فقلت: لو ناديتَ علينا لأجبناك ساعتئذٍ، ولأخذنا بيدك وسَحبناك إلى بَرِّ الأمان.

لكنْ دعنا من هذا، وأخبرني عن قِصَّة مِثال الكعبة التي نَصَبْتَها في بيتك بقطيعة الربيع في محلَّة التُسْتَرِيِّين؟ فقد بلغني أنَّك تقول للناس بأنَّ «من أراد الحجّ ولم يتيَسَّرْ له، فَلْيَبْنِ في داره بيتًا لا يناله شيءٌ من النجاسة، ولا يُمَكِّنْ أحدًا من دخوله، فإذا كان في أيَّام الحجِّ فَلْيَصُمْ ثلاثًا، وَلْيَطُفْ به كما يُطاف بالكعبة، ثم يفعل في داره ما يَفعله الحجيج بمكَّة». ثم يُطعِمُ هذا الحاجُّ ثلاثينَ يتيمًا ويُلبِسُهُمْ قمصانًا، ويعطي لكلِّ واحد منهم سبعةَ دراهم، فإذا فعل ذلك قام له مقامَ الحجِّ. فهل هذا صحيح؟

فقال: لمَّا كان للخلق تَشَوُّقٌ إلى الوقوف بين يديْ ربّهم، نصبتُ لهم مثالاً حتى يتدَرَّبوا عليه، فإن ظهر منهم سوءُ أدبٍ، انصرفَ الأمر إلى المثال، والأصلُ مُنَزَّهٌ عن ذلك.

فقال الجنيد: أَمَا لَوْ أَنّك دَلَلْتَهُمْ على كعبة الحُسْن وقِبْلَة القلب،

لكان أجدى لهم وأنفع. فلو جمعتَ قلوبَهم على تكبيرة الإحرام، لطافَتْ بهم الملائكة.

فقال الحلَّاج: نحن بأهدابِ كِسْوَةِ كَعْبَتِكُمْ مستمسكون يا أبا القاسم، فلا تؤاخذنا بعدم كمالنا، إنَّما أنتَ الأستاذُ المربِّي المشهودُ له عند الخاصّ والعام، وإنَّما نحن رَعَاعٌ وأتباعٌ قد نَعثُر ثم نَقوم، فاعذُرْنا

كان الشبلي يتابعُ الحديثَ كاسفَ البال، مأخوذًا عن نفسه كعادته، كثير الوَلَه. كانت عيونه ملتهبةً من كثرة ما كان يكتَحِلُ بالملح حتى يَطْرُدَ النومَ عن عينيه، لمَّا سمع قول الله تعالى ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾، ثم سمع قول حبيبه عليه الصلاة والسلام «تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي». ولو تحقَّقَ بعبوديَّته لما طلب فوق طاقته، وإنَّما عَدَمُ النومِ للقلب لا للعين. لكنْ لمَّا لم يَكُنْ على درجةٍ من الكمال والتمكين في يقظة القلب، ورأى أنَّ السهْدَ والنومَ يأتي لعينيه أوّلاً، اكتحلَ بالملح حتى يُبقي عليهما منفتحتين. ولو سجد قلبُه وفُتِحَ عليه بالجُملة، لما طاوَعَتْهُ أجفانُه على الانْسِدَال، ولَمَا احتاج إلى ملح أو غيره، لكنَّ حرصَه على عدم الحِجاب أدَّى به إلى لزوم ما لا يلزم. كما كان المسكين يقف على رِجْلٍ واحدة يكرَهُ أن يستريحَ، ويأخُذُ نفسه بالمجاهدات بعدما تقلَّب في نعيمٍ وعَيْشٍ رَغيد. ومن أَطْرَفِ ما حصل له بعدما تجلَّى عليه الحقّ باسمه «الرحيم»، فامتلأ قلبه رحمة، حتى دفعه ذلك أن بَصَقَ على نار، وخاطبها كأنَّه يريد أن يُخمِدَ نارَ جهنَّم. وهذا يحصل كثيرًا للفقراء في مكاشفاتهم، لكنَّ العارفين يعرفون كيف يتعاملون مع مثل هذه التجلِّيات البرقيَّة، فيلتزمون الأدب مع الله.

وبينما هو كذلك، إذ قال مغلوبًا على أمره: يا مُرادي، وأشار إلى الحقّ.

ثم أضاف: يا أبا القاسم، ما تقولُ في حالٍ علا فظهر، وظهر فقهر، وقهر فبهَر، فاستناخ واستقَرّ. والحاصلُ في هذا الحال قد صُفِّدَ بالأغلال والأنكال، وغلبَه على عقله فَحَالَ، وحَادَّ الحقَّ بالحقِّ، وصار الخَلْقُ عِقالاً

ارتاع الجميع من حاله، فقلت له: يا أبا بكر، إذا كان مرادُك الحقَّ، فَلِمَ هذه الإشارات، وهو مُسْتَغْنٍ عنها؟ وإذا لم يكن مُرادُكَ الحقَّ، فَلِمَ قلتَ خِلافًا، والحقُّ عليمٌ بقولك؟

ثم أضفت: اللهَ اللهَ في الخلق يا أبا بكر، كنَّا نأخذُ الكلمةَ فننقُشُها، ونقرِظُها، ونتكلَّمُ بها، حتى حَبَّرْنَا هذا العلمَ تَحْبِيرًا، ثم خبّأناه في سراديبِ القلوبِ غِيرَةً عليه مِنْ أَنْ تَطالَهُ الأيدي أو تتناوَشَهُ الألسنة، فجئتَ أنت، فخلَعْتَ العِذارَ وأظهرتَه على رؤوس الملأ بينَكَ، يا شبلي، وبين أكابرِ الخَلْقِ أَلْفُ طبقة، في أوَّلِ طبقةٍ يذهبُ ما وصفتَ، فلا تَغْتَرَّ بتلك الأحوال، وكُنْ مع الله بلا علاقة.

فقال الشبلي: وكيف ذلك؟

فقلت: العلاقة تقتضي إرادتين وطرفين، وكانَ اللهُ ولا شيءَ معه، وهو الآنَ على ما عليه كان، وأنتَ كائنٌ موجودٌ بالله، فلا وجودَ لعلاقةٍ لك مع الله سوى المحبَّة. وقد سمعتُ خالي السَّريّ يقول: لا تَصِحُّ المحبّةُ بين اثنين، حتى يقولَ أحدُهما للآخر يا أنا

فقال الشبلي: إذن أنا أقول، وأنا أسمع، فهل في الدارين غيري؟

فقلت: اسمعوا جيِّدًا، رأيتُ في المنام كأنِّي واقفٌ بين يديْ الله تعالى، فقال لي يا أبا القاسم، من أينَ هذا الكلام الذي تقوله؟ فقلت، لا أقولُ إلَّا حقًّا، فقال صدقتَ.

تواجد الشبلي وصاح: أنا، يا أنا

فقلت له: ٱثْبُتْ يا أبا بكر، إنَّك كثيرُ الوَجْد، فإن كنتَ ترى نفسك في حضرة الله، فهذا سوءُ أدب، وإن كنتَ خارجها، فماذا حصّلتَ حتى تتواجَد؟ يا أبا بكر، إذا وجدتَ مَنْ يُوافِقك على كلمة واحدة ممَّا تقول، فتمسَّكْ به.

لم يُجِرِ الشبلي جوابًا، فاستغفرَ الله، وقال: لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

فقلت له: قولُكَ هذا يُعَبِّرُ عن ضِيقِ صَدْرِكَ، وضِيقُ الصدر قادح في الرِّضَا بقضاء الله، فقل «لا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله» منشرحًا بها صدرُك، راضيًا بها قلبُك.

فلم يُجِرْ جوابًا، لكنَّه قال: التوبة يا إمام.

هكذا كانت التربية عندنا، ولم نكن نَغْتَرُّ بمثل هذه الأحوال التي تَطْرَأُ على المريدين، بل كنَّا نُرَبِّيهِمْ ونُؤَدِّبُهم، ونُعلِّمُهُم الأدبَ مع الله حتى يَسْلُكُوا من أوحال التوحيد، ويحصُلَ لهم الرسوخ.

كان مع الحلَّاج أحدُ الأتباع مِنَ الكُبراء يستمعُ إلى الحديث الذي جرى، فأخرجَ صُرَّةً فيها خمسمائة دينار، ووضعَها بين يَدَيّ، وقال: فَرِّقْهَا على هؤلاء الفقراء يا أبا القاسم، وأشار إلى أصحابي.

فقلتُ له: أَلَكَ غَيْرُها؟

فقال: نعم، لي دنانير كثيرة.

فقلت له: هل تُريدُ غَيْرَ ما تَمْلِك؟

فقال: نعم.

فقلت له: خُذْ دنانيرك، فإنَّكَ أَحْوَجُ إليها مِنّا

فقال أصحابي كلُّهم بصوت واحد: الله، الله.

ثم أضفتُ لجهة الحلَّاج وأتباعه من الأمراء والكُبراء: لقد رأيتُ إبليس في المنام كأنَّه عُريان، فقلت له: أما تستحي من الناس؟ فقال: يا لله! هؤلاء عندَك مِنَ الناس؟ لو كانوا منهم ما تلاعبتُ بهم كما تتلاعبُ الصبيانُ بالكرة، ولكنَّ الناس غيرُ هؤلاء. فقلت: ومَنْ هُمْ؟ قال: قوم في مَسجد الشونيزيَّة، قد أَضْنَوْا قلبي، وأَنْحَلُوا جسمي، كلَّما هَمَمْتُ أشاروا بالله، فأكادُ أُحرَق، فانتبهتُ من نومي ولبستُ ثيابي، وأتيتُ مسجد الشونيزيَّة، والليلُ ما زال مُسبِلاً أستارَه، فوجدتُ بعض أصحابي تبدو رؤوسُهم في مُرَقَّعاتهم يَذكرون الله.

خَجِلَ الرجل من حرصه على طلب المزيد مع وُفُورِ ما عنده، وزُهْدِنَا ممَّا في أيدي الناس مع انعدام القليل منه في أيدينا.

فقال الحلَّاج: نِعْمَ المعلِّمُ أنتَ يا أبا القاسم!

ثم أضاف: أتأذَنُ لي في معانَقَتِك يا أبا القاسم.

فقلت: افعل، فأنتَ واحدٌ منَّا، ونحن أحرَصُ عليك مِنْ أَنْفُسِنا.

ثم عانقني، فقبَّلته وقبَّلني، وسرى فيه سِرٌّ منَّا. ورأيتُ في مشهد برزخيّ رجالاً نعرفهم قد أحدقوا بنا وقف السَّرِيّ السّقطي فأعطيته يدي، وأعطيتُ الأخرى للحلَّاج، لكنَّه لم يُمْسِكْ إلَّا بِطَرفِ ثوبي، وأمسكَ خالي بيد شيخه معروف الكرخيّ الذي أمسكَ يدَ شيخِه داود الطائيّ، الذي أمسكَ يدَ شيخِه حبيب العجميّ الذي أمسكَ يدَ شيخِه الحسن البصريّ الذي أمسك يدَ شيخِه علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه الذي أمسك يدَ سيّدنا رسول الله ﷺ، فاكتَنَفَتْنَا شموسُ أنواره، وغَرِقْنا في بحور أسراره.

* * *

كان ولدي محمَّد قد خلفني في تجارة الحرير في الحانوت منذ مدَّة، ولم أَعُدْ أذهبُ إلى السوق إلَّا على سبيل زيارة بعض الأصحاب. كنت جالسًا في الحانوت أشربُ شرابًا باردًا والأصحابُ من حولي يتلقَّفُون الإفادات، فإذا المنادي ينادي في الناس: أَبْشِروا يا عبادَ الله، أبشِروا، قد أمسكَ جيش الخلافة بعدُوِّ الله القرمطيّ، أبشِروا يا عبادَ الله، أَبْشِروا، قد أمسكَ جيشُ الخلافة بالخَبِيثِ القرمطيّ.

هكذا كان المنادي ينادي في السوق. خرج الناس من حوانيتهم يتساءلون عمّا يجري. وبسرعةٍ، طافَتِ الأخبارُ في السوق، ومنها إلى باقي المدينة. لقد كان أهلُ بغدادَ في فَزَعٍ من تحرُّشَات القرامطة، ولم يعد أحدٌ يَجْرُؤُ على السفر سواء للحجِّ أو التجارة أو العلم أو غير ذلك، حتى الأصحابُ كَفُّوا عن الحجّ على عادتهم كلّ سنة. لم يَعُدْ أحدٌ يطرُقُ دَرْبَ زبيدة، حيث كان القرامطة يَعيثون في الأرض فسادًا. بل إنَّ التجارةَ كَسَدَتْ من شِدَّةِ ما عَطَّلُوا طُرُقَ القوافل التي تَنْقُلُ السلَعَ بين أقاليم الدولة.

كان الناسُ متوجِّسِينَ، وكان الفَرحُ يُغالب تَوَجُّسَهُمْ، لكنَّهم كانوا يَرغبون في معرفة ما حصل. تساءَلْنا جميعًا عن هُويَّة الخَبيث القرمطيّ الذي قُبِض عليه. كنتُ أُمَنِّي النفس للخروج من بغداد منذ مدَّة، أمشي في الصحراء القريبة منها، حتى أُسَرِّحَ الطرْفَ بعدما كنت قد لزمتُ جدرانَ بيتي أو حَلْقَة الجامع أو حلقة الشونيزيَّة. كنت داخل أسوار بغداد أتطلَّع إلى ما وراء الأسوار، وتذكَّرتُ كيف أنِّي في شبابي لم أكن أجرؤ على استكشاف محلَّات بغداد. كما تذكَّرْتُ أوَّلَ زيارة لي لبيت فاطمة وشقيقها، وكيف أنِّي كنتُ في حالة من الرعْب في تلك الناحية من المدينة. أمّا اليوم، وبعد هذه السنين الطويلة التي عشتها

في بغداد، ها هي المدينة كلُّها قد ضاقت عليَّ بما رَحُبَت، فهل ستضيق عليّ حتى عند مماتي. كان خالي السَّريّ يَكره أن يُدفنَ في داخلها مخافة أن يَلْفِظَهُ قبرُه، ويفتضِحَ، وكان الشعور نفسه يُراودني، فلعلّ تربةَ بغداد قد ترفضُ جَدَثِي، فأُفتضحَ أمام الناس. لقد كنت وفيًّا لهذه الحاضرة، فلم أُسافر كثيرًا، ولم أغادرها إلَّا مرَّة أو مرَّتين للحجّ أو في غزوة غزوتها في شبابي، فكيف أتوجَّسُ منها إلى هذا الحَدّ؟ لا أعتقدُ أنَّ بغدادَ غَدَّارة لهذه الدرجة حتى تَرفُضَ جدَثِي، وَتَلْفظني.

كنت أريد أن أُطْلِقَ بَصَر العين حتى تَسْرحَ في ذَاتِ العَيْن. قد يأتي على العارفين أحوالٌ يكون الحِسُّ فيها أَكْمَلَ دَرَجَةً من غيره، فهو عبدٌ مُطيع، مَأمورٌ بما أُمِر، فإن أُطلِقَ انْطَلَق، وإن قُيِّدَ تَقَيَّد.

لمَّا سمعتُ المنادي يبشِّرُ الناس بالقبض على زعيم القرامطة، زاد عزمي على الخروج إلى ظاهر بغداد، فقلت للجماعة: تعالوا بنا نستطلِعُ ما يجري، ونخرجُ خارج بغداد.

كان الأصحابُ أكثر رغبةً منِّي في الاسترواح خارج بغداد. خرجَتْ طائفةُ الاستبصار، فإذا الناس قد قاموا صفوفًا لشيخ بغداد كلِّها احترامًا وتعظيمًا كانت عادتي أن لا أرفعَ بصري عن الأرض، لكنِّي كنتُ مُجبَرًا هذه المرَّة أن أُسلِّمَ على الناس، إذ كمالُ الأدب قد يأتي من غير بابه. كنت أَهُشُّ برأسي لناحيتهم، وقد شغلني هذا عمَّا كنتُ أشتغِلُ به من ذِكْر، لكنِّي تفطَّنْتُ إلى أنَّ ذكرَه على هذه الهيئة أوفى بتحصيل الجمعيَّة، والراسِخُ من كان مع الله وهو مع الناس. ليستِ الخُلْوَةُ أن تحجزَ نفسكَ داخل الجدران، بل الخُلوة أن تعيشَ مع الله وفي الله وبالله. وحيثما كنتَ فأنت مع الله. كنت أمشي ببطء بعد أن عَمّرتُ طويلاً أَحْدَقَ بي الإخوان والأصحاب والأتباع من كلّ فرقة

ومذهب، كنَّا نجمَع الجميعَ على الله، ونرحِّبُ بالجميع في حضرة الله.

مَشَيْتُ وسْطَ الأصحاب، فكنتُ أُشرِفُ على الجميع بطولٍ بائِن، وكانت لحيتي البيضاء تمتَدّ على صدري، كأنَّها شعلةٌ من لُجَيْن تُضيءُ الطريقَ الذي نمشي فيه. وكم تمنَّى عليَّ الأصحابُ أن يُقبِّلوها تبرُّكًا كانت تنبعث منها رائحة زكيَّة، ليستْ شيئًا آخر غير ما كانت تثمره الأذكار من عَرْفٍ وَشَذى. كنت أَفْحَصُ الوجوه وجهًا وجهًا، فلعلَّ أحدًا منهم أن يشفعَ لنا أو نشفعَ له في يوم لا ريبَ فيه. كانوا يبتسِمونَ لي، وكلُّهم حَريصٌ على تقبيل يدي، فتراهُم يُكِبُّونَ على هذه اليد التي لم تَتْرُكْ حَبْلَ الوصول. كنتُ أحتَمِلُ الجميع، إذ إنَّ في المحبَّة الصادقة اندفاعًا، فترى الواحدَ منهم، صَبِيًّا أو امرأةً أو شيخًا، يُقْبِلُ عليك مُندفِعًا حتى يَظْفَرَ بتقبيل يَدٍ أو لمسِ ثَوْبٍ أو ما شابه ذلك. كنَّا لا نَرُدُّ أحدًا، فإنَّ الرحمةَ تقتضي أن يتذلَّل المرءُ لمن طلَبَه، وأن يُعطي من ذاته بقدر ما يحتاجُه الناس. وكلَّما اندفَعَ شيخٌ أو طفلٌ أو امرأة نحوي، استندتُ على عصاتي حتى لا أَفْقِدَ تَوازني وأَسْقُط. كنتُ مثلَ الشجرة التي تتلقَّى الرياحَ التي تَهُزُّ جِذْعَها وأغصانَها، أو تَعْبَثُ بأوراقها وثمارها أولياءُ الله هم أشجارُ هذا العالم، أشجارٌ طيِّبة كريمة لا شرقيَّة ولا غربيَّة، فمتى ما جاءتها الريح من جهة، استندَتْ إلى الجهة الثانية، تَفِرُّ من الله إلى الله، فهي دومًا شجرةٌ متحرِّكة بالله. والعارف هو الشجرةُ التي لا تتحرَّكُ إلَّا إذا حُرِّكَتْ. كنت أمشي بهذه الحركة، فتهزُّني رياحُ الآدميين ومَنْ دونَهم، ممَّن لا تراهم العين أو لا يَقْدِرونَ على الحركة أو لا يَجْرُؤُون على تَلَقِّي مَاءِ سُحُبِ البركة.

مررنا بعدَّة محلَّات، وتقلَّبنا في قطائع بغداد، لم أكن أعرف أحدًا ممَّن أرى، لكنَّهم كانوا يعرفونني، وكم هو غريب ذلك الإحساس

الذي يَنْتَابُ المرءَ، حين يُسَلِّمُ عليكَ الناسُ ويحدِّثونك بحديث ذوي القُربى وأهلِ الصحبة، وأنتَ لم ترَ أشخاصَهم قَطُّ، لكنَّهم يعرفونَك! ما أعظم مُلْكَ الله، وما أعظَمَ شؤونَه! كيفَ للعارف أن يجهلَ مَنْ يعرفونه؟ فدلَّ هذا على أنَّ المعرفةَ مسبوقةٌ بجهل، وهذا من كمال المعرفة، ولعلَّه من كمال العارف ومن كمال المعروف. كم هو غريبٌ هذا الشعورُ حين يحدِّثُك شخصٌ حديثَ قريبٍ أو صاحبٍ أو صديق! بينما أنت لا تعرفه، ولا تملِكُ إلَّا أن تُجاريه في كلامه بطريقته لا بطريقتك! فمعرفتُه بك أوجبَتْ لك عليه حقًّا، لا تملكُ أن تدفَعَه. إنَّ من كمال المعرفة في هذا الموطن أن تصير جاهلاً ويصير قاصدك عارفًا فأنت المفعولُ به لا الفاعل، وأنت الذي يتلقَّى الأثر. متى حصَلَتْ هذه المعرفة بينكما؟ لا جوابَ عن هذا السؤال. لعلَّ ذلك حدَث في يوم ليس كسائر الأيَّام، يومٍ أخذَ اللهُ فيه الميثاقَ على جميع الخلائق، فأقرُّوا. فمنهم من أوفى بما أقرَّ عليه، ومنهم من أخفَق. هناك حصلَتْ تلك المعرفة التي جعلَت الناس يُقبلون عليَّ اليومَ، ويحدِّثونني حديثَ الأصدقاء. فما أعجبَ شؤونَ هذا الكون! كنتُ أبتسِمُ لهم، وأَرُدُّ بالكلمة والكلمتين ولا أقولُ إلَّا خيرًا. كانت لهم مطالب، وكلُّهم يريدونَ أن يتلمَّسوا الخير، فَمِنْ امرأة تريدني أن أَدْعُو لابنها، ومِنْ شيخ يطلبُ منِّي أن أدعو له بالشفاء، ومن مُذْنِبٍ قد أيقَظَتْهُ لَحظةُ إيمان، ومن مُتجبِّر قد ركنَ إلى سَكِينَةِ الإيقان. لا شكَّ أنَّ للولاية أَثَرًا في المتوَلِّي، ولا شَكَّ أنَّ الولاية من اسم الله تعالى «الولي»، فالوليُّ على الحقيقة هو الله، وما نسمِّيه «الولي» ليس إلَّا من تَولَّاه الله بولايته، فهو في عُهْدته، فلا يتكلَّم إلَّا بالله الذي تولَّاه، وإن تصرَّف تصرَّفَ بالله الذي أوجد عنده حُكْمَه حين تلقّاه، فَمِنْ مُنْكِرٍ يُنْكِرُ

ظهورَ آثار القُدرة على يديه، وقد نسي أنَّ الفاعلَ على التحقيق هو الله، وأنّ المقدورَ قد أتى بحكم الله ليظهر في آنيَّة من أواني الله.

لمّا وصلنا عند باب خراسان، راعنا ازدحامُ الناس هناك. تفقَّدَ الأصحابُ الأمر، وفَتَحُوا أمامي الطريقَ، حتى وجَدْنا فسحةً فوقَفْنَا عند عَمُودِ الصلْب. كان الحلَّاج قد خرج من السوق أيضًا مع أصحابه وأتباعه، فجاء ناحيتَنا، وأخذ ينظر إلى عمود الصلب مُعتبرًا، ثم لم يلبث أن أنشد:

اُقتُلوني يا ثِقَاتي إنَّ في قَتْلِي حَياتِي
ومَمَاتِي في حَياتي وحياتي في مماتي
أنا عِنْدي مَحْوُ ذَاتِي مِنْ أَجَلِّ المكْرُمَاتِ
وبَقائي في صِفاتي مِنْ قَبِيحِ السيِّئَاتِ
سئِمَتْ رُوحِي حَياتي في الرسُومِ البالِياتِ
فَاقْتُلُونِي وَاحْرِقُونِي بِعِظَامِي الفَانِيَاتِ
ثُم مُرّوا بِرُفَاتِي فِي القُبُورِ الدَّارِسَاتِ
تَجِدُوا سِرَّ حَبِيبِي فِي طَوَايَا الباقِياتِ

تَلَفتُّ إليه، وقلت: اثبُتْ يا حلَّاج، فإنِّي أرى رأسَك مقطوعًا بسيف الشريعة على عمود الصلب الذي ترى.

فقال الحلَّاج: هل تعلم يا أبا القاسم أنِّي وُلِدْتُ يوم عيد الأضحى، فكيف لا أطلبُ أن أكونَ أضحية العيد لهذه الأمَّة، لعلَّ ثقاتي يقتلونني، ويُضَحّون بي على دين الصليب.

وأشار إلى عمود الصلب.

كان بعض الفقهاء يتابعون الحديث، ومنهم الفقيه أبو بكر محمَّد بن داود الأصبهانيّ، وابن سُريْج الشافعيّ. تجادل الرجلان في الحلّاج، فكان ابن سُريْج يتلمَّس له الأعذار، وكان ابن أبي داود يُثْقِلُ ظهر الحلّاج بالأوزار.

كانت شرطةُ بغداد تطوفُ بجثَّة زعيم القرامطة الذي رَوَّعَ الناس والحُجَّاج والمسافرين، جرَّاءَ المخازي التي كان يقومُ بها مع رجاله من الأعراب واللصوص وقُطّاع الطرق.

وقف رجال الخليفة يحدِّقُونَ بالجثَّة ويَحْجِزُونَ الناس عن الاقتراب منهم. تقدَّمْتُ قليلاً، فعرفني الجندُ والشرطةُ، وفَسَحُوا لي حتى أعاينَ جثَّةَ القرمطيّ. تحدَّث معي القائد بأدب واحترام، فشكرته. حمدت الله أن طهَّر الأرض من هذه الفئة الباغية، وتملَّكني الاعتبار أمام جُثَّتِه، ثم أشرتُ على أصحابي بالمغادرة.

لقد أبلى الخليفةُ عليّ المكتفي بالله بن أحمد الموفّق بالله بن المتوكِّل، الذي تولّى بعد وفاة الخليفة المعتضد سنة ٢٨٩ هـ، بلاءً حسنًا في محاربة القرامطة. وكان هذا الخليفة قد أنهى وجودَ الدولة الطولونيَّة في مصر والشام التي دامت أربعين سنة، وأعادها إلى حضن الخلافة العبَّاسيَّة، بعد أن عجز الطولونيُّون عن احتواء هجمات القرامطة الذين أنزلوا بهم هزائم متتالية. وقد عاث القرامطة في الأرض فسادًا، واعترضوا قوافل الحجيج وقتَّلوهم، وصنعوا من جثتهم تلالاً، ومثَّلوا بهم شرَّ تمثيل، وغوَّروا الآبار حتى مات الناس عطشًا، لكنَّ المكتفي أرسل جيشًا كبيرًا لقتالهم سنة ٢٩٤ هـ. حتى ظَفِروا بزعيمهم الذي جلَبوا جثَّته، وطافوا بها في بغداد، حتى يستيقنَ الناس برجوع الأمن إلى الطرقات.

ثم مات المكتفي، وكان قد عهد قبل وفاته بولاية العهد لأخيه جعفر المقتدر بالله. تولّى المقتدر الخلافة وهو فتى لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره. لقي اختيارُه خليفةً هوًى في نفوس الوزراء، لرغبتهم في توجيه السياسة بحسب أهوائهم؛ كما ناصره الأتراك، لأنَّ أُمَّه تركيَّة اسمها «شغب»، فصار أُلعوبَة في أيدي هؤلاء وأولئك، بعدما عمل الخلفاء منذ المعتزّ ثم المهتدي، وبعدهما المعتضد وشقيقه الموفّق على إرجاع الهيبة للخلافة والحدِّ من نفوذ الأتراك. ثم سار على نهجهم المكتفي، إلَّا أنَّه ارتكب خطأ فادحًا بتولية المقتدر ولايةَ العهد حرصًا منه على بقاء الخلافة في بيته. استاء الناس من تولية المقتدر لحداثة سِنِّه، وَطَعَنَ البعض في أهليَّته، لكنَّه استمَرّ في المُلك، وفرَّقَ الأموال التي كانت في الصناديق منذ الأمويّين والعبَّاسيّين السابقين، فَرَّقَها على حاشيته وجواريه، وبدأَتْ خزينة الدولة تَنْضَب.

ودَّعتُ قائدَ الجند وصاحبَ الشرطة بإيماءة من رأسي، ولويتُ طَرف ردائي أطلبُ ظاهر بغداد، فمشى خلفي الأصحاب. مشينا مدَّة طويلة، ومشى مِنْ خلفنا خلقٌ كثير، حتى وصلنا إلى ظاهر بغداد؛ ولكأنَّ أهل المدينة قد خرجوا إلى المحشر  تعجَّبْتُ من هذا الأمر، وقد كنتُ أرغبُ في أن أَهْرُب من المدينة وجَلَبَتِهَا، فلم يُسْعِفْنِي أهلُ بغداد الذين حضروا بصغيرهم وكبيرهم، وكأنَّ خروجَ الجنيد مع أصحابه حدثٌ فريد، لا بُدَّ أن يشهَدَهُ أهلُ بغداد كلِّها  كنت أريد أن أخرجَ مع أصحابي، حتى أُماشيهم في ظاهر بغداد على عادة الحكماء المشّائين منذ العهود القديمة، أو كما كنت أَخرجُ مع شيخي الحارث المحاسبيّ رحمه الله، فأُسائله ويُجيبني. كان جُلُّ ما كتبه من ثمار الأسئلة التي كنت أُمطِرُهُ بها سيلاً دافقًا  وقد مشيتُ على هذه السُّنَّة،

فلم أَكُنْ أَبدأُ دروسي إلَّا بالأسئلة، فأُجيبُ عنها. كنَّا لا نَطْعَمُ العلمَ إلَّا بعد الحاجة إليه، كما هو شأنُ الطعام. لم يكن العلمُ الذي يدور في حلقتنا ترفًا فكريًّا، وإنَّما تحقُّقًا بالافتقار، وإيثارًا للإخوان.

لمَّا خرج الناس في إِثْرنا على هذه الهيئة العجيبة، كأنَّما خرجوا إلى أرض المحشر، استراب صاحبُ شرطة بغداد من الأمر، فأرسل بعض عيونه يتسَقَّطُ الأخبارَ ليقِفَ على حقيقة ما يجري.

مشينا بين فِكرة وعِبْرة، كلّ خُطوة كنتُ أخطوها أُزاوج معها بفكرة أو عِبرة. السماء صافية والحرارة معتدلة، وجلبةُ بغداد قد ولَّتْ خلفنا كان الناس يمشون خلفنا في صمت، ينتظرون إشارةً ليحدُثَ أمرٌ ما لو قطعتُ بهم هذه الصحراء، لمشَوْا خلفَنا. كيف يُسْلِسُ الإنسانُ القيادَ لغيره دون أن يُسائِلَه عن الغاية التي يُريدُ أن يصلَ به إليها؟ كان الناس يمشون خلفَنا بلا غاية، أو لأنَّ غايَتهم هي أن يُسْلِمُوا لنا الأمر. كيف للأنانيَّة أن تَرْكَبَ في ذاتٍ ائْتَمَنَهَا الناس على مَصائرهم؟ وصلنا إلى مَوْرِدِ ماءٍ، كنتُ أجلس بالقرب منه فيما مضى مع شيخي المحاسبيّ، تُظَلِّلُهُ أشجارُ نَخيل تَقَوَّسَتْ من طول ما حَمَلَتْ من عَراجين الثمار. لم أستَطِعْ أن أُقاومَ شعورًا بالمقارنة بيني وبين هذه النخلات المقوَّسَة، فما المؤمن إلَّا نخلة مقوّسة بعد أن أثمرَتْ عراجينُه في ثمار الطريق. نظرتُ مِنْ حَوْلِي، فسارع بعض الأصحاب إلى فَرْشِ سجّادة في أَصْلِ نخلة أَثِيرَة عندي، كان المحاسبيّ يجلسُ إليها وجلس إليها مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الصالحين، فجلستُ في إثرهم، وسرى من تلك السلسلة النورانيَّة بَثٌّ متواصل. توكّأتُ على النخلة، فأحسستُ بقرابتها معي ومنِّي. ناديتها في سِرّي: أيّتها العمَّة، يا أختَ أبينا آدم، بورِكَ فيك وفي قرابَتِك، فاقبَليني بفِنائك كما قَبِلْتِ مِنْ قَبْلي مريمَ العذراء. دعيني أتَّكِئ عليك. رفعتُ

طَرْفِي إلى رأس النخلة، فرأيتُ عُرجونًا مُتدَلِّيًا يَطلبُ أن يُقْطَف، فقلت «بسم الله»، فَسَقَطَتْ منه ثلاثُ تَمَرات. تناولتُ واحدةً، فسقطَتْ عدَّةُ تمرات أخرى، فطلبتُ من أصحابي أن يتناولوا مِنْ طعام السماء. ثم طلبت ماءً، فسقاني أحدُ الطلبة، ثم مسحتُ بما فَضَلَ على وجهي وأطرافي ومسحتُ على رأسي. هبَّ نسيمٌ عَليل علينا، فطابتْ نفوسُنا وطاب السماع للأرواح، فأنشدتُ:

تَوَضَّأُ بِمَاءِ الغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرّ — وَإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصعِيدِ أَوِ الصخْرِ

وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ أَمَامَهُ — وَصَلِّ صَلاَةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ

فَهَذِي صَلاَةُ **العَارِفِينَ** بِرَبِّهِمْ — فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ، فَانْضَحِ البَرَّ بِالبَحْرِ

تواجدَتْ طائفةُ الاستبصار، وطلبوا منِّي أن أَشْرَحَ لهم معاني هذه الأبيات، فقلت: لما تحصَّلتِ الطهارة الحسّيَّة بفرعيها الصغرى والكبرى، ثم المعنويَّة بفرعيها الظاهرة والباطنة، تطهَّرَ القلبُ من جميع الأغيار للدخول إلى الحضرة الربّانيَّة. وماءُ الغيب هو ماء اليقين الذي قال فيه تعالى ﴿**أَلم** ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْب فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ **بِالغَيْبِ** وَيُقِيمُونَ الصلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، فالإيمان بالغيب المُشار إليه في الآية يكون بالقلوب، لأنَّ الآخرة غيب، ولا يؤمن بها إلَّا من حَصّلَ درجةَ اليقين، وكان ذا سِرّ، والسِّرُّ هو الكلمة المشرّفة «لا إلٰه إلَّا الله»، لأنَّها شرط في أيّ عبادة، كما أنَّها مفتاح الولاية الكبرى. ولو عَدِمَ المرءُ ماءَ الغيب، أي عَدِمَ اليقين، عَدَلَ عن الوضوء إلى التيَمُّم بالصعِيد أو بالصخْر، وهو مُخالطةُ الأولياء العارفين والعلماء الربَّانِيّين، أهلِ اليقين. فمن فاتته درجة الولاية لزمه أن يحبَّ

أهلَها، حتى يَحْظَى برفقتهم لِتَسْرِقَهُ طباعُهم عن طباعه، حتى ولو لم يكن طاهرًا وبقي على جنابته ونجاسته. فمصاحبة الأخيار كفيلة بقلب أعراض نجاسته إلى طهارة. أمَّا النجاسة أو الجنابة فهي الغفلة عن الله. فالتيَمُّم بالصخر هو للجَنَابة الكبرى، والتيَمُّم بالصعيد هو للجَنَابة الصغرى. ألم تَرَوْا كيف أنَّ الصخْرَ لا ينبتُ عليه نبات إلَّا إذا توالَتْ عليه الأمطار، التي هي كثرةُ مجالسةِ أهلِ الله ومحبّتِهم، والاعتقادِ في ولايتهم. أمَّا التراب، فإنَّه يَنْبُتُ بكلِّ نَبات، فكذلك مَنْ خالطَ الأولياء والعلماءَ نَبَتَ له نباتٌ صالح، ورفع عنه آثارَ الجنابة والغفلة. وبعد حصول الطهارة، لا بدَّ من الاقتداء بالإمام، وهو النبيّ عليه الصلاة والسلام، ثم وُرَّاثُه من الأصفياء والأخيار، فيجب على المأموم أن يقتدي بالإمام ويقفَ عند أوامره ونواهيه، ولا ينبغي له أن يتقدَّم عليه أو أن يرى نفسه أمامَه. فبعد الوقوف خلف الإمام، اِنْوِ أَنَّكَ تُصلّي خلفَ الإمام، وكَبِّرْ بتكبيرة الإحرام لصلاة الفجر في أوَّل العصر. فالفجر هو بداية النهار، والعصر هو ختامه، والإنسان بين فجر وعصر، وبين شباب وشيخوخة، وبين بداية ونهاية. وعند الفجر، تتفجَّرُ كُرُومُ المعارف الإلٰهيَّة في قلوب الأصفياء، فَيَعصِرونَها خمرًا قديمًا في أَوَانِ العَصْر فإذا شربوا من تلك الخمر قد يحصل لهم سكر بها، فلا بدَّ أن يَنضَحُوا بحر حقيقَتِهم بِبَرِّ شريعَتِهم، حتى يَعُودوا للصحْو. فالعارف مَنْ سَكِرَ ثم صَحَا، لا مَنْ استغرَقَهُ السكر حتى باح، وعَقْلُه راح.

ثم التفتُّ إلى القَوّال، وقلت له: أَنْشِدْنا، فقال:

سقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغَنِّ وَلَوْ سقَوْا    جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سقَوْنِي لَغَنَّتِ

تواجد القوم، وكان أكثرُ المتواجدين أبو بكر الشبليّ، لأنَّ البيتَ لصاحبه الحلَّاج الذي سكر من هذه الخمرة الأزليَّة حتى لم يَقْوَ على

الكِتْمَان، فقلت له: يا عَيْنَ العَيْن، هل اخْتَرَمَكَ الشراب والبَيْن؟

فقال الشبليّ: أنا النقطةُ التي تحتَ الباء.

فقلت: الباءُ بحرُ الجَبَروت الذي تدفَّقَتْ منه نُقْطَةُ الأكوان. وبين «الدَّليل» و«الذليل» نقطةٌ تَحَارُ في فهمها العقول. فمن أراد الدلالة على الله لزمه التَّذَلُّل لله. ومن تَذَلَّلَ حَفِظَ الشريعة وتأدَّبَ مع الله.

تواجدَ القومُ، وبقيتُ ساكنًا لا تُحَرِّكُنِي الأحوال، فقال النوريّ: كنتَ تسمَعُ القصائد يا أبا القاسم، وتحضُرُ مع الأصحاب، فتتواجد وتتحرَّك في وقت السماع، فلماذا أنت الآن ساكنُ الصفة؟

فقلت: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أين جبال حُنَيْنٍ التي تَغَنَّى بها الحلّاج؟ أين جبل موسى عليه السلام، الذي اندَكَّ لمّا تجلّى عليه الجليل؟ صارت جبالي دَكًّا من هيبة المتجلِّي، لكنّي اليومَ ساكنٌ بالله، أَمُرُّ مرَّ الجبال الراسِيات.

فقال النوريّ: مقامي في السماعِ الرمزُ بالإشارةِ دونَ الإفصاح، والكنايةُ دونَ الإيضاح.

ثم وَثَبَ وصَفَّقَ بيديه، فقام جميع مَنْ حضر بقيامه ساعةً يتواجدون.

بعد ذلك، جلس القومُ للاسترواح ساكنين كالأوتاد، يُمْسِكُونَ مَيْدَ الأرض، وجلستُ وَسْطَهُمْ، وبدأتُ حديثي بالتذكير بأهمِّيَّة الشهادة وإبلاغ الأمانة التي اسْتُحْفِظْنَاهَا فمهما كانت المصاعب، لا بدَّ من إيصال الأنفاس النبويّة الطاهرة إلى الورثة الحاملين لسرِّ الأمانة. كان الناسُ في بغدادَ وغيرها يتصارعون من أجل الوصول إلى المناصب، بمن فيهم حملَةُ الشريعة، وكنّا زاهدين في كلّ هذا لا يهمُّنا من متاع

الدنيا قليلٌ ولا كثير. قد نُخْطِئُ، وقد نُصيبُ، إلّا أنّنا كنّا على المَحَجَّة.

قلت مخاطبًا أصحابَنا ومَنْ حَضَر: المحجَّة التي كان عليها صاحبُ الأمرِ، ومَن بعدَه من الأتقياء، معرفةٌ وطريقٌ. والمعرفة هي العلم بالله من طريق الذوق، وهي لا تحصُل إلّا عن عمل وتقوى وسلوك. ونتائِجُها شهودُ كَشْفٍ محقَّقٍ لا تدخُلُهُ الشبَه، كما يحدُث لسائر العلماء في كلِّ العلوم. كما لا تدخُلُ هذا الكَشْفَ الحَيْرَةُ فيه. ثم أنشدت:

علم التصَوُّفِ عِلْمٌ لَيس يَعْرِفُهُ إلّا أَخُو فِطْنَةٍ بِالحقِّ **مَعْرُوفُ**
وليسَ **يعرفُهُ** مَنْ لَيس يَشْهَدُهُ وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءَ الشمْسِ مَكْفُوفُ

فقال الجريريّ: وما هي مجالات هذه المعرفة بالله يا أبا القاسم؟

فقلت: المعرفة عند القوم تنحصر في سبعة مجالات كبرى، هي: أوّلاً، علم الحقائق، وهو العلم بالأسماء الإلٰهيَّة. وثانيًا، العلم بتجلّيات الحقّ في الأشياء. وثالثًا، العلمُ بخطابِ الحقِّ عِبادَهُ المكلَّفِينَ بالشرائع المنزلة. ورابعًا، علمُ الكمال والنقص الذي يَلْحَقُ الوجود. وخامسًا، علم الإنسان بنفسه. وسادسًا، علم الخيال بنوعيه وعالميه المتصل والمنفَصِل. وسابعًا وأخيرًا، علم الأدواء والأدوية.

فمن جَمَعَ هذه المجالات السبعة، فقد حصّل المعرفة وأصبح عارفًا بالله. ولتعلَمُوا أنَّ كلَّ واحد من هذه المجالات ينقسم بدوره إلى مجالات فرعيَّة. فمثلاً العلم بالأسماء الإلٰهيَّة يتضمَّن العلم بأسماء الذات، وأسماء الصفات، وأسماء الأفعال، ووراءَ هذا الكلام بحارٌ وبحار.

ثم أجبتُ عن الأسئلة التي طُرِحَتْ عليَّ من الحاضرين، فظلَّلَتْنا

سحَائِبُ الرحمة الربَّانيَّة، وهبَّتْ علينا نَسائِمُ العناية الإلٰهيَّة، وأمضينا وقتًا طيِّبًا طابت به نفوسنا، وتمنَّى الأصحابُ أن يتواصل ولا ينقطع. أمَّا أنا، فقد تمنَّيت اللقاء في هذه البرِّيَّة بعيدًا عن بغداد وجلَبتها وضجيجها ومُؤامرات فِرَقِ أهلها تمنَّيتُ أن أَمُوتَ وأُدْفَنَ في هذه البقعة العارية إلَّا من الريح والرمال وأشجارِ نخيلٍ يتيمةٍ تُؤْنِسُ وحدةَ الغُرباء، وتَدُلُّ على الله بِغُربتِها في هذا الخلاء. ما أعظمَ التوحيدَ في أرض بلا خُدودٍ ولا حدود! كم هو جميلٌ أن تُسرِّحَ الطرْفَ، فلا يعترضُ بصرَكَ عارضٌ ولا حاجز! وإذا تصفَّى نَظَرُ البصر، تَقَوَّى نَظَرُ الباصرة، فَنَفَذَتْ في بهاءِ الجمال الإلٰهي تستطلِعُ المرايا القائمة المنتصِبَة، وتُعاينِ الصوَرَ المتقلِّبة عليها.

تذكَّرتُ أيامَ الصِّبا والشبِيبَة، وقطعتُ في لمحةِ مَشْهدٍ قلبيّ عقودًا من الزمن، فانتابَتْنِي لحظاتٌ من الكشف، عاينتُ فيها لوامعَ الحُجَج، وقواطعَ الأدلَّة عن سيرة أهل الاستبصار، ثم فنى الكلّ في الكلّ، فلا حُجَجَ ولا أدلَّة، وإنّما سديمٌ من الحيرة العارِفة. ثم رأيت ميدانَ الجنيديَّة في بلاد التصرُّف الإلٰهيَّة. منذ أن رحل خالي السقطيّ، جلستُ في هذا الميدان إلى حلقة الدرس بعيدًا عن التقلُّبات السياسيَّة التي كانت تتوالى على البلاد. ومنذ أربعين سنة، وأنا لا أتخلَّف عن وردي الراتِب بأداء ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة كلّ يوم، عدا الاستهتار بذكر الاسم المفرد بلا عدد سوى توقيع الأنفاس. لم أَتْعَبْ يومًا واحدًا. قد يستسهل الكثيرُ هذه المداومةَ ويَعدُّونها داخلةً في طِلَّسْمِ العادات، لكنَّ الوفاءَ للحقِّ والتحقُّقَ بالفاقة الوجوديَّة ليست بمقدورِ كثيرٍ من الناس للمُشاكَسَة النفسيَّة الدائمة. لستُ عبدًا لِلْعَدِّ ولا للحِساب، كما قد يتوَهَّم أَصحابُ الدعاوى العَريضة، ولكن ماذا

سيبقى من تلك الكُشوف والفُتوح؟ لا شيءَ غيرُ هذه النوافل التي تُدخِلُك في مُناجاةٍ مع الوجود القديم. لا يبقى غيرُ ركعاتٍ في الأَسْحَار، وخَلَواتٍ وأذكار. لا يبقى منكَ شيءٌ سوى أنفاسٍ أمضيتَها بمعيّة الوُجود. لا زمنَ يستوعبُ هذا الزمن، لأنَّكَ في قَبْضَةِ الإحاطةِ خارجٌ عن الزمن، وعن حركاتِ الأفلاك. أنت حينَها فلكٌ تدور حولَك باقي الأفلاك. أنت حينَها في قلب مَجَرَّةِ الكون، قلبٌ ينطِقُ نيابةً عن سائرُ المكوَّنَات، فتسبَحُ حولَك جميعُ الأكوان. لا يَغُرَّنَّكَ قولٌ لا يُقيمُ للعبوديَّة صَرْحًا في ميزان الوجود. لا تَغْتَرّ بدعوى الحرِّيَّة في الخروج من رِبْقَةِ العبوديَّة. لا حرِّيَّةَ دون عبوديَّة، لأنَّ من استعبَدَتْهُ الأكوان، كيف يدَّعِي حُرِّيَّة الكِيَان؟ هذه هي حيرةُ الإنسان العارف، حينما يُسْلِمُ حرِّيَّته قُربانًا لمعبوده، يصبح حُرًّا عمّا سواه، فلا يملِكُ شيئًا، ولا يَمْلِكُهُ شيء.

كانت كثيرٌ من الفِرَقِ تسعى إلى الوصول إلى رأس الدولة، من فِرَقِ المذاهب الفقهيَّة المختلفة، سُنّة وشِيعة وخوارج وفرق المتكلّمين من معتزلة وأشاعرة وغيرهم، وفِرَق الحكماء من الفلاسفة، وفِرَق المِلل الأخرى من يهود ونصارى وصابئة ومجوس وغيرهم، وفِرَق الباطنيَّة على اختلافها، وحركات المتمرِّدين من الزَّنج والقرامطة، وفِرَق الأجناس المختلفة من عرب وترك وفرس وأكراد وغيرهم. تنوَّعت هذه الفِرَق على عدد فاتحة النور ﴿ألم﴾، واحدًا وسبعين (٧١).

ففرقة إخوان الصفاء حاولوا تهيئة العقول لظهور المخلِّص. وفرقة إخوان الصدق، وهم المانويُّون أتباع ماني، لم يَهْجُرُوا الشِّرْكَ إلَّا لِيَقَعُوا في شِرْكِ التَّثْنِيَّة بين إلٰه النور وإلٰه الظلمة. وفرقة من الشيعة قالت بغيبة الإمام، لمَّا أعياها طلبُ السلطان. وفرقةُ الحكماء بشَّروا بالمدينة

الفاضلة، ولم يُحَصِّلُوا إلَّا مُدُنًا مفضولة. وفرقة من الفقهاء اشتغلوا في خُطَطِ الدولة، وحَصَرُوا الدينَ في كلمتين: «افعل» و«لا تفعل»، ولم يُحصِّلوا مركزَ دولةِ الإنسان الحقيقيَّة في كِيانه وصدره، ولم يُذَكِّرُوهُ بيوم الميثاق، ويَوْمَ شَقِّ الصدْر كي يتأهَّلَ لحمل الأمانة، فضيَّعوا فِقْهَ القلوب. أمَّا المعتزلة العقلانيُّون، فقد خانوا مبدأ العقل الذي نصَّبوه على رأس مملكة الإنسان، حينما اضطهدوا غيرهم ممَّن لا يَقولُ بقولهم. لقد جعلوا من الاعتزال مذهبًا للدولة، وأجبروا الناس على اعتناق العدل والتوحيد. وهل في العدل والتوحيد إكراه؟ إنَّما ذلك اقتناعٌ ويقين. كان بالإمكان أن يكونَ الاعتزال مذهبًا لدولة قائمة من دون إكراه، لكنَّهم استعملوا الحديدَ والنار، وامتحنوا الناس في عقائدهم، وأَخَصِّ ما يربِطُهُمْ مع مُوجِدِهم. لا يَليقُ بدولة الخلافة أن تُعْلِي مِنْ مَذهبٍ على حسابِ مذهب آخر مذهبُ الخليفةِ النائِب عن سيِّدِ الوجود في الإمامة العظمى هو الجمعيَّة العامَّة التي تَسَعُ الجميع، فكلُّهم من ذلك الجَنَاب مُستمِدّ، وعلى حوضِه راكِعٌ مُسْتَوْرِد.

ثم هناك فرقةٌ حمَلَتِ السلاح وقتلَت الأرواح، وزرعَتِ الرعبَ، حتى تصل إلى مبتغاها، لكنَّها فَشِلَتْ كباقي الفِرق في خُطَطِها كان الكلُّ يسعى إلى بلوغ رأس الدولة في بغداد لِيَحْكُمَ العالم. حوَّلُوا مَدينةَ السلام إلى مدينةٍ بلا سَلام. وحينما فشلوا في المركز، تحوَّلوا إلى الهوامش، فَحَوَّلُوها إلى مراكزَ بدورها لكن الفرقةَ الوحيدة التي أعرضَتْ عن كلّ هذا، لأنَّها لم تكن يومًا ما فِرْقَة، ولا سعَتْ إلى تأسيس الفُرْقَة، ولم تشتَغِلْ إلَّا بالإنسان، وجَلْبِ السعادة له، هي طائفةُ أهلِ الاستِبْصَار. فقد طلبَتْ أن تترقَّى في مملكةَ الفرح، وسَعَتْ إلى التسَلْطُن في ميدان النفْس البشريَّة، فخلَعَتْ طيلسانَ السيادة على الدنيا،

ولبِستْ حُلَلَ الديمومة في أن تعيش بالله، وعَمِلَتْ ما في وُسْعِها بلسان الذِّكْر ولُبَابِ الفِكر على تَرْوِيضِ حَيَّةِ النفْس، فجاءتها نتائجُ الأذكار بما لو وقفَ عليه جُلُّ الطالبين من أهل الفرق الأخرى، لزاحموا القومَ بالركَبِ على ما هم عليه من السعادة في مملكة الفرح. مَنْ طلب الله عمّته السعادةُ وجاءته الدنيا ذليلة، ومن طلبَ غير الله أعرضَتْ عنه الدنيا، وتقلّبَ في الشقاوة وفَاتَهُ الخير كلُّه. من طلب الكثرةَ حصَّلَ الكثرةَ، ومن طلب الواحِدَ فَنَى فيه حتى لا يَبْقَى له طَلَب، فلا يعرفُ الطالِبَ من المطلوب.

أيُّها الداخلونَ إلى بغداد، تخيّروا البابَ الذي ستدخلون منه، فلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ كُلُّ واحدٍ مِنْ بابِه. وكلُّ بابٍ يُوصِلُ إلى نهرٍ من أنهارِ مدينة السلام. وليس في بغدادَ سوى نَهْرٍ مِنْ لَبَنٍ، ويَنْبُعُ مِنْ دجلة، وقد شربنا منه؛ ونهرٍ مِنْ خَمْرٍ وينبُع في الفرات، وقد شربَ منه الحلَّاجُ ومَنْ على شاكلته، حتى فَرِتَ وأفرطَ، وسكِر وباح، وإنِّي أخشى عليه من سيف الشريعة البتَّار، لكنَّه يعلم هذا ويطلُبُه ويرتَضيه. فمن فنى عن الأكوان، كيف لا يطلب الفناء في المكوِّن؟ ولو أدركتُ ذلك الزمانَ، لأخذتُ بيده وَأَقَلْتُهُ من عَثْرَتِهِ، لكنْ، هيْهاتَ هَيْهَاتَ، جفَّتِ الأقلام وطُوِيَتِ الصُّحُف بما دَوَّنَه قلَمُ التسْطير في عالم الأزل.

أيُّها الأحباب، العوالم ثلاثةٌ، كلُّها مستمَدَّةٌ من فاتحة النور ﴿ألم﴾. فَسَاقُ الألِف هو المظهرُ الملكوتيّ الأعلى للساق في عالم العظمة؛ وساقُ اللام هو المظهر الجَبروتي البرزخي الأوْسَط في عالم الروح؛ وساقُ الميم هو المظهر المُلْكِيّ الشهاديّ الأسفل في عالم الحِسّ، وهو تَعْرِيقَةُ الميم النازلة إلى العوالم السفليَّة. وقد تجلَّتْ لي هذه الفاتحة النورانيَّة في **مشهد نور السَّاقِ بطلوعِ نجم الدعاء**، فَدُعِيتُ

للسجود، فلا سجودَ إلّا بعد كَشْفِ السَّاق ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ ومَنْ سَجَدَ قَبْلَ كَشْفِ الساقِ، فإنَّما سجَدَ سُجودَ أَشْبَاحٍ لا سُجودَ أرواح. بينما السجودُ يكونُ بعد أن تُدْعَى له وتُذَكَّرَ به فَتَخِرُّ ساجدًا، كما خَرَّ موسى صَعِقًا لمَّا كُشِفَ له قَبَسٌ مِنْ نور الساق.

الألفُ سَاقُ الذات، واللام ساقُ الصفات، والميم ساقُ الأفعال. وقد تعانقَ الألفُ واللام تَعَانُقَ الحبيبين، فكان بينهما المَسَاق ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساقُ﴾. فسلامٌ على كلِّ أهل العوالم العلويَّة والسفليَّة، سلامٌ على الأوّلين والآخرين، سلامٌ على كلِّ إنسانٍ حيثُما كان، ومن أيِّ جهة أتى، ليس في حَلْقَتِنَا غيرُ السلام، هي ترنيمةٌ نُنْشِدُهَا نحن في مملكة الفرح لا نُقيم سوى الأفراح، ونتنَعَّم في غِبْطَةِ الأرواح بشراب الراح. يا أهل الفرح، تعالَوْا أَقْبِلُوا ولا تتخلَّفوا. هذا يومُ عيدٍ وفرح، هذا يومٌ ليس كسائر الأيَّام. ليس في الدنيا شيءٌ يستحقُّ كلَّ هذه المعاناة من أجل درهم أو دينار، أو مِكْيَال أو قنطار. كيف لك أيُّها الإنسان أن تَقيس جوهر ذاتِك بمعدِنٍ خَسِيسٍ نَبَتَ من فُطْرِيَّاتِ أرضِك؟ ليستِ الفِضَّة ولا الذَّهَبُ بِأَوْلَى من جوهر ذاتِك المشِعَّة بالنور. فلماذا تَطْلُبُ الغَيْر، وأنت في عين العين؟ يا بُؤْس مَنْ فاتَهُ هذا الإدراك، وعَدِمَ التمييزَ والفرقانَ، حتى أشرفَ على الهلاك. سلامٌ على كلِّ داخلٍ إلى بغداد، سلامٌ على أهلِ كلِّ قِبْلَة، سلامٌ على النور حيثما وُجِدَ، سلامٌ على نُورِ النور. اِرْفَعُوا أَكُفَّ الضراعة، وتبتَّلوا معي جميعًا وأَمِّنُوا خلفي، فهذه لحظةٌ من لحظات النور، هذه أنفاسٌ طاهرة تسمو بنا نحو مملكة الفرح. احمَدوا الله، وسبِّحوا وكبِّروا وهلِّلوا جميعًا.

ثم انطلق لساني، وقبله قلبي، بدعاء الختم الذي كنت أُردِّده عَقِبَ

كلِّ مجلس تحصُل فيه البركة ويَعُمُّه النور. كنت أدركُ أنَّ ساعةَ الختم قد حانت، وخيرُ شهادةٍ أتركُها هي أنَّ نَزُجَّ جميعًا بأرواحنا في حضرة النور:

«الحمد لله حمدًا دائمًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا لا انقطاعَ له ولا زوال، ولا نفاذَ لَهُ وَلا فَنَاء، كما ينبغي لكريم وجهِكَ وعِزِّ جلالِك، وكما أنتَ أهلُ الحمدِ في عظيم ربوبيَّتك وكبريائك. ولك مِنْ كلِّ تسبيحٍ وتقديس وتمجيد وتهليلٍ وتحميدٍ وتعظيم، ومن كلِّ قولٍ حَسنٍ زَاكٍ جميلٍ ترضاه، مِثْلُ ذلك.

«اللَّهمَّ صلِّ على عبدك المصطفى المنتخَبِ المختار المبارَك، سيِّدِنا ومولانا محمَّد ﷺ، وعلى أشياعِه وأتباعِه وأنصاره وإخوانه من النبيِّين.

وصلِّ اللَّهمَّ على أهل طاعتك أجمعين من أهل السموات والأرضين.

وصلِّ على جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ورِضْوان ومَالِك.

اللَّهمَّ صلِّ على الكَرُوبِيِّينَ والرُّوحانيِّين والمقَرَّبين والسيَّاحِين والحَفَظة والسفَرة والحَمَلة.

وصلِّ على ملائكتك وأهلِ السموات وأهل الأَرَضِين، وحيثُ أحاط عِلْمُك في جميع أقطارك كلِّها، صلاةً ترضاها وتُحِبُّها، وكما هُمْ لذلك كلِّه أَهْلٌ.

وأسألُكَ اللَّهمَّ بجُودك ومجدك وبَذْلِكَ وفَضلك وطَوْلِك وبِرِّك وإحسانك ومَعروفك وكَرَمِك، وبما استَقَلَّ به العرشُ من عظيم

ربوبيَّتك. أسألك يا جَوادُ، يا كريمُ، مَغْفِرَةَ كلِّ ما أحاطَ به عِلمُك من ذنوبنا، والتجاوُزَ عن كلِّ ما كان مِنّا وأَدِّ اللَّهُمَّ مَظالمنا، وقُمْ بأَوَدِنا في تَبِعَاتِنا، جُودًا منك ومجدًا، وبَذْلاً منك وطَوْلاً، وبدِّلْ قبيحَ ما كان مِنَّا حَسَنًا يا مَنْ يمحو ما يشاء ويُثَبِّت، وعندَه أُمُّ الكتاب.

هَبْ لنا اللَّهمَّ هَيْبَتَكَ وإجلالَك وتعظيمَك ومُراقَبَتَك والحياءَ منك وحُسْنَ الجِدّ، والمسارعةَ والمبادرةَ إلى كلِّ قَوْلٍ زكيّ حميدٍ ترضاه، وهَبْ لنا اللَّهمَّ ما وَهَبْتَ لِصَفْوَتِك وأوليائك وأهلِ طاعتك، ومِنْ دَائِمِ الذِّكْرِ لك، وخالِصِ العَمَلِ لوجهِك، على أكمَلِه وأدْوَمِه وأصفاهُ وأَحَبِّهِ إليك، وأَعِنّا على العمل بذلك إلى مُنتهى الآجال.

اللهُمَّ وبارِكْ لنا في **الموت** إذا نَزَلَ بنا، اجعَلْهُ يَوْمَ حِباءٍ وكرامة وزُلْفَى وسُرور واغْتِبَاطٍ، ولا تجعَلْهُ يومَ نَدَمٍ ولا يَوْمَ أَسًى. وأَوْرِدْنَا من قُبورنا على سُرور وفَرح وقُرَّةِ عَيْن، واجعَلْهَا رِياضًا من رياض جَنَّتِك، وبِقاعًا مِنْ بِقَاعِ كرامَتِكَ وَرَأْفَتِكَ وَرَحْمَتِك. لَقِّنَّا فيها الحُجَج، وآمِنّا مِنَ الروْعَات، واجعلنا آمنينَ مُطمئنِّينَ إلى يوم تَبْعَثُنَا

يا جامعَ الناس ليومٍ لا رَيْبَ فيه، لا رَيْب في ذلكَ اليوم عندَنا، آمِنَّا من رَوْعَاتِهِ وَخَلِّصْنَا مِنْ شَدَائِدِهِ وَاكْشِفْ عَنَّا عَظِيمَ كَرْبِهِ وَاسْقِنَا مِنْ ظَمَئِه، واحْشُرْنَا في زُمْرَةِ محمَّد ﷺ، المصطفى الذي انتَخَبْتَهُ واخْتَرْتَهُ وجَعَلْتَهُ الشافِعَ لأوليائِكَ، المُقدَّمِ على جميع أَصْفِيَائِكَ، الذي جعلتَ زُمْرَتَهُ آمنةً من الروْعَات.

اللَّهُمَّ وَهَبْ لنا هَيْبَتَكَ وَإِجْلالَك وتَعظيمَك، وما وَهبْتَ لِخَاصَّتِكَ من صَفْوَتِكَ مِنْ حَقِيقَةِ العِلْمِ والمعرفَة بك. مُنَّ علينا بما مَنَنْتَ به عليهم من آياتِك وكَرامَاتِك، واجْعَلْ ذلك دائمًا لنا. يا مَنْ له مَلكوتُ كُلِّ شيء، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير.

اللَّهُمَّ هَبْ لنا العافِيَةَ الكاملةَ في الأَبْشَارِ وجميع الأحوال، وفي جميع الإخوان والذرِّيَّات والقَرَابات. وعُمَّ بذلك جميعَ المؤمنين والمؤمنات. إِجْرِ علينا من أحكامِك أرضَاها لك، وأَحَبِّهَا إليك، وأَعْوَنِهَا على كلِّ مُقَرِّبٍ مِنْ قَوْلٍ وعَمَل.

يا سامِعَ الأصوات، ويا عَالمَ الخَفِيَّات، ويا جَبّارَ السَّموات، صلِّ على عَبْدِكَ المصطفى محمَّد، وعلى آلِ محمَّد أوَّلاً وأخيرًا، ظاهرًا وباطنًا، واسمَعْ واستَجِبْ، وافْعَلْ بنا ما أنتَ أَهْلُه، يا أَكْرَمَ الأكرمين، ويا أَرْحَمَ الأَرْحَمِين»

«اللَّهمَّ بموضِعِكَ في قلوب العارفين دُلَّني على رِضَاك، وأَخْرِجْ من قلبي ما لا ترضاه، وأَسْكِنْ في قلبي رِضَاك».

«يا ذَاكِرَ الذَّاكِرِين بما به ذَكَرُوه، ويا بَادِئَ العَارفين بما به عَرَفُوهُ، ويا مُوَفِّقَ العَابِدِينَ لِصَالِحِ ما عَمِلُوه، مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَكَ إِلَّا بِإِذْنِكَ؟ ومن ذا الذي يَذْكُرُكَ إِلَّا بِفَضْلِكَ؟» آمين.

* * *

رجعتُ من هذه السياحة مريضًا، فلزمت بيتي، لكنِّي لم أَتْرُكْ وِرْدي. كان الأصحاب يزورونني، ولم يَتَغَيَّرْ شيءٌ في طريقَةِ عيشِنا سوى قِلَّةِ الحركة التي لزمتني، لكنْ كان هذا بعضُ دَيْنٍ لأهلِ بيتي، حيثُ كنتُ أجلِسُ إلى زوجتي فاطمة أكلِّمُها في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة، وأَبُثُّها همُومي وشُكوكي وأفراحي وسعادتي ويقيني، فتغتَمُّ لأحزاني، وتفرحُ لسعادتي، وتنحاش ليقيني. أمَّا ابني، فكان يقوم بواجبه في تجارة الحانوت الذي خلَّفْتُه له لِيُعِيلَ أسرَتَه. أمَّا ابنتي، فقد كَبُرَتْ وزوَّجتُها لأحد أصحابي.

حالُ الخلافةِ قد أصابَهُ الوَهَن بعد عِزٍّ وصَوْلَة. كان المقتَدر ضعيفًا لا حول له ولا قوّة، تحكُمُه الجَواري ويَسُوسُه الوُزَراء والقُوّاد. أمَّا بغداد، فقد استمرَّت في طيشها، لم تكن ترهَبُ الموتَ، لأنَّها لم تُخْبِرْهُ كثيرًا، فلم يُقْتَلْ فيها من الخلفاء سوى الأمين قبل قرن من الزمان تقريبًا، ثم إنَّه قُتِل في دجلة ولم يُقتَل في وسط المدينة. أمَّا الخليفة المنصور فقد مات حاجًّا، وهارون الرشيد ماتَ في طوس.

لعلَّ من كرامة الله بنا أن جنَّبَ مدينتَنا أن تشهَد مقتلَ الخلفاء. إنَّ أَسْوَأَ شيءٍ تعرفُه الدُّولُ هي حينَ تعتادُ على قتل الخلفاء. لكنْ هل سيبقى الحالُ آمِنًا هكذا؟ لا نملِكُ الجوابَ عن هذا السؤال، فَعِلْمُ ذلك مَطْوِيٌّ في غيبِ الآتي، لكنْ ما آلَ إليه أمرُ الخلافة لا يُبَشِّرُ بخير. وحين يُقتَلُ الخلفاء في حاضرة الخلافة، فإنَّ في ذلك قتلاً للجميع. ستَضْعُفُ حُرْمَةُ الإمامة وستَضْعُفُ الدولة كلُّها، وستَشِيعُ الفتنةُ ويَنْعَدِمُ الأَمْنُ، وتتكَدَّرُ الحياة، ويكونُ مَصِيرُ الدولة إلى الزوال. هذه سُنَّةُ الله في كونه. وما حصل من انقسام الجند في هذا العهد إلى فئتين، فئةٍ مع المقتدر، وفئة مع ابن المعتزّ ـ الشاعر الذي تولّى الخلافة ثلاثة أيَّام، لا يُبَشِّرُ بالخير.

توالت الشهور حتى أحسستُ بأنَّ ساعةَ الختم قد جاءت. كنَّا في أحد أيَّام الجُمع من شهر شوال من عام ٢٩٧ هـ، وكنت أَجولُ في طِلِّسْمَاتِ﴿ألم﴾، طِلِّسْمِ الفِكْر، وطِلِّسْم الخيال، وطِلِّسْم العادات. كلُّ واحدٍ منها له حدودٌ وحقوق، لكنِّي لم أَبْرَحْ عالمَ الأنفاس، وبقدر ما فاتَ الإنسانَ نفَسٌ منها بِقَدْرِ ما فاته العِلْمُ بالطرُقِ المختلفة للمعرفة. وبقدر ما يفوتُ المرءَ من العلم بتلك الطرق بقدر ما يفوتُه الوقوفُ على غايةِ كلِّ طريق منها، وما يؤدِّي إليه. وغايةُ كلِّ طريقٍ هو الله.

دخل عليَّ الأصحابُ في بيتي أفرادًا وجماعات. كان الحزن يقطع أوصالهم، وكلُّهم باكٍ متأسِّف من حالتي، حتى حَسِبْتُ ذلك اليومَ يوم الأسف. كنت منشغلاً عنهم بأداء وِرْدي، فختمتُ القرآن، ثم ابتدأتُ من البقرة، فقرأتُ سبعينَ آية. فلمَّا أنهيتُ، طلبوا منِّي أن أُريحَ نفسي، فقد علم الله حالي وتورَّمَتْ قدماي وتقوَّس ظهري وتباطَأَتْ حركاتي، وضَمُرَ جسمي حتى التصقَ جلدي بعظامي، ولم يبق منِّي سوى عيونٌ تَشِعُّ بنور أخضر، تَنْشُرُ بِساطًا أخضر اللون على كلِّ ما يعترض بصري. كانت عيوني تفرِشُ الكونَ بالحياة من حولي، مع أنَّ الموتَ قد داهمني. أَيْنَكَ يا حلَّاج، يا من اتَّخَذْتَ «الموتَ» ذِكْرًا، ها قد أَزِفَتْ ساعتي، ولا أراك إلَّا واحدًا من أهل الكهف نائمًا في مغارة الجبل. فَلْتُفِقْ من نومك يوم مماتك. لا بدَّ أن تُشَيِّعَ جنديًّا من جُنْدِ الله إلى طريق الآخرة. كان الأصحاب يُكلِّمونني، وكنت غارقًا في سياحاتي القلبيَّة والروحيَّة، لكنِّي كنت أُجيبهم، حينما ينتابني الصحو، بأنِّي أَحْوَجُ في هذه الساعة إلى هذه القُرُبَات وقراءة القرآن، والتَّنَفُّل بالركعات. وبعد صَحْوٍ، جَمَعْتُهُم وكلَّمتُهم، وعيَّنتُ أبا محمَّد الجريريّ خليفةً لي في حلقة الدرس بالشونيزيَّة. ثم أوصيتُه بأن يتولّى أمر تغسيلي وتكفيني ودفني. وبعد ذلك، طلبتُ منه أن يتولّى إعدادَ وليمةٍ للأصحاب، لأنِّي كنتُ أعلَمُ أنَّ الاجتماعَ بعدي سيكونُ صعبًا، وربَّما استَقَلَّ كلُّ واحدٍ من الأصحابِ بجماعة بحسب التجانس. فلو صنعوا وليمة بعد الدفن، واجتمعوا على الفكر والذكر، لَتَوَاصَلَ حالُهُم بالفرح على ما هم عليه، ولما حصل لهم تشتيت. كما أوصيتُ بدفن جميعِ مؤلَّفاتي وجميعِ ما كتبتُ معي في قبري، لأنَّ عِلْمَ رسول الله مَبثوثٌ بين الناس، فما الحاجةُ إلى شُروح الهوامش، وحَواشي المُتون؟!

كانوا يبكون بدموعٍ حارَّة وعَبَرات ساخنة، ولم يجرؤوا على الحديث. كانوا يعلمون أنَّ ساعة اليقين قد حلَّت، وتذكَّروا ما كنتُ أقول لهم بأنَّ اليقينَ هو تركُ ما ترى لما لا ترى. كنَّا نرى الدنيا، فصرنا نرى الآخرة. كنَّا نرى الخلق، فصرنا نرى الحقّ. كنَّا نرى ما يُرى، فصرنا نَرى ما لا يُرى. في هذه الساعة، تلوح الحقائق ساطعة، وينتقل الناس من عالم إلى عالم.

ودَّعتُهُم واحدًا واحدًا، وطلبوا منِّي تجديدَ العهد الذي بيننا، فَزَأَرْتُ بالاسم المفرد «الله»، الذي هو الميراث النبويّ الباقي على هذه الأرض عند أهل الولاية الكبرى. سرَّحْتُ الطرْفَ ورفعتُ أصبعي، فانتهى كلّ شيء، وانبجس من بين شَفَتَيَّ نَفَسٌ أخير، فقلتُ «**الله الله**».

* * *

**أَلَمْ** تسمع عن بغدانَ أيُّها الخارج منها؟ ألم تسمع عن طائفةِ أهل الاستبصار التي ودَّعَتْ في **نَيِّفٍ وسبعينَ ألفًا** من المشَيِّعِينَ شيخَ بغدادَ كلِّها؟ لقد رحل الجنيدُ، لكنَّه أرسى قواعدَ السلوك، وعبَّد الطريقَ لمن سيأتي مِنْ بعدِه مِنْ أَهْلِ الاستبصار. لا خوفَ مِنَ الوَحْشَة، لا خوف من الظلام بعد اليوم، لا خوفَ من قُطَّاع الطرقات، فعلى رأسِ كلِّ سِكَّةٍ ومَحَجَّةٍ شاهِدٌ ودَليل، وفي كلٌّ بَرِيَّةٍ وجَبَّانَةٍ وتَدٌ قائمٌ يَسترشِدُ به المسافرون والغُرباء والسائحون. في جهات الأرض، أَجْنَادُ عَالَمِ الروح يَسْبِكُونَ نُفوس الخلائق سَبَائكَ ذَهَبٍ، بما يضربونه من مطارق المجاهدات في الفُتُوَّةِ والمعرفة والمحبَّة والرحمة والإيثار. يُرشِدون الناس إلى طرق الهداية، ويحدِّثونهم عن الأزل، عن الوجود بلا بداية. وعن الأبد، عن الوجود بلا نهاية. وعن الأمد، عن ديمومة الوجود بلا بداية ولا نهاية. فطوبى لمن كان حظُّه اللُّقْيَا بهم، ومَنْ

ظَفِرَ بِوَاحِدٍ منهم، فعليه بالمُقَام معه حتى يَطْرُقَ صَنْجَتَهُ الصدِئَةَ بِمِطْرَقَةِ المجاهدة، فيتحوَّلَ حديدُه الخَسِيسُ إلى مَعدنٍ نَفِيس. ومن لم يَظفَرْ باللُّقْيَا، فعليه بمحبَّتهم والاعتقادِ فيهم، فإنَّ من حَظِّ الولايةِ الاعتقادُ، ومن سوءِ الظَّنِّ الانتقادُ.

خرجَتْ بغداد تبكي معلِّمَهَا الجنيد من باب خراسان، وقد خَرِسَتْ الألسنة عن الكلام. تقدَّموا في محلَّة الكرخ، حتى وصلوا إلى الشونيزيَّة. هناك أُلْحِدَتْ حَبَّتُهُ السَّوداء في أرض السَّواد، لكنَّه سوادُ السيادة الذي شَعَّ بالنور عبر قرون طويلة، إنَّه سواد كعبة الحسن التي تدثَّرَتْ بسيادتها على العالمين، فلم تزل فتاةً عَرُوبَةً يطوف بها الطائفون أبدَ الآبِدين، ويُمَنُّونَ النَّفْس بلمسها والسلام عليها. فطوبى للجنيد ولطائفة أهل المعرفة والاستبصار باندراجهم في سلك أهل السيادة.

بقي الناس حول قبر الجنيد يبكون فقيدهم. لقد فقدوا قِبْلَةَ قلوبهم، ومِغناطيسَ أرواحهم، لمَّا غاب عنهم **الشاهدُ الآني**، كما كان يحبُّ أن يقولَ النوريّ، ويعني بها صاحبَ الوقت الذي هو مِرآةُ الشهود. لكنَّ القومَ تجمَّعوا من جديد، ونفَّذُوا وصيَّةَ الإمامِ وَسَيِّدِ الطائفة وبهلوانِ العارفين، وأولموا بعده وليمةً عمَّها فرح من نوعٍ آخر، إنَّه فرحُ البرازخ بين نهاية دَوْرٍ وبداية دور. تكلَّم الجريريّ، واستمع إليه الآخرون. لم يتكلَّم إلَّا بلسان الجنيد، ولم يسمعوا إلَّا جنيدًا آخر يتكلَّم، لكنَّهم مَضَوْا على حالهم. ثم أقاموا سماعًا طرِبَتْ به أرواحهم، وتواجدوا وجْدًا ربط أسرارهم بسرِّ مُعلِّمهم بلا حِجاب، فعمَّهُم فَرَحٌ عظيم. ثم تلَوْا بصوت واحد آخر آيَة من سورة «ألم، آل عمران»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

*مكتبة الرمحي أحمد*

# بيان أدبي حول
## مفهوم الكتابة بالحال

من المفاهيم التي تساعد في فهم الرواية العرفانيَّة، مفهوم «**الكتابة بالحال**»، الذي كنت قد أشرتُ إليه في بيان سابق دون توضيحه. وها أنا أعود إليه اليومَ، لِأُضيءَ بعض الجوانب النظريَّة للجماليَّة الأدبيَّة في الرواية العرفانيَّة. فما معنى الكتابة بالحال؟

هذا السؤال الجوهريّ يُلزِمنا بتعريف الحال أوَّلاً، حتى نستطيع أن نتكلّم على المفهوم المركّب.

لا يخرج معنى الحال عن دلالتين اثنتين، أُولاهُما مشتقّة من «الحلول»، أي قيام صفة أو معنى بذات. وثانيتُهما مشتقَّة من «التحوّل» والزوال. فالحال إذن «هو ما يَرِدُ على القلب ويَحُلُّ فيه من دون ثبات»، ومن شرطه الزوال، فإذا استمرَّ لأكثر من زمان لم يعد حالاً، ويدعى حينئذ «مقامًا». فالمقامات تستصحب الإنسان، والأحوال تحضر وتغيب. إنَّ «الكتابة بالحال» تعني الحالَ القائمَ بالمبدع في

لحظة من لحظات الكتابة، حين تسري من عروقه ومواجيده نسماتٌ تَتَعالَقُ حتى تتفجّر في شكل دلالات ومعانٍ لطيفة. كما تعني تلك العبارةُ، الكتابةَ عن أحوالِ من تكتب عنهم. وهذه أصعبُ من سابقتها، لأنَّ شرطها مَنُوطٌ باتّحادِ الأحوال والمواجيد بين الذوات المفارقة. وهذا الشرط يفترض اتّحادَ الذوات، أو على الأقلّ اتّحادَ المواجيد. ثم هناك معنى ثالث لهذا المفهوم، وهو أحوالُ الكتابةِ ذاتِها، أي كيف يَنْقُل المبدعُ سرَّ الكتابة حين تَشكُّلِها من حالٍ لآخر. فاللغة كائن حيّ يعيش كما نعيش، وهو مُحَايِثٌ ومُفارِقٌ في الآن نفسه. إنَّ هذه الطبيعة المزدوجة للغة في كونها قائمةً بذات مستقلَّة بوجود، تجعل من العسيرِ التمييزَ بين ما لها بالأصالةِ من الأحوال، وما للناطقِ بها أو الرّاقِم لحروفها وكلماتها من أحوال. فـ «أحوالُ الكتابة» أَصْعَبُ من سابِقَيْه، لأنَّه معنى معلَّقٌ على غَيْرِ ذات، بل هو مُرتَبِطٌ بِسِرِّ الكتابة وتاريخها. فالكتابةُ مُسْتَقِلَّةٌ عنكَ تمامًا، ومرتبطة بكَ في الوقت ذاته، ارتباطًا عُضويًا، فكيفَ نميِّزُ الأحوالَ الخاصَّة بها؟ هل هي أحوالٌ لها أو أحوالٌ لك؟ أو أحوالٌ لمن كتبوا قبلك، أو أحوالٌ استشرافيَّة لمن سيكتبون بعدك؟ أو هي أحوال مرتبطةٌ بطبيعة اللغة ذاتها التي تكتب بها، أو باللسان عامَّة؟

ما يطرحه هذا المفهوم «الكتابة بالحال» هو أنَّه مرتبط بمفهوم، تحدّثنا عنه سابقًا، هو مفهوم «الشهادة بالحضور». فالكتابة بالحال شهادة بالحضور، ولها تعلُّق بالآن الدائم، وبالحاضر المستمرّ، والحال القائم. ففي لحظة الكتابة، تتفجّرُ الأحوالُ على الورق وتَسِيح كالماء، سواء كانت أحوالَ المبدع، أو أحوالَ شخوصه وأبطاله، أو أحوالَ الكتابة ذاتها، أو اللغة التي يكتب بها، عربيَّة كانت أو غير ذلك، بل

وحتى أحوالَ القارئ المتوقَّع. والنقدُ المتميِّز والمُبْهِر هو الذي يمتلِكُ القدرةَ على تَتَبُّع مُجْمَلِ هذه الأحوال، وبيانِ منشَئها وتنوُّعِها في الكتابة الأدبيَّة المبدِعَة. ومتى وقف على ذلك، أمكنَهُ أن يُدركَ هويَّة الإبداع. فما هو الحَالُّ (بتشديد اللام) في المبدِع والإبداع حين كتابة الرواية العرفانيَّة؟ إنَّه بلا شكّ طاقةٌ روحيَّة ونورانيَّة تَعْمَدُ إلى الكثافة التي نسجَها السرد لِتَبُثَّ فيها، في لحظةٍ من لحظات الاستِضمار، قوَّةً إشعاعيَّة لطيفة تُجْلِي كوامِنَها، وتطلبُ لها مَحَلًّا للظهور. الحال معنى لطيف يَحُلُّ بالذات الساردة، ثم ينتقل عبر سلسلة الإسناد من السارد إلى شخوص السرد، فَيَحُلُّ عليها أوَّلاً بصفة المعنى الحَالِّ، ثم إذا تمكَّن ذلك المعنى في حُلولِيَّتِهِ، صارَ إذْ ذاك حَالاً لها، ولم يَعُدْ حالاً لغيرها. فالمعنى الحَالُّ يتحوَّلُ أبدًا لِيَصِير حَالاً وإذا توفَّقَ المبدع في نقل أحواله إلى شخوصه، وأجرى فيها الحياةَ، أمكننا أن نتحدَّث حينئذ عن «الكتابة بالحال». بل إنَّ هذا النقل يستمرّ حتى «يَكْتُبَ» صاحبُ الحال «أحوالَه» في ذات القارئ. حينئذ، يُلزِمُنا هذا المفهوم الجديد في السرد العرفاني أن نستدعي بالضرورة مفهومًا متناظرًا معه، ومقابلاً له، نُسمِّيه **«القراءة بالحال»**. فلا كتابةَ بالحال دون قراءةٍ بالحال، وإلَّا ضاع الاتِّفاقُ المسكوتُ عنه بين المبدِع والقارئ.

وقد نستشكِل هنا مسألةً أخرى مرتبطةً بهذين المفهومين، وهي أنَّ الحَالَ لا يستمِرُّ زَمانين كما ذكرنا سابقًا وبناء عليه، فلنفترض أنَّ حَالاً ظهر في التخييل العرفاني عند الكاتب أو السارد أو أيّ شخص من شخوص الرواية في زمن الكتابة (ز ١,)، فكيف نُوقِعُ هذا الحال الأوَّل في زمنٍ ثانٍ (ز ٢,) لحظةَ القراءة؟ وبعبارة أخرى، إذا كان التخييل العرفاني قد أوجد حالاً من الأحوال في شخصيَّة من

شخصيَّات الرواية، فهل ينقطع ذلك الحال بمجرَّد صدوره عن صاحبه أثناء السرد، أم أنَّه يستمرّ مع القارئ وينتقل إليه، وبالتالي فهو يستمرُّ أكثرَ مِنْ زمنٍ واحد؟ وحيث قلنا بأنَّ الأحوال لا تستمرّ زمانين، فكيف نوفِّقُ بين هذه المقتضيات المتناقضة؟ الجواب عن ذلك يكون على مستويين: أوَّلهما، أنَّ المبدع أو السارد «يكتب أحواله» أو أحوال شخوصه في قارئ مُتوقَّع. ولا شكَّ أنَّ تلك الكتابةَ بالحال تبقى مُضمَرة بالإمكان، حتى تحقِّقها بالفعلِ «القراءةُ بالحال». وثانيهما، يكمن في أنَّ «القراءة بالحال» ينبغي أن تُفهَم على أساس أنَّها إعادةُ بناءٍ للأحوال، وتَبْئِير لها في لحظةِ نشأتها. فالحال في «الكتابة بالحال» يبقى ضَامِرًا، لكنَّه يصبح ظاهرًا أثناء تحقُّق «القراءة بالحال». وليسَتْ لحظةُ نشأَة الأحوال شيئًا آخر غير نشأَتِها في ذاتِ مُتَلَقِّيها. وحيث إنَّ الأمر مرتبط بمفهوم الحضور الذي أكّدنا عليه غير مَا مَرَّة، فإنَّ الإشكال يزول، لأنَّ القراءة بالحال تعني إعادةَ بناءِ خريطة الأحوال في التخييل العرفاني وتبئيرها في ذات القارئ دون اعتبار للمسافة الزمنيَّة الفاصلة بين السارد أو الكاتب والقارئ، فكما أنَّ مفهوم الحضور يمكِّن من تقليص الهوَّة الزمنيَّة في نشأة الأحداث في السرد العرفاني، فإنَّه كذلك يقلِّص الهوَّة الزمنيَّة في تقابل الأحوال في بنية السرد بين السارد أو الشخصيَّات، وبين القارئ. وإذا لم يتمكَّن القارئ من إيقاد مختلف الأحوال الضامرة في ذاته، فإنَّ ذلك يعني أنَّه أَخْمَدَ شُحْنَةً طاقِيَةً هي التي تُعطي معنًى لمفهوم الحضور، والشهادة عليه. وحينئذ، تكون القراءة دون أحوال بمثابة قراءة خارجيَّة غير متفاعلة، وغير حاضرة. إنَّها قراءة حُدود، وليست قراءة شُهود. وينعكس أثرها على مفهوم الزمن الذي يصبح زمنًا طبيعيًّا لا زمنًا عرفانيًّا. وعلاقة بهذا،

فإنَّ ميزة مفهوميْ «الكتابة بالحال»، و«القراءة بالحال» تمكِّن من بناء بُؤْرَةٍ زمنيَّة سائلة تنتقِش فيها الأحوالُ، وتتقابلُ، بحسب استعداد كلِّ قارئ للتوَحُّدِ مع تلك الأحوال. ويمكننا أن نقتربَ من فهم هذه المفاهيم الجديدة على النقد الأدبيّ، من خلال مفهومٍ تكلَّم عليه اليونانُ القدماء، بخصوصِ هذه البؤرة الزمنيَّة السائلة التي سمَّوها «كايروس kairos» (باسم كائن انتهازي يستغلّ زمن الفرصة المناسبة).

إنّ الشهادة بالحضور تعميقٌ لهذه البؤرة الزمنيَّة، وتوسيعٌ لها في حاضر التخييل العرفانيّ، سواءٌ من حيث إنتاجِه أو تلقِّيه (أي إعادة بنائه). هذه البؤرةُ تُوَسِّعُ الزمنَ، ليس من حيث كونُه زمنًا مَقيسًا بالدقائق والساعات، ولكن من حيث إنَّ الأحداث تُصبِحُ مَشهودةً، أي مُعاشةً، بالقياس إلى أحوال الإنسان تجاه تلك الأحداث، فيمنَحُها كمّيَّة الزمن الذاتي الذي تستحِقُّه، لا الزمنَ الخَطِّي الخارجي. ويمكن أن نصطلح على تسمية هذه البؤرة بـ **«الزمن العرفاني»**. وهنا تكمُن مهمَّة الناقد الأدبيّ العميق الذي يُعيد بناء خارطة الأحوال المختلفة، سواء في لحظة الكتابة التخييليَّة العرفانيَّة، أو لحظة القراءة اللاحقة لها، أو عند تقابلهما، وإعادة تبئير الأحداث كما تَمَّتْ صياغتُها في السرد العرفاني من خلال الأحوال المشهودة بها في الكتابة أو عند القراءة، لا بالقياس إلى الزمن الخطِّيّ المعتاد. وتبدو هذه المهمَّة معقّدة نوعًا ما، إلَّا بالنسبة للناقد أو القارئ الذي يعرف إيقاعات النفس البشريَّة وتلوُّناتها وأوَّل تلك النفوس، نفسُه التي يعرض عليها تلك الأحوال ويقابلها بها عند تلقِّيه لها، فيصبح الناقدُ ذاتُه موضوعًا لما يريد أن يبحثَ فيه، فيزيدُ معرفةً بنفسه، وتنكشفُ له حقيقةُ ذاتِه وأحوالِه، بالنظر إلى كلِّ الأحوال المذكورة لغيره، فيصبح عارفًا.

وعلاقةً بمفهوم الكتابة بالحال أو بالأحوال، أُحِبُّ أن أربطَ هذا الموضوع بمفهومين آخرين قريبين من مفهومي الإمكان والاحتمال، اللذين طرحتُهما في بيان رواية «ياسين قلب الخلافة»؛ وأقصد بذلك، مفهوميْ **المُبَاح والمُتَاح**. فما هو المباح في «الكتابة بالحال» في التخييل العرفاني؟ وهل كلُّ مباح من هذه «الكتابة بالحال» مُتاحٌ في زمن «القراءة بالحال»؟ إنَّ العلاقة بين المباح والمتاح علاقةُ عُمومٍ وخُصوصٍ، فالمباحُ دائرةٌ أوسعُ من دائرة المتاح، لأنَّ الأصلَ في الأشياءِ الإباحَة. لكنَّ كلًّا منهما مرتبط بالآخر، فالمتاحُ دائرة صغرى ضمن دائرة المباح الكبرى. فهناك أحوال للكتابة مباحة من حيث هي، لكنَّها قد تصبح غير متاحةٍ في زمن القراءة بالحال.

وبناءً عليه، فقد يكون الحالُ مُباحًا لكنَّه غيرُ متاح؛ وبالعكس، فقد يكون الحالُ متاحًا لكنَّه غيرُ مُباحٍ؛ وقد يكون لا مُباحًا ولا مُتاحًا؛ وقد يكون مُباحًا ومُتاحًا في الآن نفسه. فهذه أربع صور عقليَّة لهذه القِسمة الثنائيَّة.

وسأُمَثِّلُ لصورة «الحالِ المباح غيرِ المتاح» بمثال يُوَضِّحُ المقصودَ، حتى أُغْنِي النقاشَ حول هذه المفاهيم الجديدة على الدرْسِ النقديّ في الرواية العرفانيَّة.

سُئل الجنيد بطلُ هذه الرواية عن معنى قول النبي ﷺ «إنّه لَيُغَانُ على قلبي حتى أستغفرَ الله في اليوم مائةَ مرَّة»، فقال الجنيد «لولا أنَّه **حالُ** النبي ﷺ لتكلَّمتُ فيه، ولا يَتكلَّم على حالٍ إلَّا من كان مُشرفًا عليها وجلَّتْ حالُهُ أن يُشرفَ على نهايتها أحدٌ من الخَلْق».

طبيعة بعض الأحوال النبويَّة مباحة، لأنّ الأصلَ في الأشياء

الإباحةُ كما قلنا، ولا تحجير على أحوال الناس، إذ هي تحصل في القلوب من دون تَعَمُّدٍ ولا قَصْد، لكنَّ تلك الأحوال، والحديثَ عنها، غيرُ متاحٍ لعدَم الذوْقِ في مقام النبوَّة لغير النبيّ. فالغَيْنُ المذكور في الحديث غَيْنُ أَنوارٍ لا غَيْنَ أَغْيَار، بينما هو على خلاف ذلك في حقِّ غيره. وعلى هذا يُقاس القولُ في الحديث عن باقي الصوَر من الأحوال والأمثلة المناسبة لها من هذا العمل، أو من غيره.

## لون الماء لون إنائه:

«أنتَ حرفٌ جاءَ لمعنى» عبارةٌ ردّدتها كثيرًا في ما سبق من بيانات. فهي تُشعِر بأنَّ الإنسانَ مركّب من حرف ومعنى. لكنْ ما هو وَجْهُ الحرفِ في الإنسان؟ وما هو وَجهُ المعنى فيه؟

الحرفُ هو ذاتُه، والمعنى هو روحُه. ولكلٍّ منهما حقوق وحدود. والحقوق منها ما هو لها، ومنها ما هو عليها وكذلك الحدود منها ما هو حدود لها، ومنها ما هو حدود عليها ولا شكَّ أنَّ السعادة هي في الجمع بين الحرفيَّة والمعنويَّة في الإنسان. وهو يقابل بالحرف في ذاته الحرفَ في غيره. كما أنَّه يقابل بالمعنى في ذاته المعنى في غيره. فلا تُعْقَلُ ذاتٌ دون معنى، أي دون روح أو صفات، ولا يُتَعَقَّلُ وصفٌ أو روح دون نسبته إلى موصوف أو ذات. وإذا كان هذا في الموجود، فلأنَّه صورة عن الواجد، لكنْ مع فارق كبير هو أنَّ الموجودَ فيه التركيب، بينما الواجدُ الموجِدُ لا تركيبَ فيه. لكنَّنا نعبد الحقَّ من حيثُ الذات ومن حيث الصفات، ولا بدَّ من ذلك، إذ لا تَتَعَقَّلُ ذواتُنا العبادةَ من دون هذه المراتب. والموحِّدُ الحقيقيّ هو الذي يعرف بين ما للذات من

حقوق وحدود، وما للصفات من حقوق وحدود. فلا قيام للصفة من دون موصوف. فالذات هي «الله»، والصفة هي «الألوهيَّة». والحدود التي تحدَّثْنَا عنها هي للطالبِ، لا للمَطلوب أو المَطالب، إذ دون ذلك بلادٌ لا حدَّ لها ولا رسم فيها، إنَّها بلادُ الذات العَلِيَّة.

والجنيد أحد أئمَّة الموحِّدين الجامعين بين ما للذات وما للصفات من حقوق وحدود. ولقد لخَّصَ مذهبَه حين سُئِل عن المعرفة، فقال «لونُ الماء لون إنائه»، للدلالة على توحُّد العارف والمعروف والمعرفة.

## لماذا الجنيد اليوم؟

بعد رواية «طوق سرّ المحبَّة» مع ابن حزم التي طرحتُ فيها قضيَّة **المحبَّة**، أطرح في هذا العمل الجديد قضيَّةَ **المعرفة** في علاقتها بالتوحيد الذي هو أسمى معرفة يمكن أن يبلغها الإنسان. وقد كان الجنيدُ البغدادي أوّلَ قامة روحيَّة وفكريَّة تكلَّمَتْ على المعرفة بلسان التوحيد، حتى لُقِّب بِ **«تاج العارفين»**. وبغدادُ في زمن الجنيد حاضرةُ العالَم التي عرفَتْ تأسيس العلوم والمعارف المختلفة، التي ما زلنا نتداولها اليوم، ونؤسِّس عليها هويَّتنا وأسئلتنا الثقافيَّة، ونستأنفُ منها طرائقَ تفكيرنا إنَّها حاضرةُ بيتِ الحكمة التي أَمَّهَا أصحابُ كلِّ المذاهب الفكريَّة والدينيَّة. هي باختصار مركزُ العالم في وقتِها، والجنيد أحدُ مراجعها الكبرى بلا مُنازع. إنَّه الحَلقة الكبرى التي تَمُرُّ منها كلُّ الأسانيد الروحيَّة التي تأسَّسَتْ فيما بعد، إلى يومنا هذا كما أنَّ العرفان، باعتباره البعد الروحيّ في حضارة الإسلام، مُكوِّنٌ رئيسٌ

من مكوِّنات هذه الحضارة، فكان من الضروريّ تخصيصُ هذا العمل لقامةٍ روحيَّة مؤسِّسة مثل الجنيد. وممّا نستخلصه من أقوال الجنيد في ترجمة مَذْهَبِه أنَّ **جوهرَ الإنسانِ التوحيدُ**. فبقدر ما يزداد المرء في التوحيد بقدر ما يزدادُ في إنسانيَّته ويكتمل، وبقدر ما يبتعِدُ المرءُ عن التوحيد، ويَنْغَمِسُ في الكثرة، بقدر ما يَنْقُصُ من إنسانيَّته. ولا شكَّ أنَّ أكثرَ ما يُهدِّدُ الإنسانَ منذ أن كان، هو انحِطاطُه عن قدر التوحيد وانغماسُه في الكثرة. فباسم الكثرة يسرِق ويكذِب ويقتل ويُشِيعُ كُلَّ الشرور، وبقدر تَوحُّدِه مع جميع المخلوقات بقدر ما يشعر بالتوازن النفسي، وتَشِعُّ منه الرحمة والمعرفة والمحبَّة. ولهذا السبب، نفهم لماذا كان مذهبُ الجنيد ضمنَ الاختيارات المرجعيَّة الكبرى للحضارة الإسلاميَّة في مجال التزكية والسلوك والأخلاق، كما كان مذهبُ الإمام الأشعري ضمنَ اختيارات علماء التوحيد أو الكلام، وكانت مذاهب أئمَّة الفقهاء ضمنَ اختيارات التديُّن في العبادات عند المسلمين، كما يؤكِّد ذلك مثلاً عبد الواحد بن عاشر الأندلسيّ المغربيّ في منظومته الشهيرة «المرشد المعين»:

فـي عَـقْـدِ الأَشْـعَـرِي وفِـقْـهِ مـالِـك    وفـي طـريـقـةِ الـجُـنَـيْـدِ الـسّـالِـك

إنَّ التشَتُّتَ الحاصلَ اليومَ في العالم الإسلامي مَردُّه إلى عدم إدراك الأركان التي تُؤَسِّسُ بيتَ الدين، وعدمِ العلم بمقتضاها، بحيث يزعم البعضُ استقلالَ كلّ ركن من تلك الأركان، إلى درجة يصبح فيها هو كلّ الدين، ويتمّ إقصاء الباقي. أمَّا حقيقة الدين، فإنَّها تقوم على ثلاثة أشياء: **المعرفة والمحبَّة والتزكية**. فالمعرفة تحقّق، والمحبَّة تعلُّق، والتزكية تخلُّق. أو لنقل، إنَّ الدين خطاب للجوارح والبدن (إسلام/ عبادات)، وخطاب للقلب والعقل (إيمان/ عقائد)، وخطاب

للنفس والروح (إحسان/أخلاق). ومتى ما نقص التديُّن عن القيام بهذه الأركان مجتمعة، أَخَلَّ بشرطِ التوحيد وأصْلِه، وسقطَ في الكثرة الجالبة للجهل والعنف.

## بين التاريخانيَّة واللاتاريخانيَّة:

إنَّنا نلاحظُ اليومَ، باسم هذه الكثرة، تَهَاوِي المراكز والحواضر الكبرى التي صَنَعَتْ حضارة الإسلام، وبغداد واحدة منها لقد انطلقَتْ هذه الرواية من بغداد مع النقاش حول قضيَّة تحطيم الصور والأيقونات *iconoclasm* التي استمرَّت لأكثر من قرن في الأمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وريثةِ حضارة اليونان المشرقة. وها نحن اليوم نتبادل الأدوار، فتظهرُ في مركز الحضارة الإسلاميَّة المؤتَمَنَةِ على تراث الأديان والحضارات السابقة، البُنى الفكريَّة المتخَلِّفة، لِتُخرّبَ تراثَنا الحضاري وتحرقَ ذاكرتَنا الحضاريَّة، وتَقْتُلَ إنسانيَّتنا نفسها إنَّها البُنى التي تبنّتها بيزنطة المسيحيَّة آنذاك ضدّ تراثها اليوناني القديم نفسه. وقد أدَّتْ ثمنًا فَادِحًا جرّاءَ ذلك التنَطُّع، إذ دخلَتْ تلك الحضارةُ في طور الجُمود والتخلُّف لأكثر من ألف سنة. وحيث إنّنا لا نُريدُ أن نكرِّرَ أخطاء الآخرين نفسها، فنحن نُقَدِّمُ شهادةَ تنبيه على هذه الانحرافات.

كما أنَّ من بين القضايا الكبيرة التي يطرحها هذا العمل ما عُرف في التاريخ الإسلامي زمنَ العبَّاسين بـ «محنة خلق القرآن»، التي أرغمَتْ بموجبها السلطةُ السياسيَّة المتحالفة مع المعتزلة، الناس على اعتقاد هذه العقيدة، واضطهَدَت المخالفين لها قد يقول قائلٌ بأنَّ هذا موضوع قد انتهى في عصرنا، وأنَّ جميعَ المسلمين لا يختلفون في أنَّ

القرآن كلام الله الأزليّ، وأنَّ الكلامَ الإلٰهيّ صفةٌ من صفات المعاني القائمة بالذات الإلٰهيَّة. لكنِّي، أحبُّ أن أُبيِّنَ بأنَّ هذا النقاش ما زالَ مستَمِرًّا في صُوَر مختلفة وبلغة جديدة. إنَّ مفهوم «تاريخانيَّة النصّ القرآني» الذي ظهر مع الاستشراق، ثم انتقل إلى بعض الكتابات المعاصرة المشتغلة على التراث، هو تَحْيِينٌ مَفاهيميّ لعقيدة المعتزلة نفسها القائلة بخلق القرآن. فالقول بتاريخانيَّة النصّ القرآني معناه أنَّه نصٌّ مخلوق، نشأ في زمان مُعَيَّن ومكان مُعَيَّن، وهو في المحصِّلة الأخيرة، بحسب التاريخانيين، مُنْتَجٌ ثقافيّ خاضعٌ لجملةٍ من القوانين التي بمقتضاها يمكننا دراسَتُه وتفسيرُه كظاهرة تاريخيَّة، دون اعتبارٍ لحقيقةِ الإيمان والخَلْق واليوم الآخِر والمَعَاد والحِساب والجَزاء التي هي أمور غيبيَّة أي لا تاريخانيَّة. وينبني على القول بتاريخانيَّة القرآن نتائج كثيرة، تتعلَّق بالإيمان والغيب وبجملة الأحكام الشرعيَّة، وهو ما يفسِّرُ النقاشَ المحمومَ حول جُمْلَة من القضايا المجتمعيَّة المتعلِّقَة بها

وقد أحببتُ أن أشير إلى هذا الموضوع في هذا البيان، وأربطَ عقيدة خَلْقِ القرآن، كما عاشها المسلمون في القرن الثالث الهجري، مع القراءات المعاصرة للنصّ القرآني وِفْقَ رؤية تاريخيَّة، حتى نَفْهَمَ أصولَ القضايا الفكريَّة ونُقارِنَ بينها عبر القرون، ونُدرِكَ السياقَ الذي تقتَحِمُ فيه الرواية العرفانيَّة مثل هذه القضايا الحضاريَّة الشائكة، ولكي نفهمَ أيضًا التاريخ الفكري والسياسيّ، ونستفيدَ منه في حاضرنا ومستقبلنا

إنَّها قضايا في غاية الأهمِّيَّة، وإنَّ الرواية من حيث إنَّها جنسُ الأجناس الأدبيَّة، لها هذه القدرة على فتح نقاش مُتجدِّد في ضوء التجربة الإنسانيَّة الممتدَّة عبر القرون. إنَّ استئنافَ النقاش عبر الرواية في مثل هذه القضايا كفيلٌ بفهم السياقات المختلفة للذات الحضاريَّة في

علاقتها بالآخَر، والخروج من الاتّهامات العقيمة بين أنصار هذا الفريق أو ذاك.

ومن جهة ثانية، إنّ هذه الرواية حول بغداد في عهد الجنيد، بعد مرور ما يزيد على أحد عشر قرنًا (١١) على وفاته، شهادةٌ حضاريَّة أخرى تضَع الأمر في سياقاته المتعدِّدة لاستيعاب دروس التاريخ، وتَعلُّم طرائق التفكير السليم في المآلات، وكيفيَّة التعَامُل التنويري الصحيح مع الظلاميين الجُدُد، سواءٌ أَتَوْا من الشرق أو من الغَرْب.

**د. عبد الإله بن عرفة**

**الرباط، المغرب**

*للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك*

*مكتبة الرمحي أحمد ٧١*

**@ktabpdf** تيليجرام

# حِسابُ الجُمَّل الكبير

| الترتيب النَّفَسي | | الترتيب المشرقي | | الترتيب المغربي | |
|---|---|---|---|---|---|
| ء | 1 | ا | 1 | ا | 1 |
| هـ | 2 | ب | 2 | ب | 2 |
| ع | 3 | ج | 3 | ج | 3 |
| ح | 4 | د | 4 | د | 4 |
| غ | 5 | هـ | 5 | هـ | 5 |
| خ | 6 | و | 6 | و | 6 |
| ق | 7 | ز | 7 | ز | 7 |
| ك | 8 | ح | 8 | ح | 8 |
| ج | 9 | ط | 9 | ط | 9 |
| ش | 10 | ي | 10 | ي | 10 |
| ي | 11 | ك | 20 | ك | 20 |

| | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| ض | 12 | ل | 30 | ل | 30 |
| ل | 13 | م | 40 | م | 40 |
| ن | 14 | ن | 50 | ن | 50 |
| ر | 15 | س | 60 | ص | 60 |
| ط | 16 | ع | 70 | ع | 70 |
| د | 17 | ف | 80 | ف | 80 |
| ت | 18 | ص | 90 | ض | 90 |
| ز | 19 | ق | 100 | ق | 100 |
| س | 20 | ر | 200 | ر | 200 |
| ص | 21 | ش | 300 | س | 300 |
| ظ | 22 | ت | 400 | ت | 400 |
| ث | 23 | ث | 500 | ث | 500 |
| ذ | 24 | خ | 600 | خ | 600 |
| ف | 25 | ذ | 700 | ذ | 700 |
| ب | 26 | ض | 800 | ظ | 800 |
| م | 27 | ظ | 900 | غ | 900 |
| و | 28 | غ | 1000 | ش | 1000 |

**ملحوظة**: فاتحة ﴿ألم﴾ هي من أنسب الفواتح النورانيَّة مع الجنيد. فعلى سبيل المثال، فإنَّ عدد «ألم» ٧١، ولهذا العدد علاقة بكلمة «**جنيد**» وعددها ٦٧، فنضيف لها ٤، التي هي مجموع الأحرف المكوَّنة لاسم (ج، ن، ي، د)، فيصبح المجموع ٧١.

# إصدارات للكاتب

ـ رواية **الجنيد: أَلَم المعرفة**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٦.

ـ رواية **طوق سر المحبَّة**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٥.

ـ رواية **ياسين قلب الخلافة**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.

ـ رواية **جبل قاف حول سيرة ابن العربي الحاتمي**، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.

ـ رواية **ابن الخطيب في روضة طٰه**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٢.

ـ رواية **طواسين الغزالي**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١١.

ـ رواية **الحواميم**، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، ٢٠١٠.

ـ رواية **بلاد صاد**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.

ـ رواية **بحر نون**، دار الأمان، الرباط، المغرب، ٢٠٠٧.

ـ رواية **جبل قاف**، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢.

* * *

ـ **جماليَّات السرد في الرواية العرفانيَّة**، دار الآداب، بيروت، لبنان، ٢٠١٤.

ـ **لماذا نفرح بالمصطفى**، رابطة مجمّع الصلاح، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠١٣.

ـ **الرواية العرفانيَّة في تجربة عبد الإلٰه بن عرفة**، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.

ـ **السماع الصوفي**، الرابطة المحمَّديَّة للعلماء، الرباط، المغرب، ٢٠١٢.

ـ دراسة وتحقيق لكتاب: **الشهاب موعظة لأولي الألباب** لابن سيدبونة الخزاعي الأندلسي (٥٢٤ ـ ٦٢٤ هـ) مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٥.

ـ كتاب حول **علم الدلالة ونشأة المفاهيم في اللغات**، (بالفرنسيَّة)، دار المنشورات الجامعيَّة، ليل، فرنسا، ١٩٩٧.

* * *

**Mount Qâf**, *A Biographical Novel on The Andalusian Mystic Muhyiddin Ibn Al Arabi*, Strategic Book Publishing and Rights Co. USA, Singapore, 2015.

**Tawaseen Al Ghazali, Les mystères inédits** (roman), Editions Sagesse d'Orient, Paris, France, 2016.

# فهرس المحتويات


إهداء ٥

كتاب الألف ١١

كتاب اللام ١١٩

كتاب الميم ٢٠٧

بيان أدبي حول الأدبيَّة في الرواية العرفانيَّة ٣٣٣

حِسابُ الجُمَّل الكبير ٣٤٥

إصدارات للكاتب ٣٤٧

فهرس المحتويات ٣٤٩


مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

يسافر بنا الكاتب في هذه الرواية، ضمن سلسلة موسوعته الروائيَّة التاريخيَّة العرفانيَّة في سِفْر روحيّ جديد، إلى بغداد طوال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي مع الجنيد البغدادي وطائفةِ أهل الاستبصار، فنعايش قيام حضارة عربيَّة إسلاميَّة زاهية على أنقاض حضارتين آفِلَتَيْن: حضارة فارس، وحضارة بيزنطة. ونلامس عن قربٍ تأسيسَ العلوم اللغويَّة، والمذاهب الفقهيَّة والكلاميَّة والفلسفيَّة. كما نتابع بشغفٍ محاكمةَ ابن حنبل في محنة خلق القرآن، ومحاكمةَ سمنون المحبّ وأصحابه في قضيَّة العشق الإلهيّ، ونتبيّن ملابساتِ السياق الذي أدَّى فيما بعدُ إلى محاكمة الحلَّاج وصلبه ثم قتله. نتابعُ بطلَ الرواية في جميع مراحل حياته، وهو يُؤَسِّسُ لمرجعيَّةٍ عرفانيَّة وحضاريَّة قوامُها الحُبُّ والمعرفة والإيثار، في عالمٍ تحكُمُه تيّاراتٌ فكريَّةٌ متباينَة، ومؤامراتٌ سياسيَّةٌ مختلفة...

د. عبد الإله بن عرفة روائي وشاعر وباحث وبروفيسور فلسفة إسلاميّة. يعمل حاليًّا خبيرًا دوليًّا في مجال التراث والتنوّع الثقافي وحوار الحضارات. صدرت له عن دار الآداب روايات: بلاد صاد وطواسين الغزالي وابن الخطيب في روضة طه، وياسين قلب الخلافة، وطوق سرّ المحبّة.

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥

ISBN: 978-9953-89-526-0

9789953895260

تصميم الغلاف: نجاح طاهر